التداولية العصبية



بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى زوجتي

رفيقة عمري .. وشريكة حياتي

أم أولادي : سارة . محمد

وأحفادي: عمر ، عمرو ، عبد الرحمن

عطية

في اللسانيات العصبية ....

التداولية العصبية

(التداولية التى لم نعرفها)

الأستاذ الدكتور

عطية سليمان أحمد

أستاذ العلوم اللغوية

آداب السويس

٢٠٢٠م



الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعى

الكتاب : في اللسانيات العصبية .. التداولية العصبية
(التداولية التي لم نعرفها)
المؤلف : الأستاذ الدكتور / عطية سليمان أحمد

رقم الطبعة : الأولى
تاريخ الإصدار : ٢٠٢٠ م

الناشر : الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعى
العنوان : ٨٢ شارع وادى النيل المهندسين ، القاهرة ، مصر
تلفاكس : ٥٦١ ٣٣٠٣٤ (٠٠٢٠٢) ٠١٢٢/١٧٣٤٥٩٣
البريد الإليكترونى: m.academyfub@yahoo.com

رقم الإيداع : ٣٣٥٤ / ٢٠٢٠
الترقيم الدولي : 978-977-831-020-7

المقدمة

كنَّا نظن التداولية نظرية فلسفية لغوية فحسب، تحمل آراء الفلاسفة وأقوالهم حول الخطاب وكيفية الحوار والتواصل، لم نفكر قط أن يكون لها علاقة بالجانب العصبي، حتى رأينا كتابين أثارا فضولنا حول النظرية التداولية كنظرية لها علاقة بالجانب العصبي، حيث تناول الكتابان الجانب العصبي في هذه النظرية، وكان الكتابان هما: (العقل واللغة والمجتمع) لجون سيرل، الذي عرض فيه للقصدية والهدف منها، ودور المخ في معالجتها بصورة تفصيلية؛ متبحراً في الجانب العصبي، والكتاب الثاني (اللغة والدماغ) للورين أوبلر وكريس جيرلو، الذي يبدو من عنوانه أنه كتاب يتناول قضايا تخص الدماغ واللغة، وما بينهما من علاقة تكاملية. وقد عرض المؤلفان فيه حالات إصابة النصف الأيمن من المخ، وأثرها على إدراك المريض للعناصر التداولية في كلامه وفي تفاعله مع الآخرين، وفي حديثه بشكل عام، مما أوضح مدى العلاقة بين الإصابة المخية في النصف الأيمن من المخ وفهم الكلام والسلوك التفاعلي مع الآخرين، وإنتاج الكلام بصورة لائقة تناسب مقام القول.

هنا أدركنا أننا لم نعرف التداولية من قبل، فالتداولية بنية عصبية في حقيقتها، وليست كما كنَّا نظن (قضية فلسفية لغوية)، ولا أبالغ إذا قلتُ: إن التداولية عضو جسدي، مثله مثل اليدين والعينين. ففي المخ جزء مسؤول عن التواصل مع الآخرين، هو النصف الأيمن من المخ وقد سُمِّيتْ وظيفة هذا الجزء (**الوظيفة التداولية العصبية**).

ويكاد النصف الأيمن من المخ أن يكون مختصًّا بالتواصل، وما يتعلق به من أمور. وأقول: (يكاد) لأنه يقوم بوظائف أخرى، ونتيجة أنه جزء جسدي، فمن الطبيعي أن يمرض، فإذا أُصيب بآفة ما؛ فإن عملية التواصل تتأثر بهذه الإصابة، وتظهر على المصاب مشكلات تواصلية؛ لهذا نقول على المريض:

إنه مريض تداولي؛ لهذا درستْ النظرية التداولية العلاقة بين عملية التداول/ التواصل والجهاز العصبي.

هذا ما جعلنا نفرد دراسة مستقلة لهذه العلاقة، نوضح فيها مفهوم هذه العلاقة كما تحدث في الواقع، وبيان عمل النصف الأيمن من المخ، وإشرافه عليها وإتمامها، وأثر إصابته على تواصلنا وكلامنا معًا.

١- التداولية العصبية:

مصطلح أوجدناه؛ إنه من إبداعنا، لهذا نتحمل مسؤولية خطئه وصوابه، ونقصد به دراسة التداولية من منظور عصبي، وفي ضوء معطيات علم الأعصاب وإنجازاته الجديدة التي تهدف إلى تبصيرنا بالعالم الذي نعيشه ونحسه، لكننا لم ننتبه إلى ما يحدث داخل أدمغتنا نتيجة عمل هذا الجزء من المخ (النصف الأيمن)، على الرغم من أننا نلمس آثار عمله في كل شؤون حياتنا اليومية؛ لهذا لم نضع له قوانين من صنعنا تنظم عمله وتفسره.

٢- علم التداولية العصبية:

إن دراسة علاقة دماغ الفرد بتواصله مع مجتمعه دراسة تتم بشكل علمي في واقعها الفعلي؛ لهذا فالأمر يستوجب وجود علم جديد ينظمها ويضعها في إطار علمي، يختص هذا العلم الجديد بدراسة العلاقة بين التواصل والدماغ، إنها دراسة تتمركز حول حقيقة التداولية في علاقتها بالدماغ، فهي عملية عقلية تقوم على تفاعل الفرد مع نفسه ومع مجتمعه بآلة هي الدماغ، والتداولية على هذا الأساس تبحر في عالم الدماغ واشتغالها بمعالجة قضايا الفرد، ومجتمعه، وأمور حياته اليومية المعيشية، وما يدور في عالمه، ويمكن تعريف علم التداولية العصبيةبأنه: علم يدرس العلاقة المتبادلة بين دماغ الفرد ومجتمعه.

٣- ما التداولية ؟:

في ضوء المفهوم الجديد الذي نطرحه حول التداولية نسأل ما حقيقة التداولية ؟ لقد أصبح لها تصور جديد في دراستنا هذه، إنها نظرية تدرس فن التواصل بين الناس بوسائل الاتصال الممكنة من رموز وعلامات وإشارات وإيماءات وتلميحات وتعبيرات الوجه، فتقوم بدراسة كيفية إتمام التواصل برسائل لغوية وغير لغوية بيننا، فتدخل كلها ضمن عمل النظرية التداولية، وتعد اللغة أهم وسائل التداولية في التواصل، فتُدْرس ضمن وسائل التداولية؛ لأنها رموز صوتية تحمل دلالات مختلفة، لتحقيق التواصل بين الناس.

لقد عرَّفوا التداولية: استعمال اللغة في التواصل، لكنه تعريف قاصر ناقص، ونظرة ضيقة لمفهوم التداولية الواسع الذي يشمل كل وسائل التواصل ومن بينها اللغة؛

فالتداولية تدرس الإشارات والإيماءات والتلميحات وتعبيرات الوجه وغيرها والتداولية لا تختص بدراسة اللغة وحدها، بل تهتم بكل ما يحقق التواصل بين الفرد ومجتمعه.

٤- الدماغ:

تواصلنا معًا يتم عبر آلة تحقق هذا التواصل، إنها الدماغ آلة تواصلنا، والبوتقة التي تُصهر فيها أفكارنا وتُصب، فتخرج في صورة سلوك نسلكه، إنه التروع إلى الفعل يتم به تفاعلنا معا، ودراستنا للدماغ تمثل دراسة الأساس العصبي لعمل النظرية التداولية، وهو تفاعل دماغ الفرد مع مجتمعه في حياته اليومية، إنها تمثل واقع التداولية الملموس؛ لهذا لا يستنكر أحدُ علينا تبحرنا في علم الأعصاب، وتناولنا لبحوثه، وربطها بعملية التواصل، ومعرفة أثر إصابتها على عملية التواصل، بل أثر المرض على علاقة الفرد بنفسه ومجتمعه.

٥- التداولية العصبية لدى علماء الغرب:

وعلى الرغم من التصور الذي نطرحه هنا عن التداولية والدماغ ومدى حاجتنا إليه، إلا أن هذه الدراسة لا تعد جديدة لدى علماء الغرب، فقد نشأت عندهم، وفي فكرهم ظهرت، ومنهم فهمنا أن هناك نظرية تسمى النظرية التداولية، وعنهم نقلنا ما في جعبتهم من علم يتصل بعلمنا الجديد (التداولية العصبية) فمن لا يشكر الناس لا يشكر الله سبحانه وتعالى، ولفظة الناس تشمل البشر جميعًا بعيدًا عن جنسهم ودينهم.

تقدمتْا لدراسة التداولية العصبية لدى الغرب كثيرًا. فلديهم بحوث ودراسات حول التداولية العصبية، وآراء علمية جادة تنم عن فهم عميق للجانب العصبي التداولي، فهم علماء التداولية الذين تبحروا في دراسة علم الأعصاب، وهذا توجه جديد لدى علماء التداولية، وهو البحث في الأصول العصبية للتداولية، وكان من بينهم هؤلاء العلماء:

أ- فودور وزملاؤه:

فودور وسبربر وولسن أصحاب نظرية كبيرة في الدراسة التداولية العصبية، أطلقوا عليها مصطلح اشتغال الدماغ، بيَّنوا من خلاله أن اشتغال الدماغ أمر أساسي للعملية التداولية، وقسموا المراحل التي تمر بها المعلومة - حتى تصل إلى الدماغ - وتتفاعل معها إلى: التحويل والنظام الطرفي والنظام المركزي. وبيّنوا آلية استقبال المعلومة

ومعالجتها بالدماغ؛ وبذلك فإنهم أول مَن تكلم عن التداولية بالدماغ، وتوجهوا بالتداولية نحو الدماغ ودراستها، كمعلومة بهذا العمق.

ب- جون سيرل:

أكبر علماء التداولية المعاصرين وأكثرهم تقصِّياً لحقيقة الجانب العصبي في علاقته بالنظرية التداولية، فقدم في كتابه (العقل واللغة والمجتمع) حديثًا مفصلًا عن الوعي والانتباه واللاوعي وعلاقتهم بالتداولية، ومركز الوعي؛ ففصَّل الأمر وتناوله بخبرة عالم عصبي متابع لكل جديد في هذا المجال، مشيرًا إلى أثر ذلك على نجاح العملية التواصلية. وركز هنا على الوعي وأثره على تحقيق القصدية، ولم ينس أثر الآفات التي تصيب المخ على العملية التواصلية التداولية؛ ففصَّل الحديث عنها.

ت- لورين أوبلر وكريس جيرلو:

هما من كبار علماء الأعصاب الذين قدموا فهمًا جديدًا للتداولية، مبينين أثرعلم الأعصاب في هذا الميدان، فأظهرا علمهما بالنظرية التداولية، على الرغم من تخصصهما في علم الأعصاب الذي يبدو بعيدًا عن مجالهما، فقد بيَّنا أن هناك عضوًا في الجسد هو المسؤول عن التداولية، وأنه يمرض، واستعانا في بيان ذلك بآراء علماء التداولية، مثل جرايس، واستشهدا بمبادئه في الاستدلال على أمراض التداولية.

إن آراء علماء التداولية في هذا الميدان (التداولية العصبية) أوضحت مدى ما وصل له إدراك وفهم علماء التداولية حول دور المخ في العملية التداولية، وقد بينوا هذا في بحوثهم وعالجوه فيها، بل أصبح لديهم اتجاه جديد ساروا عليه كعلماء تداوليين معاصرين، اختلف عن اتجاه ونهج علماء التداولية السابقين، وهو ترك الآراء الفلسفية في فهم التداولية واتجاهاتها الكلاسيكية، والاتجاه إلى المخ والعمليات العقلية التي تتم فيه أثناء الانتباه والوعي، كميدان جديد هو - من وجهة نظرهم - التوجه الصحيح في فهم التداولية وعلاقتها بالمجتمع وعقول أفراده، فكان جون سيرل فارس الميدان الذي بهرنا بعلمه الواسع حول علم الأعصاب الذي خاض فيه بثقل العالم العارف ببواطن العلم.

٦- التداولية العصبية لدى العلماء العرب:

نظرتُ إلى بحوث علماء العرب في المشرق والمغرب ودراساتهم حول النظرية التداولية العصبية؛ فرأيتأنهم لم يتناولوا الجانب العصبي مطلقًا، فلم يقدموا مُؤلفًا واحدًا

أو بحثًا بهذا العنوان (التداولية العصبية) يتناول هذا الجانب من النظرية التداولية العصبية فلم يعالجوه في دراستهم التداولية على الرغم من كثرة بحوثهم حول التداولية، وعمقهم في التحليل والتناول. لكنهم اكتفوا بدراسة الجانب الفلسفي واللغوي في النظرية التداولية، وحللوه بعمق كبير، وربطوا بينه وبين مفهوم ومبادئ النظرية التداولية، وبينوا آراء وأفكار علماء العربية، وقارنوا بينهم وبين علماء التداولية الغربيين؛ محاولين إثبات قصب السبق للعرب في فهم التداولية، وإدراك مفهوم التداولية.

إن الرغبة في تقديم الجديد من قِبلنا نحن العرب في هذا المجال، دفعتني إلى تقديم عمل جديد فيه، كما يتكلم عنه الغرب، وعلى الرغم من هذا فعلماء الغرب لم يقدموا مؤلفًا أيضًا بهذا العنوان: (التداولية العصبية)؛ لهذا شرعتُ – مستعينا بالله وحده – أن أصارع في هذا الميدان قممًا وصروحًا شامخات فيه، وأن أشهر سيفي في حلبتهم؛ عساني أن أفوز بقصب السبق، مهما قلت وجادلت وأوضحت ورأيت أنني أبدعت؛ فأين أنا من علماء العرب والغرب التداوليين ؟! ومع هذا وذاك فإنني أقول: إن حديث علماء التداولية في هذا الجانب العصبي لازال في بدايته؛ ذلك أنهم قدموا تحليلات ليست بمستوى العمق الذي رأيته لدى علماء الأعصاب والتشريح، وتفسيراتهم الدقيقة والعميقة في هذا الجانب، وهذا ما أسعى إليه راجيًا من الله سبحانه وتعالى أن يوفقني إليه.

لقد رأيت لدى علماء الأعصاب تحليلًا دقيقًا ووصفًا بالغ الدقة للمناطق والمراكز التي تثار بالانفعالات والاستجابة التي تحدث للفرد تجاه إشارات وإيماءات لم نكن نفهمها من قبل، بل إنني وجدت لديهم تحليلًا دقيقًا للتفاعل بين نصفي المخ لتفسير الحوار والحدث الكلامي؛ تجعلنا ننادي بجعل التداولية من المستويات الأساسية ضمن مستويات التحليل اللغوي؛ وذلك نتيجة الدور الذي تقوم به التداولية في تحليل الخطاب وفهمه، وتحقيق التواصل الصحيح بيننا، فما وضعه علماؤها من مبادئ وأسس لهذه النظرية يجعلها قادرة على تحليل الخطاب وفهمه بعمق كبير.

٧– قدرة الدماغ التواصلية:

إن المشكلة الكبرى في القضية التداولية هي قدرة المخ الكامنة داخله على فعل هذا كله من قبل أن تأتي إلينا النظرية التداولية لتشير إليه، فعندما تقوم بتفسير الحدث

الكلامي على أنه يحوي عناصر: القصدية، والاستلزام الحواي، والافتراض المسبق، وأفعال الكلام والإشاريات، نرى أن المخ يقوم بهذه الأشياء، ويستحضرها داخله عند معالجته للحوارات الآنية؛ هو يفعل هذا قبل أن تأتينا النظرية التداولية وتفسره لنا، أي: دون توجيه منها لنا بأن نفعل ذلك؛ فالمتكلم يستحضرها في مخه عند الكلام دون توجيهه إليها، وأن كل ما تفعله التداولية هو تفسير ما فعله مخ المتكلم من تلقاء نفسه.

إن جُل البحوث التداولية التطبيقية، التي أخذت خطب السياسين وغيرهم كميدان للدراسات التطبيقية للتداولية؛ ذلك أن أصحابها يحاولون إثبات ما قلتُه آنفا؛ منأن هؤلاء الأشخاص وغيرهم يقومون بتطبيق المبادئ التي قالت بها النظرية التداولية، ويلتزمون بها دون تعلم منا لهم، إنها التداولية كما عرفتُها وفهمتُها (عملية تواصلية تلقائية يقوم بها البشر، كقدرة عقلية موجودة في أمخاخهم من قبل). وهذا ما قاله سيرل وانطلق منه في تفسيره للوعي واللاوعي والانتباه.

٨- الدماغ والتداولية:

تقوم الدماغ بعملية الاتصال وتنطلق منها الأوامر بالفعل الكلامي الذي سينطق به الشخص، هذه الأوامر تسير في مسارات عصبية محددة تم تصويرها من قبل أجهزة مختصة كالتصوير بالرنين المغناطيسي والبث البزوتروني؛ لهذا كانت العلاقة بين الدماغ وعملية التواصل قوية، فالأولى تصدر الأمر وتصنعه، والثانية تقوم بتوصيله لسامعيه أو أعضاء الجسد لتنفيذه، والتداولية تقوم بتنفيذ عملية التوصيل والإشراف عليها، ووضع ضوابط تحكمها، ومن هذا يتبين أن العلاقة بين التداولية والدماغ هي علاقة وطيدة.

سنحاول هنا بيان هذه العلاقة؛ كي نفهم النظرية وآلية عملها، والمراكز التي تتفاعل معها في الدماغ، وماذا يحدث عندما تصاب هذه الآلة بآفة ما، هل تؤثر هذه الإصابة على عملية التواصل ؟ وكيف يكون شكل التأثير ؟ وإلى أي مدى يتأثر الجانب التداولي بهذا الأمر ؟، وما نوع الإصابة التي نعالجها في هذه الحالة وكيفية علاجها ؟.

إن دراسة العلاقة بين النظرية التداولية والدماغ ضرورة لابد منها؛ لبيان أن هناك شيئًا اسمه التداولية يقوم بتحقيق الاتصال بين البشر بصورة دقيقة قد لا نلاحظها،

لكنها تظهر بوضوح عند إصابة الدماغ في النصف الأيمن من المخ؛ مما يؤثر على التواصل، وعند إنتاج كلمات غير مفهومة أو وجود صعوبة في فهم ما يقوله المصاب في هذا الجزء من الدماغ عندها تظهر التداولية كعضو جسدي يمرض وتصيبه آفات كثيرة، ويظهر تأثيرها على عملية التواصل ووصول الرسائل بينهم وفهمها. لقد كثر القول حول التداولية؛ لذا نسعى لدراسة الجانب العصبي فيها كأول طرح علمي يتناول هذا الجانب.

٩- جهود علماء التداولية في بيان العلاقة بين التداولية والدماغ:

لقد درس علماء التداولية - في الغرب - التداولية من جانبها العصبي، على الرغم من أن هذا الجانب يحتاج إلى دراسة أحيائية متعمقة لمعرفة البنية العصبية؛ لنتمكن من فهمه؛ لهذا وجب علينا في هذا الباب القيام بعمليتين أساسيتين في آن واحد هما:

الأولى: بيان جهود العلماءالغرب، بتقديم ملخص لأفكارهم عن التداولية، وتوضيح مفهوم التداولية من خلالهم، وبيان آرائهم وجهودهم في تحليل الجانب العصبي منها ضمن دراستهم لأمراض النصف الأيمن من المخ الذي يُعنى بالتداولية، وتوضيح النقاط الأساسية والمرتكزات العلمية التي طرحوا فكرهم وتصورهم عن التداولية من خلالها.

الثانية: الجانب التطبيقي، وهو محاولة تفسير الأمراض العصبية التي تصيب الفرد نتيجة إصابة آفة للنصف الأيمن من المخ، تؤثر على عملية التواصل، وكيفية معالجتها؛ وذلك في إطار الاستفادة من مفهوم النظرية التداولية وآلية عملها، مع الاستعانة بأمثلة من اللغة العربية، ولكن ليس المقصود بهذاالعمل تعريب النظرية، ولكن المقصود فهمها في ضوء أمثلة من لغتنا العربية، لكونها نظرية لا تدرس لغة بعينها، بل إنها تطرح مفهومًا ثابتًا وموجودًا بالفعل في أمخاخ البشر؛ مما يجعلها قريبة منَّا فنفهمها وندركها ببساطة شديدة.

وبعد، أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يكلل عملنا هذا بالنجاح والتوفيق.

أ. د. عطية سليمان أحمد

تمهيد

منهج الدراسة وغايتها :

ما نشرع في الحديث عنه هنا قضية جديدة، وهي كيف نفهم شيئًا نفعله كل ساعة ولا ندرك كيف تم ؟، إننا ندخل في دراسة ذات إطار علمي يحمل مفهومًا جديدًا يفسر هذه العملية التي نسأل عنها، على الرغم من قيامنا بها طول اليوم، إننا ندرس فكرة كانت بالأمس نظرية فلسفية، ثم أضحت نظرية علمية مادية، تدخل في عيادة أطباء الأعصاب ومعاملهم كأشياء مادية علمية لكن لا نراها. وهي لم تدرس كمادة بحثية في هذا الإطار وبهذا المفهوم من قبل،إننا ننتقل بهذا العمل من دراسة كلاسيكية فلسفية للنظرية التداولية، إلى دراسة حديثة تقوم على أسس علمية تتجه إلى الدماغ، وتحلل عملها ومكوناتها، وكيفية تفاعلها مع الحدث الآني؛مما يجعلنا نغوص في علم جديد هو علم الأعصاب ونتائجه الحديثة، إننا لم نسمع من قبل في مجال الدرس اللغوي أو الفلسفي عن دخول دارسة اللغة والفلسفة إلى معامل علمي الأعصاب والتشريح ؟.

أولًا: منهج الدراسة وتحليل مادة البحث :

نظرًا لطبيعة هذه الدراسة وتوغلها داخل الجانب التشريحي والعصبي للدماغ ظهرت صعوبات كثيرة ناتجة عن تناولنا لعلم جديد، لسنا على دراية تامة به، وبكل آلياته، ومصطلحاته؛ لهذا أرجو من القارئ الكريم أن يلتمس لي العذر في مستوى التبسيط الذي لجأتُ إليه في دراستي لهذا المفهوم الجديد، والذي أطرحه بتفصيل كبير حول نظرية قتلها الباحثون دراسة وتحليلًا، لكنهم درسوها على أنها نظرية فلسفية لغوية، ونظرًا لحداثة الفكرة وصعوبة تناولها فإننا لجأنا إلى منهج جديد في معالجتها، وهو تبسيط المعلومة وعرضها بصورة متدرجة حتى يفهمها القارئ. فلا غرابة أن ترى أمثلة مأخوذة من حياتنا اليومية؛ لهذا حرصت في عرضها على الالتزام بالآتي:

١- تبسيط المعلومة والفكرة :

حرصت على تبسيط المعلومة عند عرضها، حتى لا أفقد قارئي العزيز، وهذا المنهج سار عليه علماء الغرب المعاصرون في عرضهم لآرائهم، وهو التبسيط الشديد، فيلجأون إلى أمثلة من حياتهم اليومية لتوضيح فكرهم، بل إنهم يستعينون بصور

كاريكاتيرية لبيان فكرهم، فنرى في الصورة أشياء تتكلم وتتحرك، فنجد الخلية العصبية تتكلم وتنادي على مكوناها وتتفاعل معهم في صورة حوار مسرحي؛ مما يجعلنا نفهم الفكرة؛ مما يشير إلى ذكاء هؤلاء العلماء الذين بسطوا لنا المعلومة، فنتفاعل معها فورًا، فسرنا على نهجهم.

٢– الأمثلة :

كنتُأطرح كل حين أمثلة أصنعها من خيالي، أو من الواقع، أو مما ذكره هؤلاء العلماء كفروض من عندهم توضح رأيهم أو فكرهم، وهو أمر ملح في هذا الباب الذي نحن بصدده، فنحن نعالج فكرًا جديدًا، ومعلومات صعبة حتى على المتخصصين.

٣– التدرج في العرض :

حرصتُ أيضًا عند عرض الفكرة الجديدة أو الصعبة على تبسيطها والتدرج في عرضها قبل الدخول إليها؛ حتى لا ينفر القارئ منها، ويتهمني بالبعد عن مجال اللغة، وقد تمثَّل التدرج في تبسيط الفكرة بأمثلة متدرجة تبدأ بنماذج موجودة ومأخوذة من أشياء نعيشها في حياتنا اليومية، ثم الانتقال إلى أمثلة مأخوذة من افتراض العلماء، ثم إلى المستوى الأعلى، وهو الأمثلة المأخوذة من القرآن الكريم. فجعلتها في أعلى مستوى في عملية التمثيل؛ لأنها النموذج الأعلى والأرقى، وتحتاج إلى فكر عالٍ يصعب على كثير أن يفهمها، ولكن إذا تابع القارئ التدرج الحادث في الأمثلة فإنه، أولا: يفهم الفكرة، ثانيا: يستطيع أن يرى بوضوح الإعجاز القرآني الذي هو معين لاينضب، ولا يشبع منه العلماء، إنه بحر من لا يجيد الغوص فيه غرق، وهو نور على نور من لم يدرك هذا النور واستسهله عمي، و لم ير شيئًا بعده قط.

ثانيًا: الدماغ وقدرة الخالق سبحانه وتعالى :

أنا ألتمس العذر للقارئ، فالأمر جد خطير، كيف نقول و لم نتكلم ؟، وكيف نفهم ما لم يُقل ؟، وكيف نسبح في العالم ونحن في مكاننا ؟! تلك معجزة الله سبحانه وتعالى في خلقه، فقد سألنا مستنكرًا علينا ما نحن فيه من جهل بأنفسنا، وعدم إدراك لما فينا من عجائب قدرته، فقال سبحانه وتعالى: ﴿**وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ**﴾ [سورة الذاريات:٢١]، ونحن نقول: ربنا سمعنا وأطعنا، وسننظر ما في أنفسنا كما أمرتنا سبحانك، وقد فعلنا هذا فنظرنا إلى بديع صنعك في جزء واحد في جسدنا وهو

أدمغتنا في علاقتها باللغة التي نتكلم بها، فهالنا ما رأينا وقلنا: كيف أننا لم ندرك أو نفكر فيه من قبل ؟!.

إن طرح الأسئلة السابقة على أنفسنا يجعلنا ننظر إلى هذه الكرة المخية الصغيرة التي نحملها على أكتافنا وننبهر بما فيها من إعجاز وقدرة الصانع سبحانه وتعالى، فإذا لم نفكر في هذه الفكرة على هذا الأساس والعمق العلمي، و لم نقل بعد تفكير علمي عميق سبحانك ربنا ماخلقت هذا باطلًا، إذا لم نقل ذلك؛ فسيصدق علينا وصف الحق لنوع من مخلوقاته، بأنها: تحمل أسفارًا من العلم ولا تفقه فيه شيئًا.

ثالثا: الغاية من الدراسة :

إن الغاية الحقيقة من الدراسة أعمق مما يبدو لنا؛ فهي تهدف إلى بيان الآتي:

١- **بيان قدرة الله سبحانه وتعالى وإعجازه في خلق معجزته الكبرى (الدماغ) :**

إننا بهذه الغاية نخرج عن الغايات المعهودة في الدراسات السابقة للنظرية التداولية، إنها عملية ولوج في صميم عملها، وهو التفاعل بين الدماغ والعالم المحيط بالفرد، هنا نرى أشياء لم نرها من قبل، كيف أن ما كنا نظنه أمرًا معنويًا يُفهم من قول أو إشارة أو تلميحة أو إيماءة أو معنى مجازينراه تحول لأشياء مادية، فمن أين أتانا هذا الرأي العلمي الذي غير مفهومنا عن هذه الأشياء ؟، لقد أتانا من التطور الحادث في علم الأعصاب الذي مكننا من النظر داخل الدماغ أثناء عملها: في حوارنا مع الآخر، وفي كلامنا الداخلي، إنه واقع جديد نعيشه نتيجة تطور العلم وآلياته الحديثة، تجعلنا ننظر إلى بديع صنع الله سبحانه وتعالى المعجز، فقال سبحانه وتعالى: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾[سورة القمر٤٩]. وكان حقًا ما قاله، والعلم يُثبت كل يوم صدق ما قال سبحانه.

٢- **بيان البعد البيولوجي للتداولية، ومكانها بالجسد :**

إنها غاية غريبة تشير إلى تحول المفاهيم المجردة وغير الملموسة إلى واقع نعيشه، لقد أدرك علماء التداولية الغربيون هذا؛ فانطلقوا إلى علم الأعصاب والتشريح ومعاملهما، فحولوا آراءهم النظرية حول التداولية إلى واقع ملموس، فإذا تحدث جون سيرل عن الوعي كأساس من أسس التداولية، فإننا نرى عالما من علماء الأعصاب، يتحدث

فيشير إلى إثارة الخلايا العصبية عند الوعي والانتباه. هنا ندرك البعد البيولوجي للتداولية، كيف يكون لها واقع بيولوجي ملموس نراه في حياتنا اليومية ؟.

٣- بيان قدرة التداولية على توظيف الدماغ لتحقيق تواصلنا معًا (التواصل):

إن الغاية من دراسة التداولية هنا هي النظر إلى حقيقة التداولية في تفاعلها مع الدماغ، على أن هذا الأمر له غاية أكبر هي التواصل مع الآخر، فوظيفة الدماغ وعملها هو التداول والتفاعل مع الآخر، إذن للتداولية غاية وقيمة اجتماعية، إنها ليست نظرية فلسفية أو لغوية، إنها ذات غاية تواصلية توظف لها الدماغَ بكل مكوناتها في سبيل تحقيق هذا الغاية، فالتداولية آلية موجودة بأدمغة البشر لهذا الغرض، ومن لم يدرك هذه الغاية الكامنة في أدمغة البشر نقول له: إنك لم تدرك لماذا خلقنا الله سبحانه وتعالى. وكي نذكره نقول له: إن الله خلقنا لعمارة الأرض، لقوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنْ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[سورة هود: ٦١]، فلو فقدنا هذه القدرة التداولية التي وضعها الله فينا؛ فإننا سنفقد تواصلنا معا الذي نحقق به عمارة الأرض؛ وذلك بفقد تعاوننا معًا بخُلقٍ حسن وتأدب، هذه مبادئ التداولية التي نادي بها غرايس وليتش وغيرهم من التداوليين.

٤- أمراض التداولية: أمراض تصيب نصف المخ الأيمن وتؤثر على تواصلنا :

هذه الغاية دليل على التحول في إدراكنا لمفهوم التداولية، فهي ليست نظرية فلسفية لغوية، بل نظرية تدرس تواصلنا معًا من خلال آليات حديثة؛ بينت أن عملية تواصلنا معًا تتم من خلال مراكز في المخ، بل أظهرها وصورها أثناء عملها، وبينت أن هناك جرءًا في الجسد هو المسؤول عن هذا التواصل التداولي، وهو النصف الأيمن من المخ، هنا تظهر الضرورة القصوى لدراسة النظرية التداولية من هذا الجانب؛ لأننا بعد أن حددنا موضع التواصل التداولي في أدمغتنا؛ أصبح من الممكن علاجه إذا حدث فيه عطب. هذه الغاية الحقيقة والأعمق للدراسة التي تجعل الباحث فيها يتحول من مجرد دارس وباحث في النظرية التداولية إلى طبيب يقدم علاجًا أو ويقترح علاجًا لآفة في دماغه.

الفصل الأول
التداولية: النشأة والتطور

مفهوم التداولية:

التداولية ذات مفهوم كبير ومعنى اصطلاحي نحاول عرضه بالتحليل والدراسة من خلال هذه المحاور:

المحور الأول: تعريف التداولية ومفهومها :

١ – تعريف خاص للتداولية:

إن أبسط تعريف للتداولية وأقربه إلى واقعها – فيما أرى – أنها: (**اشتغال الدماغ في فهم الآخر وإفهامه**)، إنها دراسة عمل الدماغ في كل ما يقوم به الفرد من أعمال (مادية ومعنوية وتفكير) من خلال عمليات عقلية تحقق له التواصل مع الآخرين.

لكن رأيت النظر إلى هذه الكلمة في كتاب الله العزيز؛ لفهم معناها هناك، فإذا نظرنا إلى هذا المصطلح (التداولية) من منظور لفظي كترجمة لكلمة براجماتي التي تُرجمت إلى العربية بالتداولية، فماذا نقصد بها ؟ إننا نرجع في فهم الكلمة إلى كتاب الله حيث قوله تعالى: ﴿**وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ**﴾[سورة آل عمران: ١٤٠]، هذه الآية الكريمة ستهدينا إلى مفهوم هذه الفكرة (التداولية)، قبل أن تصبح نظرية يختلف حولها العلماء. فالتداول هنا هو تغيير أوضاع الناس، ما بين انتصار وهزيمة. وهذا مفهومها عند العامة إلى عصرنا الحالي، فهكذا يفهمونها، فيقولون للمنتصر أو المهزوم: الأيام دول. فتشير إلى التغير الدائم لأحوال الناس، حيث يتبادلون المواقع بينهم من نصر إلى هزيمة، فمنتصر اليوم ربما مهزوم الغد. وهذه طبيعة الحياة كما خلقها صانعها سبحانه وتعالى.

إذن، ما علاقة ما سبق بموضوعنا (التداولية) ؟. إنه تبادل المواقع بين الناس في إطار عملية التواصل بينهم؛ ما بين متكلم وسامع، فمتكلم الآن هو مستمع بعد قليل، ومن هو متعلم يَفْهم اليوم، هو مُعلم يُفهم منه غدًا.

والإنسان يمضي حياته ما بين متكلم وسامع، فيحاول أن يَفْهم ما يقوله ويُفْهِمُه لسامعه، ويحاول أن يفهم ما يقوله سامعه، مستخدمًا الكلمة والإشارة والإيماءة كوسائل تحقق الاتصال بينهم، كان أهمها اللغة.

أين تسكن التداولية في الجسد ؟، إن عملية (الفهم والإفهام) تقوم على عمل جزء واحد في الجسد، إنه الدماغ، فإذا افترضنا أن إنسانًا مُحيتْ من دماغه كل معارفه، لإصابته بآفة ما فيها، فإنه يعجز عن الفهم والإفهام، والتواصل مع الآخرين، إذن أساس دراستنا هو الدماغ وعملها في عمليتي الفهم والإفهام لتحقيق التواصل بين الناس، وهو ما تسعى التداولية إلى تحقيقه، إذن التداولية تسكن في الدماغ.

هذا التعريف على بساطته يصور مفهوم التداولية كآلة لم يخترعها الإنسان، فهي قدرة يتميز بها العقل البشري، إنه بعد أن يفهم الشيء ويستنبط ويستدل منه على ما يريد؛ يشرع في إفهامه للآخرين، إنه سر وجوده في الحياة، وقدرته على عمارتها بالتفاعل والتعاون مع بني جنسه، مثال: لو لاحظتَ طفلًا صغيرًا يتعلم تشغيل الهاتف المحمول، ثم نظرتَ إليه بعد أن فهم كيف يعمل ويتقن تشغيله؛ ستجد أنه يسرع في تعليمه لأقرانه متفاخرًا باكتساب هذه المهارة. إنها قدرة كامنة في أدمغة البشر (الفهم والإفهام)، فإذا قامت النظرية التداولية بتفسيرهذا العمل (كيفية الفهم والإفهام)؛ فهي لم تأت بجديد سوى بيان كيف تقوم آلة الإنسان (الدماغ) بهذا العمل، كيف يحدث **اشتغال الدماغ**.

٢- تعريفات علماء التداولية :

بعد تقديم تعريفنا للتداولية البسيط ومفهومنا عنها على أنها جزء من المخ (النصف الأيمن من المخ)، نحاول النظر إليها في ضوء فهم الآخرين لها، إن دراستنا تقوم على محاولة تقديم جانب جديد غير منظور في هذه النظرية التداولية يبين مدى علاقتها بالبنية العصبية، ومدى تحقيق هذه العلاقة في الواقع؛ لهذا سنعرض الرأي ونحلله ونبين مدى إدراك هذا الرأي للعلاقة بين التداولية والبنية العصبية، ونوضح هذا الإدراك، وقد تمحورت هذه الآراء حول أمرين هما:

الأول: التداولية فن التواصل.

الثاني: التداولية استعمال اللغة في التواصل.

هذان الرأيان يمثلان التوجه العام في فهم التداولية ووظيفتها، لكن حقيقة الأمر – كما أسلفنا – أن التداولية فن التواصل بكل صوره؛ مما يجعلنا ننظر إلى هذه النظرية بصورة أعمق وأكبر، ونبين دور المخ في تحقيق هذا العمل التواصلي الذي تقوم على دراسته التداولية، وأهم هذه الآراء هي :

أولًا: التداولية علم العلامات :

أ- ما علم العلامات ؟، وما وظيفته ؟:

"يتقصى علم العلامات السؤال، ما شأن علامة ما بعلامة. فهو يفرق بين أنماط وأنظمة علاماتية مختلفة، ويتضمن في تأملاته استخدام العلامة ومستخدم العلامة أيضا. ويعد استخدام العلامات، وطبيعتها، وعلاقاتها بما تشير إليه خاصية أساسية للغة الإنسانية؛ ولذلك كانت من البداية شاغل الفلسفة. وتنشأ عن هذه الخاصية للعلاماتية تداخلات بين علم العلامات، والفلسفة، ونظرية المعرفة، والمنطق، وعلم اللغة والرياضيات." [(١)]، هذا هو مفهوم علم العلامات في أوضح تعريفاته.

ب- التداولية ونظرية العلامات عند تشارلز بيرس :

يعد تشارلز بيرس أول من أدخل مصلح التداولية في علم الفلسفة؛ لذا نستعين به للتعرف على مفهومه عنده، يقول وليم جيمس: "إن نظرة إلى تاريخ الفكرة كفيلة بأن تزيدكم إيضاحًا عما تعني البراجماتية، إن اللفظ مشتق من نفس الكلمة اليونانية ... بمعنى العمل التي تؤخذ منها كلمتا (مزاولة) و(عمل).

وكان أول من أدخل اللفظ في الفلسفة تشارلز بيرس في سنة ١٨٧٨م، ففي مقال بعنوان: (كيف نجعل أفكارنا أفكارًا واضحة) ... ذكر أننا لكي ننشئ معنى فكرة، فكل ما نحتاج إليه فقط هو تحديد أي سلوك يصلح لإنتاجه: إن المسلك بالنسبة لنا هو مغزاها الوحيد الذي يعول عليه، ... فلكي نبلغ الوضوح التام في أفكارنا عن موضوع ما، فإننا لا نحتاج إلا إلى عدما قد يترتب من آثار يمكن تصورها، ذات طابع عملي، قد يتضمنها الشيء أو الموضوع - وما هي الأحاسيس التي يتعين علينا أن نتوقعها منه، وماهي الرجوع أو ردود الأفعال التي ينبغي أن نُعدها؛ لإدراكنا وتصورنا للمعاني الكلية لهذه الآثار والنتائج سواء أكانت مباشرة أم بعيدة، هو عندئذ بالنسبة لنا هو كل تصورنا للموضوع أو الشيء، مادام هذا التصور له أهمية أو مغزى إيجابي على الإطلاق، هذا هو مبدأ بيرس (مبدأ البراجماتية)"[(٢)].

المعنى الأصلي لمصطلح براجماتية يعود إلى عام ١٨٧٨م، وهو يوضح مفهوم مصطلح البراجماتية، فهو يدور حول عمل الدماغ في معالجة الأفكار وفهمها، وقد

---

(١) علم اللغة البراجماتي الأسس. التطبيقات. المشكلات: بيتر ارنست، تر/ سعيد البحيري، زهراء الشرق، ٢٠١٤م ص٢٦

(٢) البراجماتية: وليم جيمس، ت/ محمد العريان، المركز القومي للترجمة، القاهرة،٢٠٠٨، ٦٤ ــ٦٦

انطلق من فكرة أننا نمتلك أفكارًا نريد أن نعبر عنها بوضوح، ونبلغها للآخرين، هذا الأمر يقوم على عمل/ اشتغال المخ بمعالجة الأفكار وفهمها وإفهامها، ومعرفة أحاسيس الآخرين تجاهها، وردود أفعالهم تجاه أفكارنا، ويدخل ضمن هذا مدى تصورنا للموضوع، وإدراكنا له، وللمعاني التي يحملها، إنهذه العملية تحمل مصطلحات حديثة في علم النفس، مثل: الإدراك والتصور والفهم؛ مما يعني أن مفهوم التداولية ينطلق من معنى نفسي داخلنا يقوم على عملية تفسير اشتغال المخ وبيان لعمله فينا، هذا هو مفهوم التداولية كلغة تواصل تقوم البنية العصبية بالدور الأساسي فيها، إن الذي يبدو من مفهومه عن التداولية أنها تدرس الارتباط بين الأفكار وعملية توصيلها، فهي عملية تواصلية في نهاية الأمر.

ويقول جاك موشلار عنه: "ميز الفيلسوف الأمريكي شارلز موريس في مقال كتبه في موسوعة علمية، بين مختلف الاختصاصات التي تعالج اللغة، وهي: علم التركيب، ... وعلم الدلالة، ... وأخيرًا التداولية التي تُعنى، في رأي موريس، بالعلامات ومستخدميها، والذي استقر في ذهنه أن التداولية تقتصر على دراسة ضمائر المتكلم والخطاب وظرفي المكان والزمان (الآن، هنا) والتعابير التي تستقي دلالتها من معطيات تكون جزئيًا خارج اللغة نفسها، أي: من المقام الذي يجري فيه التواصل، ومع هذا ظلت التداولية كلمة لا تغطي أي بحث فعلي"(١).

يتحدث موريس عن مفهوم التداولية عنده، فهي من وجهة نظره، تُعنى بالعلامات ومستخدميها؛ مما يعني أنه انطلق في تعريفه للتداولية من حقيقتها وحقيقة عملها الذي يتمركز حول العلامات التي تحقق التواصل، وهي تشمل كل ما كان علامة من رمز: إشاري أو صوتي أو ضوئي، فكلها تدخل ضمن مفهوم العلامة؛ لهذا تأتي اللغة كرمز صوتي ضمن المنظومة العلاماتية التي تعمل عليها التداولية؛ لهذا يرى موريس أن التداولية تقتصر على ضمائر المتكلم والمخاطب؛ لأنهما يصوران له الحقيقة الواقعية للغة. فاللغة ماهى إلا متكلم يقول ومخاطب يسمع لقوله في إطار زمان ومكان يحددان

(١) التداولية اليوم علم جديد في التواصل: آن روبول وجاك موشلار، تر/ سيف الدين دغفوس، المنظمة العربية للترجمة، ط١، ٢٠٠٣، ص٩.

الإطار الزماني والمكاني لحوارهما، أما التعابير فترتبط بالمقام الذي تقال فيه، وهو مقام ليس لغويًا قدر ما هو مكاني وزماني، يرتبط بالمتكلم والمخاطب والعلاقة الاجتماعية التي تجمعهما.

إن مفهوم التداولية كعلم العلامات انطلق من بيرس، وقد "أُسس علم العلامات على يد الفيلسوف الأمريكي تشارلز ساندرس بيرس بوصفه فرعًا علميًا مستقلا، فإنه يوجد – في لغة صعبة الفهم إلى حد ما – علم العلامات الحقيقي إلى يومنا هذا، ويؤسس عالم اللغة السويسري فرديناند دي سوسير علم العلامات في إطار علم اللغة، ولم يهتم تبعًا لذلك إلا بعلامات لغوية. ويضع الأمريكي تشارلز وليم موريس بمثلثه المشهور الدلالة والنحو والبراغماتية الأسس للبراغماتية الحديثة"(١).

من هذا الحديث يتبين لنا أن التداولية نشأت من علم العلامات وفى أحضانه، لأنها قامت على عمليات عقلية أساسها الترميز، لهذا يجب دراسة الرمز وعمله التواصلي الذي يقوم على اشتغال الدماغ.

ثانيًا: التداولية فن التواصل :

أ) التواصل التداولي عند ابن جني :

إن فهم اللغة عملية معقدة، فلا يقوم فهمها والتواصل بها على المعنى الحرفي لألفاظها ولا عباراتها، بل لابد من أشياء أخرى يجب أن يملكها المتكلم والمستمع؛ ليتحقق الترابط بين أبناء المجتمع الواحد، وهي الرغبة في التواصل بينهم، وهذا هو جوهر التداولية، وقد وجدنا عالمًا عربيًا عبقريًّا قادمًا من أعماق ماضي العربية السحيق؛ هو **ابن جني** الذي فهم اللغة على أنها عملية تواصلية تداولية، فقدم لنا تصوره هذا ومنطقه التداولي من خلال تعريفه للغة، فقال: "حد اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"(٢).

إنه لا يرى اللغة أصواتا فحسب، بل نظر إليها نظرة أكبر وأعمق سبق بها عصره، فرأى اللغة أداة تواصلية تداولية، يحقق بها كل قوم أغراضهم في التواصل معًا، كمجتمع مترابط تربطهم معًا مصالح مشتركة، وهذا حقيقة التداولية، وهو التواصل والترابط، إنه الغرض الحقيقي من اللغة، وهو تحقيق التواصل، وهي أداة هذا العمل،

(١) علم اللغة البراجماتي الأسس. التطبيقات. المشكلات: ٢٧

(٢) الخصائص: ابن جني .تحقيق محمد على النجار، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٠م.ج/١. ص٨.

إنها تُنتج لغرض التواصل، وهذا أكبر من أن نراها مجرد أصوات يتلفظ بها أعضاء النطق، إنها آلة الإنسان التي يتواصل بها مع غيره، وهو ما يعنيه هذا العبقري بقوله: (**يعبر كل قوم عن أغراضهم**)، وهو ما يمثل مفهوم اللغة عنده.

إن الأصل في اللغة أنها وسيلة للتواصل والتعبير عن الأغراض المختلفة لتحقيق التواصل، هذا التواصل يتم من خلال كلمات وجمل، وما خلف هذه الكلمات والجمل من أشياء تحقق التواصل أيضًا، فلو وقفنا عند مفهوم اللغة على أنها مجرد أصوات، فإن ابن جني يكون بهذا قد أراد المعنى الحرفي لكلمة (أصوات)، لكن ابن جني لم يرد هذا الأمر، لذا كان لزامًا عليه أن يقول عنها: إنها تحقق أغراض الناس، أي تواصلهم معا. وهو بذلك يُخرج اللغة من دائرة كونها أصواتًا تنطق فحسب إلى دائرة أوسع وأرحب هي دائرة التواصل الذي يحقق للفرد وجوده، وللمجتمع كيانه، فليست أصواتًا فقط، بل وسيلة تواصل وتفاهم بين الناس لتحقيق أغراضهم. وهنا يظهر فهمه للحقيقة التواصلة للغة، والوجود العقلي الفعلي لها؛ فالتواصل لتحقيق الأغراض هي عملية تداولية.

قيمة تعريف ابن جني :

هذا هو مفهوم التداولية للغة عند ابن جني، ومفهوم اللغة عند التداوليين أيضًا، أنها أهم وسائل الفرد لتحقيق التواصل مع الآخر؛ وعليه، يمكننا الإفادة من تعريف ابن جني، بإعادة النظر إلى هذا الجانب، وهو كيفية تحقيق التواصل بين الناس، فنعيد النظر إلى تعريف ابن جني في ضوء المفهوم الذي وصلنا إليه الآن نقول: إن اللغة أصوات تُمكن الناس من التواصل معًا، وتحقق أغراضهم الحياتية بعمليات الفهم والإفهام والتواصل التداولي من خلال صندوق فوق أكتافهم وهو الدماغ.

هذا الأمر يدفعنا إلى النظر إلى القضية بعمق أكبر، فاللغة – كما قلت آنفا – ليست أصواتًا فحسب؛ لهذا يجب ألا ننظر إلى مركز إنتاج الأصوات في الدماغ فقط، وهو النصف الأيسر من المخ الذي فيه منطقتي بروكا وفيرنيكا، بل يجب دراسة وجودها في النصف الأيمن من المخ، بوصفه مسؤولا عن الأشياء التي تحقق التواصل، هل هذا حقيقة أم خيال ؟، إنه المسؤول عن الجانب التداولي في أحاديثنا، هذا النصف الذي يصنع مع النصف الأيسر تكاملاً في فهم اللغة والتواصل بها، هذا ما دفع أوبلر

إلى النظر إلى النصف الأيمن من المخ نظرةً أعمق، نظرًا لدوره الأساسي في تحقيق عملية التواصل التداولي بين الناس، هذه القضية التي لم يضعها علماء اللغة والأعصاب في حسباهم، وهي قضية التكامل اللغوي الحادث نتيجة التعاون بين نصفي المخ، والتفسير التكاملي والترابطي الحادث بين نصفي المخ عبر الجسم الجاسيء، على الرغم من فهمهم لها.

ب) مفهوم التواصل عند أبراهام مولز :

عرف مولز التواصل قائلا: "التواصل هو إشراك شخص (أو هيئة organisme) مموضع في فترة ما في نقطة معينة – في تجارب منشطة لمحيط شخص آخر، أو نسق آخر مموضع في فترة أخرى ومكان آخر عن طريق استعمال عناصر المعرفة المشتركة بينهما (تجربة عوضية)، (ويمكن تعريف التواصل حسابيًا بأنه إقامة اتصال مُشاركٍ بين كون فضائي زماني مُرسل أ، وكون فضائي زماني مستقبل ب) "[(١)].

التواصل: مفهوم التواصل أنه إشراك شخص ما في تجارب شخص آخر من خلال عناصر المعرفة المشتركة بينهما، فيصبح الشخص الأول مرسلًا للرسالة، والثاني مستقبلها، هذا مفهوم تعريف مولز،نفهم منه أن التواصل يتم وفق آليات تحكمها. هذا التعريف يشير إلى أساس العلاقة بين الناس لغرض التواصل والتعاون معًا، فلا يوجد علاقة بينهم دون وجود هدف تواصلي بينهم، وهو ما يقوم به المخ ليحقق هذا التواصل.

ت) التداولية والتواصل عند جاك ميشلار وآن ريبول :

يقول جاك موشلار: " تُعرف التداولية بأنها دراسة استعمال اللغة مقابل دراسة النظام اللساني التي تعني به تحديدًا اللسانيات، ألف الرجلان كتابهما (التداولية اليوم: علم جديد في التواصل) بغرض التعريف بمجال جديد هو التداولية، فهذا الكتاب: "يريد أن يفتح مجالًا لايزال غير معروف بالقدر الكافي هو مجال التداولية، أو بعبارة أخرى مجال استعمال اللغة في التواصل والمعرفة"[(٢)]، فهو يهدف إلى بيان كيف يحقق استعمال اللغة التواصل بين الناس، فالتداولية عندهما تعني استعمال اللغة في التواصل، لكن مفهوم التداولية أوسع نطاقًا من ذلك، فهي تُعنى بدراسة فن التواصل بكل

---

(١) في التداولية المعاصرة والتواصل: أ. مولز وآخرون. تر/ محمد نظيف، دار أفريقيا الشرق. المغرب٢٠١٤م ، ص٧

(٢) التداولية اليوم علم جديد في التواصل: ٩

الوسائل الممكنة اللغوية وغير اللغوية، فكل وسيلة تحقق التواصل هي موضوع التداولية وتدخل اللغة ضمن الدراسة التداولية، بوصفها نوعًا من أنواع الاتصال والتواصل بين البشر. هذا المفهوم نجده لدى غيره.

ث) التداولية والتواصل عند فيليب بلانشيه :

يعرف التداولية على أنها استعمال اللغة في التواصل، يقول بلانشيه: "في الغالب، فإن التداولية تُعرف عمومًا كما يلي: "التداولية هي مجموعة من البحوث المنطقية اللسانية، وهي كذلك الدراسة التي تُعنى باستعمال اللغة، وتهتم بقضية التلاؤم بين التعابير الرمزية والسياقات المرجعية والمقامية والحدثية البشرية ... ـــ وتحد أيضًا كالتالي: (هي الدراسة أو التخصص الذي يندرج ضمن اللسانيات، ويهتم أكثر باستعمال اللغة في التواصل... إن مبدأ (الواقع الفعَّال) الذي يقع في صلب التداولية ... هو الذي يعرف التداولية، بوصفها تحليلًا للوقائع الملاحظة، وينظر إليها في علاقاتها بسياقات وجودها الواقعية، إنه تحديدًا مبدأ علمي، ... يترع إلى تأسيس حقل وموضوع منفصلين (هو التواصل؛ لأن كل شيء عند الإنسان هو تواصل)"(١).

نجد هذا التعريف لدى كثير من علماء التداولية، وهو يعمد إلى جانب واحد من القضية، وهو أداة التداولية في عملها التواصلي؛ فهي تقوم بالتواصل بين البشر بوسائل كثيرة من بينها اللغة كإحدى هذه الوسائل، فكونه يعرف التداولية بأنها استعمال اللغة في التواصل فهو تعريف قاصر ناقص، لكن إذا عدنا إلى هذا التعريف بوصفه إشارة إلى العنصر الذي تقوم عليه التداولية في عملها التواصلي وهو اللغة نجد أنها في كنهها عملية عقلية تقوم على الفكرة التي نبحث لها عن ألفاظ وتراكيب وأبنية مناسبة لنخلق منها معنى تواصلي فهي عصبية أيضًا.

ج) التداولية والتواصل عند جيوفري ليش :

يعرف ليتش التداولية على أنها استعمال اللغة في التواصل أيضًا، يقول: "يمكن أن نعرف التداولية على نحو مفيد، أنها تدرس كيف أن ضروب التلفظ بالعبارات تكون لها دلالات في مواقف معينة."(٢)، وانطلاقًا من هذا التعريف، وضح ليتش خطته في كتابه (مبادئ التداولية) قائلا: "وأقدم في هذا الكتاب نظرة تكاملية عن التداولية

---

(١) التداولية من أوستن إلى غوفمان: فيليب بلانشيه، تر/ صابر الحباشة، دار الحوار، سوريا، ٢٠٠٧م، ١٨/ ١٩.
(٢) مبادئ التداولية: جيوفري ليتش، تر/عبد القادر قنيني، دار أفريقيا الشرق، المغرب،٢٠١٣م، ص٥

ضمن برنامج كلي لدراسة اللغة كنظام تواصلي. وباختصار، فإن هذا يعني دراسة استعمال اللغة باعتبارها متمايزة، ولكنها متكاملة مع اللغة ذاتها، منظورًا إليها كنسق صوري شكلي"[١]، ويقول عن اللغة والتداولية: "إن موضوع هذا الكتاب في المعنى الواسع، يدور حول طبيعة اللغة الإنسانية، وفي معناه الضيق يهتم بوجه واحد من اللغة الإنسانية مما اعتقده أساسيًّا لفهم اللغة الإنسانية بوجه عام، وأسمي هذا الوجه، التداولية العامة"[٢].

يؤكد ليتش على هذا المعنى أن التداولية تنطلق من تحقيق التواصل البشري: "إن مقاربتي للتداولية ستكون عن طريق أطروحة تقول: إن التواصل قائم على وضع الإشكال وحله، فالمتكلم من حيث هو متواصل يتعين عليه أن يحل الإشكال: (وبافتراضي أني أريد أن أحدث مثل هذا الأثر وهذه النتيجة بالتأثير على وعي المخاطب فقد يكون التساؤل: ما هو أفضل طريق لإنجاز هذا الغرض باستعمال اللغة؟)، وبالنسبة للمخاطب يوجد نوع آخر من المشاكل يتعين عليه أن يحلها، وبتسلمينا بأن المتكلم يقول هذا الشيء أو ذاك، فماذا يعني بقوله هذا حتى يفهم ما قاله بالنسبة إليَّ ؟"[٣].

إن مفهوم التداولية يوضح الغرض منها كدراسة حديثة تخترق مكنون الكلام لتُخْرِج مضامينه؛ وذلك بالبحث في ما وراء الحُجُب التي صنعها الله سبحانه وتعالى داخل كل شخص، فلا نعرف فيما يفكر ؟، وعلام يعتزم ؟، إن فهم هذا المبدأ يجعلنا نفهم حقيقة التداولية التي تبحث في فن التواصل بين البشر وكيف يحورونه ويلغزونه ؟ فلا بد للمتكلم أن يُفهم مستمعه مقصده، وفحوى كلامه، ومضمونه، بأسهل الطرق وأسرعها، ولا يتحقق هذا لكل متكلم، ولا يتحقق هذا لكل مستمع أيضًا. ليس كل ما يقال يفهم، ولا كل ما يفهم قد قيل. إن التداولية تدرس أدوات التواصل المختلفة؛ لتحقيق مبدأ الفهم، من خلال مبدأ التعاون لجرايش ومبدأ التأدب لليتش. كيف نُفْهم الآخر مقصدَنا ؟، ونَفْهم مقصده ؟، يقول ليتش: "مفهوم التواصل يؤدي إلى مقاربة خطابية للتداولية بواسطتها يحاول المتكلم أن ينجز مقاصده وأغراضه ضمن قيود

---

(١) مبادئ التداولية:٥
(٢) المرجع السابق:٥
(٣) نفسه: ٥

وضوابط تمليها عليه قواعد ومبادئ طلب طريقة إصابة السلوك التواصلي ونجاحه، وعلى هذا فليس مبدأ التعاون وحده عند جرايش هو الذي يقوم بهذا الدور، بل هناك مبادئ أخرى، مثل حسن الأدب والتخلق، ومبدأ السخرية، وهذه كلها تلعب مثل هذا الدور"(١).

التداولية: فن التواصل بكل وسائل التواصل التي ابتكرها البشر (لغة وغيرها)، وتعد اللغة إحدى وسائل التواصل. لذا يقول ليتش: "إنه لا يمكن أن نفهم على الحقيقة طبيعة اللغة ذاتها إلا إذا فهمنا التداولية: وهي كيف تستعمل اللغة في التواصل"(٢)، فلا بد أن نفهم اللغة على أنها وسيلة من وسائل التواصل، فهو أساس مفهوم التداولية عنده. ويقول: "وسيقتصر تعرفي (التداولية العامة) على دراسة التواصل اللساني في معنى مبادئ التحاور؛ إذ سيتقيد – إن صح التعبير – بالنموذج الخطابي للتداولية"(٣).

لقد جعل تعريفه للتداولية قاصرًا على أنها تقوم بدراسة التواصل الإنساني، أي كيف نحقق التواصل بيننا باستخدام إحدى وسائل الاتصال وأهمها، هذه هي حقيقة التداولية كفن التواصل البشري؛ مما يجعلنا نقتصر في هذا على النموذج الخطابي للتداولية؛ بوصفه أهم وسائل الاتصال، لكن هذا كله يقوم على اشتغال الدماغ بما يقوله المتكلم، وما يصل إلى فهم السامع منه.

ثالثًا: التداولية استعمال اللغة :

أ) جيوفري ليتش :

يقول ليتش: "التداولية العامة أعني بهذا الحد تمييز دراسة الشروط العامة لاستخدام التواصل في اللغة"(٤)، إن التداولية كما يرى ليتش هى: كيفية استخدام اللغة في التواصل وما شروط ذلك، فقد حدد بذلك مفهوم التداولية عنده، ومكانة اللغة في ذلك، على أنها الوسيلة الوحيدة للتواصل، وأكد هذا بقوله: "وسيقتصر تعريفي

(١) مبادئ التداولية: ٦
(٢) مبادئ التداولية: ٩
(٣) مبادئ التداولية: ٢٢
(٤) مبادئ التداولية: ٢٤

التداولية العامة على دراسة التواصل اللساني في معنى مبادئ التحاور؛ إذ سيتقيد، إن صح التعبير بالنموذج الخطابي للتداولية"(١).

ب) جيف فيرشويرين :

يرى جيف التداولية استعمال اللغة في التواصل: "في العصر الحاضر وإلى حد بعيد، يرتبط مصطلح (البراغماتية) مباشرة بدراسة استخدام اللغة، على الرغم من أنه نشأ في سياق نظرية أعم من نظرية نشاط الإشارات، حسب رأي تشارلز موريس (١٩٣٨م) كانت فرع علم السيمياء الذي يختص بدراسة الخصائص الشكلية للإشارات والرموز يدرس علاقات الإشارات بالإشارات الأخرى، في حين كان علم الدلالة أو المعاني يبحث في الصلات بين الإشارات والأشياء التي يمكن تطبيق هذه الإشارات عليها، أما علم البراغماتية فيجب أن يُكرَس لدراسة العلاقات بين الإشارات ومستخدميها أو مترجميها، وبعبارة أخرى تتعامل البراغماتية مع الجوانب الحيوية لنشاط الإشارات، أي مع كل الظواهر النفسية، والبيولوجية، والاجتماعية التي تحدث خلال عمل الإشارات ... أو إن أي قاعدة تدخل فعليًّا في الاستخدام تعمل كنوع من السلوك، وبهذا المعنى هناك عنصر براغماتي عملي في جميع القواعد"(٢).

تعريف جيف يتمحور حول مفهوم التداولية: أنها استعمال اللغة في التواصل، لكنه يذكر أنها لها علاقة بعلم الرموز، فعلم البراغماتية كما يرى (يجبأن يكرس لدراسة العلاقات بين الإشارات ومستخدميها أو مترجميها)، وهذا يعني أن مهمة البراغماتية تتمحور حول تفسير الإشارات وعلاقاتها بأصحابها، هيعلم يفسر الإشارات اللغوية وغير اللغوية،وهو الجانب الذي نريد أن نؤكد عليه هنا، ثم يضيف أن التداولية تتعامل مع كل الظواهر النفسية والاجتماعية التي تأتي ضمن الإشارات، ويضيف أيضًا:

١ــ تأكيده على فكرة أن التداولية هي استعمال اللغة: قال: "هناك رؤية بديلة، وهي التعاطي مع البراغماتية كوجهة نظر قابلة للتحديد ومعينة حول اللغة، وعلى وجه الخصوص كمنظور وظيفي يدرس اللغة من وجهة نظر ظواهر وعملية استخدامها، وبما أن استخدام اللغة ينطوي على البشر في كل تعقيداتهم، فإن وجهة

---

(١) مبادئ التداولية: ٢٤

(٢) دليل راوتليدج لعلم السيمياء واللغويات: ١٦٥.

النظر المطروحة هى بالضرورة متعددة المجالات، وتلامس جوانب الإدراك، والمجتمع، والثقافة في نهج متماسك ومتكامل، دون تفضيل لأي من وجهات النظر الخاصة هذه"[١]، إن جيف يحاول توسيع نطاق مفهوم استعمال اللغة كتعريف للتداولية، لكننا نراها فن التواصل بكل الوسائل.

٢ــ أن مفهوم التداولية عنده له عمق أكبر من خلال إدراكه لخلفية الحدث النفسية والاجتماعية، بما يعني عدم عزل الحدث عن ملابساته، ولكننا نختلف معه في أن اللغة وحدها كإشارة لا تكفي لتفسير الحدث، فهناك عمليات أخرى: الوعي والانتباه ترافق الحدث، تجعل المتلقي يفهم الرسالة بعمق أكبر وأصح من مجرد سماعها كرسالة لغوية.

إذن التداولية: إشارة + ظاهرة أو خلفية نفسية واجتماعية ترافقها = فهم للحدث.

٣ــ يؤكد فكرته عن التداولية في موضع آخر من خلال إشارته لمهمة التداولية. قال: "وتتمثل مهمة البراغماتية، كعلم متخصص في استخدام اللغة، في إخضاع هذا العالم التحاوري التخاطبي إلى فحص دقيق ومنهجي، فالبراغماتية بهذا المعنى تختلف عن الدراسات التواصلية فقط في أن تركيزها يتمحور حول اللغة. ولكن الطبيعة الذاتية لهذه المبادرة تفرض عدم إعطاء حرية لعلماء البراغماتية في تجريد وتلخيص كل مواضع استخدام اللغة من المحددات غير اللغوية"[٢]، إنه تراجع منه عن أن تكون التداولية هى استعمال اللغة فحسب؛ لأن هذا سيحرمنا من النظر إلى تأثير العناصر غير اللغوية التي توجد في الحدث وتوضح المقصود منه، فهي خلفيات نفسية واجتماعية لابد منها.

رابعًا: علم اللغة التداولي :

ارتبط علم اللغة بعلم البراجماتية من جوانب عدة يمكن أن نأخذ لمحة عنها من كلام ارنست عندما يقول: "يمكننا أن نحاول أن نميز مجال موضوع علم اللغة البراجماتي بأن نقدم ابتداء تعريفات عامة قدر الإمكان، وأن نبحث صلاحيتها، ثم حين تبدو مقبولة نحصره بشكل أدق، يمكن للمرء في الغالب أن يجد المفهوم الآتي العام للغاية (علم اللغة البراجماتي: هو علم استعمال علامات لغوية، يتضمن هذا

(١) دليل راوتليدج لعلم السيمياء واللغويات: ١٦٦
(٢) دليل راوتليدج لعلم السيمياء واللغويات:١٦٨

التعريف العام للغاية موضعي ربط مهمين جدًّا: بوجه خاص كلمة استعمال تلفت أنظارنا، فلا حديث في علم اللغة النظامي في أي مكان عن استعمال اللغة، ويمكن أن يدل استعمال علامات لغوية على أنه يجب أن توجد أنواع أخرى من الاستعمالات أيضًا. وكما أشرنا فيما سبق، تُفهم البراجماتية غالبًا على أنها المفهوم الأوسع، والأعم، الذي يتعلق بالفعل الإنساني بوجه عام، وعلم اللغة البراجماتي المفهوم التحتي الأضيق المحصور في الفعل الإنساني باللغة"[1].

لقد انطلق مفهوم علم اللغة البراجماتي من العلاقة بين اللغة والبراجماتية؛ لذا من الطبيعي أن يكون مفهوم البراجماتية عنده هو استعمال اللغة.

المحور الثاني: أهم وسائل التواصل التداولي :

عالم من التواصل :

تحت هذا العنوان يطرح جيف مفهومه عن التواصل قائلا: " إن العالم الاجتماعي هو بحق عالم التواصل، والمحادثة أو الخطابة، والحقائق الواضحة الجلية هي المحادثات والاجتماعات، والإعلانات، والكتب والمجلات، والإذاعة والتلفزيون"[2]، يشير جيف إلى أن العالم الذي نحيا فيه يهدف بكل مكوناته إلى تحقيق التواصل، فلا غنى لنا عن هذه المكونات لكي يتحقق التواصل بيننا، لكن هناك أشياء تحقق التواصل أهمها اللغة:

١ – اللغة أهم وسائل التواصل :

تعد اللغة أهم وسائل الاتصال، إذن ما دور اللغة في التواصل ؟، يقول جاك موشلار: "يمكن طرح فرضية أخرى مفادها أن اللغة تمكننا من أن نطلب ما نريد بواسطتها، وأن نحصل عليه، وأننا لا نحصل نظريًّا على أي شيء دون استعمال اللغة"[3]، هذه الفرضية حقيقية، لكن حاجات الإنسان في الحياة لا يمكن قصرها على التواصل فقط، فالإنسان يحتاج إلى اللغة للتعبير عن نفسه مع نفسه (الكلام الداخلي)، الذى لا يريد به مخاطبة الآخرين، يقول موشلار: "إن السؤال الذي يُطرح إزاء هذه الفرضية ... يدور على حاجة الإنسان إلى تجاوز مستوى التواصل المتحقق لدى أنواع أخرى، أو لدى أنواع قريبة منه ليقوم بمهام تبدو جوهرية مماثلة، وهى مهام تنجزها

(١) علم اللغة البراجماتي الأسس. التطبيقات. المشكلات: ٣١
(٢) دليل راوتليدج لعلم السيمياء واللغويات:١٦٧
(٣) التداولية اليوم علم جديد في التواصل: ١٧

هذه الأنواع بكيفية مرضية من وجهة نظر التطور"(١) لهذا يرى أن اللغة ذات أغراض أخري، يقول: "ومهما يكن من الأمر، فإنه بإمكاننا أن نستخلص أن اللغة – أولًا وقبل كل شيء – تعتبر على الأرجح أداة لتمثيل المعرفة والمعلومة وإبلاغها"(٢)، وتمثل المعرفة والعلوم والكون داخل الدماغ. يعد، هدفًا أساسيًّا لتحقيق التواصل، وأن اللغة أهم وسائلنا لتحقيق هذا الغرض.

٢– ليس باللغة وحدها نتواصل :

لكننا لا نتواصل معًا باللغة وحدها، بل لدينا قدرات أخرى تمكننا من ذلك، كالقدرة على الاستدلال والاستنباط، هذه القدرات مرتبطة بقدرات أخرى، بل هي ما يصنع القدرة التالية وهي القدرة على التأويل، فالذي لديه القدرة على الاستدلال يمكنه، بعد ذلك، أن يفسر ما يراه بناءً على ما استنتجه بالاستدلال، يقول جاك: "لا يتم إنتاج اللغة وتأويلها اعتمادًا على عملية الترميز وفك الرموز فحسب، إنما اعتمادًا كذلك على عمليات استدلالية تقوم على استراتيجية المؤول وتُوظِّف القدرات البشرية العامة، وهي قدرات لا تختص باللغة وإنتاجها وتأويلها"(٣).

إنها قدرة مستقلة عن ذلك،فلا يتم إنتاج اللغة وتأويلها وفهمها اعتمادًا على ما تقدمه لنا من رموز مكتوبة أو منطوقة فحسب، بل نعتمد في هذا على عملية استنتاج واستدلال تمثل طبيعة قدرة الدماغ البشري وإمكانياته.

فهي مزودة من عند خالقها الله سبحانه وتعالى بالقدرة على الاستنتاج والاستبطان والاستدلال، فيستطيع الإنسان أن يستخدم هذه القدرة ويوظفها لفهم كل شيء في عالمه، والوصول إلى نتائج عامة ومعلومات يستنتجها مما يصنعه مخه أثناء عملية التفكير. هذه القدرة لا تختص بعملية معالجة اللغة فحسب، بل تختص بعملية مقولة كل ما في عالمه لفهمه عن طريق الاستنتاج والاستدلال؛ فتخلق صورة عامة للشيء، وفكرة عامة لمجموعة القضايا والأمور المعروضة عليه في اللحظة الآنية، فتقوم هذه القدرة بهذا العمل.

(١) التداولية اليوم علم جديد في التواصل: ١٨
(٢) التداولية اليوم علم جديد في التواصل: ١٩
(٣) التداولية اليوم علم جديد في التواصل: ٢٥

إذن، ما علاقة هذا بالتداولية ؟، يقول جاك موشلار وزميله: "فلن يدور كلامنا على اللسانيات بالمعنى الضيق للمصطلح، أي إننا لن نتحدث في شأن المظاهر الترميزية للغة، ولن نعالج إلا عمليات التأويل التي تلتصق بالترميز لتمكن من التأويل التام للجمل، أي التأويل التداولي"(١).

هذا القول يشير إلى مفهوم التداولية عندهما، فهي لا تعتمد على اللغة في تأويل وتفسير الأحداث والأشياء وحسب؛ فاللغة كرموز لها معانيها المحددة لا تكفي لفهم الأحداث والأشياء وحدها.

بل يجب أن تكون هناك عناصر أخرى في الحدث الكلامي تمكننا من تأويله بصورة صحيحة. هذا ما يجعل التداولية مطلبا أساسيا لفهم الأحداث والأشياء، فالذي يرى طائرًا في السماء إذا سألناه: ما تفسيركلهذا الحدث ؟؛ فيقول المضمون اللغوي للعبارة: إنه مجرد طائر كآلاف الطيور، يطير في السماء، لكن حقيقة الأمر غير ذلك، حيث ستختلف إجابات الناس حسب اهتماماتهم، فقد يكون هذا الرجل مسافرًا في الصحراء، فيقول: هذا دليل على وجود بئر ماء قريب من هنا، وقد يكون الرجل صيادًا؛ فيسرع باصطياده، وقد يكون الرجل من الذين يؤمنون بالفأل؛ فلا يسير في هذا الطريق، وقد يكون وقد يكون الخ، هذا يعني أن إدراكنا للعبارة وللشيء والحدث الواحد يختلف من شخص إلى آخر، فتأتي التداولية لتفسير الحدث وتأويله حسب استنتاج واستدلال كل شخص له، في ضوء ملابسات الحدث، من الافتراض المسبق والاستلزام الحواري وقصدية المتكلم. إذن هناك أمور تشكل خلفية الحدث يجب معرفتها لتفسيره وتأويله بصورة صحيحة، وهو ما تسعى إليه النظرية التداولية، اعتمادًا على عمليات عقلية تقوم على قدرة داخل الدماغ، مختصة بهذا الشأن؛ لذا يجب ألا نعتمد على اللغة وحدها في عملية الاستدلال والاستنتاج، بل يجب أن نستعين بقرائن أخرى.

٣- اللغة والرموز والتواصل :

إن اللغة التي نتواصل بها ليست رموزًا فحسب، بل يُضاف إلى ذلك أشياء غير لغوية مع الرموز اللغوية لتحقيق التواصل، وكذا نجاح عمليات الاستدلال، فعندما

---

(١) التداولية اليوم علم جديد في التواصل: ٢٦

نفهم ملابسات الحدث وما يحيط به من أشياء يمكننا أن نستنتج ونستدل على أشياء أخرى، لمتُذكَر ضمن الرموز اللغوية للحدث، وبعضها لم تُذكَر بصورة صريحة، يقول موشلار: "ساد الاعتقاد بأن اللغة تشتغل على نحو يشابه – على سبيل المثال – نظام إشارات المرور، رغم أن عملها يجري بكيفية معقدة للغاية." [1]، ويقول: "ومع أن اللغة لا تختزل في نظام ترميزي شفاف للتواصل، فإن استعمالها وإنتاج الجمل وفهمها، كل ذلك يتطلب معارف غير لغوية ويستلزم عمليات استدلالية"[2].

إذن الاستدلال هو عنصر أساسي في فهم مجمل الرسالة اللغوية، وكيفية استعمال اللغة في التواصل، "وعلى هذا النحو، ليس إنتاج اللغة وتأويلها عمليتين قائمتين على نظام ذي طابع ترميزي حصرًا. فوجود نظام ترميزي والمواضعة في اللغة لا شك فيه، إلا أن استعمال اللغة لا ينحصر على مجرد عملية ترميز (بالنسبة إلى الإنتاج) وفك الرموز (بالنسبة إلى التأويل)، وزيادة على هذا، فإن العمليات الاستدلالية التي تُضاف إلى عمليات الترميز البسيطة ليست من خصائص استعمال اللغة، فليس في مثل عملية الاستدلال المذكورة أعلاه ما يجعلها (لغوية) فهي استدلال نقوم به دائمًا لنقرر ما إذا كان صديق ما موجودًا في بيته (سيارة زيد موجودة أمام بيته، لا ينتقل زيد البتة دون استعمال سيارته حتى لشراء الخبز، إذن إذا كانت سيارته موجودة فهو موجود كذلك) ... وهكذا ، فإن اللغة وإن كانت نظام ترميز مستقلًا، فإن استعمالها لا يمكن فصله عن القدرات البشرية (الاستدلال والمعارف التي تخص الكون) التي ليس لها البتة أية صبغة لسانية"[3].

٤– مقارنة بين قدرة التداولية وقدرة الحاسوب على التواصل :

يظهر عجز الحواسيب والآلات الأخرى كآلة تورنيغ عن مجاراة القدرة البشرية على فهم الكلام، والحوار ونجملهذا العجز في النقاط التالية:

أ) فهم الجمل وإنتاجها، هي مسائل تتجاوز القدرات الحالية للحواسيب وهذه الظاهرة لا تعود إلى القدرات المادية للحواسيب (سعة الذاكرة ...الخ)، بقدر ما تعود

(١) التداولية اليوم علم جديد في التواصل: ١٩
(٢) المرجع السابق: ١٩
(٣) نفسه: ٢٢

إلى صعوبة إنتاج البرامج المناسبة"[(١)]؛ لأن هذا الأمر يحتاج إلى قدرات لا توجد إلا في الدماغ البشري.

ب) "وأن التأخر المسجل في الهندسة اللسانية يرجع إلى حصر نظرها إلى اللغة في مظاهرها اللساني (الشكلي)، إذ اعتبرتها سلسلة من الكلمات المتعاقبة التي تكوّن جملًا، وتنويعًا شكليًّا بين الكلمات تنتمي إلى عائلة واحدة (تصريف الأفعال على سبيل المثال) ... الخ.

إننا لم نأخذ بعين الاعتبار كما ينبغي، استعمال الناس للغة، وكيفية استخدام الجمل للتعبير عن الأفكار، واستعمال العبارات لنعين بها أشياء أو لنقول أمرًا ما في شأنها، بل الأهم من هذا أننا لم نأخذ في الحسبان أيضًا كيف يستند هذا الاستعمال إلى كمية ضخمة من المعارف حول الكون، والتي يعتمد عليها المخاطبون ليستدلوا على ما يريد المتكلم (القائل) أن يقوله لهم"[(٢)].

إن الاستعمال البشري للغة يختلف عن استعمال الآلة؛ فالآلة تعمل في إطار ما خُزِّن فيها من معلومات وبرامج خاصة بهذه اللغة، لكننا لم نخزن فيها قرائن الحدث اللغوي، وملابساته (من افتراض مسبق واستلزام حواري وقصدية المتكلم)، وخلفياته، ومعلومات عن المتكلم قد تغير من فهمنا للجملة كقولنا: فلان يهودي حقًّا. فهي تعني تدينه باليهودية وإخلاصه لها (لدى أصحاب الديانة اليهودية)، وهيتعني أن الرجل بخيل جدًّا (لدى عامة الناس)، فاستعمال اللغة بين الناس لا يقوم على تدوين الأسماء والأفعال وأنماط الجمل المختلفة وتنوعها (عند تدوينها في الحاسوب)، بل يضاف إلى ذلك كمية ضخمة من المعارف حول الكون وأشياء خاصة جدًّا بالآخر، كي نفهم المتكلم، هذا ما نقصده بعمل التداولية التي تقوم بتحليل خلفيات الحدث النفسية والاجتماعية واللغوية كي نفهمه الحوار بعمق أكبر، فالتداولية فن التواصل بلا منافس.

المحور الثالث: الدلالة ومفهومها التداولي :

مقدمة :

ارتبطت التداولية بالدلالة ارتباطًا قويًا، فالتداولية (بوصفها فن التواصل) لا يتحقق وجودها إلا بتحقيق التواصل بين الناس، ولا يتم التواصل إلا على أساس الفهم

(١) التداولية اليوم علم جديد في التواصل: ١٣
(٢) التداولية اليوم علم جديد في التواصل: ١٤

الصحيح المتبادل بينهم؛ وذلك بتوصيل المعانيالصحيحة بين المتكلمين توصيلًا دلاليًا واضحًا. لهذا يمكننا القول: إن توصيل الدلالة هي رسالة التداولية، والغرض المستهدف منها، فإذا لم يتم توصيل المعاني بين الناس فإن هذا يعني فشل التداولية في تحقيق الغرض منها، فهي عملية توصيل الدلالة لهذا كان علينا دراسة العلاقة بينهما، ونجعل لها محورًا مستقلًا لبيان هذه العلاقة بين الدلالة والتداولية.

أ) **المعنى عند البلاغيين :**

وإذا أعدنا النظر إلى قضية المعنى من الجانب التداولي العصبي وجدنا أننا أمام جزء في المخ مسؤول عن عمليات تتم داخلنا بصورة تلقائية، ربما لا ندركها إلا إذا نُبْهِنا إليها، وهي أن في المخ جزءًا مسؤولًا عن العمليات غير اللغوية، وهي في الحقيقة مكملة للجانب اللغوي، تلك التي تشترك مع الجانب اللغوي في إنتاج لغة سليمة، وفهم دقيق لما يُقال، والقدرة على الدخول بعمق في فحوى الرسالة اللغوية/ الشفرة اللغوية.

لقد بيَّن البلاغيون أنواعًا من المعاني. فذكروا أن هناك **معنى أول**: المعنى المعجمي، **ومعنى ثان**: المعنى المجازي، **ومعنى ثالث**: المعنى الإيحائي الذي تحمله الرسالة في ألفاظها من إيماءات وإشارات وتلميحات لا تظهر بصورة مباشرة في نص، لكن يفهمها القوم.

هذه المعاني التي أشار إليها البلاغيون، ويتبادلها الأشخاص أثناء حديثهم، ويضعونها ضمن رسائلهم اللغوية، وعباراتهم اليومية المتبادلة؛ لا تعبر بدقة عن مضمون الرسالة المرسلة بين الطرفين، فهناك جزء أساسي وحيوي في القضية، ربما كنَّا لا ندركه من قبل، أو نعيره انتباهنا، أو ندخله ضمن تحليلنا لمضمون الرسالة الآتية إلينا. على الرغم من كونه حيويًّا وأساسيًّا في فهم الرسالة بدقة، وهو هل فهمنا هذه المعاني المتبادلة بين الأشخاص أثناء حوارهم كما صدرت على ألسنة أصحابها ؟، وهل فهمنا الغرض منها ؟، إنه سؤال كبير تقوم عليه العملية التداولية لتحقق التواصل، إننا نكون قد نجحنا تداوليا إذا فهمنا العبارة كما قالها أصحابها بكل مضامينها ومعانيها، أي فهمنا قصدهم منها. وهو ما قالت به النظرية التداولية، وجعلته من أركانها، وسمته **(قصدية المتكلم)**.

والحقيقة أن هذا الأمر لا يتحقق تمامًا، ربما بنسبة سبعين في المائة في أحسن الأحوال، (ولا تكون هذه النسبة إلا في الحديث المتبادل بين الشركاء المتفاهمين تمامًا)، لماذا؟؛ لأن هناك معلومات في الرسالة لا يُظهرها نصُها اللفظي، بل تُفهم من أشياء كثيرة أخرى، مثل: الافتراض المسبق والاستلزام الحواري وقصدية المتكلم والإشاريات التي تتضمنها الرسالة (مكانية، وزمانية)، وكلها عناصر قالت بها النظرية التداولية، تحقيق التواصل التداولي بين الأشخاص، وحتى في حالة الشريكين المتفاهمين – لا يحدث تفاهم تام بينهما، أي فهم مضمون حديثهما تمامًا خصوصًا إذا وجد طرف آخر منافس لهما لا يريدان الحديث أمامه، فيحاولان إخفاء كلامهم عنه، وتلغيزه أمامه.

أما في حالة المرض، فإن المصاب بآفة في النصف الأيمن من المخ يفقد كثيرًا من القدرات التي لدى الأصحاء، مثل فقد القدرة على الربط بين المعلومات الواردة من نصفي المخ، فهو يتلقي الرسالة الواصلة إليه بحاستي السمع والبصر، فيعرف مضمونها اللغوي بصورة حرفية في النصف الأيسر من المخ، الذي فيه (بروكا وفيرنيكا)، وبهذا يكون قد فهم المعنى الحرفي لها فقط، ثم يرسلها للنصف الأيمن من المخ المكلف بتفسير المضامين الأخرى للرسالة، وهو ما ذكرناه آنفا من المعنى المجازي: (كالاستعارة والمجاز والكناية والتشبيه) والإيحائي، والإيماءات والإشارات وملامح الوجه وتعبيراته، وغيرها من المضامين غير المنطوقة التي في الرسالة.

هنا يقف هذا الفرد المصاب في دهشة، ليس مما يسمع (فقد فهمه أو هكذا يظن)، ولكن مما يراه يحدث حوله، كرد فعل على ما سمعه، فقد حدث خلاف ما كان يتوقعه، حيث يرى القوم يضحكون وهو لا يدري ولا يفهم لماذا يضحكون ؟ فتلك المضامين غير المنطوقة التي في العبارة، ليست مفهومة عنده؛ لهذا فهو في دهشة مما يراهم يفعلونه، لكنه يحتمي بالمعنى الحرفي للرسالة، ليُبدي للقوم أنه فهم قولهم، بل إنه يضحك مثلهم.

هذا الأمر يجعلنا نفهم سلوك هذا الشخص المريض، ونفسر بسهولة كل ما يفعله؛ لأننا فهمنا أن الإصابة التي عنده في النصف الأيمن من المخ، وهو الجزء المسؤول عن تفسير هذه الأشياء والأحداث، فلا غرابة أن يقف أمامنا في دهشة غير فاهم لهذا التشبيه أو هذه الفكاهة، كما أننا نفهم من هذا الأمر أن التواصل بيننا لا يتم باللغة

وحدها، بل هناك النصف الأيمن من المخ المسؤول عن جانب التداولي التواصلي، وهو تفسير المضامين غير المنطوقة التي توجد في الرسائل المتبادلة بين المتكلمين – كما قال أوبلر – إنه مستوى من الإدراك أعلى من المستوى الذي يحققه النصف الأيسر من المخ، على الرغم من أن النصف الأيسر هو النصف المسيطر على الجانب اللغوي بكل مستوياته، بل إنه يكبت النصف الأيمن من المخ؛ ليحقق سيطرته على اللغة، فما لدى النصف الأيمن من قدرة لغوية مكبوتة، ولا تظهر إلا في حالة استئصال النصف الأيسر من المخ.

ب) جيف فيرشويرين :

إن مفهوم المعنى في النظرية التداولية يختلف عنه في النظرية الدلالية، يقول جيف عن هذا الفرق: "يدرس علم الدلالة المعنى خارج السياق، في حين يدرس علم الدلالة البراغماتي المعنى في داخل السياق)"[(١)]، هنا يظهر دور التداولية وعلاقتها بالحدث والسياق الذي يتم فيه الحدث، فلا ينفصل الحدث عن الخلفية النفسية والاجتماعية له. فالدلالة عنده مجموع هذه الأشياء معًا لغوية وغير لغوية، فكل إشارة أو إيماءة للحدث أو في إطار الحدث تعني إضافة دلالة جديدة للحدث، وبيان لخلفياته؛ لفهمه بوضوح.

ويؤكد جيف على رأيه هذا في موضع آخر من دراسته قائلا: "من منظور براغماتي، إن كل استخدام للغة يؤدي إلى معنى، على عكس علم الدلالة الذي يدرس العلاقات المتبادلة بين المعاني والأشكال كجزء من بنية اللغة، فإن البراغماتية تركز على عمليات توليد المعنى، وإن الهدف الأساسي من علم البراغماتية هو الحصول على رؤية حول الوظيفة المعنوية للغة في حياة البشر" [(٢)].

إن التداولية تصنع لنا نظرة واسعة حول الحدث وملابساته أكبر من المعنى الدلالي للكلمات والعبارات. فهي تعطي اللفظة حياة وروحًا أكبر وأوسع من المعنى المعجمي، إن الدلالة التداولية خلق للمعنى؛ لنراه بصورة أكبر وأعمق فيها، فتصبح للعبارة والكلمة دلالات مستوحاة من السياق الذي ترد فيه من: (سياق لغوي، ونفسي، واجتماعي)، فنفهمه وندركه بصورة أعمق.

(١) دليل راوتليدج لعلم السيمياء واللغويات:١٦٦
(٢) دليل راوتليدج لعلم السيمياء واللغويات:١٧١

ت) المعرفية التداولية الدلالية الشاملة :

يشير جيف إلى المعنى الذي تصنعه التداولية في رأس الفرد، وقد سماه المعرفية التداولية الشاملة، فتعريف التداولية أنها استخدام اللغة يعد قاصرًا أمام واقع التداولية التي تعني النظر إلى الأحداث والأشياء نظرة شاملة، فالعمليات التي تُنتِج المعاني من السياقات المختلفة تَنتُج عن عمل المخ، يقوم بها هو، مثل: الإدراك والتخطيط وغيرهما إلى جانب هذا، هناك الوعي الانعكاسي، ويقصد به الوعيوالفهم لمدى إدراك الآخرين للأشياء، هذا يعنى أننا نضع أنفسنا مكانهم، ونفكر كما يفكرون. فهي قدرة في المخ البشري على رؤية الأشياء كما يراها الآخرون؛ لهذا سماها بالوعي الانعكاسي.

يقول جيف: "إن توليد عمليات المعنى الواقعة في سياق ما والتى تشكل جوهر استخدام اللغة تتحقق من خلال العقل البشري. من الواضح أن العمليات المعنية في ذلك هي الإدراك والتمثيل، والتخطيط والذاكرة. ولكن هناك ما هو أكثر من ذلك. إذ بدون الوعي الانعكاسي أو المعرفة البراغماتية الشاملة لما يفعله أحد ما عند استخدام اللغة لا يمكن لاستخدام اللغة إطلاقًا أن يكون عملية لتوليد المعنى الذي نعرفه، إن الوعي الانعكاسي هو وظيفة لقدرة الإنسان الفريدة على رؤية الآخرين ككائنات عقلية تمامًا مثله هو"(١).

وانطلاقًا من هذا الفهم للوعي الانعكاسي بأنه: فهم لكيفية تفكير الآخرين يقول: "فهذا ما يتيح لمستخدمي اللغة أن يبتدعوا أقوالًا لتوجيهها إلى جماهير محددة، وأن يستبقوا التفسيرات، وأن يضعوا الفرضيات حول المعنى الذي يقصده المتكلم، وأن يتابعوا المدى الذي يفهم فيه المفسر كلام أحد ما"(٢)، إن جيف يأخذ بما تقوله العامة: (حط نفسك مكاني لتلتمس لي العذر)، أي فكر في إطار الظروف التي أعيشها أنا لحظة الحدث؛ لتلتمس لي العذر، هنا تبدو القدرة الكامنة لدى المخ البشري على استحضار ظروف والملابسات وأحوال الآخرين؛ لفهم سلوكهم، أي:خلق تفسير لما سلوكهم يفعلونه؛ فإطار هذه الملابسات التي يعيشونها. هذا الأمر يؤدي إلى التفكير بطريقتهم وفهم سلوكهم وتوقع ما سيفعلونه مستقبلًا. هنا تظهر قيمة النظرة التداولية الشاملة في فهم الأحداث والأشياء والأشخاص، فكلها تمثل خلفيات الحدث، وكيفية

(١) دليل راوتليدج لعلم السيمياء واللغويات:١٨٠
(٢) المرجع السابق:١٨٠

معرفة ردود أفعال الآخرين، وما نتوقعه منهم بفضل الوعي الانعكاسي، والمعرفة التداولية الشاملة.

ث) المعنى السياقي التداولي عند جورج يول :

التداولية هي المعنى، يقول جورج يول: "تختص التداولية pragmatics بدراسة المعنى كما يوصله المتكلم (أو الكاتب) ويفسره المستمع (أو القارئ)؛ لذا فإنها مرتبطة بتحليل ما يعنيه الناس بألفاظهم أكثر من ارتباطها بما يمكن أن تعنيه كلمات أو عبارات هذه الألفاظ منفصلة، **التداولية هي دراسة المعنى الذي يقصده المتكلم**"(١).

هذا التعريف ينطلق من دراسة الرسالة التي توصلها التداولية، وهو كنه عملها، فهي فن التواصل بين الناس؛ لهذا عد جورج يول التداولية: أنها النظرية التي تدرس المعنى؛ لمعرفة قصد المتكلم، وهل فهمه المستمع كما قصده المتكلم أم لا ؟ وسعيًا وراء هذا المفهوم في تعريف التداولية عهد يول إلى السياق ليقوم بصناعة المعنى". ويتضمن ميدان الدراسة هذا بالضرورة تفسير ما يعنيه الناس في سياق معين، وكيفية تأثيره في ما يُقال. كما يتطلب أيضًا التمعن في الآلية التي ينظم من خلالها المتكلمون ما يريدون قوله وفقا لهوية الذي يتكلمون إليه، وأين، ومتى، وتحت أية ظروف. **التداولية هي دراسة المعنى السياقي**"(٢).

ويرى التداولية أنها تعني كيفية الاستدلال واستنباط المعنى من الكلام. فهي في حقيقتها عملية عقلية، أي: أنها عملية إدراك تقوم على عمل الدماغ. يقول يول: "يدرس هذا المنهاج أيضًا الكيفية التي يصوغ من خلالها المستمعون استدلالات حول ما يقال للوصول إلى تفسير المعنى الذي يقصده المتكلم، ويبحث نوع الدراسة هذا في كيفية إدراك قدر كبير مما لم يتم قوله على أنه جزء مما يتم إيصاله. بإمكاننا القول إنه دراسة المعنى غير المرئي invisible meaning. **التداولية هي دراسة كيفية إيصال أكثر مما يقال**"(٣).

(١) التداولية: جورج يول، تر/ د. قصي العتابي، دار الأمان الرباط، ط/الأولى ٢٠١٠م، ص ١٩
(٢) التداولية: ١٩
(٣) التداولية: ١٩

ثم يتكلم عن الجانب الأخير يقول: "يثير هذا المنظار التساؤل حول ما يمكن أن يحدد ما يقال وما لم يتم قوله، ويرتبط الجواب الرئيس بمفهوم التباعد distance. ينطوي القرب المادي أو الاجتماعي أو المفاهيمي على خبرة مشتركة، حيث يحدد المتكلمون مقدار ما يحتاجون قوله بناءً على افتراض قرب المستمع أو بعده، التداولية هي دراسة التعابير عن التباعد النسبي، هذه هي المجالات الأربعة التي تهتم التداولية بدراستها ولكي نفهم كيف اختصت التداولية بدراسة هذه المجالات دون غيرها، علينا أن نستعرض باختصار علاقتها بمجالات التحليل اللغوي الأخرى"[(١)].

ج) الدلالة التداولية عند د. محمود نحلة :

يعرف د. نحلةالتداولية قائلا:"من هنا كان أوجز تعريف للتداولية وأقربه إلى القبول هو: دراسة اللغة في الاستعمال in use أو في التواصل in interaction؛ لأنه يشير إلى أن المعنى ليس شيئًا متأصلًا في الكلمات وحدها، ولا يرتبط بالمتكلم وحده، ولا السامع وحده، فصناعة المعنى تتمثل في **تداول** negotiation اللغة بين المتكلم والسامع في سياق محدد (مادي، واجتماعي، ولغوي) وصولًا للمعنى الكامن في كلام ما"[(٢)] .

هذا التعريف اعتراف صريح أن التداولية: دراسة اللغة في الاستعمال والتواصل، فهو يَعُدُّ التداولية دراسة استعمال للغة فقط، كوسيلة للتواصل، وهذا غير صحيح، بل هو مفهوم قاصر عن التداولية، فهي لا تدرس اللغة فقط، بل تدرسها كإحدى الوسائل التي تحقق التواصل بين الناس: إشارات وإيماءات وأيقونة وغيرها مما يفعل ذلك من وسائل الاتصال.إن التواصل أكبر من أن نقصره على اللغة وحدها، بل ننظر له على حقيقته. وفى إطار عرضه لمجالات البحث التداولي يؤكد على رأيه قائلا: "ولما كان مجال البحث في التداولية شديد الاتساع فقد أخذت تظهر لها فروع يتميز كل منها عن الآخر، فهناك التداولية الاجتماعية التي تهتم بدراسة شرائط الاستعمال اللغوي المستنبطة من السياق الاجتماعي ... ثم التداولية العامة، وهي التي تُعنى بدراسة الأسس التي يقوم عليها استعمال اللغة استعمالًا اتصاليًّا" [(٣)].

---

(١) التداولية: ٢٠

(٢) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: د محمود نحلة، مكتبة الآداب القاهرة، ط١، ٢٠١١، ص١٤.

(٣) التداولية: ١٥

وأيضا في إطار عرضه لآراء الباحثين يؤكد د.نحلة مرة ثالثة على أن التداولية استعمال اللغة، مستشهدًا بآرائهم قائلا: "وقد حدد بعض الباحثين ما تتميز به التداولية عن غيرها من اتجاهات البحث اللغوي بما يأتي:

١- التداولية تقوم على دراسة الاستعمال اللغوي أو هي لسانيات الاستعمال اللغوي، وموضوع البحث فيها هو توظيف المعنى اللغوي في الاستعمال الفعلي من حيث هو صيغة مركبة من السلوك الذي يولد المعنى ...

٢- التداولية تدرس اللغة من وجهة وظيفية عامة (معرفية واجتماعية وثقافية).

٣- تعد التداولية نقطة التقاء مجالات العلوم ذات الصلة باللغة بوصفها وصلة بينها وبين لسانيات الثروة اللغوية"(١).

إنه يفسر التداولية في إطار كونها اتجاهًا للبحث اللغوي فقط. لكن التداولية ليست كذلك، إنها اتجاه فكري فلسفي عصبي، يحلل الحدث في إطار مفهوم يشمل ما سبق، لهذا تلتقي التداولية مع مجالات العلوم المرتبطة باللغة (أي تتعاون معها) من خلال العلوم المعرفية التي تشمل كل العلوم التي تعالج المعلومة في الدماغ. وهي تدرس اللغة أيضًا من وجهة وظيفية (أي: في إطار الوظيفة التي تقوم بها اللغة)، كوسيلة لتحقيق الغرض منها، وهو التواصل،والتداولية (ليس لها وحدات تحليل خاصة بها، ولا موضوع مترابط) إنما هي آلة أو نظرية لتفسير الترابط بين الأشياء والأشخاص والأحداث؛ لهذا عند قيام التداولية بعملها المنوط بها تكون نتيجة هذا أننا نفهم ونفسر كل ما يحدث حولنا من أحداث. إننا نتفق مع الذين يقولون: إن اللغة وسيلة تواصل، وأن التداولية هى استعمال اللغة في التواصل، إلا أن التواصل لا يكون باللغة وحده؛ لهذا نعرض للمفهوم الشامل الذي ذكره د. نحلة حول التداولية بشكل عام؛ والذي أشار فيه إلى استعمال التداولية وسائل أخرى غير اللغة في التواصل.

فأشار إلى الاتجاه الثاني في تعريف التداولية الذي يرى أن التداولية تستعين بوسائل غير لغوية،وبين أهم هذه الوسائل التيتستعين بها التداولية لتحقيق التواصلما ذكرها د. نحلة بقوله: "الاتجاه الثاني يُعْنى بدراسة الاستخدام اللغوي والضوابط التي تحكمه، **ودور [المقام/ السياق غير اللغوي] في التواصل الإنساني**، ويتميز هذا الاتجاه بعناية بكل من المتكلم والسامع والعلاقة بينهما، وما يرافق الكلام من حركات الجسم

(١) التداولية: ١٤ ــ ١٥

وتعبيرات الوجه، ومن يشاركون في الاتصال اللغوي، وبيئة الحدث المكانية والزمانية، كما يهتم بقدرة السامع على الكشف عن مقاصد المتكلم واستجابته لها، وما يستلزمه التواصل من معان مقامية لا تستطيع النظريات الشكلية الكشف عنها أو تحليلها، وأبرز نظريات الاتجاه: اللسانيات الاجتماعية، واللسانيات النظامية، والنحو الوظيفي، والتداولية" (١).

هذا يعني قيامنا بالإحاطة الكاملة بالحدث والشيء والزمان والمكان، هذه العناصر والأسس التي تقوم عليها عملية التواصل بيننا (التداولية)، وهي مصدر المعلومات التي يستقي منها المخ معارفه عن بيئته وعالمه المحيط والتي يقوم المخ بترجمتها إلى دلالات ومفاهيم يقوم عليها تفسيره وتأويله للحدث. فلا غرابة أن يُدخِل المخ ضمن تحليله للمحتوى الدلالي للحدث: تلميحات، وإشارات، وإيماءات تصدر أثناء الحدث ضمن تفسيره وتأويله له، وهذا الأمر يقوم على توجيه الانتباه نحو الشيء المراد معرفته؛ لهذا سندرس الانتباه كعنصر محرك لدماغ الفرد نحو الشيء، ومراكزه في المخ، وسنحلل بعض مبادئ التداولية لدى مؤسسيها لنبين علاقة هذه المبادئ بالمخ.

الخلاصة :

يمكن استخلاص مجموعة من النتائج التي تصور مفهوم التداولية في إطار التعريفات السابقة، وعلاقتها بالبنية العصبية، وهي:

١) التداولية: فن التواصل، هذا الأمر يفرض علينا معرفة وسائل التواصل التي ذكرها الفلاسفة وعلماء اللغة لنتبين أن هذه الوسائل تفوق ما ذكره هؤلاء العلماء والفلاسفة. فالتواصل أكبر من ذلك بكثير، واللغة تعد إحدى وسائله.

٢) التداولية: في حقيقتها مجموعة عمليات عقلية يقوم بها الفرد للتواصل مع غيره.

٣) التداولية: تحتاج منَّا إلى دراسة عميقة لخلفيات المنطوق من عملية الوعي والانتباه واللاوعي، لذا يجب دراسة هذه الأشياء لفهم كيفية أدائها في عملية التواصل.

٤) التداولية: تحتاج إلى دراسة المخ ومراكزه وما يصيبه من آفات تؤثر على عملية التواصل وفهم الآخر.

---

(١) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٥٩ ــ ٦٠

الفصل الثاني
مبادئ التداولية والدماغ

مقدمة:

سبق أن تعرفنا في الفصل السابق على مفهوم التداولية وشيء عن تاريخها. ونحاول أن نعرف التداولية من خلال المبادئ التي أرساها أصحابها. فقد أوْلُوا هذه النظرية اهتمامًا كبيرًا بحثًا وتنقيبًا عن الفكرة ومفهومها، كيف تطورت في عقول أصحابهم ؟ وكيف نمت مع أفكارهم ؟ من لدن بيرس إلى سيرل وغيرهما، والمقصود بهذا العرض ليس بيان مبادئ هذه النظرية، بل الغاية الكبرى من هذا العمل هي بيان ارتباط النظرية التداولية بالدماغ منذ نشأتها، إنها تدور حول كيف يتواصل الإنسان مع أخيه الإنسان. لكن هذا التواصل يقوم أساسًا على عمل الدماغ، فمن ليس له دماغ يفكر بها؛ فلا تواصل بينه وبين غيره، بل هو يحيا حياة الأموات إلا أن فيه روح، فمن الممكن أن يعيش الفرد بلا فكر أو عقل يفكر به، لكنه لن يحيا بلا مخ يعمل.

لقد تفاوت علماء التداولية فيما بينهم في فهم هذه النظرية، وعمق هذا الفهم؛ لأنهم لم يظهروافي عصر واحد، بل في عصور متفاوتة، مرت بمراحل من التطور العلمي والفكري، فهم قد ظهروافي عصور مختلفة حمل فكرُهم وآراؤهم أثارَ هذه العصور؛ لهذا ليس من المستغرب أن يتأثر فلاسفة التداولية المعاصرون مثل سيرل وغيره بالتطور العلمي الحديث خصوصًا في علم الأعصاب الذي ذهبوا إليه ليفهموا عمل المخ ومراكزه المختلفة أثناء العملية التواصلية التداولية، هذا ما يجعلنا نقف معه ومع أمثاله من هؤلاء العلماء، فلا ينكر علينا القارئ العزيز مثل هذا الفعل، لماذا ؟؛ ذلك لارتباطه بقضيتنا الأساسية وهي التداولية العصبية، أي: دراسة النظرية التداولية من منظور عصبي؛ لهذا سنستعرض مبادئ التداولية عند علماء التداولية، لكن ليس كل المبادئ، بل ما اتصل منها بالجانب العصبي، ولن نركز في دراستنا حول هؤلاء العلماء إلا مَن عُرف عنه عنايته بهذا الجانب العصبي في دراسته للنظرية التداولية.

أولًا: مبادئ جون أوستن :

يقول د.نحلة عن أوستن: "يعد أوستن مؤسس هذه النظرية وواضع المصطلح الذي تعرف به الآن في الفلسفة وفي اللسانيات المعاصرة، ... وكان أوستن قد تأثر بما نبه

إليه فتجنشتاين من أن اللغة قد تستخدم لوصف ما حولنا بيد أن هناك حشدًا من الاستعمالات الأخرى للغة لا تصف وقائع العالم كالأمر، والاستفهام، والشكر، واللعن، والتحية، والدعاء، وقدم ثبتًا طويلًا بهذه الاستعمالات المختلفة للغة"[1].

إن أوستن ينظر إلى جانب معين في الحديث هو الجانب التفاعلي، حيث يتفاعل المتلقي مع المتكلم، ويشاركه الحديث بالرد على أسئلته. وهذا ما يعرف بالعبارة الطلبية، فهي تستدعى ردًا من المتلقي، فليست إخبارية، بل تفاعلية تتطلب سلوكًا مختلفًا من المتلقي تجاهها، وتأخذ عقله إلى ناحية أخرى، فالمتلقي ليس متلقيًا فقط، بل متفاعلًا مع الحوار، وعليه أن يجيب على الأسئلة، هذا هو المبدأ الذي أرساه جون أوستن من مبادئ التداولية مبدأ تقسيم الكلام إلى خبري وإنشائي، على أساس الصدق والكذب. وهذا هو تقسيمه عند علماء البلاغة، إلي خبري وإنشائي، والخبري هو مايحتمل الصدق أو الكذب بصرف النظر عن قائله، وهذا المبدأ نعمد إليهلنصل إلى مفهومه التداولي العصبي. فالتواصل يكون بالإخبار عن شيء أوبالأمر بشيء، وهذه أهم أنواع التفاعل بين البشر، فإما أن يكون المتكلم مخبرًا بشيء ما، أو سائلا عن شيء ما، وفي كلتا الحالتين فهو يعتمد على عمليات عقلية أو قل على عمل المخ لإنجاز هذه المهمة التواصلية التداولية.

وقد أشار جاك موشلار إلى تقسيم أوستن الجمل إلى خبرية وإنشائية يقول: "كانت غاية بقية المحاضرات التي ألقاها أوستن ١٩٥٥م وضع أحد أسس الفلسفة التحليلية الأنجوسكسونية في هذه الحقبة موضع سؤال، وهو مفاده أن اللغة تهدف خاصة إلى وصف الواقع: فكل الجمل (عدا الاستفهامية والأمرية والتعجبية) يمكن الحكم عليها بأنها صادقة أو كاذبة ... ولقد أطلق أوستن على هذه الفرضية المتعلقة بالطابع الوصفي للجمل تسمية موحية هي: الإيهام الوصفي ... وانطلاقًا من هذه الملاحظة استنتج أوستن ما يلي: من ضمن الجمل غير الاستفهامية أو الأمرية أو التعجبية، أي من ضمن الجمل الخبرية، توجد الجمل من قبيل (القط فوق الحصيرة) أو (يترل المطر) التي تصف الكون، ويمكن الحكم عليه بالصدق والكذب؛ وتوجد جمل أخرى ... لا تصف الكون ولا يمكن الحكم عليها بمعيار الصدق أو الكذب. فسمى

---

(١) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٦٢

أوستن الجمل من الضرب الأول وصفية، ومن الضرب الثاني إنشائية ... فقسم أوستن الجمل إلى وصفية (خبرية) وإنشائية"[1]، هذا التصور للجمل قال به قبله علماء البلاغة العربية.

"تخلى أوستن عن تمييز الجمل الإنشائية من الجمل الوصفية، وكشف مفهوم العمل المتضمن في القول بوضوح ما يقصده أوستن بالإنشائي ... أقر أوستن بأن كل جملة بمجرد التلفظ بها على نحو جاد توافق على الأقل إنجاز عمل قولي وعمل متضمن في القول، وتوافق أحيانًا كذلك القيام بعمل تأثير بالقول"[2].

تخلى أوستن عن تقسيمه الجملة إلى إنشائية وخبرية، ليدخل بنا إلى تصنيف جديد للجملة. هو رؤية المردود الفعلي للجملة على المتلقي، أي تأثير هذه الجملة على سلوك المتلقي كحدث كلامي. وهذا يعني الاتجاه بمبدئه إلى جهة أخرى هي تفاعل جمل المتكلم مع المتلقي وتأثيرها عليه وإقناعه، وهي عملية عقلية في أصلها. وقسمها إلى مراحل هي:

١ــ القول (إنجاز عمل قولي).

٢ــ العمل المتضمن في القول.

٣ــ القيام بعمل نتيجة تأثيره، هذا يعني أن الحوار الكلامي يمر بمراحل ما سموها (أفعال الكلام) هي:

- القول: أي التلفظ بفعل قولي، كأن يقول: حضر زيد أو اكتب الواجب.
- المطلوب من القول: وهو الفعل الإنشائي نحو: اكتب الواجب، كم راتبك ؟
- الفعل الإنجازي: هو رد الفعل على الأمر بكتابة الواجب بأن يقوم بالكتابة كإنجاز له.

إذن الفعل الكلامي يمر بــ : **قول< مطلوب من القول < تنفيذ/ إنجاز القول**

ثانيًا: سيرل ونظرية الأعمال:

قال موشلار عن سيرل:"يحتل الفيلسوف الأمريكي جون سيرل موقع الصدارة من بين أتباع أوستن ومريديه فقد أعاد تناول نظرية أوستن وطور فيها بعدين من أبعادها

(١) التداولية اليوم علم جديد في التواصل:٢٩ ــ ٣٠ ــ ٣١

(٢) التداولية اليوم علم جديد في التواصل:٣٢

الرئيسية هما: القصدية والمواضعات. وبالفعل يمكننا عد الأعمال اللغوية والجمل التي أنجزت بواسطتها وسيلة تواضعية للتعبير عن مقاصد وتحقيقها. وهذا المظهر كان حاضرًا لدى أوستن، ولكن سيعرف أوج تطوره لدى سيرل. لا يهتم سيرل إلا بالأعمال المتضمنة في القول"(١).

يرى د.نحلة أن: "التطور الأساسي للنظرية التداولية تحقق على يد سيرل فيما يعرف بالمرحلة الأساسية الثانية للنظرية، فقد ظهرت على يده نظرية منتظمة لاستعمالات اللغة بمصطلحات الأفعال الكلامية، قائمة على أن الكلام محكوم بقواعد مقصدية، وأن هذه القواعد يمكن أن تحدد على أسس منهجية واضحة ومتصلة باللغة"(٢).

١- التحول إلى فلسفة العقل عنده :

يعد سيرل من فلاسفة التداولية المعاصرين الذين أفادوا من التطور العلمي في علم الأعصاب، وأدخلوه ضمن تفسيرهم للنظرية التداولية، وقد تحول إلى دراسة فلسفة العقل. لهذا نضع سيرل ضمن العلماء الذين نحلل رأيهم بعمق كبير في ضوء تناولهم للنظرية التداولية من الجانب العصبي، وقد "تحول سيرل إلى دراسة فلسفة العقل، ... وهي دراسة المشكلات الفلسفية المتعلقة بالعقل والحالات العقلية، مثل طبيعة العقل، وعلاقة العقل بالجسم، ومعرفة العقل، والوعي، والقصدية"(٣).

إن تحول سيرل في دراسته إلى (فلسفة العقل) جعله يتعمق في قضايا علم النفس، وعلم الأعصاب، فأصبح مفهومه عن اللغة أنها وسيلة لفهم ما بداخل العقل البشري، وكيف تعمل هذه القضايا: الوعي واللاوعي والانتباه داخل دماغه، إنه يدرس هذه القضايا بعقلية الفيلسوف العالم بقضايا العلوم الحديثة وتطورها، مثل: علم النفس والأعصاب والتشريح.

هنا تبدلت هذه المفاهيم الفلسفية لديه، وأصبح ينظر إليها ليس بعقلية الفيلسوف المتأمل فقط، بل العالم الطبيعي الذي يربط الأفكار الفلسفية بالواقع العلمي الحياتي الملموس، وبالمجتمع، وتُعد هذه الأخيرة قمة النضج الفكري لديه.

---

(١) التداولية اليوم علم جديد في التواصل:٣٣

(٢) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٧٤

(٣) العقل واللغة والمجتمع:جون سيرل، تر/ صلاح اسماعيل، المركز القومي للترجمة، ط١/ ٢٠١١، ص٣٣

أين نحن كفلاسفة من واقع المجتمع الذي نعيشه، بل أين نحن من عقلنا/ دماغنا التي نحملها على أكتافنا، ولا ندري شيئا عن كنهها ؟ ثم يربط بين هذا كله في إطار ثلاثيته الآتية: (اللغة، والعقل، والمجتمع). التي جعلها عنوانًا لكتابه.

سبب هذا التحول في فكر سيرل :

"هناك مجموعة من الأسباب وراء هذا التغير، الأول: أنه أصبح واضحًا لعدد كبير من الفلاسفة أن فهمنا للقضايا في عدد كبير من الموضوعات، مثل طبيعة المعنى والعقلانية واللغة بصفة عامة، يفترض مسبقًا فهمًا للعمليات العقلية الأساسية. على سبيل المثال، تعتمد طريقة تمثيل اللغة للواقع على الطرق الأساسية بيولوجيا التي يمثل بها العقل الواقع. وبالفعل فإن التمثيل اللغوي هو توسيع فعَّال للتمثيلات العقلية الأساسية مثل الإدراك الحسي والمقاصد والاعتقادات والرغبات"(١).

أما السبب الأول: هو تطور في عقلية **الباحث والمفكر**. حيث تحول فكر فلاسفة هذا العصر من التأمل الفلسفي إلى الدخول بعمق في النفس البشرية، وما يحدث داخلها من عمليات عقلية تنتج عنها أفكار مختلفة. فبدأ يُعاد النظر إلى اللغة والتمثيل اللغوي للأشياء وللأحداث داخل المخ. وبوصف سيرل أنه في الأصل فيلسوف كان عليه أن يلتحم بالفكر الفلسفي الجديد، ويتحول إليه مع المنهج الجديد كما فعل فلاسفة عصره.

"والسبب الثاني هو ظهور فرع جديد هو العلم المعرفي يسر للفلسفة المجالات الكامنة للبحث في الإدراك البشري في كل صوره، والعلم المعرفي هو دراسة علمية للإدراك والتفكير؛ تتعاون فيه فروع معرفية بينية؛ مثل علم النفس، والفلسفة، وعلم الكمبيوتر، والذكاء الاصطناعي، والأنثروبولوجيا، وعلم اللغة، وفسيولوجيا الأعصاب"(٢).

إذن فالسبب الثاني هو تطور في **آلية البحث** بظهور علم جديد هو العلم المعرفي، وهو يرتبط في حقيقته بالعقل البشري، وما يحدث داخله من عمليات تفكير عميقة، نتجت عنها علوم معرفية كثيرة، تعتمد على عمل العقل في أساسها. لهذا قُسِّمَتْ

(١) العقل واللغة والمجتمع:٣٣.
(٢) المرجع السابق: ٣٣.

العلوم إلى علوم معرفية وغير معرفية. لكن هذه العلوم لم تكن موجودة قبل ظهور العلم المعرفي ؟ والحقيقة أنها كانت موجودة من قبل. لذا قلنا: إعادة تصنيف العلوم، أي أن هذه العلوم كانت موجودة سلفًا، وتم تصنيفها من جديد. فكان على سيرل أن يواكب هذا التطور، ويلتحم به، ويتفاعل معه؛ لهذا نجده يدخل فيه بعمق لم نره لدى الفلاسفة من قبل.

وقد أشار سيرل إلى هذا التحول في سيرته الذاتية قائلًا: "نشأ عملي في فلسفة العقل من عملي المبكر في فلسفة اللغة. وبصفة خاصة نظرية أفعال الكلام، ولقد عُني معظم عملي في فلسفة العقل بموضوعات في القصدية وبنيتها، وعلى وجه الخصوص قصدية الإدراك الحسي والفعل، وعلاقة قصدية العقل بقصدية اللغة، ... وارتبط جانب آخر من عملي بمشكلة العقل والجسد وطبيعة الوعي وبنيته، وعلاقة الوعي باللاوعي، والصيغة الملائمة للتفسير في العلوم الاجتماعية وتفسير السلوك الإنساني بصفة عامة"(١).

لقد تحول سيرل من دراسة فلسفة اللغة إلى دراسة فلسفة العقل؛ فاتجه ناحية قضايا تخص العقل، مثل: قصدية الإدراك الحسي والفعل، وهويعني بالقصدية ما يقصده المتكلم بفعله أو قوله، وكذا إدراكه الحسي لهذا الفعل أو القول، والقصدية تعني: محاولة الدخول إلى باطن عقل المتكلم؛ لمعرفة ماذا يقصد بكلامه وفعله ؟ وإلى داخل الأشياء التي ندركها بحواسنا؛لنعرف الهدف منها، وماذا وراء كل شيء من خلفيات وأحداث تتعلق به. هذه العملية هي عملية عقلية، وعلى المتلقي أن يقوم بها بمخه ليفهمها، ويجد تفسيرًا لها، وهذه القصدية (التي أقام حولها سيرل جُل أبحاثه)، هي عملية عقلية تحدث في المخ، إذن يجب علينا دراسة المخ، وما يتعلق به من قضايا داخلة في علم الأعصاب، فهذه القصدية هي التي فرضت على سيرل القيام بهذه الدراسات المتعمقة في المخ وعلم الأعصاب.

ومن هنا كانت عنايته الفائقة بالوعي واللاوعي والانتباه، وما يتعلق بها من عمليات عقلية تفسرها وتبيين دورها في عملية التواصل، وهذا يجعلنا نسير في إطار

(1) John R.Searle, Searle, John R ;in Samuel Guttenplan (ed), A Companion to the Philosophy of mind, Oxford: Blckwell 1998 p544

الخط الذي سار عليه هذا العالم التداولي والفيلسوف المعاصر؛ إذا دخلنا بعمق أكبر في دراسة العمليات العقلية المصاحبة لهذه المصطلحات؛ وذلك عندما نريد بيان مراكزها في المخ، والعمليات التي تصاحبها في الخلايا العصبية وتشابكاتها لإتمام كل مصطلح منها بالمخ. كل هذا تحت مفهوم جديد هو تحول الدراسة التداولية الحديثة ناحية علم الأعصاب.

لقد اتجه سيرل إلى هذه المصطلحات لبيان طبيعتها، وبيان العلاقة بينها؛ وذلك لغرض آخر وهو تفسير العلوم الاجتماعية والسلوك الإنساني ومدى ارتباطها بالعقل، وهذا ما سنراه بصورة واضحة جلية عند دراستنا للوعي واللاوعي عنده، لهذا جعلنا له فصلًا مستقلًّا في دراستنا، نظرًا لعمق دراسة سيرل حول الوعي واللاوعي والانتباه.

٢-أهداف دراسة القصدية عند سيرل :

الهدف الأول: القصدية تهدف إلى الربط بين العقل والواقع :

ماذا أراد سيرل بالقصدية ؟ "هناك هدفان أساسيان من دراسة القصدية. الأول إثبات **كيف ترتبط اللغة بالعقل ؟**، ذلك أن الطريقة التي يرتبط بها العقل واللغة، هي أنهما يُظهران القصدية معًا، ولكن لمن تكون الأسبقية: قصدية اللغة أم قصدية العقل ؟ جوابنا عن هذا السؤال أن سيرل يجعل قصدية العقل أسبق من قصدية اللغة، قصدية العقل الأساسية، وقصدية اللغة مشتقة ... يقرر سيرل أسبقية العقل على اللغة، وأن فلسفة العقل هي الفلسفة الأولى ثم تأتي فلسفة اللغة بعد ذلك"(١).

أ) **كيف ترتبط اللغة بالعقل ؟ :**

إنه سؤال عصبي كبير يطرحه سيرل من قبيل أن وجهته في الدراسة التداولية أصبحت عصبية؛ بمعنى أنه يُوجد لكل مصطلح تداولي تفسيرًا عصبيًا. إذن كيف ترتبط اللغة بالعقل من الناحية العصبية ؟ إنها القصدية التي تجمع تحتها اللغة والعقل، لكن كيف ذلك ؟ إننا لدينا قصد تجاه اللغة وتجاه العقل؛ فكل منهما وُجِد بناءً على غاية وقصد منّا. فكان عمل العقل أن يفكر ويعالج الأفكار داخله، وعمل اللغة أن تنقل الأفكار من عقولنا إلى العقول الأخرى، فكلاهما ينطلق بناءً على غاية وقصدية يسعى من أجلها. أما الأسبقية التي يتحدث عنها سيرل فهي أسبقية طبيعية؛ فنحن

(١) العقل واللغة والمجتمع:٣٤

نفكر بعقولنا أولًا، ثم نعبر عن هذه الأفكار بلغتنا، لهذا كانت الأسبقية الطبيعية للعقل قبل اللغة.

لكن ما علة ذلك عنده ؟، يقول سيرل: "الافتراض الأساسي القائم وراء تناولي لمشكلات اللغة. هو أن فلسفة اللغة فرع من فلسفة العقل، وقدرة أفعال الكلام على تمثيل الأشياء وحالة الأشياء في العالم هي امتداد لقدرات أساسية على نحو بيولوجي كبير للعقل (أو المخ) لربط الكائن الحي بالعالم عن طريق حالات عقلية من قبيل الاعتقاد والرغبة.

ومن خلال الفعل والإدراك الحسي على وجه الخصوص، وطالما أن أفعال الكلام نوع من الفعل الإنساني. وطالما أن قدرة الكلام على تمثيل الأشياء وحالة الأشياء هي جزء من قدرة عامة جدًّا للعقل على ربط الكائن الحي بالعالم؛ فإن أي تقرير كامل عن الكلام واللغة يتطلب تقريرًا عن الكيفية التي يربط بها العقل/ المخ الكائن الحي بالواقع"[1].

إن تعليل سيرل لأسبقية العقل على اللغة يدخل بنا إلى جانب عصبي بيولوجي كبير فهو يرى أن القدرة التي لدى أفعال الكلام (يقصد بها قدرة اللغوية) في تمثيلها للأشياء أو وصفها للأشياء، وحالات الأشياء آتية من قدرة بيولوجية للعقل تمكنه من ربط الكائن الحي بالعالم الذي يعيش فيه، وهذا صحيح. إننا نتفاعل مع عالمنا نتيجة قدرة بيولوجية داخل أمخاخنا تدفعنا إلى الإحساس بالعالم المحيط بنا وإدراكه، هذه قدرة تفاعلية مع العالم لدى اللغة في تقريراتها التي تحدثنا عن العالم (أي عن كيفية الربط بين العالم الواقعي والكائن الحي).

إن العقل – كما ذكر سيرل – لديه قدرات تفوق اللغة، يجب أن نعرفها، وهي ما يسميها بالحالات العقلية، مثل: الرغبة والاعتقاد؛ هذه حالات للعقل، فهو مَن يعتقد ويفكر ويرغب ويريد. أما اللغة فهي الأداة التي نعبر بها عن هذه الحالات العقلية، وهو أيضًا ما يسبب الفعل والإدراك الحسي. لذا كان للعقل الأسبقية في الفعل والوجود على اللغة.

---

(1) John R.Searle, Intentionality: An Essay in the Philosophy of Mind, Cambirdge: Cambridge University Press, 1958, p.vii.

الهدف الثاني: دراسة العقل :

يمكننا إعطاء تصور عن كيفه عمل العقل كهدف من وراء دراسة القصدية؛ يعد دخولًا بعمق من سيرل في دراسة البنية العصبية، بمعنى أنه يحاول فهم العقل وآلية عمله؛ وذلك لهدف أكبر هو رؤية المخ أثناء عمله في معالجة القضايا التداولية؛ ماذا يحدث عند حوارنا مع الآخر، ما مراكز المخ التي تُثار عند انفعالنا بسبب موقف ما ؟، فإذا كان النصف الأيمن من المخ هو المسؤول عن الجانب التداولي فينا؛ فإننا عندما ننفعل يثار هذا الجزء، فكيف تكون استجابته لهذه الإثارة ؟، إنه جدل كبير يحتاج إلى عالم أعصاب، وليس لعالم تداولي، لكن لا غنى لنا عن هذه الأسئلة وإجابتها. يقول: "الهدف الثاني من وراءدراسة القصدية هو رسم معالم الطريق لدراسة العقل دراسة صحيحة، تفيد من نتائج العلم، وبخاصة فسيولوجيا الأعصاب وكيفية عمل المخ، وتستبعد في الوقت نفسه الأفكار الفلسفية الخاطئة في دراسة العقل بعامة والقصدية بخاصة، مثل السلوكية والوظيفية والترعة الحسابية"[(١)].

ثالثا: غرايس ومبدأ التعاون والاستلزام الخطابي :

يتحدث جاك موشلار عن غرايس ومبدأ التعاون، هذا المبدأ الذي أقامه غرايس على أساس العلاقة بين المتكلم والسامع التي تحقق التواصل بينهما، فلابد من وجود تعاون بينهما أو قل تفاهم وتواصل ليتحقق الغرض من وجودهما. والمخ أساسي في هذه العملية، فهو من يقوم بهذا العمل يقول موشلار: "أدخل غرايس مفهومين مهمين هما: الاستلزام الخطابي، ومبدأ التعاون. وقد فهم غرايس أن تأويل جملة ما غالبًا ما يتجاوز كثيرًا الدلالة التي نعزوها إليها بالمواضعة. ولهذا السبب يمكن التمييز بين الجملة والقول، فالجملة هي سلسلة من الكلمات التي يمكن لزيد أو عمرو أو صالح التلفظ بها في ملابسات مختلفة ولا تتغير بتغير هذه الملابسات، أما القول فهو حاصل التلفظ بجملة، وهو يتغير بتغير الملابسات والقائلين. فإذا قال زيد: ابني البكر يحتل المرتبة الأولى في صفه، وهو يتحدث عن ابنه محمد يوم ١ جوان/ حزيران ١٩٤٧م، فإذا قال عمرو: ابني البكر يحتل المرتبة الأولى في صفه، وهو يتحدث عن ابنه الهادي يوم ٣٠ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٥٦م، فإذا قال صالح: ابني البكر يحتل المرتبة الأولى في

(١) العقل واللغة والمجتمع:٣٥

صفه، وهو يتحدث عن ابنه المنذر يوم ١٥ أوت/ آب ١٩٩٧، فإن كلا من زيد وعمرو وصالح قد تلفظوا بالجملة نفسها لكنهم أنتجوا ثلاثة أقوال مختلفة ليس تأويلها بالضرورة هو نفسه، في حين أن الدلالة التواضعية المرتبطة بجملة (**ابني البكر يحتل المرتبة الأولى في صفه**) تظل قارة، ويصبح الفرق بين الجملة والقول أمرًا لا غنى عنه قطعًا مادمنا نقبل أن دلالة الجملة لا تستنفد تأويلها عندما يتم التلفظ بها في ملابسات مختلفة"[(١)].

١ – التحليل العصبي لقصة غرايس :

لو نظرنا إلى ما قاله غرايس من خلال مفهوم البنية العصبية نجد أنفسنا أمام عالم عصبي كبير يحلل القصة بمفهوم دقيق صحيح. فيرى أن الجملة التي تحمل دلالة تواضعية منقطعة الدلالة قاصرة على محتواها المعجمي فقط، أي المعنى الحرفيّ لألفاظها كما في المعجم. أما الجملة التي تأتينا ضمن القول؛ فجملة فضفاضة مطاطة، تحمل كثيرًا من الاحتمالات، وتخضع لظروف وملابسات قائلها. وهو إشارة إلى المضامين التي تحملها أومن الممكن أن تحملها الجملة الآتية من القول، ودلالات لا حصر لها يفسرها السياق.

ثم يأتي السؤال العصبي هنا، وهو ما المعنى الصحيح الذي نريده من هذه الجملة ؟، فنجيب: إن المعنى المراد هنا يرتبط بعدة عمليات عقلية، بعضها يتصل بالمتكلم، وبعضها يرتبط بالسامع، وبعضه يرتبط بالحدث، وهي كالآتي:

- **المتكلم**: يرتبط المعني عنده بشيئين هما:

أ ـــ المعنى الذي في نفسه ويريد أن يخفيه عنا.

ب ـــ المعنى الذي يريد أن يوصله للسامع.

- **السامع**: يرتبط المعنى عنده بشيئين هما:

● المعنى الذي وصل إلى دماغه وفهمه وكذا كل السامعين.

● المعنى الذي يرتبط بالتأويل الخاص بهذا السامع والذي يختلف لدى سامع آخر يجلس معه في المكان نفسه.

- **الحدث**: يرتبط بالمعنى من عدة أشياء هي:

---

(١) التداولية اليوم علم جديد في التواصل: ٥٤ ـــ ٥٥

- المكان والزمان اللذان تم فيهما الحدث، فهما يمثلان خلفية الحدث وهما نقطة فاصلة في فهم الحدث.
- البيئة الاجتماعية: فهي تمثل الأساس الذي انطلق منه الحدث.
- الحالة النفسية للمتكلم والمستمع: هي خلفة الحدث وأساس تفسيره وتأويله والاستنتاج منه.

من هذا نتبين أن القول يختلف عن الجملة - كما يرى غرايس - في أنه يوجِّه المتكلم والسامع نحو دلالات متعددة، ترتبط بمضامين وملابسات مختلفة لدى المتكلم والسامع، فكل منهما قد فهم القول بصور مختلفة، تنطلق من خصوصياته الشخصية.

فمن أين أتى هذا الاختلاف ؟ إنه لم يأت - كما قال غرايس - من اختلاف الأفراد والملابسات، بل أتى من اختلاف أدمغة الأفراد، نتيجة اختلاف العمليات العقلية التي تمت في أدمغة كل الأفراد تجاه تأويل وتفسير هذا القول، إنها، وفي كل الأحوال، تخضع لتحليلات عصبية مختلفة. فيدخلنا هذا إلى تأويلات وتفسيرات أكثر بكثير مما تصورها علماء التداولية. وهذا هو الفرق بين التحليل العصبي والتداولي. حيث يضع التحليل العصبي في تفسيره وتأويله للقول احتمالات غير متوقعة لم يذكرها التداوليون، كإصابة المتكلم أو السامع بآفة في النصف الأيمن من أدمغتهما؛ مما يؤدي إلى أخطاء في التواصل التداولي بينهما. وكذلك عدم فهم مضامين أقوال المتكلم أوعدم القدرة على إفهام السامع ما يريد قوله أي قصده، - كما سنري في الفصل الخاص بالأمراض التداولية -.

٢- أسس مبدأ التعاون عنده :

يقول موشلار عن قواعد وأسس مبدأ التعاون عند غرايس: "يفترض غرايس أن المخاطبين المساهمين في محادثة مشتركة يحترمون مبدأ التعاون. فالمشاركون يتوقعون أنيساهم كل واحد منهم في المحادثة بكيفية عقلانية ومتعاونة لتيسير تأويل أقواله. يشرح غرايس هذا المبدأ مقترحًا أربع قواعد متفرعة منه، من المفترض أن يحترمها المتخاطبون وأن يستعملوها. وهي:

أ ـــ قاعدة الكم التي تفترض أن تتضمن مساهمة المتكلم حدًا من المعلومات يُعادل ما هو ضروري في المقام ولا يزيد عليه.

(الكم ضرورة يفرضها الحديث المعتدل بين الناس، فلا يزيد عليه كي لا يمل سامعه. وهى عملية استحضار الزمن في دماغ المتكلم ليحدد الوقت المناسب للصمت).

ب ــ وقاعدة النوع التي تفترض نزاهة القائل الذي ينبغي ألا يكذب، وأن يملك الحجج الكافية لإثبات ما يشتبه.

(يجب على المتكلم أن يكون حاضر الذهن بالنسبة لحقيقة الحدث، وأن يثبت صحته).

ت ــ وقاعدة العلاقة (أو المناسبة) التي تفرض أن يكون حديثنا داخل الموضوع (ذا علاقة بأقوال القائل السابقة وأقوال الآخرين).

(مناسبة القول للحالة الراهنة التي يتحدث عنها المتكلم، فلا يخرج من الموضوع إلى موضوع آخر لا علاقة له بهذه الحالة، لأن هذا يعد حالة مرضية تجعله يفعل هذا).

ث ــ وقاعدة التكيف التي تعني أن نعبر بوضوح وبلا لبس قدر الإمكان ونقدم المعلومات بترتيب مفهوم (مثلًا: الترتيب الزمني عندما نروي سلسلة من الأحداث)

(يقصد بها ترتيب الأفكار عند عرضها ومعالجتها. وهي عملية عقلية تقوم بها الخلايا العصبية بمعاونة شبكاتها، مما يجعل المحاور يناقش بصورة جيدة، بناءً على ترتيبه لأفكاره وتسلسلها).

... إن الفائدة الكبرى من قواعد غرايس لا تكمن في وجوب احترام المتخاطبين لها، بل يتمثل وجه طرافتها في قدرة المتخاطبين على استغلالها"[(١)].

إن مبدأ غرايس (التعاون) ينطلق من عمليات عقلية تقوم بها الدماغ. وذلك لتحقيق التواصل بين الناس؛وذلك بالالتزام بمبدأ التعاون لغرايس. وعلى هذا يجب أن يُدخل المتكلم في إدراكه عند تحاوره مع غيره هذه الأشياء التي ذكرها غرايس آنفًا. وكذا على المخاطبين احترام هذه المبادئ أولًا، وأن يستغلوها في حوارهم وفهمهم للخطاب الموجه إليهم، فيستحضرونها عند تلقيهم رسالة المتكلم.

لكن، ماذا يحدث إذا لم يلتزم المتخاطبون بهذه المبادئ ؟ إن هذا الأمر يؤدي إلى عدم التواصل بينهم والتفاهم، إذن فما أسباب هذا الأمر ؟ يرى علماء الأعصاب (إذا

---

(١) التداولية اليوم علم جديد في التواصل: ٥٦

لم يكن هناك أسباب حقيقة مقنعة لدى المتكلم لهذا الخروج عن هذه القواعد) فإن السبب هو إصابة أحد المتكلمين بآفة في النصف الأيمن من المخ، لماذا ؟، لأن التواصل وفق هذه القواعد يقوم على عمل المخ لفهم الآخرين وإفهامهم، فإذا أصيب بآفة ما فلن تتم عملية التواصل بنجاح.

٣- الاستلزام الخطابي (الحواري) :

القدرة الذهنية للمرء :

لقد وجه غرايس الأنظار ناحية الدماغ، حيث "ارتكز غرايس بدرجة كبيرة على إمكانيتين لم ينصفهما هؤلاء المنظرون: القدرة على اكتساب حالات ذهنية، والقدرة على نسبتها إلى الآخرين، ويبين غرايس أن القدرة على تأويل الأقوال بكيفية تامة ومرضية رهن بهاتين القدرتين، وخصوصًا بالقدرة الثانية"[(١)].

إن القدرة على اكتساب حالات ذهنية تعني القدرة على أن يتعايش المرء مع حالة ذهنية ما. أو يتقمصها. هذا يعني قدرته على التحول تجاه شيء ما (بالحب أو الكره) بالرجوع للعمليات الذهنية التي تتم في دماغه. كذا تحديد الحالات الذهنية للآخرين، إنها عملية عقلية كبيرة يستطيع المرء أن يقوم بها نتيجة هذه القدرة التي عنده، وهذا يدل على إدراك غرايس وعنايته بهذا الجانب العقلي للمرء. وهي عملية عصبية تدل على قدرة المرء في توجيه انتباهه ناحية الشيء والشخص المراد فهمه.

نوايا القائل :

النوايا التي تستقر في نفس المتكلم والمتلقي لها دور كبير في عملية التواصل، ولقد جعلها الله سبحانه وتعالى في قرار مكين داخلهما، واختص هو وحده بمعرفتها؛ لأنه يعلم خائنة الأنفس وما تخفي الصدور، هذا صحيح، لكن العقل البشري لم يقف مكتوف اليدين أمام هذه المغاليق، فاستخدم قدراته الكامنة على التفسير والتأويل والاستنتاج والاستبطان في معرفة ما في هذه الصدور (نجح في ذلك أم لم ينجح) إلا أنه حاول، ويكفيه شرف المحاولة.

هذا ما نتحدث عنه هنا وهو محاولة معرفة نوايا الآخرين، وكذا محاولة إخفاء نوايانا عن الآخرين، وهنا يأتي الجانب التداولي ليحاول معرفة هذا المكنون، وقد:

(١) التداولية اليوم علم جديد في التواصل: ٥٢

"يشدد غرايس في التواصل اللغوي على نوايا القائل، وعلى فهم المخاطب لهذه النوايا، ولكن وخلافًا لسيرل، لا يؤسس هذا الفهم حصرًا على الدلالة التواضعية للجمل وعلى الكلمات التي تتكون منها هذه الجمل"(١)، لهذا فإن أساس التواصل بين الناس لدى غرايس يقوم على فهم نوايا المتكلم وفهم المخاطب لها. وهذا أساس تحقيق التواصل، فكيف أتواصل معك وأنا لا أستطيع أن أفهم نواياك ولا تفهم نواياي، وما تقصده بهذا القول، وأن تفهمني إياه أيضًا! لهذا لابد من الرجوع إلى عمليات عقلية أشارت إليها التداولية، وهي عمليات الاستدلال التي قال بها علماء التداولية – كما أشرت آنفًا.

رابعًا: مفهوم الخطابة عند جيوفري ليتش:

لا بد أن نفهم ما تعنيه كلمة خطابة، وما دورها في تحقيق التواصل ؟ وما العمليات العقلية التي تتم في الدماغ أثناء الخطابة لتحقيق التواصل ؟ إنها عملية تواصلية تداولية. يقول عنها جيوفري ليتش: "لقد وصفت آنفًا المقاربة الحالية للتداولية على أنها خطابة. وهذا الاستعمال لحد الخطاب قديم ترجع دراسته إلى التناول الحقيقي للغة في حال التواصل.

ولما كانت الخطابة تفهم في التقاليد التاريخية كفن استعمال اللغة على نحو من المهارة للإقناع؛ ولإحداث تعابير أدبية أو لمخاطبة الجمهور فإني وضعت نصب عيني في أن أفكر في الاستعمال الفعلي للغة في أعم معانيها مطبقا إياها أولًا على نحو أساسي على التحاور اليومي، ثم إني أنظر على نحو ثانوي فقط في الاستعمالات المعدة والعامة للغة. والمشكلة إزاء حد الخطابة، في هذا السياق، هو المركز البؤري الذي تحتله في موقف فعل كلامي متجهة إلى غاية محددة، أعني موقفًا يستعمل فيه المتكلم اللغة من أجل أن يحدث أثرًا خاصًا في ذهن مخاطبه"(٢).

إن الخطابة تؤكد الواقع الحقيقي للغة؛ أنها وسيلة تواصل، وأنها فن إقناع الآخر، والتأثير عليه إذا فهمنا هذه المعلومات عن الخطابة فإننا سندرك حقيقة الخطابة أنها فن الإقناع فهى عملية تواصلية، تقوم على إعمال العقل في جمع الحجج والبراهين

---

(١) التداولية اليوم علم جديد في التواصل: ٥٣
(٢) مبادئ التداولية:٢٦

لإقناع الآخر بفكرة ما، أو سياسة. إنها تقوم على عمل المخ بخلاياه وتشابكاته العصبية.

الخطابة والمبادئ التحاورية :

إن الخطابة تقوم على الحوار الذي تحكمه مجموعة من المبادئ هى أساس هذا الحوار والتي يقوم عليها، وهي تترابط فيما بينها لتحقق الغرض منها، وهو إقناع المخاطب والتأثير عليه، ويحكم الخطابة مبادئ مثل: التعاون لغرايس (م تع)، والخلق السمح أو التأدب (م خ). يقول ليتش:" سأستخدم لفظة (الخطابة) كاسم مفرد لمجموعة من المبادئ التحاورية التي تترابط وظائفها بين نوعين من الخطابة: خطابة بين الأشخاص وخطابة تناصية، وكلا النوعين من الخطابة يقومان على مبادئ، مثل مبدأ التعاون (م تع) ومبدأ الخلق السمح (م خ)، إلا أن المبادئ بدورها تقوم في مجموعة من القواعد والأصول المعبرة بواسطة إدخال مستوى آخر في التراتبية" [(١)].

عند تنفيذ هذه المبادئ وتطبيقها فإن هذا الأمر يقوم على عمليات عقلية تقوم بها أدمغة المتكلمين والمخاطبين. وعند تحليلنا للعمليات التي تحدث في المخ أثناء الخطاب ومراكز الإثارة ومناطق المخ التي تثار عند الحوار يتبين لنا دور العمليات العقلية التي تحدث أثناء الحوار. وهذا يبين ضرورة التعرض لمثل هذه العمليات البيولوجية بالدراسة.

---

(١) مبادئ التداولية:٢٦

الفصل الثالث
اللسانيات التداولية

تحدث علماء التداولية عن اللغة ودورها في العملية التواصلية كركن أساسي فيه، وأطلقوا على عملية الجمع بين اللغة والتداولية مصطلح (اللسانيات التداولية)، وجعلوا لها جانبًا مستقلًّا في بحوثهم، محاولة منهم لمعرفة دور اللغة في التواصل؛ فكانت محط اهتمامهم، فتحدثوا عن ذلك بإسهاب كبير.وهذا ما سنعرضه من خلال محورين هما:

المحور الأول: هل التداولية مستوى لغوي ؟ :

يرى البعض أنه لا علاقة بين اللغة والتداولية. يقول د. محمود نحلة: "لا تنتمي التداولية إلى أي من مستويات الدرس اللغوي صوتيًّا أكان أم صرفيًّا أم نحويًّا أم دلاليًّا؛ فالأخطاء التداولية لا علاقة لها بالخروج على القواعد الفونولوجية أو النحوية أو الدلالية، وهي ليست مستوى يضاف إلى هذه المستويات؛ لأن كلا منها يختص بجانب محدد ومتماسك من جوانب اللغة، وله أنماطه التجريدية ووحداته التحليلية، والتداولية فهي لا تقتصر على دراسة جانب محدد من جوانب اللغة، بل من الممكن أن تستوعبها جميعًا، وليس لها أنماط تجريدية ولا وحدات تحليل. وهي كذلك لا تنضوي تحت علم من العلوم التي لها علاقة باللغة بالرغم من أنها تتداخل معها في بعض جوانب الدرس"(١).

لكننا نرى أن التداولية تدخل ضمن مستويات اللغة كمستوى خامس لها مثل: الأصوات والتراكيب والصرف والدلالة؛ لأنها تقوم بدور أساسي في تحقيق التواصل، ليس بالأصوات أو تركيب أو دلالة أو صرف وحدها، إنها تحقق التواصل باللغة وغيرها. فهي تهيمن على اللغة بكل مستوياتها، وتوظفها كوسيلة تواصلية تدخل ضمن وسائلها التواصلية.

وقد عدها د. نحلة خارجة عن مستويات اللغة، وعدها أوبلر ضمن مستويات اللغة، وجعلها المستوى الخامس من مستويات اللغة. إن قول د.نحلة أتى من كلام جاك موشلار حول اشتغال الدماغ؛ فالتداولية حقًّا لا تُعد ضمن هذه المستويات؛ لكنها مستوى خاص، كما ذكر أوبلر وعدّها المستوى الخامس من مستويات اللغوية،

(١) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص١٠.

فالتداولية هي التي تصنع هذه المستويات من خلال مستوى أكبر هو مستوى النص ومستوى الخطاب فهو أكبر من مستوى الجملة. إن التداولية تشرف على صحة إنتاج اللغة بعامةوتقوم بعمل آخر هو خلق مستوى آخر، هو مستوى الاستدلال أو التأويل، حيث تقوم بتفسير المواقف والاستدلال عليها. فهناك النظام الترميزي والنظام الاستدلالي، والاستدلال هو مستوى التأويل أي تفسير الأقوال والاستدلال عليها، فتقوم التداولية بتقديم التأويل والتفسير والاستدلال من معطيات لغوية وغير لغوية، قال موشلار: "لا يُمكننا تقديم التأويل التام للأقول من حيث إنتاجها وتأويلها من نظام يعتمد رؤية ترميزية ...لابد من أن تكون نظرية تأويل الأقوال مشتركة، وأن تتوصل إلى التأليف بين العمليات الترميزية والعمليات الاستدلالية"[١].

إن ما يقصده موشلار أننا كي نؤول القول ونفهمه لابد من الجمع بين مستويين أساسيين، هما: مستوى الترميز، وهو اللغة بقواعدها ورموزها. والمستوى التفسيري، أي ما يقوم به الدماغ من تفسير واستنتاج واستبطان للمعاني التي في القول، هنا نجمع النظام الترميزي (اللغة) والنظام الاستدلال يوما نفهمه ونستنتجه من اللغة، لغرض التأويل. هذا العمل (الاستدلال) قدرة يمتلكها المخ البشري، وقد أثبتها علم النفس، ونسبها للدماغ، وكذا علم الأعصاب، إن عمل التداولية هو الجمع بين هذه الأشياء لغرض الاستدلال.

المحور الثاني: **اللغة والاستدلال** :

أولًا: الاستدلال اللغوي عند سبربر وولسن :

أ) وظيفة اللغة عند سبربر وولسن :

انطلق العالمان في تقديمهم اللغة على أساس قيمتها التداولية؛ وذلك لنفهم من ذلك أن اللغة فرع من علوم الدماغ (العلوم المعرفية)، ومن هذا المنطلق بدأنا نرى اللغة في إطار محدد من خلال وظيفتها التداولية. فاللغة تقوم بعدة وظائف هي:

- تمثيل المعلومة: فالمعلومة تأتي إلى السماع من متكلم يتكلم لغة يفهمها السامع.
- تحقق اللغة التواصل الكلامي ونقل المعلومة بين الناس. فبها يحدث التواصل بينهم.
- تنمية مخزون المعارف بالمخ: المعارف تأتينا عن طريق اللغة (غالبًا) في صورة كلام.

---

(١) التداولية اليوم علم جديد في التواصل: ٧٠

- عملية الاستدلال تقوم على معطيات من المعارف تصنعها اللغة في صيغتها.

"إن لسبربر وولسن رؤية معرفية للغة ولوظيفتها. فهما يريان أن وظيفة اللغة تقوم أولًا وقبل كل شيء على تمثيل المعلومة وتمكين الأفراد بواسطة التواصل الكلامي — وغيره – من تنمية مخزونهم من المعارف. وفي رأيهما، يهدف كل نظام معرفي ... إلى أن ينشئ لنفسه تمثّلا للكون يُمكن إغناؤه في كل حين، والذي نجده عند سبربر وولسن هو أن تأويل الأقوال يتم من خلال عمليات استدلالية لها مقدمات هي الصيغة المنطقية للقول إضافة إلى معلومات أخرى"[١].

ب) دور اللغة في عملية الاستدلال :

هذا التوضيح لعملية تأويل القول يُخرج القول من دائرة اللغة، فهو ليس لغة، بل هو عملية عقلية غايتها الاستدلال على صحة القول أو الحدث. هذه حقيقة عمل التداولية كآلة غرضها تأويل القول؛ فتستنتج منه وتستدل من مضامينه على المعاني التي في القول وما يفهم منه. فهي عملية عقلية. وقد "انخرط كل من سبربر وولسن مباشرة في هذا التوجه، فهما يعتبران أن تأويل الأقوال يُوافق نوعين مختلفين من العمليات: الأول ترميزي ولغوي، والثاني: استدلالي تداولي، وهكذا يتمثل أول وجوه الطرافة في مقاربتهما في إخراج التداولية من دائرة اللسانيات"[٢].

هذا القول يوضح مدى إيمان علماء التداولية بانفصال التداولية عن اللغة، لكنها في ذات الوقت تعتمد عليها في تأويل المنطوق مع الاستعانة بعنصر الاستدلال ليتم فهمه.

يقول موشلار: " مثلتْ التداولية تقليديًّا جزءًا لايتجزأ من اللسانيات ... فهي تنضاف إلى علم الدلالة لتُعنى بالمظاهر التي لا يعالجها هذا العلم مثل الأعمال المتضمنة في القول، ووصف شروط نجاحها أو دلالة الكلمات التي تُؤول بما يتناسب ومقام التواصل (خارج مجال اللغة) مثل الأنا والأنت والآن والهنا ... إلخ وهكذا"[٣].

إن التداولية وفقًا لهذا التصور تجمع بين اللغة والاستدلال الذي نستنتجه منها، لتخرج خارج نطاق اللغة أي: من التفسير الحرفي للغة إلى تفسير مضامين الكلام؛ إذن

(١) التداولية اليوم علم جديد في التواصل: ٧٦ ــ ٧٧

(٢) المرجع السابق: ٧٠

(٣) نفسه: ٧١

ما تصور التداولية لدى سبربر وولسن ؟ "إن تصور التداولية الذي اقترحه سبربر وولسن – هو تصور يفصلها عن اللسانيات ليجعلها شعبة مستقلة – يعد تصورًا طريفًا كل الطرافة، ذلك أن مجال الحركة الذي تتمتع به التداولية يتجاوز بكثير – في رؤيتهما للأشياء – الإطار الضيق الذي خصصه لها مَن رأى فيها جزءًا من التداولية"(١).

لكن ماذا يعنيان بأن مجال التداولية ينفصل عن اللسانيات ليجعلها شعبة مستقلة ؟ إن مجال العملية التداولية هو تأويل الكلام منطوقًا أم مكتوبًا لتحقيق التواصل بفهم العناصر اللغوية وغير اللغوية في الكلام. وهذا يجعلها أكثر حركة من التقيد بالمعنى الحرفي للغة؛ لتُدخل ضمن أدواتها في تأويل الكلام والإيماءات والإشارات غير المنطوقة، وتدخل مفاهيم آتية من المحتوى الضمني للقول (الملفوظ والمفهوم من الملفوظ)، فتجعل الكلام أكثر حركة عندما تبعد عن المعنى الحرفي للغة، وتدخل إلى النص والسياق والاستلزام الخطابي فتصبح التداولية آلة لفهم أرحب وأوسع للحوار الآني بالجمع بين عناصر القول.

ت) العلاقة بين اللغة (الأقوال) والتداولية في رأي سبربر وولسن :

"إن التداولية – حسبما يرى سبربر وولسن – تتكفل فعليًّا عند تأويل الأقوال بكل ما لايتم بكيفية ترميزية، وهذا يشمل بطبيعة الحال الأعمال المتضمنة في القول وتأويل الكلمات (المقامية)، ولكن هذا لا يمثل سوى مظاهر دنيا نسبيًا من تأويل الأقوال. فعلى التداولية أن تستدرك ما أُهمل من مجمل المضامين التي يبلغها القائل والتي يظل عدد كبير منها غير صريح، يرى سبربر وولسن أن العمليات التي تسمح بهذا الاستدراك هي بلا منازع العمليات الاستدلالية"(٢).

هذا يعني أنهما أدركا أن التداولية لا تشمل الجانب اللغوي وحسب، أي تفسير البنية اللغوية للقول، فهي ليست وحدها من يفسر القول، بل يدخل ضمن عملية التأويل التداولية عملية الاستدلال فهي تأويل الكلام والاستدلال وتفسر ما أهملته اللغة كنص يحمل مضامين داخل القولمن إشارات وإيماءات ومعلومات غير لغوية فيه،هذه الإيماءات والتلميحات والإشارات غير اللغوية التى ترافق القول؛ لها دور أساسي في

---

(١) التداولية اليوم علم جديد في التواصل: ٧١

(٢) المرجع السابق: ٧١

فهمه وتأويله والاستدلال منه على أشياء لا تفهم إلا بها، هذه الأشياء التي قامت النظرية التداولية بتفسيرها وتحليلها لفهم القول واستكمال ما لم يُنطق به، وهي:

١ــ الإشاريات. ٢ــ الاستلزام الحواري. ٣ ــ الافتراض المسبق.

٤ــ قصدية المتكلم. ٥ــ أفعال الكلام.

هذه الجوانب التي عالجتها النظرية التداولية ولم تلتفت لها النظرية اللغوية الكلاسيكية ولا الجديدة، على الرغم من أنها:

أــ عناصر تحقق التواصل الناجح، وتؤثر مثل مستويات اللغة على فهم الكلام.

ب ــ عناصر يلتزم بها الناس في كلامهم، فهي اتفاقية غير معلنة بين الناس عليها.

ث) دور المنظومة اللسانية :

يحدد سبربر وولسن دور المنظومة اللسانية في معالجة المعلومة بأنه يعد المرحلة الأولى في تفسير الرسالة اللغوية، وذلك بتفسير معناها الحرفي فقط. يقول موشلار: "حسب سبربر وولسن، تمكن المنظومة اللسانية من تأويل أول للقول (الدلالة اللغوية للجملة وبنيتها العميقة)، وهو تأويل يتحقق في صيغة منطقية، أي: في سلسلة منظمة من المفاهيم تقابل المكونات اللغوية للجملة"(١).

إن المنظومة اللغوية تقوم بالتفسير الحرفي للرسالة اللغوية من جوانبها الصوتية والصرفية والدلالية والتركيبية، لكن هذا لا يكفي لفهم الرسالة ومضمونها بدقة كما يقصد المتكلم.مما ينتج عنه فهم غير صحيح للحوار، فالحوار يفهم في المخ عبر مراحل:

- المرحلة المخية الأولى (في النصف الأيسر من المخ): يتم فيه استقبل اللغة وحل شفرتها اللغوية حرفيا، وتقديم تفسير حرفي مبدئي لألفاظها.
- المرحلة المخية الثانية (النصف الأيمن من المخ): يقوم هذا النصف بتفسير المكونات التداولية غير اللغوية لكنها أساسية في فهم صحيح للكلام.

ج) المضامين اللغوية وغير اللغوية في الرسالة التداولية :

الأقوال التي ننطق بها ونسمعها ونحمّلها مضامينًا مختلفة، يمكن التعرف عليها عند تحليل هذه المضامين في إطار عملية الاستدلال التي تفسر الترميز اللغوي وغير اللغوي، مما تتضمنه الأقوال من أشياء. يقول موشلار: "ويرى سبربر وولسن ... أن العمليات الاستدلالية التي يتمِّم التحليل الترميزي الذي توفره اللسانيات لتحقيق التأويل الكامل

---

(١) التداولية اليوم علم جديد في التواصل: ٧٦

للأقوال تتمثل في تلك العمليات التي تُطبَّقُ في جميع أعمالنا، سواء أكانت أنشطة يومية من الحياة العادية أم أنشطة أكثر تعقيدًا مثل البحث العلمي وإنتاج الأعمال الفنية.

وهكذا فإن العمليات التي نراها موظفة في التأويل للأقوال لا تخص اللغة، بل هي عمليات عامة غير مخصوصة كلية، وهي غير محددة ثقافيًا ويشترك فيها جميع الناس، بل إننا نشترك على الأقل مع الثدييات العليا. وأقصى ما يمكن أن نذهب إليه هو القول إن استعمالها في التأويل التداولي للأقوال يُمكِّن من تحليلها، ولكن من المؤكد أن هذه العمليات لا تختص باللغة دون سواها"[١]، إنها قدرة داخل أمخاخ البشر والثدييات تمكنهم من إعطاء تصور عام وشامل لما يفكرون فيه ويستمعون إليه من أقوال وغيرها فهم يتمتعون بهذه القدرة ليتواصلوا بها معًا.

ثانيًا: نظرية الملكات عند فودور :

يطرح فودور وجهة نظره في إطار نظريته الخاصة المعروفة بنظرية الملكات. وقد أشار إلى وجود هذه الفكرة عنده كل من جاك موشلار وغي تيبرغيان، نعرض لما قالاه:

أ– جاك موشلار :

قال موشلار:"إن الأفكار التي اقترحها فودور لها أصل في أبحاث غال Gall ... وتستند نظرية غال إلى علم النفس الملكات الذي يعتبر كل طاقة من طاقات الذهن البشري بمثابة (ملكة) معزولة إن قليلًا أو كثيرًا عن غيرها من الملكات"[٢].

إن إشارة فودور إلى نظرية الملكات التي أتى بها من غال تقوم على تصنيف الملكات البشرية إلى ملكات متعددة معزولة عن بعضها، وهو يقصد بمعزولة استقلالية كل ملكة عن أختها في الوظيفة والمهمة الموكلة لها والمختصة بها.

وجهة نظر مخالفة :

لكنني أرى أنها ليست ملكات. بل هي قدرات كامنة داخل الكائن الحي كي يستمر من خلالها في ممارسة حياته، وقد أُطلِق عليها كلمةُ ملكات. وأنا أحترز من كلمة ملكات خشية أن يضيع المفهوم الذي أُرِيد من الكلمة وهو مفهوم القدرة،

---

(١) التداولية اليوم علم جديد في التواصل: ٧٢

(٢) التداولية اليوم علم جديد في التواصل: ٧٢

بسبب المضمون الضيق الذي في كلمة ملكات الذي صنعه لها علم النفس. لهذا يجب أن نفهم كلمة ملكات بصورة أكبر عندما نستبدلها بكلمة قدرات.

فالملكات ثابتة ومحددة ومتساوية العدد لدى كل كائنات الجنس الواحد، أما القدرات فهي إمكانيات مختلفة متفاوتة لدى كل الكائنات التي تنتمي إلى جنس واحد، فكل كائن حيٍّ يتفاوت في ما لديه من قدرات بينه وبين أبناء جنسه، أي داخل الجنس الواحد. فكل مخلوق مزود من خالقه سبحانه وتعالى بقدرات مختلفة عن أخيه الذي من جنسه، كالجنس البشري وكذا جنس الثدييات التي تشمل البشر أيضًا.

لماذا هذا التصور؟ لأن خالق البشر سبحانه وتعالى قال:﴿**لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا**﴾ [سورة البقرة:٢٨٦]. وهذا يجعلنا نفهم أن التكليف مرتبط بالقدرة، وهنا تختلف كائنات الجنس الواحد فيما بينها من حجم قدراتهم، وليست ملكات، فكل الملكات موجودة بصورة واحدة لدى كل أبناء الجنس الواحد بشكل عام، مثل ملكة التفكير، فكلهم يفكرون، لكنهم يختلفون في قدرتهم على التفكير؛ لهذا اختلفوا في التكليف، ومثلها القدرة على حمل الأوزان.

فمن لدية قدرة على حمل مائة كيلوا لا يكلف بحمل مائة وخمسين. وكلاهما قادر على الحمل ولكنهما يختلفان في هذه القدرة وكذلك القدرة على المشي، فالمشي غريزة وملكة لديهم لكن هناك من يمشي أسرع من غيره، هنا تبدو كلمة قدرة أدق في التعبير عن المعنى المراد من كلمة ملكة.

ب- غي تيبرغيان :

يشرح غي تيبرغيان مفهوم الملكات بصورة أوسع مشيرًا إلى ما آمن به فودور قائلا: "تحتل مشكلة تنظيم الدماغ والنشاط الذهني مكانة الصدارة في العلوم المعرفية. هليجب أن يوصف العقل كمنظومة أحادية ومنسقة أو - على العكس - كمجموعة من الملكات المستقلة والاختصاصية ؟ في الحالة الثانية، قد تعالج مثل هذه الملكات مجموعة من المعلومات المحددة والخاصة جدًا، وقد تحدد ما نطلق عليه عادة تسمية (الفكر)، ولكنها مختلفة ومستقلة عنه. فرضية كهذه فرضية تدافع عن شكل من بسيكولوجيا الملكات تسمى فرضية تركيبية العقل البشري، لقد دافع فودور عن فرضية تركيبية العقل"(١).

(١) قاموس العلوم المعرفية:غي تيبرغيان، تر/ جمال شحيد، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٢، ٢٠١٣م، ص٢٩٢

ثالثًا: اللغة والنحو عند ليتش :

أ- العلاقة بين النحو والتداولية عنده :

انطلق ليتش في حديثه عن العلاقة بين اللسانيات والتداولية من خلال عملية تمييز بينهما، استعان فيها بأخص عناصر اللسانيات وهو النحو، فقام بالمقارنة/ المقابلة بين اللسانيات والتداولية؛ لبيان الفرق بينهما من جوانب كثيرة تجعلنا نفهم التداولية بعمق أكبر في إطار علاقتها باللغة. يقول ليتش: "وعلى نحو أكثر اختصارًا أيضًا، فإن النحو (في أوسع معانيه) ينبغي أن ينفصل عن التداولية، وحتى استدل على هذا، فلا يكفي أن أعرف التداولية تعريفًا سلبيًّا، وكأنها مظهر واحد من مظاهر الدراسة اللسانية التي لا يمكنها أن تتلاءم مع اللسانيات الخاصة، بل الأحرى أنه ينبغي للإنسان أن ينشئ النظريات ومناهج الوصف مما يكون غريبًا عن التداولية ذاتها؛ ويبين أن هذه يجب أن تختلف عن تلك المناهج والنظريات التي تختص بالنحو، ومن ثم فإن مجال التداولية يمكن أن يعرف من الوجه الذي يمكن به أن يضع حدودًا تفصله عن النحو: وفي ذات الوقت تبين كيف أن الحقلين يجمعهما إطار متكامل لدراسة اللغة"(١)، ويقول عن هذه العلاقة في موضع آخر: "إن ما ندعيه هو أن النحو (أي النظام الصوري المجرد للغة)، والتداولية (أي: مبادئ أو أصول استعمال اللغة) ميدانان متكاملان ضمن اللسانيات. فنحن لا نستطيع أن نفهم طبيعة اللغة دون دراسة هذين الميدانين والتفاعل بينهما"(٢).

ب- المسلمات الرئيسة اللغوية للأنموذج (الوظيفي - الصوري) ليتش :

ميز ليتش بين جانبين أساسيين في قضية فهم الآخر، وهما قضية القواعد اللغوية التي تحكم إنتاج الكلام، أما القضية الثانية فهي القواعد التي تحكم النقاش بين الناس أي الجانب التداولي، ونحن إذ نقف على هذا الأمر بالشرح والتفصيل نكون قد فصلنا القول في قضية أساسية في فهم الكلام. وهذا الأنموذج الذي يتكلم عنه ليتش يعرض فيه لمسلمات يجب وضعها في الحسبان للتمييز بين اللسانيات والتداولية؛ لهذا نناقش المسلمات التي عرضها ليتش مع تفسيرنا لها حتى نتفاعل معه ونفهمه جيدًا، ولهذا يقول: "معنى هذه المسلمات هو تحديد ميدانين منفصلين وأنموذجين مختلفين في

(١) مبادئ التداولية:٥

(٢) المرجع السابق:١٣

البحث، مما يؤلف نموذجًا مبتكرًا جامعًا في اللسانيات"[١]، "لقد وضع رمز (م) إشارة إلى مسلمة، وسنبدأ في عرضها ومناقشتها. وهي:

١- إن التمثيل السيمانطيقي (أو الصورة المنطقية) للجملة يكون متمايزًا عن تأويله التداولي"[٢].

شرح هذه المسلمة :

إن المعنى المنطقي للجملة يختلف عن المعنى التداولي؛ كيف هذا ؟ إن فهم جملة مثل قولنا: محمد مجتهد، تحمل في الجانب المنطقي للجملة معنى أن هذا الشخص مجتهد فقط. أما في الجانب التداولي فالمعنى مختلف تمامًا؛ لأن هذه العبارة تطرح عدة أسئلة هي: من قائل هذه العبارة ؟ هل صديقه ؟ فيكون مقصد المتكلم مدحه، ربما بما ليس فيه. هل أستاذه ؟ فيكون المعنى تقرير حالته العلمية. وهل زميل يكرهه ؟ فيكون المعنى هو السخرية منه، وغير ذلك من الأسئلة التي تطرحها العبارة السابقة حول الخلاف حول القائل فقط، فإذا انتقلنا إلى شخص محمد وتاريخه العلمي ستظهر أمامنا أسئلة أخرى تضاف لما سبق، إذن هناك اختلاف بين المعنى المنطقي، والمعنى التداولي للعبارة الواحدة.

٢- إن السيمانطيقا مضبوطة القواعد (= نحوية)"[٣]، لهذا يجب أن تكون منضبطة؛ لأنها تحقق التواصل بين الأشخاص، فلابد أن تكون مضبوطة مفهومة جيدًا لديهم.

٣- إن قواعد النحو قائمة أساسًا على المواضعة والاتفاق، أما مبادئ التداولية فهي بالأساس غير قائمة على التواضع أي أنها معللة بالنظر إلى أغراض التحاور."[٤]

إن قواعد النحو تقوم على اتفاق بين المتكلم والمستمع يتم التواصل بينهما على أساسها، لهذا فهي مفهومة منضبطة ملزمة لهما، ليتم التفاعل بينهما على أساسها، أما القواعد التداولية فتحكمها ضوابط أخرى، منها طبيعية الموقف والحوار والزمان والمكان وطبيعية الأشخاص المتحاورين، والسلوك الخاص بهذا المجتمع وعاداته، والحقيقة أن التداولية تحكمها قواعد صارمة فعلًا، لكنها ليست كالقواعد النحوية.إنها قواعد تداولية كالتي ذكرتها آنفًا، إذن فالتداولية لهاقواعد حاكمة منضبطة صارمة.

---

(١) مبادئ التداولية: ١٤

(٢) المرجع السابق: ١٤

(٣) نفسه: ١٤

(٤) نفسه: ١٤

٤- إن التداولية العامة تربط معنى (أو دلالة نحوية) التلفظ بالعبارة بقوة كمال الإنجاز (= قوة فعل الكلام)"[١].

إن التداولية تربط بين شيئين مختلفين، الأول: العبارة التي تنتجها قواعد نحوية ضابطة لصحتها؛ لتحقق التواصل بين الشخصين، والثاني: بيان مدى تأثير العبارة على المستمع وهو تحقيق الغرض منها. وهنا نجمع بين مجالين مختلفين الأول: لساني، والثاني: نفسي عصبي، وهو التأثير النفسي والعصبي للعبارة على الطرفين. هنا تظهر العلاقة بين التداولية (كفن التحاور والتواصل بين الناس)، والبنية العصبية (كمركز لإدارة الحوار وانطلاق عملية التأثير والتأثر الذي يحدث أصلا في الدماغ) وبيان مدى التفاعل بينهما.

٥- إن ضروب التشابه النحوي في وضعية معينة تحدده عناصر التطابق mapping، في حين أن ضروب التناظر التداولي تحدده المشاكل وإيجاد الحلول لها"[٢].

إن النحو تحكمه قواعد تقوم على عناصر تفصل بين المتشابهات فيه، أما القضايا التداولية فتحكمها أمور أخرى مثل طبيعة المشكلة التي نتحاور حولها، والحلول المقترحة لها، هذا يعني اختلاف مجال العمل فيهما. فالنحو يسعى إلى بناء جمل صحيحة تحقق التواصل بين الناس. أما التداولية فتعالج صحة التحاور بينهم، وتتناول الفكرة، وكيفية معالجتها.

٦- إن التفسيرات النحوية هي في أصلها وفي المقام الأول منها إنما تكون صورية في حين أن التفسيرات التداولية تكون في المقام الأول وظيفية"[٣].

إن النحو قواعد منطقية تضبط صحة الجمل، أما التداولية تُعْنى بنجاح التواصل بين الأشخاص، وهى الوظيفة الأساسية للغة والتي تسعى التداولية إلي بيان مدى صحتها.

٧- إن النحو معرفي التصور، والتداولية قائمة على العلاقة بين الأشخاص وعلى التناص"[٤].

---

(١) مبادئ التداولية:١٤
(٢) المرجع السابق:١٤
(٣) نفسه:١٤
(٤) نفسه:١٤

إن النحو قواعد معرفية تحكم القول ليحقق التفاهم بيننا. أما التداولية فتحكمها العلاقة بين الأشخاص، فهناك عبارات وكلمات تُقال للكبير ولا تُقال للصغير والعكس، فالتداولية تنتج عبارات تحدد العلاقات بين الأشخاص، وتحكم التناص الحادث بينهم، أي ماذا يختارون من العبارات والكلمات التي تناسب الموقف الآني للنطق بها فيه.

٨- وبوجه عام يمكن أن يوصف النحو بمقولات منفصلة ومحدودة، وتوصف التداولية بواسطة قيم متصلة وغير محددة"[١].

النحو يوصف بقواعد محددة تضبط إنتاج الجمل، أما التداولية فتحكمها قيم غير محددة، لأنها مرتبطة ومتصلة بأصحابها، ولهذا تختلف باختلاف بيئتهم وقيمتها عندهم.

(١) مبادئ التداولية:١٤

الفصل الرابع
التداولية المعرفية واشتغال الدماغ

مقدمة:

التداولية فن التواصل بكل أشكاله، تقوم على اشتغال الدماغ، فكل حدث تواصلي يقوم به المرء ينطلق من الدماغ وتحت إشرافها؛ لهذا كانت انطلاقة التداولية على يد علمائها عند وضعهم مبادئ هذه النظرية. وقد واكب ظهور التداولية ظهور علم عقلي حديث هو: العلم المعرفي، فدخلت التداولية ضمن العلوم المعرفية؛ لأنها تقوم مثلها على اشتغال الدماغ؛ لهذا يجب معرفة النظرية المعرفية والتداولية والعلاقة الدماغية بينهما.

قد كان لعلماء التداولية بمبادئهم الدقيقة التي وضعوها الدور الكبير في فهم حقيقة التداولية التواصلية في أدمغتهم هم أولًا، وكذا في بيان ما وراء الحجب من معلومات عن أنفسنا وأدمغتنا لم نكن لا نعرفها، ثم غدت حقائق ثابتة. ففهمنا عن أدمغتنا ما كنَّا نجهل، وما كان يحدث داخلها بلا وعي منا.

ونحن نشرع في بيان الدور الخفي لعمل جهازنا العصبي، يجب علينا أن ندرس آراء هؤلاء العباقرة، ونحللها بشرح دقيق، فلا يستغرب أحد ذلك الفعل أو يستنكره علينا، فالأمر جد خطير. فكل كلمة ورأي قال به هؤلاء العلماء يحتاج إلى فهم وتفسير دقيق.

كذا إذا تناولناه في إطار تفسير وتحليل النظرية العصبية، لنرى إلى أي مدى وصل تصورهم للعمليات العقلية التي ترافق حديثنا وتفكيرنا بكل صوره، وإلى أي مدى وافقت آراؤهم ما جاء به علم الأعصاب. إنه غوص في أعماق الدماغ البشرية لحظة التفكير وما يسبق أقوالنا وأفعالنا من عمليات عقلية نقوم بها بوعي ولا وعي بما يحدث داخلنا.

لهذا جاء هذا الفصل حاويًا مجموعة محاور لمعالجتها تمثل آلية دراسته، وهي:

١ ـــ المحور الأول: التداولية والعلوم المعرفية.

٢ـــ المحور الثاني: التداولية واشتغال الدماغ.

المحور الأول: التداولية والعلوم المعرفية :

تلتقي التداولية مع العلوم المعرفية عند نقطة واحدة وهي اشتغال الدماغ، فكل منهما يقوم عمله على أساس اشتغال الدماغ. فالعلوم المعرفية تشمل العلوم التي يشتغل بها الدماغ، يقول موشلار: "تهدف العلوم المعرفية إلى بيان كيفية اشتغال الذهن البشري"[(١)]؛ فتبحث في كيفية اشتغال الدماغ. كذلك التداولية، فهي تستعين بالدماغ لتحقيق غرضها الأساسي، وهو التواصل والتعاون بين الناس، وهو أمر لا يتم إلا بتفكير وحوار وتواصل مع الآخر، وهي أمور تقوم على اشتغال الدماغ بهذا العمل.

لقد واكب ظهر التداولية ظهور العلوم المعرفية في فترة زمنية واحدة، مما يفهم منه أنهما يمثلان توجها بحثيًّا ومنهجًا علميًّا كان سائدًا في هذه الحقبة؛ فهو يمثل تفكر علماء هذه الفترة، وهو توجه يُعْنى بدراسة عمل الدماغ في قضايا علمية وتواصلية. ويشير إلى تاريخ نشأة النظريتين معًا موشلار قائلا: "يكاد تاريخ ميلاد العلوم المعرفية يتطابق وتاريخ ميلاد التداولية، فلقد ألقى أوستن محاضرات وليام جايمس سنة ١٩٥٥م، وفي عام ١٩٥٦م صدرت بعض المقالات المهمة التي شكلت انطلاقة العلوم المعرفية"[(٢)].

وانطلاقًا من هذا التوافق الفكري والتاريخي بين النظريتين يتوجب علينا دراسة العلاقة بينهما والتأثير المتبادل بينهما.

١ – البعد المعرفي في أعمال غرايس وسيرل :

لقد قدم عالمان من علماء التداولية هما: غرايس وسيرل تصورهما عن علاقة العلوم المعرفية بالتداولية. قال موشلار: "تفضي بنا هذه الآراء في أعمال غرايس وأعمال سيرل، وكذلك في شأن علاقتهما بالعلوم المعرفية، إلى تقديم بعض المقترحات بشأن الشروط التي ينبغي أن تستوفيها نظرية ما لتأويل الأقوال حتى تندرج ضمن العلوم المعرفية"[(٣)].

يرى موشلار أن آراء غرايس وسيرل جعلته يقدم مقترحات بشأن شروط يجب أن تتوافر في التداولية لتندرج ضمن العلوم المعرفية، بوصف التداولية نظرية تضطلع

---

(١) التداولية اليوم علم جديد في التواصل: ٦٤
(٢) المرجع السابق: ٥١
(٣) نفسه:٦٦

بتأويل الأقوال فهي عملية عقلية تدخل ضمن العلوم المعرفية لهذا السبب، وهنا تظهر الغاية الكبرى للتداولية، وهي تأويل الأقوال، أي كيف نفهم ما يُقال ونُفهم غيرنا ما نقول ؟ وذلك لتحقيق التواصل بيننا، ثم يذكر الشروط التي يقترحها للقيام بهذا العمل قائلا: "إن أية نظرية لتأويل الأقوال أو بالأحرى أية نظرية تداولية، حتى تضطلع بدور ما في العلوم المعرفية (من خلال تعاونها مع اللسانيات وعلم النفس المعرفي على سبيل المثال للتوصل إلى نتائج في مجال الذكاء الاصطناعي) ينبغي أن تستوفي الشروط التالية"[١]. أي لابد للنظرية التداولية حتى تدخل ضمن العلوم المعرفية أن تستوفي هذه الشروط، فكلا النظريتين يعمل على اشتغال الدماغ؛ فيجب على النظرية التداولية أن تستوفى الشروط التي وضعها جاك موشلار لتحقيق هذا الغرض، وهي:

٢- شروط التداولية المعرفية :

هي كما ذكرها جاك موشلار على النحو الآتي:

أولًا: يتعين عليها أن تكون: **وظيفية وتمثيلية**.

ثانيًا: يتعين عليها أن **توضح عمليات التأويل** التي تنص عليها بهذه المسائل:

أ) ما قواعد الاستدلال المستعملة ؟.

ب) ما المقاييس التي استندت إليها في اختيار المقدمات (معلومات معروفة) ؟

ت) ما المقياس الذي نستند إليه لنقرر أن تأويلًا ما مقبول، وأنه ينبغي إيقاف عملية الاستدلال ؟.

ثالثًا: يتعين عليها أن تذكر لنا **كيف نحصل على المعلومة الجديدة** (أي ينبغي أن تعالج العلاقات بين الإدراك والتمثلات الرمزية).

رابعًا: يتعين عليها أن تذكر **كيف تم تمثيل المعلومة** وما العمليات التي يمكن أن نجريها عليها"[٢].

إذا نظرنا إلى هذه الشروط في مجملها رأينا أنها تدور حول عمليات عقلية تتم داخل الدماغ وبواسطتها. وهذا ما يجعلهاتدخل ضمن العلوم التي تعمل على اشتغال الدماغ وتنطلق من البنية العصبية (الدماغ)، فالتداولية تدخل ضمن العلوم المعرفية.

(١) التداولية اليوم علم جديد في التواصل: ٦٦

(٢) المرجع السابق: ٦٦

المحور الثاني: التداولية واشتغال الدماغ :

ما معنى اشتغال الدماغ في معالجة المعلومة ؟ وما علاقة هذا بالتداولية والعلوم المعرفية ؟.

إن التداولية في حقيقتها هي ملاحظة العملية الذهنية/ العقلية التى تقوم فيها الدماغ بالربط بين الأشياء المتفقة، والمختلفة، وربما المتنافرة، وفهم كل ما في الكون من أشياء، وفي عالم المتكلم والمتلقي، ومحاولة إفهامها للآخرين، والتواصل معهم، وخلق عالم من الخيال في عقول البشر حول الأشياء المعروفة وغير المعروفة في عالمنا.

هذا القول هو تحليل لعمل الدماغ في معالجة المعارف، وهو ما يعرف لدى علماء التداولية بقضية اشتغال الدماغ؛ أي العمليات التي يقوم بها الدماغ لبناء هذه العوالم في فضائنا الذهني. فلا يمكن أن نتواصل معًا إذا لم نفكر فيما سنقوله أو سنفعله، ونتخيله ونبني له نماذج وأنماط داخل عالمنا الدماغي بما يعرف بـــ (الفضاء الذهني)، فإذا بنينا له صورة أو تصورًا في فضائنا الذهني فإننا بعد هذا نبحث جيدًا عن أفضل وسيلة لتوصيله إلى الآخرين.

لقد انطلق علماء التداولية إلى تفسير مفهومهم عن التداولية كوسيلة لتحقيق التواصل، أي التداولية كعملية تواصلية في الأصل، فوجدوا أن الدماغ هي أساس هذه العملية التداولية/ التواصلية، فبحثوا في هذا الأمر تحت ما يسمى بـــ (اشتغال الدماغ) أي: عمل الدماغ في معالجة المعلومة من بداية إدراكها بالحواس إلى أن تدخل الدماغ، لتبدأ مراكز الدماغ في معالجتها، من هذا المنطلق اتفقت التداولية والعلوم المعرفية في اللجوء إلى الدماغ للقيام بكل العمليات المتصلة بالعلوم المعرفية ومنها التداولية كعملية دماغية، وسموا هذه العملية العقلية باشتغال الدماغ إشارة إلى أساس عملها.

هذا العمل قد اضطلع به علماء الأعصاب والتشريح؛ بوصفه العمل الأساسي لهذه العلوم التي تدخل ضمن العلوم المعرفية أيضًا. والغريب ما نراها من عناية علماء التداولية بهذا الجانب العصبي بصورة متخصصة للغاية تشبه تخصص علماء الأعصاب.

وقد لاحظت أن هناك عالمين من علماء التداولية تعرضا لهذه العملية في نظرياتهما التداولية؛ فاستخدما تعبير (**اشتغال الدماغ**) في بيان معالجة المعلومة في الدماغ،كان أولهما وصاحب هذه الفكرة هو جيري فودور؛ فقسم عمل الدماغ في معالجة المعلومة

عند إدراكها إلى عدة أقسام أو قل عدة مراحل، وأطلق على هذه العملية (**اشتغال الدماغ**)؛ مما يعنيأن الرجل أدرك أصل القضية، ودورالدماغ في استقبال المعلومة، وقد وصل من خلال افتراضه إلى ما هو أعمق من هذا، وهو وضع تصور افتراضي لمعالجتها بالدماغ، فهي عملية عقلية يقوم بها المخ؛ لإبداع وسائل ربط بين الراسل والمستقبل وفق آلية محكمة، وقد أدخلها ضمن مصطلح واحد قال به هو، وكان أول من قال: (اشتغال الدماغ)؛ وذلك في إطار مفهومه عن النظرية التداولية وعملها،وقد أشار لهذه العملية بعبارة: (**اشتغال الدماغ**)، نعرض لأهم علماء التداولية الذين تناولوا هذه العبارة، وهم:

أولًا: جاك موشلار واشتغال الدماغ :

عرض جاك موشلار وزميله لقضية اشتغال الدماغ البشري في كتابهما (التداولية اليوم) تحت عنوان: (فودور والرؤية المنظومية لاشتغال الدماغ البشري)، وذلك لبيان كيفية فهم الأشياء التي في عالمنا، ودور التداولية في معالجة المعلومة داخل الدماغ، وفهم القضايا الحياتية، وكيف نتفاعل معها، مستخدمين اللغة وغيرها من وسائل التواصل لهذا الغرض، ويمكننا من خلال ذلك بيان علاقة التداولية بالدماغ واشتغالها.

التوجه بالتداولية نحو الدماغ :

لقد أشار موشلار من خلال كتابه إلى جهود عالم تداولي كبير هو من ذهب بالتداولية إلى هذه الوجهة، وهو فودور، فكانت فكرة فودور: (اشتغال الدماغ البشري بمعالجة المعلومة) من الأمور التي لفتت انتباه جاك موشلار وزميله؛ فقاما بدراستها وتحليلها؛ لأنها أعادت أمرالتداولية إلي الدماغ بوصفها أداة التفكير في العملية التداولية، فكان أول ما فكر فيه للوصول لهذه الغاية أن بحث عن أصل وجود اللغة في الدماغ. هل هو ناتج عن تطور في الدماغ ؟، أم عارض نتيجة نمو القدرة الذهنية للإنسان؟ كان ظهور اللغة على ألسنة الناس دليلًا على نمو القدرة التي تمتلكها أدمغتهم؛ فالدماغ أصل القدرة الذهنية التي تصنع اللغة، وقد طرح جاك موشلار وزميله هذه الفكرة بغرض توجيه الأنظار ناحية الدماغ التي تنطلق منها كل العمليات العقلية، وتقوم بالتواصل الذي هو عملية تداولية.

فكانت البداية بهذا السؤال: "هل اللغة ثمرة مباشرة للتطور أم هي ظاهرة عارضة ناتجة بصفة غير مباشرة عن تطور قدرات الإنسان الذهنية ؟ وبعبارة أخرى، هل يُمثل ظهور اللغة ونمو الدماغ المترتب عنها أصل القدرات الذهنية البشرية، أم أن النمو المسبق للدماغ ونمو القدرات الذهنية البشرية الناتجة عنه أديا إلى ظهور اللغة ؟"(١).

هذا يبين أن موشلار وزميله أرادا توجيه الأنظار ناحية الدماغ؛ لبيان أساس العلاقة بين اللغة والدماغ. هذا الأمر دفعهما للحديث عن القدرات الكامنة في أدمغة البشر، فتحقق للبشر وجودهم الفعلي بالتعاون والتواصل معًا.

ويعد هذا مقدمة للدخول إلى بناء تصور أو افتراض عن عمل الدماغ من خلال مصطلح جديد هو (التداولية).

فبدأ جاك موشلار وزميله في بيان دور التداولية في اشتغال الذهن، يقولان: "كيفية مساهمة التداولية في برنامج البحث الذي حددته العلوم المعرفية والذي يمكن إجماله بالطريقة التالية: توضيح اشتغال العقل/ الدماغ وبيان كيف أن العقل – البشري خصوصًا – يكتسب معارف ويطورها ويستعملها اعتمادًا – من جملة ما يعتمد – على الحالة الذهنية"(٢).

إن آلية اشتغال الدماغ تقوم على القدرات الكامنة فيها، والتي تمكننا من اكتساب المعارف، وتطويرها معتمدة على الحالة الذهنية. وهذا بالفعل ما يحدث لنا عندما نستقبل معلومة جديدة فنَدخلها في أدمغتنا ونتفاعل معها ونصنفها ونخزنها ونستدعيها من مخزنها في تشابكاتنا العصبية. فإذا افترضنا أنالتداولية تعني العمليات التي يقوم بها الدماغ في هذا الشأن فهذا يعني أن عملنا يقوم على بيان مدى مساهمة التداولية فيتوضيح كيفية اشتغال الدماغ في معالجة المعلومة، أي كيف تكتسب الدماغ المعلومة، وتستعملها، وتطورها؛ معتمدة على الحالة الذهنية التي لدى الفرد، فهو من يقوم بمعالجة المعلومات المعروضة عليه، ويكتسبها ويستعملها ويطورها.

بهذا المفهوم تبدو لنا التداولية على أنها وسيلة الدماغ في معالجة المعارف، فالشخص الذي يعيش في بيئة ما يمتلك مجموعة من المعارف عنها تمكنه من التفاعل معها، ومجاراة أهلها والتعايش معهم. لقد تمكن من فعل هذا لأن بداخله قدرة فطرية/

(١) التداولية اليوم علم جديد في التواصل: ص١٥

(٢) المرجع السابق: ٢٨

آلية تعاونه على ذلك، إنها القدرة التواصلية أي القدرة التداولية. فتحليل الحدث وتفسر سلوك الآخرين بناءً على ما يمتلكه من معارف عنهم مخزنة في تشابكاته العصبية. يمكنه أن يستدعيها عند الحاجة على الفور، والتفاعل معها، إن التداولية تقوم بدور أساسي في عملية التواصل. فتعمل على اشتغال الدماغ وتفاعلها مع عالم الفرد كله، فيفهمها ويعالجها بصورة صحيحة، وهذا ما يجعلنا نُدخل التداولية ضمن العلوم العصبية، ونخضعها لقوانينها. كما دخلت ضمن العلوم المعرفية.

ثانيًا: سبربر وولسن والنظرية المنظومية :

في إطار قضية اشتغال الدماغ وعلاقتها بالنظرية التداولية ظهرت نظرية جديدة تعرف بالنظرية المنظومية، فقد لاحظ سبربر وولسن أن هناك مشكلة بين اللغة والتداولية ناتجة عن الفرق بينهما فاللغة قواعد ضابطة للكلام، والتداولية أداة التواصل بين الناس تستعين في ذلك بوسائل كثيرة مثل اللغة، لهذا طرحا نظريتهما المنظومية، يقول موشلار: "بيد أن هذا التصور يثير مشكلة تتمثل في العلاقة بين العمليات اللغوية التي تختص بها اللغة – بل اللغات المخصوصة – والعمليات التداولية العامة والكلية والتي لا تختص بها اللغة. ولحل هذا المشكل، يدمج سبربر وولسن نظريتهما التداولية في تيار معين من علم النفس المعرفي هو تيار المنظومية"[1].

إنهما يسعيان إلى نظرية تجمع بين اللغة والتداولية، وهذا الأمر يعدتوجهًا جديدًا نحو وضع نظرية تقوم بالجمع بين الجانب اللغوي والجانب التداولي. فقدم سبربر وولسن تيارهما الجديد (المنظومية) الذي يقوم على الجمع بين الجانبين.

وقد انطلقت هذه النظرية من رؤية فودور، حيث "يمثل تيار المنظومية نظرية اقترحها الفيلسوف وعالم النفس المعرفي الأمريكي جيري فودور jerry Fodor. وقد تطورت الصيغة المعاصرة لهذه النظرية في الوقت الذي كان سبربر وولسن يضعان نظريتهما التداولية"[2]، وقد أشار فودور إلى هذه العملية بمصطلح جديد هو "لغة العمليات الذهنية mentalais وهي كلمة مستحدثة تدل على منظومة الترميز

(١) التداولية اليوم علم جديد في التواصل: ٧٢

(٢) المرجع السابق: ٧٢ ــ٧٣

والتصور الافتراضي للحالات الذهنية. يُنظر إلى لغة العمليات الذهنية في أقوى دلالاتها التي طرحها جير فودور (jerry fodor)، على أنها لغة، أي: لغة الفكر في هذا الإطار الإبستيمولوجي، تُبنى التصورات الذهنية إذن على قواعد شكلية أي: نحوية، إنها واحدة من المسلمات الأساسية في النظريات (التصورية) للفكر"[1].

إنه تصور للعمليات الذهنية التي تقوم بها الدماغ – نظرًا لما تحويه من رموز خاصة بها – إنها لغة العمليات الذهنية، لهذا اعتبرها فودور لغة الفكر، وأشار إلى نظريته المسماة (المنظومية) التي ترى أن هناك عملية ذهنية تحدث داخل الدماغ، يقوم خلالها الفرد بالجمع بين الأشياء المختلفة ليبني تصوره العام عنها في ذهنه. وتصبح عملية التصور هذه وسيلته لبناء أفكاره في دماغه، والتعبير عنها في إطار منظومي يجمعهم هو المنظومية.

ثالثًا: جيري فودور والنظرية المنظومية :

١– مقدمة :

ذكرت آنفًا أن فودور هو صاحب النظرية المنظومية التي تدرس اشتغال الدماغ في معالجة المعلومة. فنجده يتحدث عنها ضمن حديثه عن هذه النظرية. إنها أول نظرية فلسفية تداولية تتناول عمل الدماغ في معالجة المعلومة داخلها، ووضع تصور لها، وهي بهذا تلتقي مع التحليل العصبي لعمل الخلايا العصبية وتشابكاتها في معالجة المعلومة، فهي تقوم بتحليل المعلومة في الدماغ بعد إدراكها بالحواس، واشتغال مراكز المخ في عمليات مختلفة لمعالجتها، ففي هذا الجانب التداولي يدرس فودور كيف تتعامل الدماغ مع المعلومة، ومراحل هذا التعامل، وهويتطابق مع التحليل العصبي ومراحله.

٢– تحليل فودور لآلية اشتغال الدماغ تداوليا: (رؤية فودور لاشتغال الدماغ)

يقدم موشلار وصفًا لتصور فودور لعمل الدماغ في معالجة المعلومة بداية من استقبالها بالمدركات (الحواس) وتأويلها، نهاية بالاستنتاج منها والاستدلال عليها، يقول موشلار: "إن اشتغال الذهن البشري، كما يرى فودور، اشتغال ترتيبي وتجري فيه معالجة المعلومة مهما كان مصدرها (مرئي أو سمعي أو لغوي ...الخ) عبر مراحل

(١) قاموس العلوم المعرفية: ٢٨٢

متلاحقة وكل مرحلة منها تقابل مكونًا من مكونات الذهن، وهي: **المحمولة والنظام الطرفي والنظام المركزي**."[1]

إن هذا القول يعني أن فودور أدرك أن وراء عملية التأويل وفهم الكلام عمليات عقلية تقوم بها الدماغ، لكنه لم يصل إلى تفسيرها التفسير الدقيق الذي أصبح بين أيدينا الآن نتيجة تطور البحوث العصبية في مجال علم الأعصاب من خلال التصوير بالبث البزوتروني والرنين المغناطيسي، فهو لم يوضح على وجه الدقة أية أجزاء المخ الذي يقوم بهذه العمليات، هل النصف الأيمن أم الأيسر من المخ أم أجزاء أخرى من المخ ؟؛ لهذا فهو يفترض أن الذهن البشري يعمل بطريقة متسلسلة ومرتبة في مراحل متتالية؛ فينتقل من العمل في مرحلة بعد أن يتم عمله في المرحلة السابقة لها. وبصرف النظر عن أن الذهن يعمل بهذه الطريقة أم لا، فإنه يكفينا منه أنه أعطانا تصوره عن هذه العملية، هذا التصور يعد مقدمة لما سنعرفه بعد ذلك من خلال علمي الأعصاب والتشريح.

لهذا فنحن نحفل كثيرًا بتصوره.

٣- مراحل معالجة الدماغ للمعلومة :

يعرض فودور تصوره لدخول المعلومة إلى الدماغ بداية من إدراكها إلى حل شفرها ومعالجتها وفهمها. كما يحدث في التحليل الذي يقوم به علم الأعصاب،فتسير المعلومة وفق مسار يسمى المسار العصبي للمعلومة ــ كما يرى علم الأعصاب،وهي:

"**أولًا**: المحولة، عندما يقع حدث ما (صوت أو ظهور شيء في الرؤية أو قول ... الخ)، فإن معطيات الإدراك الحسي تُعالج في محولة (تترجمها) إلى نسق يقرأه النظام الذي سيشتغل في المرحلة التالية"[2].

الشرح:

عندما يحدث أمرٌ ما في عالم الفرد فإن حواسه تدركه وتنقله داخل الدماغ. فتقوم أجهزته الإدراكية الحسية بإدراك المعلومة عن هذا الأمر، ثم نقلها إلى مراكزها في الدماغ لتعالجها، وتحل شفرها وتترجمها لرموز يفهمها النظام، وتمكن النظام أن يقرأها

---

(١) التداولية اليوم علم جديد في التواصل: ٧٣
(٢) المرجع السابق: ٧٣

"**ثانيًا**: تُعالج الترجمة التي قامت بها المحولة بواسطة نظام طرفي يتمثل في منظومة مختصة بمعالجة المعطيات التي تدركها هذه الحاسة أو تلك؛ لهذا يوجد نظام مختص بمعالجة المعطيات المرئية، ونظام مختص بمعالجة المعطيات السمعية، ونظام مختص بمعالجة المعطيات الشميِّة ...الخ. كما يوجد نظام مختص بمعالجة المعطيات اللغوية (التي تختلف عن المعطيات السمعية إذ علينا أن نراعي المكتوب)، ويمكن هذا النظام من تقديم تأويل أول للمعطيات المُدركة تأويلًا يكون في حالة الأقوال ترميزيًا إلى حد كبير. إلا أنه ينبغي إتمام هذا التأويل الأول، وفي هذا المستوى يتدخل النظام المركزي"(١).

الشرح :

يتم معالجة المعلومة التي وصلت داخل الدماغ بواسطة نظام طرفي، وهو عبارة عن منظومة وظيفتها الخاصة معالجة المعلومة القادمة عبر الحواس، وتتنوع نظم المعالجة الطرفية حسب نوع المعلومة الواردة إليها داخل مراكز المخ المختلفة، فالمعلومة البصرية يختص بها مركز الإبصار. والسمعية يختص بها مركز السمع، والشمية يختص بها مركز الشم. واللمسية تختص بها مركز اللمس، إلى جانب وجود نظام مختص بمعالجة المعلومة اللغوية. ويقوم هذا البرنامج الدماغي الذي يعالج المعلومات في الدماغ بتفسير هذه المعلومات التي تلقاها عبر حواسه المختلفة وتأويلها.

"**ثالثًا**: يصل التأويل الذي يوفره النظام الطرفي المتخصص إلى النظام المركزي الذي تقع عليه مهمة إتمام هذا التأويل، وتتحقق هذه المهمة بدرجة كبيرة من خلال مقاربة المعلومة مع معلومات أخرى معروفة سلفًا أو معلومات وفرتها في الآن نفسه أنظمة طرفية أخرى، كما تتحقق نتيجة عمليات استدلالية؛ ولهذا لا تتدخل هذه العمليات إلا في مستوى النظام المركزي، وفي هذه المرحلة النهائية فحسب"(٢).

الشرح :

في المرحلة الأخيرة، ينتقل هذا التفسير الذي أوَّله النظام الطرفي المتخصص إلى النظام المركزي الذي يقوم بإتمام هذا التأويل ومراجعته وتصحيحه. وذلك من خلال مقارنة المعلومة الجديدة مع المعلومات الموجودة لديه سلفًا، وكذا مقارنتها بمعلومات قُدِّمتْ له من أنظمة طرفية أخرى. ثم يقوم النظام المركزي بتقديم معلومات ناتجة عن

(١) التداولية اليوم علم جديد في التواصل: ٧٤

(٢) المرجع السابق: ٧٤

عملية استدلال كنتيجة لما سبق من عمليات، هي عمليات التفكير العميق إلى مخ المرء. وعن أمل فودور في البحوث المستقبلية التي ستكشف عن حقيقة هذا التصور يقول موشلار: "يبدو فودور متفائلًا بحذر بإمكان التوصل إلى وصف مناسب لاشتغال المحمولة واشتغال الأنظمة الطرفية. فخاصيات الأنظمة الطرفية تجعلها أساسًا قابلة للاستكشاف في علم النفس التجريبي"(١). إن رؤية فودور المستقبلية لتفسير ما يحدث عند معالجة المعلومة في الدماغ قد حدثت بالفعل من خلال بحوث تجريبية، وظهور بحوث أكثر دقة هي بحوث علم الأعصاب والتشريح، كما سنرى في الرد عليه بعد قليل.

٤- خصائص الأنظمة الطرفية والنظام المركزي :

تمر الأنظمة الطرفية والمركزية بمراحل لمعالجة المعلومة الواردة إلى الدماغ عبر الحواس المختلفة. لهذا تميزت هذه الأنظمة بخاصيات مختلفة: "من هذه الخاصيات أن كل نظام يمثل منظومة معزولة عن غيرها من المنظومات، ولا يمكنه تبادل معلومات معها (منغلق)، وأن عمليات الأنظمة الطرفية آلية ولا يمكن إبطالها (فهي بعبارة أخرى عمليات إجبارية) إضافة إلى سرعتها وسطحية نتائجها. ومقابل ذلك فإن ما يمتاز به النظام المركزي من تعقيد وعدم تخصص يجعلان الاشتغال صعبًا، بل يستحيل ملاحظته ووصفه، ويبدو فودورمتشائمًا في إمكان التوصل إلى معاينة اشتغال هذا النظام، وبالفعل فإن من بين المهام التي ينجزها النظام المركزي تأويل المعطيات، فضلًا عن الاستدلال المتصل بالحياة اليومية إلى جانب التفكير المعقد والدقيق الخاص بالبحث العلمي والأنشطة الفنية"(٢).

إن تصور فودور والمدرسة التداولية كلها حول اشتغال الدماغ وكيفية معالجة المعلومة،قد أصبح من الماضي، لأن النتائج التي قدمها لنا علم الأعصاب جعلت الأمر مختلفًا كثيرًا، فقد أصبحنا نرى الدماغ عند اشتغالها بمعالجة المعلومة، وانتقالها من خارج الدماغ إلى داخلها، ثم إلى مراكز المخ ومعالجتها فيها، وذلك بتصويرها أثناء إثارتها لمركز الحواس والإدراك المختصة في الدماغ. يحدث هذا كله بفضل التصوير

(١) التداولية اليوم علم جديد في التواصل: ٧٤
(٢) المرجع السابق: ٧٤

بالرنين المغناطيسي والبث البزوتروني. لكننا يجب أن نعرض رؤية فودور كمرحلة من المراحل التي مر بها الفكر التداولي لدى علماء التداولية وتطور مفهومهم لتلك العملية العصبية، حيث يراها - كما ذكرنا آنفًا - فودور تمر بتلك المراحل ويراها سيرل برؤية عصبية أكبر وأعمق، إنه يُتابع تطور البحوث اللغوية العصبية في إدراك المعلومة ومعالجتها بالدماغ من خلال الفكر الخاص بالمدرسة التداولية وتطور هذا الفكر. وذلك نظرًا لأن هذه العملية قد دُرست بعمق في المرحلة التي نتحدث عنها الآن من قبلها بما يسمى بـــ (**اشتغال الدماغ**).

رابعًا: رؤية غي تيبرغيان لفرضية فودور :

مدخل :

يعرض غي تيبرغيان في قاموس العلوم المعرفية لفرضية فودور بالتحليل والنقاش والرد عليه، ولكن في إطار البنية العصبية أي في إطار التحليل العصبي لتصور فودور، يقول غي: "دافع فودور عن فرضية تركيبية العقل، ... لقد طرح فودور أن بعض النشاطات المعرفية كالبصر والسمع واللغة تتحقق بمعاملات (أو منظومات طرفية). وتنجز هذه المعاملات معالجات ضرورية وخاصة وغير واعية. وهناك معايير عديدة تمكن مبدئياً من تحديد هذه المعالجات"[(١)].

إن فكرة فودور التي شرحها غي تيبرغيان تبين أن الأنشطة التي تمنحنا المعلومات إياها والتي سماها بالنشاطات المعرفية، (كالمعلومات التي يمدنا بها النشاط البصري والسمعي واللغوي)، هذه الأنشطة تتحقق فيصبح لها وجود فعلي من خلال معاملات (أو منظومات طرفية يقصد بها الأجزاء الطرفية المكلفة بذلك العمل من قبل المخوالتي تقوم بإمدادنا بالمعلومات السمعية والبصرية واللغوية)، وتقوم هذه المعاملات من خلال هذه المعلومات بتقديم معالجات مختلفة تتصف بأنها:

أ- ضرورية: أي لازمة لإدراك وفهم الأشياء.

ب-خاصة: أي خاصة بالموضوع محل/ موضع الإدراك.

ج- غير واعية: أي ما تمدنا بها ذاكرتنا من اللاوعي. أي أن له دور في الإدراك.

---

(١) قاموس العلوم المعرفية: ٢٩٢

ومحصلة ما تقدمه المعالجة هو تفسير المعلومة التي أمدتنا بها أجهزتنا الإدراكية وتأويلها.

٥- معايير المعالجات:

يذكر غي تحليلاً عصبيًّا للمعالجات من خلال شرح لمعايير المعالجات، أنها:

أ) خاصة بمجال معالجة ما (إدراك اللون والشكل والوجود ...): فكل معالجة تكون خاصة بمجال محدد كإدراك اللون أو الشكل، فتقوم بمعالجة هذا المجال.

ب) عملياتها إلزامية ولا يمكن التحكم بها إذن بشكل مقصود؛ فكل فرد ملزم بمعالجة الشيء ما دام قد أدركه: (لون. شكل. وجود) دون تحكم متعمد نحو الشيء.

ت) وهي سريعة.

ث) ولا تتأثر بباقي المعالجات (وتسمى معالجات مكبسلة) لا تتداخل المعالجات معًا، فإدراك اللون يكون في إطار الألوان، منفصلاً عن إدراك الأشكال.

ج) وتندرج ماديًّا في منظومات عصبونية: كل معالجة تدخل ضمن مجموعة عصبونية تقوم بها وتتولى أمرها. وهنا يظهر دور العصبونات في المعالجة المعلومة.

ح) وتبدي قصورًا نوعيًّا مرتبطًا برضات عصبية محددة المواضع: يظهر أثر الإصابة في الموضع المحدد المصاب في الجهاز العصبي في شكل قصور في عمله المحدد.

خ) وهي فطرية ولها تطور تكويني خاص بها. هذه المعالجة قدرة فطرية لها تكوينها الخاص الذي تخضع لطبيعته، وتتطور في إطاره"[(١)].

مثال (اللغة):

يذكر غي مثالًا من اللغة على ما يقول: "تستطيع اللغة، مثلاً، أن تجمع هذه الخصائص كلها، وأن تشكل بالتالي ملكة تمثل تنظيما معامليا"[(٢)].

وتستطيع اللغة أن تقوم بهذه المعالجة؛ ليصبح لدى المتكلم قدرة على استخدام اللغة وتنظيمها والتعامل مع الآخرين وفق هذه الخصائص والنظم المحددة الخاصة بهذه اللغة.

---

(١) قاموس العلوم المعرفية: ٢٩٢

(٢) المرجع السابق: ٢٩٢

٦- كيف تتم عملية الإدراك في المنظومة المركزية :

"تنضوي المعلومات الناجمة عن أداء هذه المعاملات تحت المنظومات (المركزية) غير واعية. وتُشغِّل هذه المنظومات، في الوقت نفسه، معلومات ناجمة عن معالجات مختلفة"(١)، فالمعلومات التي تصل للفرد تكون ناجمة عن هذه المعاملات نتيجة أداء المنظومات المركزية غير الواعية، وكذلك معلومات آتية من معالجات مختلفة، أي: أن الفرد كي يفهم الشيء ويصل إلى تصور له لابد أن تقوم المنظومات المركزية بتقديم معلومات عنه، وهي آتية من المنظومات المركزية اللاوعية والواعية، وهنا يظهر دور هذه المنظومات في الإدراك.

"وتندرج عمليات المنظومات المركزية في شبكات عصبونية عديدة متمايزة وغير اختصاصية، وتتيح المنظومات المركزية استدلالات واعية ومعقلنة، ترسخ الاعتقادات والذاكرة وما نطلق عليه بعامة كلمة الفكر. فضلًا عن ذلك لا تستطيع هذه المنظومات تعديل أداء هذه المعالجات"(٢).

هذا تفسير عملية معالجة المعلومة في الدماغ تحت مسمى المنظومة المركزية، أي: المرحلة المركزية التي قالها فودور؛ وهي تعد المرحلة الأخيرة والنهائية لمعالجة المعلومة، حيث تنطلق المعلومات المسجلة في شبكات العصبونات من العصبونات؛ لتقوم المنظومات المركزية باستخلاص النتائج والاستدلال عليها بتقديم نتائج واعية صحيحة ومقنعة عقلية عنها تؤكد الفكرة بأدلة واعية دقيقة؛ إلى جانب هذا لا تستطيع المنظومات المركزية تعديل أداء المعالجات، أي: المعلومة التي وصلت إليها من عمليات الإدراك الحسي.

٧- **رد غي تيبرغيان على فودور حول منظوماته الثلاثة :**

بعد أن عرض غي لرأي فودور بدأ في تفنيد هذا الرأي بمنظوماته المختلفة، وهي:

أولاً: المنظومات المركزية :

يقول غي عنهذه المنظومات بعد أن حلل وفسر كلام فودور من منظور عصبي: "وصف كهذا يقضي بأن تهتم العلوم المعرفية فقط بآليات اللغة والإدراك، دون الادعاء بأنها تتصدى لمشكلة فحص العمليات المعرفية المركزية، لأن كل شيء في هذه

(١) قاموس العلوم المعرفية: ٢٩٢

(٢) قاموس العلوم المعرفية: ٢٩٢

الحالة يستطيع أن يخدم كل شيء، ولأنه يصبح من المستحيل أن نحدد مهام المعلومة الدقيقة وطرق معالجتها"[(١)].

يرفض رأي فودور، لأنه يجعل العلوم المعرفية تُعنى بآليات اللغة والإدراك في معالجة المعلومة الإدراكية واللغوية فقط. لكن العلوم المعرفية تتصدى لمشكلة فحص العمليات المعرفية المركزية؛ فهذا يدخل ضمن مهامها الأساسية، فهي تشرف على ذلك كله، بمعنى أن كل علم من العلوم المعرفية يختص بمعالجة جانب واحد خاص به، فلا يصح قصر عمل العلوم المعرفية على معالجة جانبي اللغة والإدراك فحسب.

ثانيًا: المنظومات الطرفية :

يستطرد غي في عرضه لرأيه قائلًا: "لكننا نرى أن مفهوم المعالجة الدقيق للعمليات الطرفية لا يتوافق مع مجمل العمليات التجريبية. ويتبدى أن المفهوم الفودوري للمنظومات المركزية يصعب الأخذ به؛ ذلك لأن بعض العمليات المركزية لها خصائص تقرِّبها من المعالجات دون أن تتعرض للكبسلة (كالذاكرة الدلالية أو الوعي مثلا)"[(٢)].

يرى غي أن مفهوم فودور حول معالجات العمليات الطرفية غير دقيق؛ لأن مجمل العمليات التجريبية يخالف ذلك، فالتطبيق الواقعي لتلك العمليات عكس ذلك، وهنا نجد ثلاثة مستويات للتحليل هي:

١- التحليل الفلسفي. ٢- التحليل التجريبي. ٣- التحليل العصبي.

المستوى الأول: المستوى الكلاسيكي، حيث يتم تحليل المعلومة في ضوء افتراضات ورؤى فلسفية.

المستوى الثاني: يقوم على المنهج التجريبي، وهو أوقع وأصح من الأول.

المستوى الثالث: مستوى عصبي،وهو أدق وأعمق منهما، لأنه يقوم على التصوير الدقيق للعمليات التي تحدث في الخلايا العصبية أثناء حدوث عمليات التفكير. فالتصور الذي عرضه فودور تصور افتراضي، وقد حاول غي تيبرغيان دراسته وتحليله

---

(١) قاموس العلوم المعرفية: ٢٩٣

(٢) المرجع السابق: ٢٩٣

في ضوء التحليل العصبي للحدث، لهذا خالف غى تيبرغيان فودور في كثير من آرائه، أما التحليل الأدق فسوف نعرض له في دراستنا العصبية المقبلة.

٨- خلاصة رد غي تيبرغان :

بعد هذا التحليل لرأيغي تيبرغيان وعرضهلمآخذه على نظرية فودور، يعرض خلاصة رأيه قائلا:" لم يعد بالإمكان إذن الدفاع عن نظرية فودور في كامل صرامتها الأصلية. وتنطبق معايير التعرف للمنظومات المعالجة بشكل متفاوت على شتى مستويات المعالجة وشتى المجالات، يضاف إلى ذلك أن المنظومات المركزية لهاخصائص تتشاطرها أحياناً مع المعالجات"[١].

نظرية فودور لم يعد لها جدوى مع التطور العلمي وتصوير الخلية العصبية.
لأن:

أ- معايير التعرف الخاصة بمنظومات المعالجة يمكن أن تنطبق على مستويات معالجة متعددة ومجالات مختلفة. مما يعنى أنه أدرك أن منظومات المعالجة التي ذكرها فودور يمكن أن تنطبق بشكل متفاوت على كل مستويات المعالجة، وبذلك فهى ليست دقيقة.

ب- المنظومات المركزية لها خصائص تتشارك فيها مع معالجات فليست دقيقة.

٩- قيمة تحليل فودور ونظريته :

يرى غي تيبرغيان أن لتحليل فودور قيمة كبرى هي أن المعايير الثلاثةالأخيرة من معاييره تمكننا من التمييز بين معالج ما وبين التعلم التلقائي، أي التعلم الفطري لدى الفرد، وهو تعلم فائق، لأنه يأتي بطريقة تلقائيةربما دون معلم. يقول غي:"أخيرًا، وحدها المعايير الثلاثة الأخيرة التي أوردها فودور تمكن من التمييز الواضح بين معالج ما وبين إمكانية التعلم الفائق (التلقائي الحركة)"[٢]، وقال أيضًا غي:"في نهاية المطاف أصبحت التركيبية أكثر من طريقة استكشاف، إذ إنها طرح يتعلق بواقع أنظمة المعرفية الدماغية المستقلة نسبيا"[٣].

(١) قاموس العلوم المعرفية: ٢٩٣
(٢) المرجع السابق: ٢٩٣
(٣) نفسه: ٢٩٣

خامسًا: غرايس واشتغال الدماغ (الحالة الذهنية – النوايا) :

في إطار بحثنا حول جهود علماء التداولية في توجيه الأنظار ناحية الدماغ بوصفها مصدر التواصل بين الناس؛ وذلك بفهمهم وإفهامهم باستخدام وسائل كثيرة من بينها اللغة والإيماءات وغيرهما؛فنجد أنفسنا أمام عالم كبير من علماء التداولية هو غرايس.

١ – قدرات الدماغ :

لقد عرض موشلار تصور غرايس عن القدرات التي لدى الفرد قائلا: "تكمن طرافة غرايس في تخصيصه حيزًا واسعًا للظواهر الاستدلالية بعد ما أهملها منظرو الأعمال اللغوية وفضلًا عن ذلك ارتكز غرايس بدرجة كبيرة على إمكانيتين لم ينصفهما هؤلاء المنظرون: القدرة على اكتساب حالات ذهنية، والقدرة على نسبتها إلى الآخرين. وبين غرايس أن القدرة على تأويل الأقوال بكيفية تامة ومرضية رهن بهاتين القدرتين، وخصوصًا القدرة الثانية"(١).

ارتكز غرايس في تقديمه للتداولية على أن كل فرد يمتلك قدرتين هما: القدرة على اكتساب حالة ذهنية، والقدرة على نسبة الحالة الذهنية للآخرين، وأن القدرة على تأويل الأقوال وتفسيرها وفهمها مرهونة بهاتين القدرتين. هذا القول يحتاج إلى وقفة لنبين مقاصده، وكيف يرتبط بالبنية العصبية، إن الفرد متكلمًا كان ومخاطبًا يجب أن يتمتع بهاتين القدرتين، القدرة على اكتساب حالات ذهنية، لأنها هى مايسيطر على فكره ويوجهه تبعًا لحالاته الذهنية الآنية. فيصبح ذا توجه ما نحو كل أمر في عالمه، وهو بذا يكون قد حدد توجه دماغه ناحية هذا الأمر، ومن هنا يتحدث ويفكر انطلاقًا من هذه الحالة الذهنية وهذا التوجه الذي يسيطر عليه.

أما مكان هذه القدرة ومنطلقها فهو دماغه؛ مما يعني أن توجهه وفكره هما عملية عقلية ذهنية يحكمها جهازه العصبي بخلاياه، وشبكاته العصبية، ومخزنه العقلي بما يحويه من أفكار وخبرات وآراء حول هذا الأمر. إذن عمل هذه القدرة يتم في إطار عملية عصبية ترتبط في عملها بجهازه العصبي، أما القدرة الثانية وهي القدرة على فهم الآخرين فهي عملية عصبية أيضًا، لأنه كي يقدم تقريره حول الآخرين لابد أن يُعمل عقله في سلوك الآخرين، ليتمكن من فهمهم والتعامل معهم.

---

(١) التداولية اليوم علم جديد في التواصل: ٥٢

النوايا:

لقد أشار إلى هاتين القدرتين بصورة مجملة في ما ذكره عنه موشلار بقوله: "يشدد غرايس في التواصل اللغوي على نوايا القائل وعلى فهم المخاطب لهذه النوايا"(١).

لقد أشار إلى أن أساس التواصل معرفة نوايا كل من المتكلم والمخاطب، وهي عملية عقلية تقوم بها الدماغ في جانبين الأول: التبصرة بالنفس من خلال تحديد وفهم الفرد لحالته الذهنية والنفسية، الثاني: يتم بفهم أقوال الآخرين؛ ليتمكن من معرفة نواياهم وسلوكهم.

إذن ما قاله غرايس عن شروط نجاح التواصل كأساس عمل التداولية يقوم على القدرة على فهم النفس وفهم الآخرين، أي: القدرة على تفسير وتأويل أقوال المتكلم والمخاطب ومعرفة نواياهما. هذا الأمر في حقيقته عملية عقلية تقوم بها الدماغ، بعني أن كلامه وتفسيره يقوم على أساس عصبي، ليبين علاقة الدماغ بما تخفيه من نوايا وأفكار.

٢- الاستدلال :

لقد أدرك غرايس قيمة قضية الاستدلال فخصص لها حيزا كبيرا في دراسته؛ وذلك لأنها تعد نتيجة لعمل الدماغ في الوصول إلى نتائج كل عملية تفكير يقوم بها الدماغ، لذلك ركز اهتمامه على قدرتين لدى العقل البشري، هما: القدرة على التعايش مع الحالة الذهنية الراهنة. فالإنسان يستطيع بهذه القدرة التفاعل مع الآخرين انطلاقًا من حالته الذهنية الراهنة (انفعاله الآني: غضب. فرح. حزن)، أما القدرة الثانية فهي فهم الحالة الذهنية للآخرين، فيستطيع نسبة حالة ذهنية ما إليهم بناءً على فهمه لهم.

وبناءً على قدرته على فهم هاتين الحالتين يستطيع تأويل الأقوال التي يسمعها بصورة مرضية، إن عملية التواصل اللغوي عنده تقوم على فهم ما في نفس المتكلم والسامع معا ونواياهما، التي لا تبدو ظاهرة إلا لمن لديه هذه القدرة. إنه يتجه بنا ناحية عمليات عقلية خفية.

---

(١) التداولية اليوم علم جديد في التواصل: ٥٣

٣– الدلالة غير المنطوقة :

وفي حديثه عن الدلالة نجد أنه "اقترح تعريفًا للدلالة غير الطبيعية (وهي وحدها تعنينا هنا): أن نقول إن القائل قصد شيئا ما من خلال جملة معينة، فذلك يعني أن القائل كان ينوي وهو يتلفظ بهذه الجملة إيقاع التأثير في مخاطبه بفضل فهم هذا المخاطب لنيته ... ولكن، وخلافًا لسيرل، لا يؤسس هذا الفهم حصرًا على الدلالة التواضعية للجمل وعلى الكلمات التي تتكون منها هذه الجمل"[(١)]، إن الدلالة غير المنطوقة التي تحملها العبارة في خضم سياقها ومن خلال ما تضمنته من تلميحات وإيماءات وفهم مسبق عن الموضوع وصاحبه، وما يستلزمه الحوار الآني. لكل هذا لينطق بعبارة أخرى ردًا على الأولى بما يناسبها لكي يقنع الآخر ويؤثر فيه بجمع العناصر السابقة في دماغه.

٤– أنواع الدلالة :

"ميز غرايس بين (ضمنيا) مظاهر ثلاثة هي: الدلالة التواضعية، والإشارة، والقصد"[(٢)]، هذه المظاهر الدلالية تمثل في:

أ– الدلالة التواضعية: أي التي تواضع عليها الناس، ودونوها بالعاجم، وفي أدمغتهم.

ب – الإشارة: دلالة عقلية يستلهمها الفرد من القول والإيماءة، كدلالة غير منطوقة.

ج – القصدية: ترتبط بقصدية المتكلم التي ربما لم يبح بها اعتمادًا علي ما يضمره.

سادسًا: سبربر وولسن ودور اللغة في اشتغال الدماغ :

"يترّل سبربر وولسن بوضوح تداوليتهما ضمن مقاربة فودور، وبحسب ما يذهبان إليه، فإن اللسانيات (بالمعنى المذكور أعلاه: علم الأصوات الوظيفي وعلم التركيب وعلم الدلالة) توافق منظومة طرفية هي تلك المنظومة المختصة بمعالجة المعطيات اللغوية، ومقابل ذلك، فإن التداولية تندرج بوضوح ضمن النظام المركزي.

---

(١) التداولية اليوم علم جديد في التواصل: ٥٣

(٢) المرجع السابق: ٥٤

وبالفعل ليست العمليات التداولية سوى العمليات العادية للنظام المركزي (أو على الأقل البعض منها). ومن هذا المنطلق تمكن دراسة التأويل التداولي للأقوال – في رأي سيربر وولسن – من إيضاح طريقة اشتغال عمليات النظام المركزي"(١).

يرى سبربر وولسن أن التداولية تدخل ضمن النظام المركزي، وهو يمثل المرحلة النهائية لمعالجة المعلومة. فنحن نستقبل المعلومة في المرحلة المحولة لتدخل إلى الدماغ، ثم يتم تحليلها في المنظومة الطرفية، وينتهي بها الحال إلى النظام المركزي الذي يعطيها التصور النهائي، بناء على البيانات التي جمعت حولها من المنظومة الطرفية، ففي المنظومة الطرفية يتم معالجة المعطيات اللغوية الخاصة بالمعلومة، أي معالجة مضمون الرسالة التي تحمل المعلومة بتحليل محتواها اللغوي.

من هذا القول نستنتج أن مرحلة المعالجة اللغوية تسبق المرحلة التداولية عند اشتغال الدماغ بالمعلومة. وهذا صحيح، ويمكننا ببساطة فهم هذه العملية أو ما يريدان قوله: إن اللسانيات ترتبط بالتداولية بصورة تكاملية بمعنى أن كلا العمليتين يتكاملان، فالأولى تقوم بتحليل محتوى الرسالة لغويًّا؛ وفي النصف الأيسر من المخ (تحليل وتأويل حرفي للغة)، والثانية تقوم بتأويلها وتفسيرها والاستدلال منها على مقصد المتكلم وهو دور التداولية الفعلي. على مراحل متتالية، وهو الأمر الذي يتم في النصف الأيمن من المخ.

هذه العملية التحليلية وضحتها وبينت مراحلها المدرسة العصبية بقولها: إن الرسالة اللغوية تصل أولًا إلى النصف الأيسر للمخ الذي يقوم بفك شفرتها بتحليلها لغويًا بصورة حرفية فقط، ونؤكد على كلمة حرفيًّا، حيث يفهم المتلقي ما في الرسالة من مضمون حرفي لغوي لها، ثم تنتقل الرسالة اللغوية إلى النصف الأيمن من المخ لتحليلها تداوليًّا بفهم المعنى الثاني والثالث للرسالة وما خلف المعنى الحرفي من المعاني الأخرى كالمعنى الاستعاري والكنائي والألغاز والتهكم والسخرية والاستلزام الحواري لهذه الرسالة، وكذا مقصد المتكلم والافتراض المسبق، كل هذه المعاني التداولية يقوم النصف الأيمن من المخ بتفسيرها وتأويلها وفهمها. هنا يبدو دور النصف الأيمن من المخ في فهم التداولية.

---

(١) نفسه: ٧٤ ــ ٧٥

ويقول موشلار عن مراحل الفهم وتسلسلها لسانيًّا وتداوليًّا: "يمكننا إذن التساؤل بصدد التمييز بين اللسانيات والتداولية ... يجرى التمييز بين المنظومات، فالمنظومة اللغوية توفر مداخل للمنظومات التصورية، وتبدأ حينئذ المعالجة التداولية للقول"[(١)].

وهذا صحيح، إن المنظومة اللغوية تعطينا مداخل لبناء تصور عن المعلومة بألفاظها وتراكيبها التي تصفها، وبناءً على هذا التصور الذي كونته في أدمغتنا المنظومةُ اللغويةُ، ثم يأتي دور المنظومة التداولية التي تبدأ في معالجة المعلومة. إذن لا بد أن ندرك المعلومة ونستقبلها بحواسنا، ثم يأتي دور المنظومة اللغوية لحل شفرتها، وبناء تصور لها في الدماغ، لتنتهي إلى النظام المركزي (بعمل التداولية). فتقوم بتأويلها والاستدلال منها.

قدرة المنظومة التداولية على الاستدلال والتفسير :

لا تكتفي المنظومة التداولية بأنشطة المنظومات التصورية؛ لأن المنظومة التصورية لا تقدم بيانات كافية للمنظومة التداولية لفهم الحدث، فهي تعمل في إطار المنظومة اللغوية وما تقدمه من معلومات عن الحدث في حدود محتواها اللغوي، "ولكن هذه المنظومة لا تكتفي بأنشطة المنظومات التصورية، فهي تُشرك منظومة مخصوصة – هي– نظرية الذهن – قوامها حصرًا القدرة على نسبة حالات ذهنية إلى الآخر، وهي قدرة لا غنى عنها في معالجة الأقوال. وعندئذ تصبح مهمة التداولية الكشف عن عملية التأويل التداولي"[(٢)].

إن قدرة الفرد على فهم المعلومة بصورة واضحة دقيقة تأتي من إدراكها ورؤيتها من زوايا كثيرة وجوانب مختلفة.

لهذا فإن ما تقدمه له المنظومة التصورية (الفضاء الذهني) من تأويل للمعلومة لا يكفي لفهمها جيدًا. لهذا فهو يُعْمِل عقله فيها،فيفكر فيها بعمق أكبر مستعينًا بما لديه من افتراض مسبق حولها، وما لدينا من معرفة مسبقة عن الحدث وفاعله وصفاته كخلفية له. يحدث هذا العمل التالي بقدرة مخصوصة تعرف (بنظرية الذهن) التي تُأوِّل الحدث كله.

(١) التداولية اليوم علم جديد في التواصل: ٧٥ ــ ٧٦

(٢) التداولية اليوم علم جديد في التواصل: ٧٦

مثال :

إذا سمعتَ عبارة: (**قتل زيدُ عمرا**)، وسألتُك: ما تفسير هذا ؟ ومن القاتل في رأيك ؟.

نشرح هذا المثال لنبين دور المنظومة اللغوية، والأنشطة التصورية، ونظرية الذهن، والمنظومة التداولية في معالجة المعلومة في مراحل متتالية دون تقديم أو تأخير، هي مرحلة:

١-المنظومة اللغوية: تستقبل الحواس المعلومة وتنقلها للدماغ في المنظومة الطرفية.

المرحلة الأولى تفسر المعنى الحرفي: قُتل عمرو على يد زيد، (وانتهى الأمر).

٢- أنشطة المنظومة التصورية: تحل شفرتها اللغوية. فالمعنى العام قُتِل زيدِ بيد عمرو.

٣- نظرية الذهن: يبدأ عمل الذهن بالتفكير في المعلومة وتحليلها بطرح أسئلة هي:

أ- هل المعلومة صحيحة ؟؛ فالحالة الذهنية لزيد ومعرفتنا به تجعلنا لا نصدق هذا.

ب - متى حدث هذا؟ قد كانا معا في محبة وصداقة منذ لحظة. لا أصدق الخبر.

٤- مرحلة التأويل التداولي الاستدلالي: في هذه اللحظة يكون الذهن جمع خيوط القضية في بوتقة التداولية وصهرها ليخرج باستدلال ونتيجة: أن زيدًا لا يفعل هذا أبدًا.

من هذا يبدو لنا بوضوح دور التداولية في فهم الحدث وفهم الآخرين والاستدلال والتأويل، إنها حقًا عملية معقدة يقوم بها الدماغ على مراحل متتالية سريعة جدًا؛ ليعطي تقريره عن الحدث ويفسره لنا، فهو لا يكتفي بالمنظومة اللغوية ولا الأنشطة التصورية في فهم الحدث، بل لا بد أن يرجع إلى النصف الأيمن من المخ ليفكر في المعلومة، ويخرج بتأويله لها - من وجهة نظره - من خلال المنظومة التداولية المستقرة في نصف المخ الأيمن.

الفصل الخامس
التداولية الاجتماعية والدماغ

مقدمة :

تقسم التداولية إلى فروع من بينها التداولية الاجتماعية، قال د.نحلة: "ولما كان مجال البحث في التداولية شديد الاتساع فقد أخذت تظهر لها فروع يتميز كل منها عن الآخر، فهناك التداولية الاجتماعية التي تهتم بدراسة شرائط الاستعمال اللغوي المستنبطة من السياق الاجتماعي""(١)، هذا يعني أن هناك فرعًا مستقلًا بدراسة التداولية في سياقها الاجتماعي، أي عند التحام الفرد بمجتمعه، إنها تُعنى بدراسة التداول الحادث بين الفرد ومجتمعه، وما ينجم عنه من تواصل وتفاعل نتبين منه أن التداولية أساس وجود المجتمع؛ لهذا سندرس هنا التداولية في سياقها الاجتماعي، وتأثيرها على الفرد ومجتمعه.

لكن د. نحلة جعلها تختص بدراسة شرائط الاستعمال اللغوي المستنبطة من السياق الاجتماعي، وهذا تقييد للقدرة التواصلية الفعلية للتداولية، فهي لا تستعمل اللغة فقط في التواصل الاجتماعي، أي بين الفرد ومجتمعه، إنما تستعمل وسائل اجتماعية غير لغوية أيضًا لتحقيق التواصل الاجتماعي من تلميحة وإيماءة وملامح الوجه. كما سنرى هنا.

١- التداولية الاجتماعية :

يُدخل ليتش ضمن مفهوم التداولية الجانب الاجتماعي لتحقيق التواصل، فينطلق في ذلك من شروط ومحددات يقول:"التداولية العامة أعني بهذا الحد تمييز دراسة الشروط العامة لاستخدام التواصل في اللغة، وأن أَبْعد أخص الشروط (ذات الحيز local) من استعمال اللغة، وهذه الأبعاد الأخيرة يمكن أن يقال عنها، إنها تنتمي إلى المجال الأقل تجريدًا للتداولية المجتمعية. وذلك يتضح من أن (م تع)(٢)، ومبدأ الخُلق (م خ) إنما يجريان على نحو متغاير في الثقافات المختلفة أو الجماعات اللغوية في المواقف

---

(١) التداولية: ١٥

(٢) م تع: يقصد به مبدأ التعاون لـــ (كرايش)، م خ: يقصد به مبدأ الخُلق لـــ (ليتش).

المجتمعية المتباينة، بين الطبقات الاجتماعية المتعددة، ويمكن لأي إنسان أن يفكر في التحريم Taboo المدرسي المفروض على الأطفال إزاء (حكاية القصص الخرافية) (أي حكاية ما لا يناسب الحقيقة). وكذلك يمكن للإنسان أن يفكر في الطريقة التي يؤول بها مبدأ الخُلق تأويلًا مختلفًا في المجتمعات الصينية والهندية والأمريكية، وحينئذ يرى أن الأوصاف التداولية تتصل في نهاية الأمر بالشروط المجتمعية المخصوصة، وبعبارة أخرى فإن التداولية المجتمعية هى السطح التوسطي الاجتماعي للتداولية"(١).

فالتداولية بهذا المفهوم هي لغة المجتمع والمعبر عن فكره وسلوكه وعاداته التي تظهر في لغته، وهي تبين كيف عبر عن كل هذه الأشياء بوسائل مختلفة تخصه هو دون غيره من المجتمعات؛ لذا كان من الضروريّ كي نفهم لغة مجتمع ما أن نفهم سلوكه وعاداته الخاصة، وطريقة تعبيره عن كل هذه الأشياء كسلوك خاص به، والذي تعكسها لغته، حيث تبوح الأخيرة بما تخفيه المجتمعات من عادات وسلوكيات خاصة بها، فلا نستغرب وجود كلمات في مجتمع ما غير مفهومة في مجتمع آخر؛ وذلك لارتباطها في المجتمع الأول بتاريخ وثقافة خاصة به لا يعرفها المجتمع الآخر، مثل عبارات: (أمِّنا الغولة، وأبو رجل مسلوخة) في مجتمع الريف المصري، إنها عبارات ترتبط بتاريخ وثقافة هذا المجتمع لا تُفهم إلا فيه ولدى أبنائه، وهذا موجود في كثير من السلوكيات التي ترتبط بأخلاق كل مجتمع، ولكنها لا يُعتد بها في مجتمع آخر، كل هذه الأشياء ترجع إلى أسباب تداولية تظهر من خلال عبارات لغوية اجتماعية.

السؤال الآن: ما علاقة هذا بالبنية العصبية ؟ :

إنها علاقة أساسية وجوهرية، فالإنسان يسجل في شبكاته العصبية هذه العادات والسلوكيات الاجتماعية بعباراتها منذ طفولته، وتنمو في ذاكرته لتبقى على مدى حياته، على هذا الأساس، يتفاعل مع مجتمعه في ضوء هذه العادات والتقاليد، ويستخدم العبارات نفسها التي خصصها مجتمعه، ثم تبدأ المشكلة التداولية العصبية عندما يذهب للعيش في مجتمع مختلف في عاداته وثقافته عن مجتمعه الأول أو على تناقض معه، في هذه اللحظة عندما يتفاعل مع مجتمعه الجديدة؛ فيُوضع في موقف ما ويسمع عبارة ما تخالف سلوك مجتمعه فإنه، أولًا، يعرضها على ما دُوِن في شبكته من

(١) مبادئ التداولية:٢١

قبل، فينطق بالعبارة التي اعتاد النطق بها في هذا الموقف في مجتمعه الأول، فيجد ردًا عنيفًا أقله السخرية مما قاله، هنا يحدث صراع بينه وبين نفسه.هو في الحقيقة صراع بين موروثه الثقافي وثقافة مجتمعه الجديد؛ فيدرك أنه ما كان عليه أن ينطق بهذا، فيسارع إلى اكتساب سلوك المجتمع الجديد وعباراته، ويغير من لغته، وتدوين السلوك الجديد في شبكته العصبية، ويتفاعل بها معهم، ويستدعيها في حواره معهم.

لهذا "فنحن نحتاج إلى دراسات تداولية لسانية مفصلة، تخص لغة معينة، وإلى دراسة تداولية اجتماعية مفصلة تكون ذات ثقافة مخصوصة، كما نحتاج أيضًا إلى دراسات أعلى مستوى كمرحلة ضرورية من التجديد بين دراسة اللغة في تجريد كلي من المواقف، وبين دراسة أخص الاستعمالات من الوجهة الاجتماعية للغة"[(1)].

هذا القول يلخص القضية التداولية الاجتماعية العصبية، فنحن كي نفهم ما يُقال ونتفاعل معه يجب علينا دراسة كل لغة على حدة، فنحدد اللغة المعينة التي ندرسها والسلوك الاجتماعي لأصحابها وثقافتهم. وكذا دراسة أخص الاستعمالات اللغوية لهذا المجتمع. لماذا ؟ لأن هذه الدراسة ستجعلنا نتفاعل معهم بدقة بالغة، ونفهم مقاصدهم بكل قول وفعل وإشارة لغوية وغير لغوية تصدر عنهم. هنا يكون تفاعلنا معهم ناجحًا.

٢- الإنسان حيوان اجتماعيٌّ مبدع :

هل الإنسان حيوان اجتماعي ؟ سؤال يحتاج إلى مقارنة بين السلوك الاجتماعي للحيوان وسلوكنا الاجتماعي، وما وراء هذا من أمور أعمق من السلوك؛ لأننا سنجد هذه الأمور تأخذنا إلى منحى آخر، نعم هناك شبه بيننا وبين الحيوان؛ فكلانا مخلوق اجتماعي تواصلي تداولي في علاقته بجماعته التي يصنع معها تواصله وتعاونه بوسيلته التواصلية الخاصة، وهذا التعاون الموجود بين كل هذه الأجناس هو في أصله مبدأ تداولي، أشارت إليه التداولية، ولا نقول أبدعته أو نادت به؛ فهو موجود سلفًا بين كل جماعة من خلق الله أنشأت على أساسه مجتمعاتها، ثم تكاثرت لإبقاء جنسها ونوعها.

وهناك أيضا اختلاف بيننا وبينه؛ فالإنسان اجتماعي والحيوان اجتماعي نعيش كلنا في جماعاتنا الخاصة، لكن الإنسان يتميز بأنه اجتماعي **مبدع**، **وإبداعه** هو سر

(١) مبادئ التداولية: ٢١ ــ ٢٢

تميزه على سائر خلق الله، فهو لا يكتفي بالحل الآني لمشاكله، بل يبدع حلولًا مستقبلية ضمانًا لعدم تكرار مشاكله، وهذا الإبداع جعله يصنع الآلة ويطور فيها، وهو أمر لم نجده لدى سائر خلق الله، يقول برنارد ج. بارز: "هذا جانب من جوانب المعرفة البشرية تجعلنا متفردين بين الأنواع الأخرى من الثديات – إنها قدرتنا على فهم بعضنا البعض بوصفنا كائنات واعية ذات حالات ذهنية داخلية، وتمتلك الأنواع الأخرى قدرات جزئية تتيح لها معايشة الحالات النفسية للأعضاء الآخرين من نوعها، ويمكنهم إدراك الجوانب المختلفة لوضعية الجسد وخصائص الصوت، والتعبيرات الوجهية بوصفها علامات تؤشر على أشياء محددة؛ ومن ثم اتخاذ إجراءات تتناسب مع الموقف المُدرك ... إن هذه القدرة قدرة بشرية فريدة"[(١)]، إن قول برنارد يحوي نقاطًا، نحاول مناقشتها والرد عليها، وهي:

١ــ نتفرد عن الحيوان بقدرتنا على التفاهم معًا؛ لكن الحيوان لديه القدرة ذاتها أيضًا.

٢ــ لدينا وعي بحالاتنا الذهنية الداخلية، والحيوان كائن واعٍ يخطط، ويحزن، ويشعر.

٣ــ الحيوان قادر على معايشة الحالة النفسية وفهم معنى الصوت وتعبيرات الوجه.

٤ــ الحيوان قادر على اتخاذ القرار في ضوء إدراكه الآني: هرب أو هجوم أو صمت.

حقا إن لدينا قدرة بشرية فريدة – كما قال برنارد – لكن ليس للأسباب التي ذكرها فقط؛ ولكن هناك سبب آخر يجعلنا نتفرد عن الحيوان وهي – كما ذكرت آنفا – أننا مخلوق الاجتماعي **مبدع**، والجديد في قولنا هو صفة مبدع وهو ما لم يذكره برنارد، إن الإنسان – كما ذكر سيرل – قادر على خلق واقع اجتماعي غير موجود، فهو يبدع وسيلة للتعامل المالي بين أفراد مجتمعه؛ هي العملة الورقية التي لا نراها لدى أي مخلوق في الكون، ويُعد هذا من صور خلق واقع اجتماعي من إبداع البشر.

وكذا ما نراه من قدرة هذا المخلوق المبدع (الإنسان) على تحدي الواقع الاجتماعي الذي يعيش فيه؛ بخلق واقع مغاير له فورًا، فعندما يُغْرِق السيلُ كوخَه، فإنه يبني بدلًا منه بيتا من الأحجار، ويطوره ليصبح عمائر وناطحات سحاب، وعندما يرسب في الاختبار يتحدي هذا الواقع الاجتماعي الذي هو فيه بالمذكرة والنجاح، وكذا عندما يخسر تجارته فيتحدي هذا الواقع الاجتماعي بمعاودة التجارة

١) المعرفة والمخ والوعي:٧٩٩

وصنع شركات ومصانع أفضل؛ وهذا الإبداع والقدرة العقلية على مواجهة مشاكل واقعه الاجتماعي لا نجدها لدى الحيوان.

٣- دور اللغة في خلق الواقع الاجتماعي :

الشيء الثاني الذي يتساءل عنه سيرل هو دور اللغة في إبداع الواقع الاجتماعي، يقول: "ما دور اللغة في إبداع الواقع المؤسسي ؟.

إن الاستعمال الواضح ولكنه المحير مع ذلك للغة في بناء الواقع الاجتماعي هو أنَّا عادة نستطيع إبداع وقائع مؤسسية عن طريق منطوق أدائي ... نستطيع أن نعلن الحرب بالقول: أعلنت الحرب؛ وهلم جرا، بالنسبة لعدد كبير جدًا من الحالات، كيف يكون ذلك ممكنا ؟.

الجواب هو غالبًا في قواعدنا التكوينية ما يكون الحد (س) ذاته فعلًا كلاميًا؛ ومن ثم عندما أقول في السياق الصحي (ق) (أعلنت الحرب) هو إعلان للحرب، وإبداع الواقعة المؤسسية هو وجود حالة حرب بين بلدين، وهكذا نفسر أحد أدوار اللغة تفسيرًا يسيرًا تمامًا، وهو استعمال المنطوقات الأدائية في إبداع الوقائع المؤسسية، والنقطة العامة هي أنه حيث يكون الحد (س) فعلًا كميًا، يكون أداء هذا الفعل الكلامي أدائيًا بالمعنى الذي يبدع الواقعة المؤسسية المسماة بالحد (ص).

إحدى الظواهر المدهشة هي وجود الوعي في عالم مؤلف كلية من ذرات فيزيائية، والظاهرة الأخرى هي قدرة العقل الجديرة بالملاحظة على أن توجه ذاته إلى موضوعات وأمور واقعية في العالم في معزل عن ذاته، والظاهرة الثالثة هي قدرة العقول - وهي تفعل معًا - على إبداع واقع اجتماعي"(١).

إن سيرل يسأل عن كيفية قيام العقل بخلق واقع اجتماعي، كيف يبدع العقل هذا وهو مكون من ذرات فيزيائية، والسؤال ذاته الذي طرحه تشومسكي وهو كيف لعناصر مادية فيزيائية أن تفكر ؟.

٤- فكرة جون سيرل عن التداولية الاجتماعية :

إن ما دفعنا إلى دراسة التداولية الاجتماعية ضمن التداولية العصبية ما وحدناه لدى جون سيرل من إشارة لدورها في الجانب العصبي في فهم الأحداث التي تحدث في العالم المحيط بنا، وبيان دور الجهاز العصبي والمجتمع في هذا الشأن، يقول سيرل:

---

(١) العقل واللغة والمجتمع الفلسفة في العالم الواقعي: ١٦٧

"هدفي في هذا الكتاب هو تفسير البنية العامة لمجموعة من الجوانب المحيرة فلسفيًّا من الواقع وهي: العقل واللغة والمجتمع، ثم تفسير كيف تنسجم بعضها مع بعض ؟ وأنا في فعل ذلك أسلم بمجموعة من الأشياء:

أ- نحن نعرف قدرًا من الحقائق عن كيفية عمل العالم أكثر مما كان يعرفه أجدادنا.

ب- ويمكن أن نعتمد على هذه المعرفة التي تستمد من الفيزياء والكيمياء والأحياء وغيرها من العلوم المتخصصة ...

ت- وفي هذا الكتاب سلمت ببساطة بنتائج الفيزياء والكيمياء والأحياء وبخاصة الأحياء العصبية.

ث- وحاولت حتى الآن أن أقدم تقريرًا عن العقل يتسق مع حقيقة أن العقل ظاهرة بيولوجية بصورة جوهرية.

ج- وأن الجانبين المهمين فيه والمرتبطين معًا – الوعي والقصدية – بيولوجيا أيضًا.

ح- وأنا أستعمل تقريري عن العقل لتفسير طبيعة الواقع الاجتماعي والمؤسسي"[(١)].

هذا القول على قدر كبير من الأهمية تجعلنا نعرضه كاملًا في شكل نقاط متتالية متسلسلة بغرض الدراسة والتحليل. ذلك لأنه يقصر علينا الطريق، ويوضح أمورًا كنا سنشرع في شرحها، بل خطة عمل لنا لبيان عملنا في هذه الدراسة التي تختص بمعالجة اللغة. إن المشكلة التي يسعى سيرلإلى حلها هي كيف للدماغ أن تجمع داخلها مجموعة خطوط مختلفة وكيف تربط بينها ؟ إنه سؤال جد خطير، على الرغم من أننا نفعلهذا ليل نهار.

والشيء الثاني الذي جعلني أتوقف بحزم عند كلام سيرل هو إيمانه الشديد بالعلوم الطبيعية وعلى رأسها العلوم العصبية التي هي غايتنا في هذه الدراسة، ودورها في صنع اللغة. بل إن دورها هنا يتجاوز كل ما ذكره؛ ليلج بنا داخل الدماغ البشرية، وإلى قدرة علم الأعصاب الإبداعية المتناهية الدقة في بيان قدرة البشر على الجمع بين المجتمع المحيط بنا ومشاكله، واللغة التي تعبر عن كل هذا العالم داخل الدماغ.

هذا هو مفهوم التداولية ببسطة شديدة، كيف يتمكن الفرد من جمع هذه الأشياء معًا في لحظة واحدة داخل الدماغ، وأن يفكر فيها، وينتج منها أفكارًا كثيرة، بل الأكثر من ذلك، أنه يجيب ويحاور ويناقش ويرد علينا في سرعة فائقة، في إطار هذه المحددات والالتزامات التي يفرضها عليه مجتمعه، ودينه، وسياسة بلده، ولغته، إنها عظمة الدماغ البشرية والأعظم منها هو خالقها سبحانه وتعالى. كيف خلق الله

---

(١) العقل واللغة والمجتمع الفلسفة في العالم الواقعي: ١٤٧

سبحانه فينا عقولًا مبدعة، تجمع كل هذه الأشياء معًا داخلها، فتتحاور حولها وتستحضرها داخلها في آن واحد، بل تعمل على معالجتها معًا أيضًا في مهارة فائقة، إنها قدرة الله سبحانه وتعالى الذي يقول للشيء كن: فيكون، أمره بين الكاف والنون. ذلك سؤال من سيرل أعجبني كثيرًا؛ لهذا سأشرع في البحث عن جواب له.

٥- كيف تعمل اللغة ؟ (الكلام بوصفه نوعًا من الفعل الإنساني) :

يتساءل جون سيرل عن أمور أدهشته في علاقة العقل بالواقع الاجتماعي الذي يعيش فيه. يقول: "إحدى الظواهر المدهشة هي وجود الوعي في عالم مؤلف كلية من ذرات فيزيائية. والظاهرة الأخرى هي: قدرة العقل الجديرة بالملاحظة على أن توجه ذاته إلى موضوعات وأمور واقعية في العالم في معزل عن ذاته. والظاهرة الثالثة هي: قدرة العقول – وهي تفعل معًا – على إبداع واقع اجتماعي"(١).

ما معنى أن يكون لدى الإنسان وعي وإدراك لما حوله ؟ إنه يشعر ويحس بما حوله، على أنه وجود مادي مؤلف من مجموعة من الذرات الفيزيائية التي تتكون منها أشياء عالمه كله. فكيف تتفاعل تلك الذرات المكونة للكون مع ذاته ودماغه لتكوّن أفكارًا خاصة به ؟ إنه سؤال عن كيف تقوم تلك الذرات الفيزيائية بعمليات التفكير فيما حولها ؟، إنه ربط بين المادي المحسوس، والغيبي المتخيل والمتصور من أفكار نفكر فيها، ثم تصير واقعًا نحياه، هذا الأمر جدير بالسؤال والاستفسار عن كيفية حدوثه. والشيء الأغرب هو قدرة عقل الإنسان على التفكير المستقل عن ذاته في أمور وموضوعات عالمه الواقعي بعيدًا عن ذاته هو ؟، إنه فصل لما هو ذاتي عمَّا هو مادي ملموس واقعي محسوس. وكيف يجمع المرء بينهما في آن واحد دون أن يختلطا معًا، تلك قدرة مدهشة للمخ البشري، إنه يستطيع إقصاء ذاته عن الأمور الواقعية التي تحيط به، أما السؤال الأخير عن قدرة هذا العقل على إبداع واقع اجتماعي، وكيف له هذا؟ فخلق واقع في الذهن يخالف ما نحن فيه الآن آتمن قدرة إبداعية لا تتأتى لكل الخلائق،كما أن البشر يتفاوتون في إبداع هذا، ومن يعجز عن الإبداع، يقال: ليس لديه ذكاء اجتماعي.

إن سيرل يمهد لفكرة أكبر، إنها فكرة قوة أفعال الكلام على تحقيق التواصل مع الآخرين، وخلق وإبداع عوالم جديدة، تخالف الواقع الاجتماعي الذي يعيش فيه. فكل الخلائق تفكر وتبدع. ولكن في إطار اللحظة الآنية، وتسعى لتحقيق أمورمحددة:

(١) العقل واللغة والمجتمع الفلسفة في العالم الواقعي: ١٧١

الطعام، والحياة، والغريزة تقاتل من أجلها. أما الإنسان، ذلك المخلوق المبدع الوحيد في الكون من أجل الإبداع فقط. يغير، فهو ابن أغيار، ويصنع الجديد في كل يوم، لأنه ملول يكره التكرار، ويمل منه، وكان من براعته وإبداعه خلق واقع جديد يرى فيه حياة اليوم، ولكن بعين الغد؛ لهذا يتحول مع حديثه بعقل مبدع طوَّاق لرؤية مستقبله أكثر من حاضره، فيبدع واقعًا جديدًا يدعو محدثه ليراه معه. ويحاول أن يُفهمه ويريه ما في غده ومستقبله.

٦- التداول مع الآخرين :

هذه هي التداولية في أم رأسها. كيف نُفْهِم الآخرين ونُرِيهم ونُقْنعهم بما نرى من إبداع عقولنا: ما فيها من آمال وطموح ؟، وكيف نخلق ونبني في تصورهم ما لا يوجد إلى الآن في الواقع إلا في تصورنا ؟ إنها القدرة على خلق عالم واقعي اجتماعي في مجتمعاتنا. لكننا نسأل، كيف نفهم الآخرين ؟، وكيف نتفاعل معهم بوعي تام وإدراك وفهم لسلوكهم؛كي نتمكن من التواصل التداولي الاجتماعي معهم ؟، ويجيب عن هذا كله برنارد قائلًا: "ينطوي التعاطف على إحساس بمشاعر الآخرين ... وتستخدم نظرية العقل لتسليط الضوء على فكرة أننا لدينا تفاهمات معرفية ما ورائية معقدة لعقولنا ولعقول الآخرين، ... ونبني فهمنا للآخرين في ضوء وجود حالات ذهنية لديهم، يمكن لنا توقعها، ونسترشد بها في توجيه سلوكنا، وعلى هذا النحو، فإن قراءة العقل، مثلها مثل الذهنية، تنصب على تحديد قدرتنا على تكيف سلوكنا مع العقول والأفعال المتوقعة من الآخرين ... ويبدو أن البشر لديهم فهم ضمني لمحتويات عقول الآخرين ... وتسمح لنا نظرية قدرات العقل بأن نقرأ نوايا الآخرين ومشاركتهم الانتباه للاهتمامات المشتركة ... ويشير مصطلح الذاتية المشتركة إلى قدرتنا على إحداث تآزر في تفاعلاتنا المتبادلة استنادًا إلى إدراكنا للتصورات الذاتية والقصدية المتعلقة بالآخرين، وعندما نفقد هذه القدرة، فإننا سرعان ما نتعرض لقصور في تبادلاتنا الاجتماعية مع الآخرين"[١].

هذا القول يشير إلى قدرة الإنسان على فهم الآخرين واستعمال عقله في الأمر فهو فهمهم والتواصل معهم، ولو لم يحدث هذا لأصبح من الصعب وجود المجتمعات، إنه سلوك اجتماعي أساسي في تفاعلنا معًا وتداولنا وتواصلنا الاجتماعي.

(١) المعرفة والمخ والوعي: ٨٠٠ ــ ٨٠١

٧- كيف نبني الواقع الاجتماعي في عقولنا ؟:

سؤال طرحه سيرل وأجاب عليه. لكننا كي نفهم مقصد سيرل منه نحتاج إلى فهم دقيق له. فسيرل يطرح تصورًا يبدو غريبًا، لكننا نفعله في كل لحظة من حياتنا، ولا ندرك أننا نفعله. إنه تعاملنا مع الواقع الاجتماعي الذي نعيشه، كيف نفعله دون أن نفكر في ما نفعله. على الرغم من أن كمًّا كبيرًا من العمليات العقلية التي نقوم بها وراء هذا السلوك أو الفعل اليومي. إذن ما القضية التي نتحدث عنها هنا، وتتصل بعمليات عقلية تعتمد على أمخاخنا فتعمل على أمر منها ؟، يمكننا أن نفهم هذه العملية من خلال مثال بسيط قبل الدخول إلى كلام سيرل الذي يبدو غير مفهوم لو دخل إليه مباشرة.

مثال توضيحي :

ذهب عليٌّ إلى البائع وأعطاه ورقة نقدية فئة خمسة جنيهات، وطلب منه سلعة معينة، فنظر البائع إلى الورقة وأخذ يقلبها، وقال له: إن ثمن هذه السلعة أكبر من هذه الورقة، ثم أعطاه سلعة أخرى مماثلة لها، لكنها بثمن أقل، ثم أعطاه ورقة أخرى فئة جنية واحد وقال له: هذا ما تبقى لك من الورقة فئة خمسة جنيهات التي أعطيتني إياها.

هذه القصة على بساطتها تطرح عدة أسئلة :

١- لماذا نظر البائع إلى الورقة وتفحصها بيده وعينه ؟

٢- كيف تختلف هذه الورقة المالية عن الأوراق التي نكتب عليها ؟

٣- ما الفرق بين المادة الورقية التي صنعت من الخمسة جنيهات وورقة الجنية الواحد ؟

٤- لماذا الورقة الأولى أقل قيمة من ثمن السلع التي يطلبها المشتري ؟

٥- هل هناك علاقة بين السلعة المطلوبة وبين تلك الورقة فئة خمسة جنيهات ؟

إنها أسئلة غريبة، لا يمكن لأحد أن يطرحها على زميله، لأنها أسئلة معروفة، والذي يسأل عنها نعده قليل الفهم أو لا يدرك أبسط أمور الحياة. والحقيقة غير ذلك فهي أسئلة جد خطيرة، تحتاج إلى عمليات عقلية لفهمها، وإلى ذهن صاف ليدركها. وقد عشنا زمنًا طويلًا حتى تعلمناها وفهمناها عن آبائنا. ولهذا فنحن نفعلها كل يوم وأحيانا كل لحظة دون أن نفكر فيها لأنها كعمليات عقلية رسخت في أذهاننا ونؤديها بصورة تلقائية دون وعي أو تركيز وانتباه لما نفعل. على الرغم من أهميتها لفهم حياتنا اليومية.

تحليل الحدث عصبيًّا وتداوليًّا :

أولًا: لقد استقر في أذهان أبناء المجتمع أن هذه الأوراق ليست كالأوراق التي نكتب عليها، واستقر الواقع الاجتماعي لهذه الأوراق على وصفها أنها أوراق نقدية لها قوة شرائية، وأنها تصدر عن الحكومة من مركز صناعة العملة التابع لوزارة المالية، فهي ليست كأي ورقة لابد أن تصدر عن الحكومة وبأمر منها، وأي محاولة لصنع مثلها تعد تزويرًا يوقع تحت طائلة القانون. إذن هناك واقع اجتماعي راسخ في أذهاننا بهذه المعلومات.

ثانيًا: نجيب عن الأسئلة السابقة :

١- تفحص البائع الورقة النقدية ليعرف مدى صحتها، هل هي أصلية أم لا ؟

٢- الورقة النقدية من صنع الدولة، لها قيمة نقدية وشرائية، بصفات محددة.

٣- القيمة النقدية للورقة تحددها الدولة، رغم أنها كلها أوراق تختلف في قيمتها.

٤- تحدد لكل ورقة نقدية قوة شرائية، تكون أكبر أو أصغر من السلعة المطلوبة.

٥- العلاقة بين السلعة والورقة النقدية هي القوة الشرائية للورقة وثمن السلعة.

هذا مفهوم القضية، وهو كيف تتم العمليات السابقة بصورة صحيحة وسريعة ؟، إنه السؤال التداولي الحقيقي هنا.

إن الواقع الاجتماعي هو ما جعلنا نفعل كل هذا، فقد استقر لدى كل أفراد المجتمع من مشترٍ وبائع على تلك الأمور الراسخة في أذهانهم جميعًا على أن كل تعامل تجاري من بيع وشراء يكون عبر تلك الأوراق النقدية، وتقدر السلع بما يقابلها من أوراق نقدية، ويتم التعامل بين الناس على هذا الأساس. ويتفقون على هذا بينهم. ثم تتم العمليات التقديرية بالمقابلة بين السلعة والورق النقدي المطلوبة كثمن لها من قِبل كل من المشتري والبائع، وخلال عمليات البيع تتم عمليات أخرى في الأدمغة بصورة غير معلنة.

هذا ما يقصدها سيرل بقضية الواقع الاجتماعي الذي يصنعه المخ للتواصل بين الناس دون إعلان منه بذلك مستخدمًا اللغة لإتمام تلك العمليات من بيع وشراء وغيرها من عمليات تتم في إطار اجتماعي وخضوعًا للقواعد المؤسسية للدولة، هذا المثال يعرضه سيرل بصورة أخرى، نحاول فهمه بصورة أدق بعرضنا الحديث عنها.

بداية القصة مع سيرل :

نبدأ القصة مع تصور سيرل حول هذا الأمر. يسأل سيرل سؤلًا جديدًا عن الواقع الاجتماعي قال: "كيف يمكن أن يوجد واقع اجتماعي موضوعي إبستمولوجيا ويتشكل عن طريق مجموعة ذاتية أنطولوجيا، ولتحديد المشكلة بصورة دقيقة. هناك

عدة جوانب محيرة تلزم عن هذا الربط للذاتي والموضوعي الذي يبدو أننا نستطيع تفسيره"[١].

كيف نربط بين ذواتنا الشخصية والواقع الموضوعي لمجتمعنا في إطار مجموعة من الصفات الذاتية الطبيعية التي ولدت معنا ؟ إنه يسأل عن الطريقة التي تجعلنا ندرك واقعنا الاجتماعي الذي نعيش فيه ونتعايش معه ؟ إنها محاولة منه لتفسير سلوكنا تجاه قضايانا المجتمعية، كيف نربط بين ذواتنا التي داخلنا وما يحدث في مجتمعنا من أمور ؟.

٨- الجوانب المحيرة عند سيرل عن الواقع الاجتماعي :

يرى سيرل أن هناك ثلاثة جوانب محيرة تحدث في مجتمعنا دون أن نفكر في تفسير لها، على الرغم من أننا نعيشها في كل لحظة، ونتفاعل معها ولا نسأل لماذا فعلنا ذلك؟ إنها جوانب محيرة في سلوكنا وحياتنا وفي تفاعلنا معها، كيف نخلق واقعنا الاجتماعي ؟ وكيف نتعايش معه على الرغم من هذه الأشياء المحيرة والأسئلة التي لا إجابة لها، وهي:

أ) **الجانب المحير الأول: الاعتقاد في قيمة الشيء :**

من أين أتانا الاعتقاد الراسخ بأن هذه الورقة عملة نقدية لنتعامل بها بيننا ونبيع ونشتري على أساسها ؟ هل الاعتقاد مؤثر فينا بهذا الشكل ؟ يقول سيرل: "إذا كان شيء ما مالًا فقط أو ملكية أو زواجا؛ لأنه يعتقد فيه بحيث يكون مالًا أو ملكية أو زوجًا. إذن علينا أن نسأل: ما عسى أن يكون على وجه الدقة مضمون الاعتقاد في كل حالة ؟ إذا وجب الاعتقاد بأن قطعة الورق في محفظتي مال لو أريد لها أن تكون مالًا، إذن يبدو كما لو أن مضمون الاعتقاد بأنها مال لا يمكن أن يكون فقط أنها مال؛ لأن كونها مالًا يتطلب الاعتقاد فيها بحيث تكون مالًا. وإذا كان الأمر كذلك، فإن مضمون الاعتقاد لا بد من أن يكون جزئيًّا أن يعتقد فيه ليكون معتقدًا فيه ليكون مالًا"[٢].

إن الاعتقاد عقيدة لدى الفرد تجاه الشيء، فالذي يرى الورقة مالًا (بصرف النظر عن صحة هذا الاعتقاد) يكون مؤمنًا بكونها مالًا، لهذا يتعامل معها على هذا الأساس. فاعتقاده بهذا هو ما يقصده سيرل بالاعتقاد والعقيدة، بغض النظر عن أنه اعتقاد صواب أم لا، فالذي يعبد الشيطان لديه اعتقاد وعقيدة قوية بصحة ما يفعل على رغم كفره.

---

(١) العقل واللغة والمجتمع الفلسفة في العالم الواقعي: ١٤٩

(٢) العقل واللغة والمجتمع الفلسفة في العالم الواقعي: ١٤٩

ب) الجانب المحير الثاني: ما السببية ؟:

ما السبب وراء تعاملنا مع هذه الأوراق على أنها مال ؟ وما السبب وراء التعامل بها عن يقين واعتقاد أنها مال ؟ الحقيقة أنَّا نتعامل معها على هذا الأساس دون تفكير؛ذلك لأننا لدينا عقيدة قوية وراسخة أنها مال، ولدينا خبرة سابقة معها أنها مال، يقول سيرل: "كيف يستطيع الواقع المؤسسي أن يعمل بصورة سببية ؟ إذا كان المال مالا فقط لأنه يعتقد فيه بحيث يكون مالًا ...، إذن كيف يستطيع هذا المال أن يعمل بصورة سببية ؟ كيف يحدث أنه في عالم مؤلف كلية من عناصر فيزيائية وكيميائية أن توجد فعالية سببية لواقع مؤسسي للمال ...؟ والحقيقة المدهشة التي نواجهها الآن هي أن الواقع المؤسسي للملكية والمال والزواج والحكم يعمل بصورة سببية في حياتنا، ولكن كيف استطاع ذلك ؟"(١).

ت) الجانب المحير الثالث: دور اللغة في فهم الواقع الاجتماعي :

ما دور اللغة في الواقع الاجتماعي ؟ هل هي من ينقله لنا ؟ أم هي من يصنعه لنا؟ يقول سيرل: "ما دور اللغة في الواقع المؤسسي ؟ قلت إن شيئًا ما يكون مالا وملكية أو زواجًا فقط إذا فكر الناس في أنه مال أو ملكية أو زواج، ولكن كيف يملكون مثل هذا التفكير إذا كانوا لا يملكون اللغة؟ أليست اللغة على وجه الضبط هي نوع الواقع المؤسسي الذي نحاول تفسيره ؟ ... في الواقع المؤسسي، لا تستعمل اللغة لوصف الوقائع فحسب، وإنما تكون – بطريقة غريبة – تكوينية للواقع إلى حد ما. على سبيل المثال، عندما تقول وزارة المالية الأمريكية عن ورقة نقدية فئة عشرين دولارًا: هذه الورقة النقدية مال قانوني ...، فإنها لا تصف واقعة، وإنما تبتكر واقعة إلى حد ما. والمنطوق يشبه المنطوق الأدائي، والمنطوقات الأدائية هي التي نقول فيها شيئًا يجعلها صحيحة. والفعل الأساسي في الجملة – الفعل الأدائي – يسمى الفعل المنجز في نطق الجملة. على سبيل المثال، إذا قلت ... أنا أعد أن أحضر وأراك، أو أنا أستقيل، فإن هذه الأشياء هي الوعد أو الاستقالة.

وفي هذه الحالات ابتكر واقعة أن المنطوق يكون وعدًا أو استقالة فقط عن طريق القول. والمنطوقات الأدائية مشهورة جدًّا في ابتكار الوقائع المؤسسية ... إن أحد

(١) العقل واللغة والمجتمع الفلسفة في العالم الواقعي: ١٥٠

جوانب هذا اللغز الثالث الذي نحتاج إلى تفسيره هو دور المنطوقات الأدائية في ابتكار وقائع مؤسسية"[1].

إنها قضية تبدو فلسفية. لكننا لو فكرنا فيها بصورة أخرى؛ لرأينا أن سيرل يسأل عن شيء نفعله بصورة تلقائية يومية، إنه دور اللغة في صنع الواقع الاجتماعي، هل عندما أعطيك مالًا ثمنًا لسلعة ما، وأقول لك: هذه ورقة فئة خمسة جنيهات، وتنظر فيها وتراها كذلك. هل يكون ذلك ابتكارًا مني لواقع اجتماعي ؟ الإجابة لا، لأن واقعنا الاجتماعي متفق سلفًا على أن هذه الورقة هي فئة خمسة جنيهات.

إذن ما قضية خلق واقع اجتماعي وابتكاره ؟، وما دور اللغة فيه ؟، إن خلق الواقع الاجتماعي وابتكاره يكون عندما تعلن وزارة المالية أن هذه الورقة هي فئة خمسة جنيهات، مستخدمة اللغة في هذا الإعلان، إن وزارة المالية بهذا الإعلان تكون قد ابتكرت واقعًا اجتماعيًّا جديدًا لهذه الورقة، إنه تحول هذه الورقة من مجرد ورقة عادية إلى خمسة جنيهات، فتخلق واقعًا اجتماعيًّا لها بتحويلها من مجرد ورقة إلى ورقة نقدية لها قوة شرائية، فخلقنا لها واقعًا اجتماعيًّا جديدًا لدى أبناء هذا المجتمع، يقوم على أساسه أفراد هذا المجتمع بالتعامل مع هذه الورقة النقدية على أنها تساوي خمسة جنيهات.

لكن ما دور اللغة هنا في حادثة ابتكار واقع اجتماعي جديد ؟ إن اللغة هي الوسيلة التي أعلنت بها الوزارة عن ابتكارها لواقع اجتماعي جديد، لهذا تصبح اللغة أداة لخلق الواقع الاجتماعي من خلال تعبيرها عنهذا الخلق، وتكوينه وإيجاده في كلام يصفه.

عناصر ثلاثة أشار إليها سيرل على أنها متعاونة معًا لخلق واقعنا الاجتماعي: العقل واللغة والمجتمع، استطاع أن يفسر سر ترابطها معًا، فحدد لكل عنصر دوره في القضية:

١- العقل: يقوم بالتفكير في قضايا المجتمع وحل مشكلاته، والإبداع فيها.

---

(١) العقل واللغة والمجتمع الفلسفة في العالم الواقعي: ١٥٠

٢- اللغة: تقوم بالتعبير عن الواقع الاجتماعي وتكوينه وابتكاره في لغة تصف هذا الخلق والإبداع الاجتماعي الجديد.

٣- المجتمع: البوتقة التي تنصهر فيها كل تلك الأمور وتنطلق منها وتعمل على أساسها.

الفصل السادس
الوعي والانتباه عند علماءِ التداولية
(جون سيرل نموذجًا)

مقدمة: جهود جون سيرل في فهم الوعي والانتباه :

رأينا فيما سبق كيف أن التداولية تقوم على اشتغال الدماغ، بما يعني أنها عملية عقلية تقوم على عمل الدماغ في التفكير والاستدلال والتأويل. فهي تجمع المعلومات المتصلة بالقضية موضوع البحث، بغرض فهم الحدث، وتحليل الموقف الآني. من خلال فهمنا للمنطوق (الجانب اللغوي)، والمفاهيم السابقة (الافتراض المسبق)، وعملية تقدير الموقف (الاستلزام الحواري)، وقصدية المتكلم، وكذا قوة الفعل الإنجازي وتأثيره، والخطاب الموجه للسامع. كل هذه العمليات تقوم على عمل الدماغ، التي تعد أصل الحكاية، وقد أطلقوا عليها اسم اشتغال الدماغ، فهي في الحقيقة عمليات عقلية تنطلق من عمليات التفكير التي تتم في الدماغ، لهذا سموها بهذا الاسم، لكن ماذا يحدث لو أصيب الدماغ بآفة ما؛ فإن كل عمليات الدماغ التداولية العصبية تتأثر بتلك الآفة، مما ينتج عنها عدم التواصل بين المصاب والآخرين.

إذن لا بد أن ندرك أن عملية التواصل التداولية العصبية نشأت عن عملية عقلية مستترة، يقوم بها الدماغ،لهذا يجب أن نبحث عن أصل العملية التداولية في أعماق الدماغ داخل المخ بنصفيه الأيمن والأيسر، ودور الوعي والانتباه في هذه العمليات، وما يتم منها بوعي ودون وعي منا. لهذا يجب دراسة الوعي واللاوعي والانتباه سعيًا إلى فهم أعمق لآلية عمل التداولية، وبيان دورها في إفهامنا الأشياء، على الرغم من كونها ترقد خلف كواليس الفعل الكلامي، فالوعي والانتباه واللاوعي لهم دور كبير في عملية معالجة المعلومة في الدماغ، فهم يمدوننا – دون أن نشعر – بالمعارف المخزنة والمختفية في تشابكاتنا العصبية، لنعالج المعلومة أو القضية التي نحن بصددها بصورة صحيحة.

إن الوعي والانتباه واللاوعي قضايا أساسية في عملية التواصل، فلا تواصل ناجح بدونهم؛ لهذا يجب فهمهم بصورة دقيقة وموسعة من خلال دراسة الجهاز العصبي فهو المسؤول عن عملية التواصل، وكذلك مناطق عمل كل منهم في المخ التي تعمل أثناء

عملية المعالجة الدماغية، لأنها من صلب عملنا هنا كدراسة عصبية في أصلها. لهذا نتعمق في دراسة الوعي والانتباه واللاوعي: وجودهم، تفاعلهم في الدماغ. فالتداولية فن التواصل، ولا تواصل دون دماغ، فالدماغ يعمل من خلال مراكزه المختلفة. يختص كل مركز منها بمهمة معالجة قضية ما. هذه الفكرة لا يمكن أن نفهمها دون مثال بسيط يوضح ماذا نعني بالانتباه والوعي واللاوعي تلك القضايا التي نمارسها لنعيش حياتنا اليومية،وما قيمة معرفة ذلك في تحقيق التواصل ؟؛ لهذا ندرس هذه المفاهيم دراسة علمية، وكذا السياق الذي يبين الحاجة لفهم: الانتباه والوعي واللاوعي، لذا نعرض المثال التالي:

مثال :

قال زيد: وضعت الخبز في الماء حتى **باشا** = بمعنى (لان) (كلمة قبطية).

قال علي: جلست مع **باشا** = بمعنى رجل في منصب رفيع (كلمة تركية).

لو نظرنا إلى كلمة (**باشا**) في العبارتين نجد أن لكل منهما معنى مختلفا عن الأخرى، على الرغم من نطقهما الواحد، فكيف نميز بينهما لنعرف المعنى المقصود في كل عبارة ؟ يسمع المتلقي العبارتين، ويدرك المعنى المقصود في كل عبارة فور سماعها، لكن كيف تمكن من التمييز بينهما ؟ إنه يظل مستمعا للعبارة حتى ينتهي منها المتكلم، ثم يجمع خطوط المعنى الحرفي لكل كلمة، ثم يستدل منه على المعنى العام الذي يتكون عنده من خلال السياق الذي وردت فيه كل كلمة منهما، فيركز انتباهه حول المعنى العام لها ويستخلصه منها؛ فيرد المتلقي على المتكلم بعبارة مناسبة لكل عبارة منهما على حدة.

هذه عملية تداولية، يُعْمِل فيها المستمع دماغه لفهم المعنى المقصود من العبارة، فيميز بين المعنيين. ماذا حدث هنا في ضوء التحليل العصبي للعملية ؟ إن السامع وجه انتباهه ناحية الكلمة الأساسية (**باشا**)، وبحث في معجمه الذهني عن المعنى المناسب لها، فوضعها في بؤرة انتباهه وركز عليها، هنا يبدو لنا دور الانتباه في بيان المعنى المقصود من الكلمتين، فقد قام الانتباه باستحضار المعاني المختلفة للكلمة من تشابكاته العصبية، واختار من بين هذه المعاني المعنى المناسب لكل عبارة، وذلك بالاستعانة بالسياق ومخزونه العقلي من المعاني التي في معجمه الذهني، والتي تناسب كل عبارة على حدة.

من هذا نرى أن الانتباه مكّن المتلقي من فهم معنى العبارة، فتفاعل معها بناءً على المعنى الذي يقصده المتكلم، وعلى هذا يتم تداول العبارة بصورة صحيحة، بعد هذا التحليل يمكننا القول: إن هناك علاقة بين التداولية والانتباه في بيان المعنى المراد من الكلمةوالعبارة.

التداولية :

تقوم التداولية بضبط التفاعل بين المتلقي والمتكلم ومراقبة عمليات: الإدراك والوعي والانتباه التي تحدث بينهما. مما يجعلنا نولي هذه الأشياء عناية خاصة، لقد أفرد علماء التداولية مثل: جون سيرل فصولًا في كتبهم لدراستها. وكذا علماء الأعصاب يولونها عناية فائقة. لذا خصصنا لهذه القضية هذين الفصلين التاليين:

- **الوعي والانتباه عند التداوليين.**
- **الوعي والانتباه عند علماء الأعصاب.**

(الوعي واللاوعي والانتباه عند التداوليين) :

ما مفهوم هذه الكلمات عند علماء التداولية ؟ إن تناولهم لها بعمق كبير يجعلنا ندهش كثيرًا من هذا التعمق، ونخرجهم من طائفة فلاسفة التداولية لنضعهم ضمن طائفة علماء الأعصاب والنفس والكيمياء والفيزياء. وذلك لدقتهم في بحوثهم حول هذه القضايا، ونتائجهم التي وضحت مدى العلاقة بين الوعي كعملية عصبية وبين التداولية.

هذا الأمر آتٍ من فهمهم جيد لحقيقة التداولية. أتخذ علماء التداولية المعاصرين توجهًا جديدًا في دراستهم للتداولية (مثل جون سيرل)، هذا التوجه هو الاستعانة بالعلوم الطبيعية من الفيزياء والكيمياء والأحياء وعلم الأعصاب في تحليل القضايا التداولية. هذا الأمر جعلهم يلتحمون بهذه العلوم بعمق، فقدموا التداولية إلينا بمفهوم علمي جديد، لم نره لدى الفلاسفة التداوليين من قبل، إنه توجه ساد لدى علماء التداولية المعاصرين.

لكن ما جدوى دراسة الوعي واللاوعي والانتباه بهذه الصورة وهذا العمق ؟ إن هذه الأشياء ترتبط بالدماغ وتنطلق منها وتتم فيها، فكل مصطلح منها مرتبط بمنطقة في الدماغ، وله مركز محدد بدقة في المخ، وتؤثر جميعها في صنع القدرة التداولية في

سلوك الإنسان، فإذا حدث لهذا الإنسان عطب أو آفة في مركز من مراكز مخه يكون تأثيرها ومردودها على السلوك التداولي لهذا الفرد كبير، فنراه يهذي في كلامه ويثرثر، ولا يعبأ بمن حوله في حديثه وسلوكه، لماذا ؟ لأنه أصيب في المركز المسؤول عن ذلك في مخه، وهو النصف الأيمن من المخ، هذا القول هو ما نادي به سيرل، لهذا جعلناه نموذجًا للدراسة.

جهود جون سيرل في فهم الوعي والانتباه :

مقدمة:

نبدأ الحديث عن الوعي واللاوعي والانتباه بما قدمه عالم التداولية الكبير جون سيرل، فقد أوضح مفهوم الوعي، وناقش من خلاله أمورًا دقيقة حول الدماغ، وعملها في معالجة التداولية، والجهاز العصبي كله بصورة عميقة وجديدة على فيلسوف كبير مثله. إننا نعجب لتبحره في الجانب العصبي وتحليله الدقيق للنظرية التداولية في ضوء البنية العصبية. لهذا أردت أن أعرض لآرائه بالدراسة في ضوء معطيات علم الأعصاب الذي آمن بها هو أيَّما إيمان. لهذا نحاول مناقشة ما قاله عن الوعي، وتحليله، وفهم الوعي منه.

مدخل سيرل للربط بين العلوم الطبيعية والتداولية :

قبل هذا وذاك، ننظر إلى الكيفية التي ربط بها بين مبادئ التداولية وبين منهج العلم الواقعي، يقول: "إن هناك طريقة لوجود الأشياء في العالم التي تكون مستقلة عن تمثيلاتنا لكيفية وجودها، وهذه الوجهة من النظر التي أسميها الواقعية الخارجية لا يجب التفكير فيها بوصفها نظرية أو رأيا. وإنما هي بالأحرى افتراض مسبق يمثل خلفية، وشيء نسلم بصحته عندما نؤدي أنواعا كثيرة من الأفعال القصدية. وعلى سبيل المثال، عندما نأكل، أو نسير ... ونسلم بصحته أيضًا على نطاق واسع من كلامنا، وبالفعل في كل هذه الصور من كلامنا التي تتعلق، أو على الأقل يفترض أن تتعلق، بموضوعات وحالات واقعية في العالم المستقل عنا.

وكل هذه الصور للتفسير والتقرير والوصف والأمر والرجاء والوعد وهلم جرا، التي تتعلق بملامح في العالم الواقعي"[١].

(١) العقل واللغة والمجتمع الفلسفة في العالم الواقعي:٨٠

قيمة الوعي من وجهة نظر سيرل :

يرى سيرل أن الحياة لا قيمة لها، ولا يمكن أن تستمر أو يحدث بها تفاعل بنَّاء بين أهلها إذا فقدوا الوعي. فهو ضرورة أساسية من ضرورات إيجاد الحياة واستمرارها على الأرض، فيحقق التواصل بين البشر، الذي هو كُنْه التداولية، فالتداولية فن التواصل بين الناس، لهذا السبب حفل سيرل بالوعي وجعله أساس التداولية. ونحن نُقِرُّ بهذا الرأي الصادر عن شيخ التداولية. لهذا سنناقش رأيه حول الوعي ونحلله كعالم تداولي، ثم ننتقل إلى المرحلة العصبية لنقدم الدليل على صحته، قال سيرل: "إن أي محاولة لوصف الوعي، وأي محاولة لإثبات كيف ينسجم الوعي مع العالم بصفة عامة، تبدو ناقصة دائما"[(١)].

التحول من الاتجاه الفلسفي إلى الاتجاه العلمي :

يتجه سيرل وجهة عصبية تخالف الوجهة التي عرفناها عن النظرية التداولية ونظرتها الفلسفية. لقد خرج عن قضية الثنائية (العقل والجسد) ليكون أكثر واقعية في تعامله مع الوجهة التداولية. ويبدأ حديثه عن العقل على أساس عصبي. يقول: "بدأنا في مناقشة كيف توجد الأشياء بالفعل في العالم. وفي هذه النقطة، لا نعالج طويلاً مسائل التحليل الفلسفي، وإنما نناقش بالفعل بعض نتائج العلم الحديث"[(٢)]، هذا الطريق الذي سلكه سيرل في تفسيره للعالم الواقعي وهو طريق العلم الحديث.

كيف تتطور العقول :

يري سيرل أن عقول الكائنات تطورت. "النقطة التي عندها تدخل مناقشتنا في هذا الكتاب في قصة الفيزياء والكيمياء والأحياء هي النقطة التي عندها طورت بعض أنواع الأنظمة العضوية أجهزة عصبية، وهذه الأجهزة العصبية طورت ما نسميه العقول، عقول بشرية وحيوانية. وفكرة العقل ملتبسة بعض الشيء وباعثة على الحزن والأسى"[(٣)].

إن الرجل يسلك مسلكًا جديدًا في دراسته للعقل. فالعقل عنده يدخل ضمن علم الأحياء، فيراه من وجهة نظر بيولوجية. فينظر إلى القضية من جانب آخر هو الجانب

(١) العقل واللغة والمجتمع الفلسفة في العالم الواقعي:٧٩
(٢) العقل واللغة والمجتمع الفلسفة في العالم الواقعي:٧٩
(٣) العقل واللغة والمجتمع الفلسفة في العالم الواقعي: ٨٠

العصبي، ودور البنية العصبية في فهم العقل، وأثره في حياة البشر والحيوانات. ثم يجعل من ذلك مدخلًا لدراسة الوعي قائلا: "إن الملمح الأساسي والجوهري إلى أبعد الحدود للعقول هو الوعي consciousness وأنا أعني بالوعي تلك الحالات من الإحساس sentience أو الإدراك awareness التي تبدأ بصورة نموذجية عندما نستيقظ في الصباح من نوم بلا أحلام وتستمر خلال اليوم حتى نستسلم للنوم مرة أخرى... ويأتي الوعي في مجموعة كبيرة جدًا من الصور والأنواع.

والملامح الأساسية للوعي في كل صورة هي طبيعته الداخلية inner والكيفية qualitative والذاتية subjective بالمعاني الخاصة لهذه الكلمات التي أفسرها بعد حين"(١).

إننا كي ندرس العقل لا بد أن ندرس الوعي، فلا عقل دون وعي ولا وعي بلا عقل. فالعقل يعمل، ودليل عمله أن يكون واعيا بما يعمل. وللوعي صور كثيرة، لكنه له طبيعة تشمل عدة نقاط هى طبيعته: الداخلية، وكيفية، والذاتية.

تفسير سيرل للوعي :

إنه يفسر للوعي على أنه مجموعة من الخبرات الواعية، هذا ما قاله علم الأعصاب في تعريفه للوعي أيضًا، يقول: "ولكن لنذكر أنفسنا أولًا بمجموعة من خبراتنا الواعية. تأمل، على سبيل المثال، في الاختلافات بين هذه الخبرات: شم وردة، وتذوق الشراب وألم في أسفل الظهر ... وكل هذه الصور من الوعي، ورغم أنها اُختيرت بدقة لتوضح التنوع، فإنها لا تأخذ في استيعاب الأنواع الفعلية من الخبرات الواعية؛ وبالفعل خلال كل حياتنا اليقظة، وأيضًا عندما نحلم خلال النوم، نكون في صورة أو أكثر من صور الوعي، والحالات الواعية تملك كل التنوع في هذه الحياة اليقظة"(٢).

إن مفهوم الوعي عند سيرل، أنه مجموعة كبيرة من الخبرات الحياتيةتخزن في الدماغ، وتُسْتدعى في الحياة اليومية وفي الأحلام. هذا ما قالت به المدرسة العصبية أيضًا، ولابد أن نؤمن بهذا التعريف ونحفظه في الذاكرة، لأنه سيصبح المرجع لنا عندما تكثر التعريفات المشابه للوعي. نتذكر دائما أن: **الوعي هو خبراتنا الحياتية.**

---

(١) العقل واللغة والمجتمع الفلسفة في العالم الواقعي: ٨٠

(٢) العقل واللغة والمجتمع الفلسفة في العالم الواقعي:٨١

العلاقة بين الوعي والبنية العصبية :

يرفض سيرل التعريفات الفلسفية للوعي وثنائية العقل والجسد. ويتوجه في بحثه عن مفهوم الوعي وجهة علمية عصبية. فيلج داخل علم الأعصاب، ويستعين بما قدمه من نتائج حول دراسة المخ وآلية عمله. هذا التوجه يدل على عدة أمور، أبرزها مدى إدراك هذا العالم التداولي لطريق مهجور بالنسبة لأغلب فلاسفة التداولية، أو قل طريق مرفوض في رأيهم، إن هذا العالم التداولي أكثر واقعية في فهمه للتداولية، وأدق في تحديده لآلية عمل هذه النظرية، وتفاعلها الحقيقي بين الواقع والمجتمع والعقل. وهذا اسم كتابه (العقل واللغة والمجتمع) الذي يعبر بدقة عن واقع التداولية، وعن فهمه الدقيق لها.

يقول سيرل: "نحن نعرف الآن عن البيولوجيا قدرًا يكفي لمعرفة أن هذه التعريفات غير كافية للحقائق، وإنها لفكرة جيدة دائما أن نذكر أنفسنا بالحقائق، وأن نذكر أنفسنا بما نعرفه بالفعل، ونحن نعرف الحقيقة التي مؤداها أن جميع حالاتنا الواعية تحدثها عمليات في المخ، هذه القضية ليست جاهزة لأن يحصل عليها أي شخص. وهناك لغز تأثر به كثير من الفلاسفة، وهو كيف تستطيع عمليات المخ أن تحدث الوعي؛ وأظن أن هناك لغزًا أكثر خطورة، ويواجه علماء بيولوجيا الأعصاب، وهو كيف تعمل عمليات المخ في الواقع مسببة الوعي. ولكن الشيء الذي يتعين علينا أن نقبله ... هو أن عمليات المخ في الحقيقة تسبب الوعي... والنقطة الخليقة بالتذكر هي أن الوعي ظاهرة بيولوجية مثل أي ظاهرة أخرى ... وخلاصة القول أن طريقة الرد على المادية هي بيان أنها تتجاهل الوجود الحقيقي للوعي. أما طريقة إبطال الثنائية فهي ببساطة رفض قبول نسق المقولات التي تتصور الوعي بوصفه شيئًا غير بيولوجي، ولا يمثل جزءًا من العالم الطبيعي"(١).

إنه يتفاعل مع العلم الجديد (علم الأعصاب) ليقدم تصوره عن الوعي من خلال تحليل دور المخ في ذلك، وفي العمليات البيولوجية التي تحدث داخله، لتقديم أدلة على الوجود الفعلي للوعي داخل المخ من خلال دراسة العمليات العصبية التي تتم في المخ

(١) العقل واللغة والمجتمع الفلسفة في العالم الواقعي:٩١

أثناء عملية الوعي. لكنه يرى أن هذه العمليات تحتاج إلى زمن قادم لتدرس وتحقق نتائج في هذا الأمر. ولكن ما لا يعلمه سيرل أن علم الأعصاب قد تطور سريعًا، بل بسرعة فائقة في أبحاثه ودراساته؛ فقدم صورًا داخل المخ، وما يحدث فيه أثناء عملية التفكير والكلام، مع تحديد دقيق لمناطق حدوث عمليات التفكير والوعي في المخ بفضل تقدمه في مجال تصوير المخ بالرنين المغناطيسي والبث البوزتروني. ومع هذا في إن كلام سيرل السابق يدل على مدى إدراكه للعمليات البيولوجية التي تحدث في المخ أثناء عملية التفكير الواعي. لذا فإن الوعي عملية بيولوجية في رأيه. وقد كرر هذا في أكثر من موضع في كتابه (العقل اللغة المجتمع).

حقيقة الوعي عند سيرل :

لقد استخلص سيرل مما سبق أن الوعي حقيقة بيولوجية، تقوم بها مركز ومناطق في المخ، فيجب أن تدرس في مجال علم الأعصاب، ليُخرِج الوعي من دائرة الميتافيزيقا إلى غرفة العمليات الخاصة بالجراحة العصبية. وهذا ما نرنو إليه من دراستنا، ونراه حقيقة ماثلة في كلام سيرل، يجب أن نبحثها عند دراسة الوعي. يقول سيرل: "سلم معي بأن الوعي مع كل ذاتيته، تسببه عمليات في المخ، وسلم معي بأن الحالات الواعية هي ذاتها ملامح للمخ من مستوى أعلى، وحالما تسلم بهاتين القضيتين، فلن تجد مجالًا لمشكلة العقل والجسد الميتافيزيقية ... وبطبيعة الحال، لا يزال الوعي ظاهرة خاصة بين الظواهر البيولوجية ... وإنها لحقيقة في بيولوجيا الأعصاب أن عمليات معينة في المخ تسبب حالات وعمليات واعية. وأنا ألح على أننا لابد من أن نسلم بالحقائق من غير أن نقبل النظريات الميتافيزيقية البالية التي ترافق هذه الحقائق"(١).

ثم ينتهي إلى هذه النتيجة التي يتخلص فيها من آراء ديكارت والفلاسفة. وكما قلنا يدخل بالوعي إلى علم الأعصاب وبحوثه، وهذا ما يجعلنا نرى التداولية – كما هيفي عيون أهم علمائها – **عملية عصبية**، هكذا قالوا. يقول سيرل: "والطريقة التي اتبعناها هي البدء بتذكير أنفسنا بما نعرفه عن كيفية عمل العالم، وفي هذه الحالة، نحن نعرف أن الوعي يكمن في حالات وعمليات تكون ذاتية أنطولوجية، وتسببها عمليات في المخ، وتتحقق في المخ، ورأينا بعد ذلك الصورة التي ظهرت من معرفتنا

(١) العقل واللغة والمجتمع الفلسفة في العالم الواقعي:٩٢

بالحقائق غير المتسقة مع البدائل التقليدية المقدمة لنا وهي الثنائية والمادية على حد سواء، وبالتالي تكون خطوتنا التالية هي السؤال: ما الذي تفترضه النظريتان معًا ويجعل السؤال الابتدائي يبدو غير قابل للحل ؟ والجواب هو أنهما تفترضان، كما افترض ديكات، أن مقولات العقل والجسم، والمادة والوعي، هى مقولات استبعادية بشكل تبادلي.

وحلنا إذن هو التخلص من هذه المقولات. وعندما نفعل ذلك، يكون في مقدورنا أن نقبل بشكل متسق جميع الحقائق التي نعرفها بصورة مستقلة عن التزاماتنا الفلسفية"(١)، إننا إذا سرنا خلف كلام سيرل فسنُلْقِي كلام الفلاسفة وعلى رأسهم ديكات على الجانب الأقصى من الطريق، ونرى أن التداولية عملية عقلية يقوم بها جهازنا العصبي.

كيف نحلل الوعي عصبيًّا ؟ :

هذه مقابلة بين الوعي والأشياء المادية، يحاول من خلالها سيرل أن يفهم طبيعة الوعي، فيقابله بأشياء مادية. "إذا كان الوعي – كما أُصرُ – ظاهرة بيولوجية عادية مثل انقسام الخلية الكامل، أو انقسام الخلية المنصف، أو الهضم، فربما يكون في استطاعتنا أن نقول على وجه الدقة: كيف يرد الوعي إلى ظواهر مجهرية بالطريقة التي يرد بها انقسام الخلية الكامل أو الهضم، وبالتالي:

أ- في حالة الهضم، على سبيل المثال: حالما تعرف القصة الكاملة حول الإنزيمات والرنين (بروتين يوجد في الكلية يزيد ضغط الدم)، وتحليل المواد الكربوهيدراتية، وهلم جرا، فلا شيء يقال أكثر من ذلك. وهذه العمليات بطبيعة الحال لها وصف إضافي في سلوك عناصر أكثر مجهرية مثل الكواركات **quarks** والميونات **muons** حتى نحصل في نهاية الأمر على الظواهر الكمية الأساسية إلى أبعد الحدود.

ب- لكن في حالة الوعي يبدو الوضع مختلفًا: لأنه حالما نفسر الأساس السببي للوعي في حدود إثارة الخلايا العصبية في المهاد البصري (في المخ) وطبقات متنوعة من قشرة المخ، أو بقدر ما يتعلق الأمربهذا، في حدود الكواركات أو الميونات.

---

(١) العقل واللغة والمجتمع الفلسفة في العالم الواقعي:٩٤

أما في حالة الوعي فإننا نملك عنصرًا ذاتيًّا لا يقبل الرد بعد أن قدمنا تقريرًا سببيًّا كاملًا عن الأساس البيولوجي العصبي"[(١)].

رد سيرل على هذا الرأي العلمي :

يقول سيرل ردًا على ذلك: "ولكي أجيب عن هذا السؤال، يتعين عليّ أن أقول شيئًا إضافيًا عن الرد العلمي، هناك أنواع كثيرة ومختلفة من الرد العلمي، والفكرة ليست واضحة على الإطلاق ... نحتاج إلى التمييز بين نوعين من الرد أسميهما الرد الاستبعادي، والرد غير الاستبعادي. وتتلخص عمليات الرد الاستبعادي من الظاهرة عن طريق إثبات أنها لا توجد بالفعل، وأنها مجرد وهم. وعلى سبيل المثال. عندما نفسر حالات ظهور شروق الشمس وحالات غروبها، يوجد معنى نحذف فيه حالات الشروق وحالات الغروب لأننا نثبت أوهام فحسب، إن الشمس لا تغرب بالفعل على الجبال، والصواب هو أن دوران الأرض على محورها يجعل من الظاهر أن الشمس تغرب"[(٢)].

"إننا لا نستطيع أن نؤدي ردًا استبعاديًّا على الوعي لأن نموذج عمليات الرد الاستبعادية هو إثبات أن الظاهرة المردودة مجرد وهم، ولكن حيث يكون الوعي معنيًا فإن وجود الوهم هو الواقع نفسه. وهذا يعني القول أنه إذا ظهر لي أنني واع، فأنا أكون واعيًا، ولا يوجد شيء للوعي أكثر من سلسلة من مجرد هذه المظاهر، وفي هذه الناحية، يختلف الوعي عن حالات غروب الشمس؛ لأنه ربما يكون لديّ وهم بغروب الشمس خلف الجبال عندما لاتغرب بالفعل. ولكني لا أستطيع أن أملك بهذه الطريقة وهمًا بالوعي إذا لم أكن واعيًا. إن وهم الوعي متطابق مع الوعي"[(٣)].

آمال سيرل في بحوث الغد:

يأمل سيرل أن يتطور العلم؛ ليرى ما يحدث داخل الدماغ أثناء التفكير.فيشاهد ما يحدث من تفاعلات في المخ أثناء الوعي، وهذا الأمر تحقق بالفعل على أيدي علماء الأعصاب، فأصبحنا نرى مراكز المخ التي تثار أثناء الوعي، بل في لحظات اللاوعي. وهذا الأمل على غرابته، يجب أن نأخذه بتقدير وإجلال لفكر هذا العالم التداولي

(١) المرجع السابق:٩٤ ــ ٩٥
(٢) العقل واللغة والمجتمع الفلسفة في العالم الواقعي:٩٥
(٣) المرجع السابق: ٩٥ ــ٩٦

الطموح والمفكر صاحب العين الثاقبة في تلك الأمور التي خفيت على كثير من علماء التداولية قبله، فقد رأى الغد بعين اليوم، ولكي نكون منصفين، فإنه عاش في عصر ليس بعيدًا عن النهضة العلمية الحالية، فقد ألف كتابه هذا عام ١٩٩٨م، فهو قريب من التطور العلمي الحديث. مع هذا، فعشرون عامًا مضت بيننا وبين كتابه ليست بالشيء الهين، في عالم التسابق العلمي؛ لذا علينا أن نلتمس له العذر، ونأخذ ما وصل إليه من نتائج بعين التقدير، يقول: "ولكن لماذا لا نستطيع رد الوعي إلى أساسه السببي الفيزيائي المجهري كما نستطيع أن نؤدي رد الصلابة، على سبيل المثال، إلى أساسها الفيزيائي المجهري ؟ ... ربما نصبح، على سبيل المثال، متطورين طبيًّا إلى درجة أننا نستطيع النظر إلى مخ شخص من غرفة مخنا، ونرى أنه يعاني من ألم في ذراعه، وذلك فحسب لأنا نستطيع أن نرى عمليات اتقاد الخلية العصبية الملائمة جارية. وبالنسبة للأغراض العلمية، يجوز حتى أن نُعرِّف الألم في المرفق على أنه نتيجة لأنواع معينة من عمليات اتقاد الخلية في مكان كيت وكيت في المخ"(١).

ولكن كيف لنا أن نفعل هذا من وجهة نظره ؟ إنه يرى أننا يجب علينا أن نتخلى عن الذاتية، وهذا المطلب يحتاج منا أن نتجرد من آراءنا الذاتية، وندع للعلم القول الفصل في هذا الأمر، لأنه سيكون مدعومًا بأدلة علمية حول حقيقة الوعي، وهذا ما سنفعله عندما نتحدث عن الوعي في ضوء البنية العصبية، ولكن ما نخرج به من كلام سيرل هو ضرورة التوجه ناحية العلم العصبي بنتائجه وآلياته الحديثة، لنرى كيف يعمل الوعي في أدمغتنا، ونستعين بما يقدمه من نتائج نرنو إليها لفهم حقيقة الذاتية.

يتكلم سيرل عن الذاتية بصورة أوضح فيقول: "ولكي نتخلى عن شيء ما في هذه الحالة، شيء أساسي لتصورنا للوعي، وهذا الذي نتخلى عنه هو الذاتية subject tivity. والوعي له أنطولوجيا في صيغة المتكلم، ولهذا السبب لا نستطيع أن نقوم بعملية رد الوعي. ويمكن أن نقوم بها لصيغة الغائب، ومن غير أن نتنازل عن سمته الأساسية ... ولكننا لا نستطيع أن نهمل الخبرات الذاتية بالوعي؛ لأن الهدف الكامل من وراء امتلاك مفهوم الوعي هو في المقام الأول امتلاك اسم للظواهر الذاتية في صيغة المتكلم. وعلى الرغم من أن الوعي ظاهرة بيولوجية مثل أي ظاهرة أخرى فإن الذاتية

(١) العقل واللغة والمجتمع الفلسفة في العالم الواقعي:٩٦

والأنطولوجيا التي يتخذها في صيغة المتكلم تجعل من المستحيل رده إلى ظواهر موضوعية في صيغة الغائب بالطريقة التي يمكن أن نرد بها الظواهر في صيغة الغائب من قبيل الهضم والصلابة"(١).

إن الذاتية التي يعنيها هنا هي حديث الإنسان مع نفسه، فالفرد عندما تُذكر كلمة وعي أمامه يتطرق إلى ذهنه أنه يتكلم عن نفسه وذاته، لهذا فالوعي له طبيعة أنطولوجيا أي تلقائية، هي توجيه القصد في مفهوم الوعي إلى الذات، وهذا ما يجب أن نتخلى عنه عند دراستنا لحقيقة الوعي، لأن للوعي طبيعة بيولوجية بوصفه مكون بيولوجي موجود داخل الجسم، وهذا القول صحيح لأن الوعي هو الخبرات التي يخزنها المرء في تشابكاته العصبية، ويستدعيها عند الحاجة. لذا، فالوعي له وجود بيولوجي وأنطولوجي كمكون طبيعي. على الرغم من أنه مكون شخصي يصنعه المرء بخبراته الذاتية، لكن يجب استقلاله عن ذاته، خصوصا عندما يدرك أو يفكر في الأشياء أو يقول رأيه فيها.

وظيفة الوعي عند سيرل :

الوعي ركن أساسي يمكننا من مواصلة الحياة، فلا يمكننا أن نعيش أو نمارس حياتنا دون الوعي بما نفعل وبما حولنا. لهذا ليس بمستغرب أن نقول: إننا لا يمكن أن نحيا دون الوعي. "إن قدر كبير مما نفعله بحيث يكون أساسيًّا للبقاء على نوعنا يتطلب الوعي، فأنت لا تستطيع أن تأكل وتجامع وترفع ابنك الصغير، وتفتش عن الطعام، وتجمع المحاصيل، وتتكلم اللغة، وتنظم الجماعات الاجتماعية أو تعالج المريض إذا كنت في سبات"(٢).

"في العالم الواقعي، نجد أن الطريقة التي يتعامل بها البشر والحيوانات العليا مع المشكلات التي تواجههم تعاملًا نموذجيًّا تكون عبر الفاعليات الواعية ... والعالم الواقعي، تحتاج النباتات إلى التمثيل الضوئي لكي تبقى، ويحتاج البشر إلى الوعي لكي يبقوا على قيد الحياة... إننا في الحياة الواقعية نجد أن قدرًا كبيرًا من السلوك الذي يمكننا من البقاء على قيد الحياة هو السلوك الواعي. وفي الحياة الواقعية لا تستطيع أن تطرح الوعي وتبقي على السلوك. والافتراض بأنك تستطيع ذلك هو الافتراض بأن

---

(١) المرجع السابق:٩٦

(٢) العقل واللغة والمجتمع الفلسفة في العالم الواقعي:١٠٢

الوعي ليس جزءًا فيزيائيًّا عاديًّا من العالم الفيزيائي، وهذا يعني أنه يفترض تقريرًا ثنائيًّا عن الوعي"[١].

الوعي والقصدية :

"هل الوعي يعمل على نحو سببي؟، أي: أننا نعي الأشياء والأحداث لوجود علاقة سببية بيننا وبينها ؟، يجيب سيرل قائلا: "الحالة الواعية بصورة نموذجية مثل القصد أو الرغبة تعمل عن طريق تمثيل نوع من الحادثة التي تسببها. أنا أرغب مثلا في شرب الماء؛ وبالتالي أشرب الماء، هنا النتيجة وهي شرب الماء تمثلت بصورة واعية عن طريق السبب: أي الرغبة في شرب الماء. وأنا أسمي هذا النوع من السببية بالقصدية"[٢].

هل القدرة على التمثيل هي القصدية ؟:

"إن هناك علاقة جوهرية بين الوعي والقدرة التي نمتلكها نحن الكائنات البشرية لتمثيل الأشياء وحالات الواقع في العالم لأنفسنا، وهذا الملمح تملكه الاعتقادات، والرغبات، والآمال والمخاوف، والحب والكراهية، والغرور والحياء، بالإضافة إلى الإدراك الحسي والقصد، وهذا الملمح له اسم اصطلاحي في الفلسفة وهو القصدية intentionality والقصدية ملمح للعقل عن طريقه تتجه الحالات العقلية إلى حالات واقعية في العالم، أو تدور حولها أو تتعلق بها، أو تشير إليها، أو تهدف إليها"[٣]. "وعلى الرغم من أنه ليست كل الحالات الواعية قصدية، وليست كل الحالات القصدية واعية، فإن هناك علاقة جوهرية، وهي أننا لا نفهم القصدية إلا في حدود الوعي، هناك حالات قصدية كثيرة غير واعية، ولكنها نوع لشيء يمكن أن يكون واعيًا على نحو احتمالي"[٤].

ويقول سيرل في موضع آخر مؤكدًا على هذا الرأي: "أريد الآن أن ألفت الانتباه إلى الحقيقة القائلة إن الوعي يرتبط ارتباطًا جوهريًّا بالقصدية intentionality. وهناك حالات قصدية كثيرة غير واعية وحالات واعية كثيرة ليست قصدية"[٥].

(١) العقل واللغة والمجتمع الفلسفة في العالم الواقعي:١٠٣
(٢) العقل واللغة والمجتمع الفلسفة في العالم الواقعي:١٠٣
(٣) المرجع السابق:١٠٤
(٤) نفسه:١٠٤
(٥) نفسه:١١٤

مفهوم القصدية لدى الفلاسفة :

يشير برنارد إلى مفهوم القصدية لدى الفلاسفة ومنهم علماء التداولية، فهي في الأصل نظرية فلسفية، يقول: "يستخدم الفلاسفة مصطلح القصدية في حديثهم عن كيفية بناء الحالات الذهنية (المتعلقة بشيء آخر) بالطريقة نفسها المستخدمة في النظر إلى الأشياء ذات طبيعة المادية، مثل أجزاء الجسم، وهي في الواقع ليست كذلك؛ إذ يبدو أن أفكارنا تدور دومًا حول شيء ما، على سبيل المثال، قد ننظر إلى (كرسي) أو (كتاب) أو فكرة ما بالطريقة نفسها التي ننظر بها إلى معدتنا، أو ذراعنا، أو أسناننا باعتبار أن هذه الأشياء لا تعبر عن شيء آخر غير ذواتنا، أما العقول فهي ذات حالات ذهنية؛ تقوم بتمثيل أشياء وأحداث تقع خارجها. وليس من الواضح ما إذا كانت الأنواع الأخرى تستوعب الطبيعة القصدية للعقول داخل إطار نوعها أم لا ... يتمثل المصطلح النفسي المعبر عن (القصدية) في قدرتنا على تكوين صورة لحالة الهدف، وتنظيم العمل في السعي للوصول إلى الهدف"(١).

صعوبات الوعي عند سيرل :

إن الوعي ببساطة شديدة إلى جانب كونه محصلة خبراتنا، فهو عملية استحضار لخبراتنا وتفاعلنا معها ومعالجتها في الدماغ، أي فهم ما يقال ويحدث حولنا في ضوء تلك الخبرات المخزنة لدينا عنها. ومن هنا تأتي المشكلة، وهي كيف نعالج المعلومة بآلة اسمها الوعي ؟.

إننا نُواجه هنا بمعوقات تمنع وعينا من القيام بتلك المهمة. وقد أطلق عليها سيرل اسم صعوبات الوعي، والحقيقة أنها معوقات، لأنها تحول بيننا وبين تحقيق تلك المعالجات، نعني الفهم الصحيح للقول والفعل. لذا يجب أن نقف عندها ونأخذ قول سيرل عن الصعوبات مأخذ الجد، ونضعه موضع الاهتمام، وقد جمعها سيرل في أمرين:

الصعوبة الأولى:

إننا لا نستطيع ملاحظة كيف يعمل الوعي، لأن الوعي مهمته هي الملاحظة، فكيف نلاحظ ما كانت مهمته الملاحظة! لأن هذا سيجعل ذاتنا تتدخل في صنع رأينا، ولهذا تأتي صعوبة تلك الملاحظة، وهي محاولة التخلص من الذاتية عند

---

(١) المعرفة والمخ والوعي:٨٠١

الملاحظة، يقول سيرل: "تنشأ الصعوبة الأولى في الحصول على تقرير عن الوعي من العلاقة الخاصة الفريدة التي يقوم فيها الوعي مع الملاحظة.

ونحن لا نستطيع أن نلاحظ الوعي بالطريقة التي نلاحظ بها الجبال والبحار: لأن المرشح الوحيد للملاحظة هو فعل الملاحظة نفسه. ولا نستطيع أن نضع تمييزًا بين الملاحظة والشيء الملاحظ بالنسبة للوعي نفسه، كما نستطيع بالنسبة للأهداف الأخرى للملاحظة"[(١)].

الصعوبة الثانية:

هي أننا نتعامل مع الوعي – بنظرة فلسفية – على أنه ليس جزءًا من العالم الفيزيائي، وهذا إرث فلسفي، والحقيقة أن الوعي له وجود فيزيائي يتمثل في ما يمثله من خبرات مدونة في تشابكاتنا العصبية، نستدعيها منها عند الحاجة (التفكير أو الحوار) وندخلها في وعينا كخبرات مكتسبة سابقًا ومحفوظة فيها، وهذا يحدث بصورة بيولوجية، يمكن أن نصفها الآن من خلال النظرة الفلسفية السابقة بل هي عملية إدراك يحدث فيها تفاعل بين خلايا المخ، لهذا يري سيرل أن الحل للتخلص من هذه المفاهيم الفلسفية لفهم الوعي بصورة صحيحة هو التخلي عن مجموعة المقولات، خصوصًا التخلي عن الذاتية، والمقولات الفلسفية الكلاسيكية، إن تصور سيرل لهذه الصعوبات تعني أنه يحلل بعمق الوعي، وأننا نقنع بقوله لأننا نعيش صعوبات مثلها، فاكتسب كلامه مصداقية وإقناع.

ملامح الوعي عند سيرل:

لقد أدرك الرجل معنى الوعي، ووضع له تصورًا وآلية يعمل من خلالها. ونحن نعرض لما قال، وذلك لأهمية هذا القول فهو يصور حقيقة فهمه للوعي، وأنه قد فهمه بدقة وعمق كبيرين، لقد وضع سيرل تصوره عن ملامح الوعي في عشر نقاط، هي:

الملمح الأول: (الذاتية الأنطولوجية):

"كل الحالات الواعية لا توجد إلا بوصفها حالات عاناها فاعل، ... وهذا الملمح هو الذي قاد كثيرا من الفلاسفة الماديين إلى الرغبة في إنكار وجود الوعي بالمعنى

(١) العقل واللغة والمجتمع الفلسفة في العالم الواقعي:١٠٦

العادي للكلمة، وهو الذي جعل من الصعب على النحو استثنائي استيعاب الوعي في رؤيتنا العلمية الشاملة للعالم"[١]. إن الطبيعة الأنطولوجية (أي الطبيعة الفطرية التلقائية الموروثة لدى البشر) هي إدراكهم للوعي على أنه شيء ذاتي يعبر عن الشخص نفسه، وعن خبرته الذاتية، لهذا أنكر الفلاسفة الوعي، لأنه يعبر عن ذات الشخص التي تختلف من شخص إلى آخر. وهذا يجعل الوعي لا يصلح لإقامة حوار حجاجي بتوجيه منه، وهذا أيضا ما يجعلنا نراه عاجزًا عن تقديم نظرة علمية شاملة للعلم؛ بمعنى أن يعطي تصورًا عام شامل للقضية موضوع الحوار. وذلك لذاتيته أي تمحوره حول ذاته. لذا يكون تصويره للشيء وللعالم قاصرًا على تلك الذات. هذا ما يجعل الذاتية الأنطولوجية عائقًا في فهم الوعي.

الملمح الثاني: (وحدة الوعي) :

"أنا لا أدرك فحسب ضغط الحذاء على قدمي، والتفكير في مشكلة فلسفية، ... ولكني أملك كل هذه الخبرات بوصفها جزءًا من خبرة واحدة فريدة موحدة. إن القدرة على ربط جميع المثيرات المتنوعة معًا التي تأتي إلى جسمي عن طريق الأطراف الحسية العصبية، وتوحيدها في خبرة حسية موحدة ومتماسكة، تمثل مقدرة للمخ لافتة للنظر، ونحن في وقتنا الحالي لا نعرف كيف يؤديها المخ.

ومن وجهة نظر بيولوجية عصبية، نجد أن الحقيقة الجديرة بالملاحظة هى أن المجموعة الضخمة من مدخلات المثيرات التي يتلقاها المخ – إثارة الجهاز العصبي عن طريق هجوم الفوتونات على الخلايا البصرية عندما أرى شيئًا ما، وإثارة النهايات العصبية الخارجية للجهاز الحسي الجسدي عندما ألمس شيئًا، وإثارة الأجهزة الشمية والسمعية عن طريق مثير خارجي – تحول إلى خبرة واعية فريدة موحدة، وهذه الوحدة – أكثر من أي شيء آخر – تدحض وجهة النظر القائلة أن هناك بالفعل أنواعًا مختلفة من الوعي، أو أن هناك معاني مختلفة لكلمة الوعي"[٢].

هذا تحليل دقيق لعملية إدراك الوعي من خلال إثارة الخلايا العصبية كملمح عام لدى كل البشر، هذا الأمر يوضع ضمن إنجازات العالم الفلسفي التداولي المطلع على العلوم الأخرى التي تخدم دراسته وهي هنا علم الأعصاب.

(١) المرجع السابق:١١١
(٢) العقل واللغة والمجتمع الفلسفة في العالم الواقعي:١١٢

وحدة الوعي :

"هناك بالفعل تمييز بين التفكير thinking والشعور feeling، ولكن الشيء الجدير بالملاحظة حول الوعي هو أن التفكير والشعور يحدثان في الوقت نفسه في نفس مجال الوعي، فأنا أفكر الآن في مشكلات فلسفية وأشعر في الوقت نفسه بألم خفيف في إصبع قدمي. صحيح أننا أمام حالتين واعيتين مختلفتين، ولكنهما يمثلان معًا جزءًا من مجال فريد وموحد من الوعي، ومن خبرة واعية واحدة شاملة"(١).

"ويبدو لي أن وحدة الوعي تأتي في صورتين:

أولًا: هناك ما يجوز أن أسميه الوحدة الرأسية: كل حالاتنا الواعية تتوحد عند لحظة معينة هي مجال فريد وموحد من الوعي. ولكن عبر الزمان، تتطلب المحافظة على وحدة خبراتنا على الأقل ذاكرة قصيرة عند الحد الأدنى. فأنا لا يمكن أن أملك الوعي بتفكير متماسك اللهم إلا إذا كانت بداية التفكير ونهايته معًا جزءًا من مجال فريد وموحد من الوعي توحده الذاكرة.

ثانيًا: وإذا وضعنا هذه النقطة بطريقة تعوزها الدقة، ومن غير ذاكرة، فلا يوجد وعي منظم. ويجوز أن نسمي هذا الملمح الوحدة الأفقية بوصفها مقابلة للوحدة الرأسية. وإذا فكرنا في الزمان بوصفه متحركًا من اليسار إلى اليمين أفقيًّا فإن الاستعارة تمكننا من إدراك أن هذا النوع من الوحدة مختلف عن الوحدة الرأسية الآنية لمجالنا الواعي"(٢).

إن وحدة الوعي التي قصدها سيرل هي وحدة إدراك الحواس والذهن عند البشر. فهم يشعرون ويدركون معًا الآلام والشعور المؤلم نفسها الموجودة لديهم جميعًا، أما التفكير فمجهود ذاتي خاص بالفرد المفكر فيهديه تفكيره إلى ذات النتيجة التي أصل إليها أنا أو غيري بناءً على تفكيري الخاص، وقد يصل إليها غيري أو يصل إلى غيرها.

الملمح الثالث: (الوعي وإدراك العالم) :

"إنه ملمح أساسي إلى حد بعيد بالنسبة للبقاء في العالم، ألا وهو أن الوعي يزودنا بوسيلة اقتراب من العالم على خلاف الاقتراب من الحالات الواعية. ويؤدي الوعي

(١) العقل واللغة والمجتمع الفلسفة في العالم الواقعي:١١٢

(٢) المرجع السابق:١١٢

ذلك بطريقتين هما: الطريقة الإدراكية حيث تمثل كيفية وجود الأشياء، والطريقة الإرادية، أو النظرية الدالة على الرغبة، والتي تتمثل في كيف نريد أن نكوّن الأشياء أو كيف نجعلها ملائمة"[١].

هذا الملمح يشير إلى أمر هام في الوعي ألا وهو علاقتنا الواعية بالعالم كيف تكون؟ إننا نقترب من العالم بإدراكنا له ولما يحدث فيه؛ وذلك لنكون وعينا به، فإدراكنا للعالم يمكننا من التفاعل معه، كذا كيف نُعدِّل في العالم، ونغير فيه بما يلائمنا.

الملمح الرابع: (الوعي والحالة النفسية) :

"إن كل حالاتنا الواعية تصل إلينا في حالة نفسية mood أو أخرى. ونحن نكون دائمًا في حالة نفسية حتى إذا لم يكن لها اسم مثل الابتهاج والكآبة. والآن – مثلا – أنا لست مبتهجًا بصفة خاصة، أو كئيبًا بصفة خاصة. وبالفعل لست مجرد كسول. ومع ذلك هناك ما يجوز أن يسمه بسمة مميزة معينة لخبراتي. وهذه السمة المميزة هي ما أعنيه بالحالة النفسية، وأي حالة واعية يجوز أن تملكها تأتي دائما في نوع من الصفة المميزة. وهذه الحقيقة تصبح واضحة أثناء الدخول الدرامي. إذا تلقيتُ فجأة بعض الأخبار السيئة جدًا تدفعني إلى حالة من الكآبة أو إذا تلقيتُ بعض الأخبار السارة أشد السرور تدفعني إلى حالة من الابتهاج، فأنا أصبح مدركا بالفعل لهذا التغير في حالتي النفسية"[٢].

إن ما يتحكم في وعينا ويؤثر فيه هو حالتنا النفسية، فكل حالات الوعي التي نعيشها تتأثر بحالتنا النفسية. فنشعر أننا لا ندرك الحالة الواعية التي نحن فيها بصورة مستقلة، بل إننا ندركها ونشعر بها في إطار حالتنا النفسية الراهنة، لهذا عندما تعرض أنت علي موضوعًا ما، وأنا في حالة نفسية سيئة، أقول لك: عفوًا أنا لست في المود (mood)، أي: أنني لستُ في حالة نفسية تسمح لي بالحديث معك.

الملمح الخامس: (الوعي وخلفيات الحدث) :

إننا نرى الأشياء في إطار أكبر من واقعها، إننا نراها في إطار يضُمُّها ويضُمُّ خلفيتها. وإن وعينا هو من يقوم بذلك، فيقدم لنا الحدث في صورة أكبر وهو

(١) العقل واللغة والمجتمع الفلسفة في العالم الواقعي:١١٣
(٢) العقل واللغة والمجتمع الفلسفة في العالم الواقعي:١١٤

خلفياته. وكذا سائر الأشياء نراها في الإطار الذي يصنعه وعينا. "إن الوعي يكون دائمًا مبنيًّا ... وهذا فى حالة الرؤية، ولكني أظن أنه صحيح أيضًا بالنسبة لصور الإدراك الحسي الأخرى.

وصحيح بالنسبة للوعي بصفة عامة أننا نبني خبراتنا الواعية في وحدات كلية متسقة ... هناك بالفعل جانبان للبنية الكلية، في أحد الجانبين نبني خبراتنا بأي موضوع قصدي بوصفه شكلًا مقابل خلفية؛ وبالتالي، على سبيل المثال، أنا أرى الكتاب مقابل خلفية المكتب، وأرى المكتب مقابل خلفية أرض الحجرة، وأرى أرض الحجرة مقابل خلفية الحجرة حتى أبلغ الأفق لخبراتي الواعية"[(١)] يحدث هذا في الأشياء المادية؛ ويحدث أيضًا في الأشياء المعنوية، فعندما أعبر عن شعور بحب أو كره لشيء ما، في إطار خلفية معاكسة لهذا الشعور فإنني لا أعبر عنه تعبيرًا صادقًا، بل تشوبه آثار الخلفية المعاكسة.

الملمح السادس: (الوعي والانتباه) :

"الوعي يأتي بدرجات متنوعة من الانتباه، وفي أي خبرة واعية نحتاج إلى تمييز مركز انتباهنا من محيطه داخل مجال الوعي، وبصورة نموذجية يكون في مقدورنا تحويل انتباهنا عندما نشاء ... فالانتباه يشبه الضوء الذي يمكن أن أحوله من مكان إلى آخر في مجال الوعي"[(٢)].

العلاقة بين الانتباه والوعي يعبر عنها هذا التشبيه الأخير لسيرل، الانتباه هو الإدراك الذي ينطلق من الحواس المختلفة جهة الشيء الذي يريد الفرد أن يدركه، ولهذا فإن تشبيهه بالضوء المسلط على الشيء (المادي أو المعنوي) يعد أدق تشبيه لهذه العملية، فالضوء يكشف كل أركان المكان، وكذا الانتباه يكشف جوانب الشيء وأركان المكان، فلو أننا نرى شيئًا ونوجه انتباهنا إليه فسوف نراه بوضوح، وتأتي درجة رؤية الشيء ووضوحه حسب كم الانتباه الذي نوجهه إليه، وهو ما يكوّن رأينا عنه. إننا عندما نركز انتباهنا حول الشيء فإننا نجعله في بؤرة وعينا ومجال إدراكنا، فندركه بصورة جيدة.

---

(١) العقل واللغة والمجتمع الفلسفة في العالم الواقعي:١١٥

(٢) العقل واللغة والمجتمع الفلسفة في العالم الواقعي:١١٦

الملمح السابع: (شروط حد الوعي) :

المقصود بشروط حد الوعي هو المساحة التي يغطيها وعينا من المكان والزمان عند إدراكنا للشيء أو الحدث، فعندما أتحدث عن شيء ما استحضره في ذهني، وكذلك الإطار الزماني والمكاني الذي يوجد فيه الشيء أو الحدث. وبهذا يضع الوعي الشيء أو الحدث في حيز أو حد يمكّننا من تصوره، كذا السامع مع ملاحظة أن كل عملية إدراك للوعي تتأثر بظروف صاحبها. يقول سيرل: "الحد السابع لحالاتنا الواعية مرتبط بالتمييز بين المركز والمحيط الذي تحثه درجاتنا المتنوعة من الاهتمام، ولكنه ليس متطابقًا معه، هو أن الحالات الواعية تأتي بصورة نموذجية بطريقة من وضعها الخاص، وأنا أسمي هذا الملمح باسم شروط حد الوعي، فكل حالة من حالاتنا الواعية تأتى بطريقة تحديدها في المكان والزمان حتى على الرغم من أن التحديد ذاته ليس موضوعًا قصديًّا لوعينا؛ وبالتالي؛ على سبيل المثال، أنا أدرك بصورة نموذجية ما الوقت من العام، وما الدولة وما المدينة التي أكون فيها ..."(١).

الملمح الثامن: (الوعي والألفة) :

إن الوعي يجعلنا ندرك الأشياء بناءً على ألفتنا لها، وتختلف درجات الوعي بالأشياء بناءً على درجة الألفة لها. "فخبرتنا الواعية تأتي إلينا بدرجات متنوعة من الألفة. ونحن نختبر الأشياء في سلسلة متصلة تمضي مما هو مألوف إلى حد بعيد إلى ما هو غريب إلى حد بعيد. وعندما أدخل حجرتي أجد الأشياء في الحجرة بوصفها أشياء مألوفة، وبالفعل حتى عندما أكون في بيئة غريبة تمام الغربة بالنسبة لي، ... ومع ذلك مهما تكن المنازل غريبة، ومهما يبدو لي الناس غرباء، فإن الديار تظل ديارا، ويظل الناس ناسا ... ومن الصعب تمامًا الخروج على جانب الألفة في خبرتنا الواعية، ويلزم هذا عن حقائق القصدية أعني: أن كل التمثيل العقلي يكون وفقًا لجانب، والجوانب التي وفقًا لها ندرك أشياء، مثل المنازل والكراسي والناس والسيارات. وهلم جرا هي جوانب نألفها. إن الألفة ظاهرة متدرجة، والأشياء نختبرها بوصفها مألوفة بدرجة كبيرة أو قليلة"(٢).

---

(١) العقل واللغة والمجتمع الفلسفة في العالم الواقعي:١١٦

(٢) المرجع السابق:١١٦ـــ ١١٧

الملمح التاسع: (الوعي وفيضان الأفكار) :

إننا ندرك الأشياء بصورة تتخطى ذواتنا بمعنى أننا لا نرى الأشياء والأفكار كما هي مستقلة بذاتها، بل تثير أشياء وأفكار أخرى تتصل بها، وهذا ما نشعر به عندما تدفعنا ذواتنا إلى أفكار وأشياء تتصل بما نفكر فيه، وكأنها حبل ممتد من الأفكار يجرنا ويسحبنا من فكرة إلى أخرى (دون أن نشعر أو ربما نشعر)، في سلاسة وسهولة، بل في قوة واندفاع أحيانا. يقول سيرل: "أخص ما تمتاز به خبرتنا الواعية أنها تشير بصورة نموذجية إلى ما وراء ذواتنا. فنحن لا نملك أبدًا خبرة منعزلة، وإنما تنسج دائمًا خبرات إضافية وراءها، فكل فكرة نملكها تذكرنا بأفكار أخرى، وكل مشهد نراه ينقلنا إلى أشياء أخرى غير مرئية. وأنا أسمي هذا الملمح الفيضان. وعندما أطل من نافذتي الآن أري المنازل والناس، وأراهم في سياق خبرتي الماضية. وأركز على تسلسل أفكاري فيما يتعلق بمن هؤلاء الناس، وكيف تذكرني هذه المنازل بمنازل أخرى رأيتها وتنشأ الأفكار الأخرى من ذلك"(١).

مثال :

جرب أن تفعل هذه القصة بهذه الطريقة: (لك صديق عشتَ معه زمنًا طويلًا، ثم اكتشفت أنه يخونك مع عدوك، الآن فكر معي عما يدور في خلدك، وراقب الأفكار التي تأتي إليك. فبوصفنا الوعي أنه خبرات سابقة، وأنه يأتينا في صورة سيل وفيضان من الأفكار. ستجد نفسك تفكر في ما أعطيته إياه من مكارم، وقدمت له من حسنات، ستلاحظ فعلًا، أن فيضانًا من الأفكار يدفعها الوعي إليك من ذاكرتك بلا رحمة، لأنه يذكر كم تحملت من أجله، ويسبح بك في بحر من الذكريات والتي تعني الوعي فهي خبرات مختزنة داخلك تدفع إليك وتتوالد بسرعة).

مثال آخر :

هل حاولت التفكير في مسألة علمية ما ؟، إن الفكرة الأولى للمسألة تأتيك في شكل مسألة بسيطة ثم تنمو وتزيد، وتتوالى الأفكار حولها وتنمو في شكل فيضان من المعارف المتصلة بها حتى تصبح بحثًا أو كتابًا.

هذا ما يسمى لدى الباحثين (اختمار الفكرة) أي نموها وزيادتها كما تفعل الخميرة في العجين. لماذا ؟ لأنك تفكر فيها باستمرار وتضعها في بؤرة وعيك وتفكيرك فيحدث لها هذا الفيضان من توالي الوعي حولها كما يقول سيرل.

(١) العقل واللغة والمجتمع الفلسفة في العالم الواقعي:١١٧

الملمح العاشر: (تأثير السرور والحزن على الوعي) :

إن حالات الوعي التي نعيشها (وهي خبرات واعية مخزنة في شبكاتنا العصبية) تخزن على طبيعتها بكل ملامحها الانفعالية (سرور/ حزن/ خوف) وعند استدعائها تأتي هذه الحالات مصطحبة معها هذه الانفعالية التي صاحبتها أثناء عملية التخزين منذ سنين، فأنا عندما أسمع أغنية سمعتها فى طفولتي وكنت أبكي لأنهم تركوني في البيت وحدي أجد نفسي أحس بمشاعر الخوف التي عشتها عند سماع تلك الأغنية في أول مرة، وكذا عندما أسمع أغنية سمعتها يوم نجاحي بتفوق في الدراسة أجدني عندما أسمعها الآن وأنا كهل أشعر بتلك المشاعر المبهجة السعيدة التي عشتها في شبابي، يقول: "الحالات الواعية تكون دائمًا سارة أو غير سارة بدرجة ما، وبالنسبة لأي خبرة واعية، هناك دائمًا سؤال: هل استمتعت بها ؟ وهل كانت لهوًا ؟ هل كنت سعيدًا أم حزينًا أم مترعجًا أم سلبيًا ؟ أم كريمًا، أم ساخطًا، أم غاضبًا، أم مسرورًا، أم مشمئزًا أم غير مبال ببساطة ؟ وتمييز السارة ـــ بدرجات مختلفة من السرور وعدم السرور، وبطبيعة الحال، يمكن أن تتضمن الخبرة الواعية الواحدة جوانب سارة وغير سارة سواءً بسواء"[(١)].

خلاصة رأي سيرل حول الوعي :

يرتبط الوعي عند سيرل بالقصدية، فالإنسان عندما يعمد إلي شيء ما أو يقصده بسلوكه فإنما يوجه إليه وعيه. **أولًا** ليدركه ويدخله في بؤرة اهتمامه ويشعر به ويحسه. من هذا المنطلق ذهب سيرل إلى تناول قضية الوعي ولديه هذا الفهم الراسخ عن الوعي يقول عنه: "إن أي محاولة لوصف الوعي، وأي محاولة لإثبات كيف ينسجم الوعي مع العالم بصفة عامة تبدو لي ناقصة دائمًا، والشيء الذي نهمله هو أن الوعي ليس مجرد ملمح مهم للواقع، وهناك معنى يكون به الوعي هو الملمح الأكثر أهمية للواقع؛ لأن كل الأشياء الأخرى لا تملك قيمة أو أهمية أو ميزة أو جدارة اللهم إلا فيما يتعلق بالوعي... إن أي شيء يكون مهمًا فيما يتعلق بالوعي. وبقدر ما يعنينا التعامل بنجاح مع العالم، فإن الجانب المهم من الوعي هو أنه يرتبط ارتباطًا أساسيًّا بالقصدية"[(٢)].

---

(١) العقل واللغة والمجتمع الفلسفة في العالم الواقعي:١١٧

(٢) المرجع السابق:١٢٠

الفصل السابع
الوعي والانتباه عند علماء الأعصاب

مقدمة: حالة الوعي في المخ :

بعد أن رأينا مفهوم الوعي عند علماء التداولية (جون سيرل نموذجًا)، فإننا نود أن نعرف أكثر عنه؛ وذلك بدراسة الوعي والانتباه لدى علماء الأعصاب الذين حددوا مناطق الإثارة في المخ التي تتأثر بعملية الوعي واللاوعي والانتباه، لماذا ؟؛ ذلك لأن سيرل – عالم التداولية الكبير وفيلسوفها – قد أقام حديثه عن الوعي على أساس عصبي مبينًا مدى الحاجة إلى هذا الجانب لفهم عمليات التواصل التي تحدث داخل المخ، ففتح لنا الباب في هذا الجانب لندخل فيه بعمق، فلا يستغرب أحد من ولوجنا فيه، فهذا امتداد لما بدأه جون سيرل، وإننا – بالفعل – في حاجة ماسة لفهمه بعمق؛ ذلك لنؤكد على فكر أن التداولية في حقيقتها عملية عصبية، وأن الوعي (كأساس للتداولية) مرتبط بها.

أولًا: غي تيبرغيان :

أول من نبدأ معه الحديث عن الوعي في الدماغ هو غي تيبرغيان؛ فهو يعد مرحلة علمية في دراسة الوعي واللاوعي والانتباه في الدماغ تالية للمرحلة العلمية التي عاشها سيرل وحدثنا عنها، والسؤال الأول هو: هل أدرك غي الحقيقة العلمية للوعي كما رآه علماء الأعصاب ؟، لقد حاول غي أن يقدم لنا حقيقة الوعي بما يناسب المرحلة التي وجد فيها، وفي ضوء آخر التطور العلمي في عصره. لكن ما حدث الآن من تطور في مجال علم الأعصاب يجعلنا ننظر إلى ما ذكره غي تيبرغيان كمرحلة من مراحل تطور دراسة الوعي، فهو يعد مرحلة متوسطة بين القديم والحديث والأحدث منه،فستتبعها دراسة أعمق للوعي. فنقبل ما قاله غي، ونقدم ما وصل إليه حول الوعي وما تكلم عنه من دراسات كمرحلة من مراحل التطور البحثي حول الوعي وليس نهايته.

والتداولية فن التواصل، لذا يجب معرفة مفهوم غي عن التواصل كتمهيد لبيان مدى علاقته بالتداولية؛ يقول غي: "تواصلية Connexionnisme فئة من النماذج

الشكلية المتطورة الرامية إلى ترميز العديد من العمليات المعرفية أو المعرفية العصبية، لاسيما في مجالات الإدراك والتعرف على الأشياء والتعلم. وتستند هذه النماذج إلى ذواكر توصف كشبكات واسعة من وحدات المعالجة التي لها تواصل بيني كلي أو جزئي، وتسمى هذه النماذج أيضًا بنماذج (إيمائية عصبية) أو بشبكات عصبونات"[(1)]

إن مفهوم التوصيلية عنده يبين إلى أي مدى وصل إدراكه لقضية التداولية بوصفها فن التواصل، والتوصيلية - كما يرى غي - هي عملية التواصل بين الخلايا العصبية التي تقوم بها الشبكات العصبية في صورة نماذج شكلية، تقوم بترميز المعارف والمدركات داخل الدماغ؛ فتصبح أمخاخنا حاوية لتلك المعارف وما نتعلمه في صورة نماذج شكلية تخزن في شبكاتنا العصبية من خلال ذواكرنا التي تخزن فيها كل المعارف والمدركات؛ لتحقيق التواصل؛ وذلك بالعودة عند الحاجة إلى مخازن شبكية واسعة تتم معالجة المعارف بوحدةالمعالجة المتمثلة في الشبكات والخلايا العصبية وشبكات العصبونية التي تقوم معًا بالمعالجة أما كلمة: (إيمائية عصبية) التي ذكرها غي فإنها تشير إلى المعارف التي تصل إلى المخ عن طريق غير لغوي من الإيماءات والإشارات التي تصدر عن الجهاز العصبي للمتكلم، ويتم معالجتها وفهمها في شبكات العصبية للمتلقي وخلاياها العصبية.

أ) الوعي عند غي تيبرغيان :

١ – مفهومه عن الوعي :

يرى غي أن مفهوم الوعي يتنوع حسب المجال الذي يستخدم فيه، فهو:

أ- في الاستعمال الشائع:

- اليقظة: التبين من الأمر حين نقول: يعي الأمر أي يتبينه.
- معرفة مباشرة عفوية: حين ندرك الشيء بصورة عفوية فهو وعي تلقائي به.

ب- في المعنى النفسي:

- إدراك مباشر لنشاطنا النفسي الخاص بنا في اللحظة الآنية.
- إدراك ووعي بعملياتنا الذهنية مثل: الاستبطان، والتصور، والتفكير في تصوراتنا.

(١) قاموس العلوم المعرفية:١٥٠ ــ ١٥١

ج- المعنى الأخلاقي:

هو قدرة على إبداء الأحكام القيمة على أفعالنا، الوعي للسلوك"(١).

إن مفهوم الوعي هوالنظر إلى الشيء من إحدى زواياه المختلفة. نقوم بالنظر إليه من خلالها، وقد حار في فهمه الباحثون - كما يرى غي - يقول: "لسنوات طويلة تجنب الباحثون الخوض في موضوع الوعي، لأنه كان يظهر كمفهوم شديد الغموض ولا يتيح أن يُدرس علميًّا أو أن يؤسس المعرفية"(٢).

هذا القول مردود عليه، فالبحوث العصبية أثبتت وجود الوعي، وذلك من خلال تصوير الدماغ بالرنين المغناطيسي والبث البوزتروني، وتم التعرف على المناطق المخية التي تثار أثناء الوعي؛ لهذا يجب عرض هذا الرأي مرة أخرى على علم الأعصاب وبحوثه.

٢- الوعي والتطور المعرفي :

هناك تصور للوعي يقوم على افتراض أن كل ما في الكون يعود إلى الفيزياء بوصفها الحقيقة المؤكد للعالم المادي وغير المادي الذي نعيشه؛ لهذا سأل إكليس (Eccles') " كيف حصلت الأجسام على تجارب ذهنية - غير مادية - مفتوحة على عالم كان يشمل الوجود برمته ؟ ... ومن جهة أخرى أفضت المادية الصراطية (لا توجد روح بدون جسد، ووحدها العناصر الفيزيائية تؤثر فيها) إلى النتيجة الحتمية بأن الإنسان يشبه الآلة، والكبرى التي يطرحها هذا التصور تكمن في شرح العواطف والوعي وحرية الاختيار بالاستناد فقط إلى القوانين الفيزياء التقليدية"(٣) توجه مادي لفهم المعنوي كعالم الروح.

٣- تطور مفهوم الإدراكيات :

هذا المفهوم القديم للوعي قد تطور على يد بايلاشين: "فحاول بايلاشين (١٩٨٦م) وبعده إيكاردت (Eckardt) (١٩٩٣م) أن يؤسس العلم المعرفي على أرضية الإدراكيات والمعارف مع مستوى من التصور تستبعد عنه العناصر الاجتماعية

(١) قاموس العلوم المعرفية:١٥١ بتصرف.
(٢) المرجع السابق:١٥١
(٣) نفسه:١٥٢

والجوانب الانفعالية (وأعرب غاردنر Gardner (١٩٨٥م) عن هذه المعرفية التقليدية)... لقد دافع إيدلمان (Edelman) (١٩٩٢م) بعنف عن التصريحات غير المثبتة القائمة على بنية العالم وآليات التصنيف التي تفترضها هذه التصنيفات؛ واستند بخاصة على روش (Rosch) (١٩٧٧م) الذي أثبت أن العالم لا ينبني على مقولات كلاسيكية، على مقولات تدلنا إليها إدراكاتنا كما هي، وإنما ينبني على مقولات تشيد بقسط من الدينامية حول النماذج الأولية، يضاف إلى ذلك أن سيرل (Searle) رأى أنه من الشائن بمكان أن يدعي علم يدرس العقل ويجهل الجوانب المرتبطة بالوعي"[(١)].

إن هذه العبارة الأخيرة المنقولة عن سيرل توضح إلى أي مدى فهم الرجل للقضية وهو إدراكه بمدى العلاقة التداولية المتمثلة في عملية الإدراك والوعي وبين العقل فهو مصدرها ومنبتها، ولا تداولية دون العقل الذي ينتجها، ولهذا ليس غريبا أن يشير غي تيبرغيان في قاموسه العلوم المعرفية إلى عالم كبير من علماء التداولية، (سيرل) القائل بضرورة فهم الوعي بكل جوانبه، مادمنا نريد دراسة دور العقل في عملية التواصل بصورة علمية. ذلك لأن سيرل درس الوعي بعقلية عالم الأعصاب ففهم العلاقة العصبية بين الوعي والدماغ مما يعني إدراكه الكامل للقضية، وأننا عندما ندرس الوعي في الإطار العصبي لا نكون قد خرجنا عن النظرية التداولية التي هيعملية عصبية أساسًا

٤- الدماغ والوعي :

إنربط الدماغ بالوعي تقوم على ملاحظة نشاط المخ أثناء عملية الإدراك والتفكير أي لحظة عمل الدماغ باستحضار خبرتنا السابقة للتفكير في قضية ما، في هذه اللحظة يحدث نشاط شديد في مراكز المخ وخلاياه العصبية وتشابكاته. هذا هو أساس الربط بين الوعي والدماغ، فهي علاقة تفاعلية بين الحدث الذي ندركه بحواسنا ويدخل دماغنا، وبين العمل الذي تقوم به أدمغتنا لنتفاعل معه.

إذن العلاقة بينهما علاقة مثير (وعي) ومثار (مراكز المخ وخلاياه)، واستجابة للإثارة التي تصلنا عبر حواسنا (مداركنا). فالاستجابة تحدث نتيجة إثارة خلايانا، والإدراك هو فهمنا للحدث وتفسيرنا له. يقول غي عن قدرة الدماغ على تغيير حالاتها طبقًا لظروفنا النفسية والعصبية بسرعة، أن هذه القدرة ترجع إلى الكم الكبير

(١) قاموس العلوم المعرفية:١٥٢

من العصبونات، والشبكة العصبية التي تمتلكها الدماغ: "في ما يتعلق بالوعي، لنذكر أولا ببعض الأرقام المعروفة جدًا في قشرة الرأس توجد ١٠ أس ١٠ عصبوناً تقريبًا، ولهذه العصبونات ١٠ أس ١٥ توصيل مما يساوي ١٠ أس ٩ توصيل في الميليمتر المكعب. وهذا كله للتنويه بأن هناك حوالي ١٠ مضروبة بعدة ملايين تشبيك ممكن بين حالات الدماغ، يضاف إلى ذلك أن من سمات العقل أنه قادر على الإحالة إلى كائنات أخرى أو أشياء أخرى في عالم يتغير باستمرار، وهكذا يعدل الملاحظ في ملاحظاته، وتصبح هذه النقطة حاسمة عندما يريد أن يفحص أداء الدماغ نفسه"(١).

إن عملية التفكير الواعي في أي شيء يستدعي تفاعل ملايين من التشابكات العصبية لنفكر فيه؛ مما يجعلنا نتبين عدة قدرات تداولية للدماغ، منها قدرة الدماغ على:

١- استيعاب كم كبير من المعارف والخبرات وتخزينها في اللحظة الآنية في سرعة

٢- التفاعل مع هذا الكم من المعارف وتنسيقه وترتيبه واستدعائه بسرعة فائقة.

٣- الاستدلال على نتائج من المعارف المخزنة فيها، كما يرى فودور، مبدعه.

٥- عجز العلم عن متابعة الوعي في الدماغ :

يرى غي أن العلم في عصره قد عجز عن عدة أمور هي:

١- الطريقة المتبعة غير مناسبة للكائن الحي أي للطبيعة النفسية المعقدة للملاحظ.

٢- صعوبة تصوير وضع الدماغ عن طريق مجمل أوضاع العصبونات لتغيرها الدائم.

يقول: "وبالتالي فإن الطرق العلمية المرعية ليست مناسبة لدراسة الكائن الحي: يصبح من الضروري أن يُأخذ بعين الاعتبار التعقيد النفسي للملاحظين. وبالإضافة إلى الاستحالة الكمية لتصوير وضع الدماغ عن طريق مجمل أوضاع عصبوناته (وبناء على الأرقام الواردة أعلاه، نحتاج إلى ١٠٠ مليار من البتات (bits) في الثانية ...، نري أن الدماغ يغير خصائصه باستمرار، حسب علاقاته بالعالم: ويستحيل قطعًا أن نجد حالة سابقة مماثلة للحالة الراهنة"(٢). هذا القول ليس صحيحًا؛ لأن هذه النقاط التي عجز العلم عن القيام بها في عصره من الممكن القيام بها الآن كتفسير الحالات

(١) قاموس العلوم المعرفية:١٥٢

(٢) قاموس العلوم المعرفية:١٥٣

النفسية المعقدة، وتم تصوير العصبونات أثناء عملها عند إثارتها في حالتي الكلام والتفكير (الكلام الداخلي)، وقد تم تجاوزها.

لكن سيرل يطرح حلًا لهذه المشاكل كما يرى هو، يقول: "عندئذ يجب على جوهر الشخصية أن ينظر إليه كحزمة من التجارب المعيشية التي يتمسك الدماغ بوحدة تجمع بينها (كيف بالضبط ؟ يبقى هذا سؤالًا مفتوحًا) لا يمثل الشخص مجمل تجاربه وأفكاره (وأقل من ذلك لا يمثل نتائجها) بل يمثل بخاصة تلك الوحدة: فخلافًا لما يتم في الحاسوب لا يمكننا أن نفصل عند الكائن الحي بين التخزين والتنفيذ"(١).

إنه يرى أن المرء هو مجموعة تجارب عاشها في حياته، فهي ما يمثّل وعيه كوحدة متكاملة، لهذا يجب أن ينظر إلى المرء في هذا الإطار، ونبحث عما في وعيه من حلول للمشكلات المطروحة عليه الآن من خلال تجاربه المعيشية، أي التي عاشها بأفراحها وأتراحها؛ فهي تاريخه الذاتي الشخصي، وهذا صحيح فالمرء هو مجموعة تجارب وثقافات عاشها في بيئته، كونت معًا وعيه، فهي خبرته التي يقيم حياته وسلوكه في إطارها.

أما المقصود بـــ (التخزين والتنفيذ) إنه يعني بذلك أن مجمل تجارب الفرد وخبراته التي عاشها وخزنها في تشابكاته العصبية لا يمكن أن تنفصل عنه عند التنفيذ باتخاذ القرار وتنفيذه. فالقرار ينطلق من مجموع ما لدى الفرد من معارف مخزنة داخل مخازنها العصبية، يتم استدعاؤها عند التفكير بأمر ما، تمهيدًا لاتخاذ قرار بشأنها نتيجة تفكيره؛ فالتخزين يمد الفرد بالمعارف والخبرات اللازمة لعمليتي التفكير وتنفيذ قراره، فيجادل بها في حواره.

٦- وظيفة الوعي واللاوعي :

الوعي واللاوعي كليهما له دور في عملية الإدراك ومعرفة ما يقوله الآخر لنتواصل معه، يرى غي أن عمليتي الوعي واللاوعي أساسًا عمليات ذهنية، بل يصنعان تفكيرنا: "نستطيع الإشارة إلى وجود نوعين متمايزين من العمليات الذهنية؛ فعندما نفكر. نقدر:

---

(١) قاموس العلوم المعرفية:١٥٣

١- إما أن نقول شيئًا حول الطريقة التي تمت بها بعض العمليات وحول تفاعلاتها (نصف مثل هذه العمليات بأنها واعية)،

٢- وإما أن نتبين نتائجها فقط (عندئذ تكون العمليات غير واعية؛ لأنها تتصرف وقتئذ كآلات منطقية وينتج نشاطها عن الارتكاس).

ويتعارض هذان النوعان (الوعي واللاوعي) من العمليات تعارضًا بيِّنًا، فالنوع الأول سريع ويخضع للترابط مع عمليات أخرى واعية تعالج أحجامًا محدودة. وتبقى سلسلة وتحافظ على اتساق داخلي كبير، وعلى العكس يكون النوع الثاني من هذه العمليات فعّالًا في مهمته الخاصة (فهي سريعة، ولا ترتكب الكثير من الأخطاء، ولا تخضع للترابطات، وتعالج الأحجام الكبرى، وإنما في مجال محدد جدًا ومحدود)"[(١)].

إنه يعرف الوعي واللاوعي بصورة مبسطة تجعلنا ندرك الفرق بينهما بسهولة، فما كان يخضع لإرادتنا من الأشياء والأفعال فيدخل ضمن الوعي، حيث نوجه انتباهنا إليه وندركه بناءً على رغبة وإرادة منا فهذا هو الوعي، فأقول: أنا أعي ذلك وأدركه. لذا فإن الرغبة في التواصل مع فلان أو قول أو فعل كذا فإن هذا كله يدخل ضمن الإدراك والإرادة والوعي، وما لا يخضع لإرادتنا ويتم بصورة آلية مخفية عنا قد لا نشعر بها أثناء حدوثها، ولكن نلمس نتائجها؛ كعملية التنفس أو دخول فكرة غائبة عنا ضمن تفكيرنا وكلامنا، أو عملية نبضات القلب، فهذا كله لا نشعر به أثناء عمله، فهذا هو اللاوعي.

ويفرق بين النوعين بصورة أخرى: فالوعي سريع يرتبط بعمليات أخرى واعية، كأن نفكر في شيء مرتبط بأشياء أخرى تجعلنا نستدعيها عن وعي وإرادة منا، فيرتبط حينها تفكيرنا الواعي بأشياء تم علاجها من قبل، أي فهمناها من قبل، فهى جاهزة ومخزنة تُستدعي فورًا أثناء الحديث ومن خلال عملية التفكير. وتخضع عملية الوعي لخط فكري يجمعها معًا في صورة سلسلة من الأفكار يرتبط بعضها ببعض، ويستدعي بعضها بعضا في تسلسل وترتيب محكم، فكل فكرة تسدعي أختهاالتي ترتبط بها، وفق هذا الخط الفكري الذي يسعى الوعي لبيانه ومعالجته. ونذكر مثالًا توضيحيًا للترابط بين الأفكار.

---

(١) قاموس العلوم المعرفية:١٥٣

مثال: قضية المواريث :

إننا عندما نفكر في قضية المواريث نستدعيها لمعرفة حكم الشرع والقانون فيها. فيصبح الخط الفكري الذي يجمع عناصر القضية ويعالجها خطًا واحدًا، لأنه يعالج قضية واحدة، فعند معالجتها نقوم بجمع ما اتصل بها من آيات قرآنية [دليل نقلي] وأحكام من القانون الوضعي [دليل عقلي]، فنخرج بعد تلك المعالجة بحكم صحيح لها، بصورة صحيحة وعن وعي كامل وصحيح بالقضية.

أما اللاوعي :

فهو مختص بعمليات ترتبط بمهام أخرى، ونظرًا لأنه يعمل بصورة آلية فإن نتائجه تخضع لطبيعة هذه العمليات الخاصة به، فالتنفس ونبضات القلب تتم بصورة آلية لا دخل لنا فيها ولا تخضع لإرادتنا، ولا ترتبط بأشياء خاصة بإرادتنا. فنحن لا يمكننا (من خلال وعينا) أن نوقف قلوبنا عن النبض، وكذلك الأفكار التي تتسلل لتصل إلينا أثناء الحديث أو التفكير لتدخل ضمن حديثنا وتفكيرنا لا إرادة لنا في أن تأتي إلينا على الرغم من أننا لم نستدعها؛ لذا نقول حينها: جاءتني فكرة كذا وأنا أتحدثك، أو شرد ذهني إلى أمر آخر بعيدًا عنك، هذا هو اللاوعي كما ذكر غي تيبرغان.

٧- صفات الوعي :

"يولى هارث (Harth) ١٩٩٣م الوعي الصفات التالية: **الانتقائية والحصرية والتسلسل والوحدة**"(١)، هذا التحديد لصفات الوعي ضمن عدد محدود يجعلنا نفهم الوعي بدقة ونسيطر عليه بوضعه في دائرة محدود، يمكننا من خلالها متابعته وملاحظة عمله ودوره في عملية فهم الآخر والتواصل معه، في إطار النظرية التداولية التي تُعنى أساسًا بقضية التواصل؛ لهذا يجب التوقف عند هذا الصفات بالدراسة والتحليل.

أ- الانتقائية: إننا كي نفكر تفكيرًا واعيًّا هادفًا في قضية ما فإننا نختار من بين القضايا التي في أدمغتنا قضية معينة وفكرة محددة، هذا التعيين والتحديد يعد انتقاءً واعيًا منا لهذا الشيء أو ذاك. إذن الانتقاء أساس عملية التفكير في الشيء، وهو بداية التفكير بشكل عام، لذا فهو سابق عليها. فنحن نختار وننتقي الموضوع أولًا، ثم ننطلق في التفكر فيه.

(١) قاموس العلوم المعرفية:١٥٣

هذا مفهوم الانتقائية الذي يقول عنه غي: "بين مجمل النشاطات العصبية، لا يصل كل شيء إلى الوعي (إدراكات، أحاسيس، مشاعر). هكذا تقوم إحدى وظائف الوعي (المرتبطة بالاختيار الحر) بأن تنتقي – من بين العناصر المحتملة – تلك التي تستطيع أن توصلنا إلى أفكار (مهمة) "(١).

ب– الحصرية:" لا يمكننا أن نعي إلا شيئًا واحدًا في الوقت ذاته (انظر مثلًا الصورتين المعروفتين جدًا اللتين نرى فيهما – كما يطيب لنا – إما بطة وإما أرنبًا، ولكن ليس الاثنين في الوقت نفسه، ...)، ويُنتج الوعي إذن عملية تعاقب (نستطيع مثلا أن نخلق وعيًّا لما قد نفعله كآلة فون نيومان تقليدية وليس كآلة موازية). والحال أن بعض العمليات تتم متوازية في الدماغ؛ فجميع مستويات المعالجة لا تستطيع إذن أن تكون واعية"(٢).

هذه الحصرية في التفكير تقابلها وتشابهها الحصرية في الرؤية. فإننا عندما نفكر فإن فكرة أساسية واحدة تسيطر علينا؛ ولهذا لا نفكر إلا فيها وحدها، أما ما يتولد حولها ويليها من أفكار أخرى هى أفكار مرتبطة بالفكرة الواحدة الأساسية التي بدأنا بها ومتولدة عنها. وما قاله غي من أن الوعي لا يرتبط إلا بفكرة واحدة هي التي تسيطر علينا، وهو ما يعنيه بالحصرية.

ويشبه غي الحصرية في الفكر بالحصرية في الرؤية، فأنا عندما أنظر إلى الصورة الملتبسة (الصورة التي تفسر على أنها بطة أو أرنب) فإن الانطباع الأول الذي وصل إلى ذهني وتفكيري على أنها بطة يسيطر عليَّ، فلا أراها إلا بطة، وأتكلم عنها من هذا المنطلق. أما إذا رأيتها أرنبا فلن أفكر فيها أو أتعامل معها إلا على أنها أرنب، وهذه الصورة الملتبسة يحفل بها علماء النفس أيَّما حفاوة، ويمثلون بها دائما. ذلك لارتباطها بالصورة المخية التي ترسم فى الدماغ عنها (بطة/ أرنب) هى في حقيقتها مرتبطة بنفسية الذي يبصر الصورة، وما تقوم شبكته العصبية بتفسيره للصورة وتقديم هذا التفسير له.

---

(١) قاموس العلوم المعرفية:١٥٣

(٢) المرجع السابق:١٥٤

ج- التسلسل: "كنتيجة للنقطتين السابقتين تعالج الأحداث الواعية بشكل مسلسل، ويعاد بناء مختلف العلاقات بينها، لذلك تحديدا يملك الوعي وظيفة بنائية تقوم على الجمع بين النتائج المتفرقة التي تنتجها العمليات غير الواعية"(١).

إن هذه المرحلة جديرة بالاهتمام نظرًا لبيانها للدور الذي يلعبه الوعي في عملية التفكير. التفكير بطبيعته يكون منظمًا متسلسلًا، وهذا ناتج عن الترابط الفكري بين الأفكار. لكن إذا لم يكن هناك ترابط فكري وتسلسل بين عناصر الموضوع فإن الوعي يتولى هذه العملية، فيعيد بناء وترتيب الأفكار وجمعها من الوعي واللاوعي حتى يصل إلى تسلسل فكري ومنظم ومقبول للقضية موضوع الحديث. لهذا نجد الشخص في هذه اللحظة يقول: دعني أعيد ترتيب أفكاري وتنظيمها، إنه يعيد عرضها على وعيه الذي يتولى هذه المهمة، فينظم ويرتب أفكاره، ويستعين باللاوعي أحيانًا لهذا الغرض.

د- الوحدة: "وهي ما يجعل العقل كلًا واحدًا، وهي التي توجد بين جميع عناصر العالم الخارجي، ولذلك فإن الوعي يخلق مجددا أو يعدل في نتائج الإدراكيات أو المعطيات نفسها إذا ظهر في إحدى التجارب ضوء أخضر لمدة عشرات الأجزاء من الثانية، وأعقبه ضوء أحمر على بعد بضعة سنتيمترات إلى يساره، نبني بشكل منتظم نقطة وسيطة تذهب من الضوء الأول إلى الضوء الثاني ويتغير لونها في الوسط"(٢).

إن الوعي يسير في تسلسل وتنظم محكم، يسعى من خلاله إلى بناء فكرة عامة واحدة حول القضية، فقد انحصر عمله في قضية واحدة، فكر فيها بتسلسل دقيق، وكان هدفه من ذلك تكوين فكرة واحدة حول هذا الشيء، لذا كان لابد من وحدة الوعي. ليعدل من نتائج إدراكاته ومعطياته حتى يرى الأمر بصورة واضحة ودقيقة مترابطة.

٨- تصوره لمراحل التفكير الواعي :

عرضنا مراحل التفكير الواعي الهادف في أمر ما، ويمكننا تصوره من هذا الشكل:

الانتقائية >> الحصرية >> التسلسل >> الوحدة

(١) قاموس العلوم المعرفية:١٥٤

(٢) المرجع السابق:١٥٤

ب) الانتباه عند غي تيبر غيان :

الانتباه يتصل بالوعي الذي يصنع التواصل بين المتكلمين يقول عنه غي: "الانتباه: جانب انتقائي من الإدراك. يوحي بوجود كفاءة تعامل محدودة، ولكنها متغيرة بالتأكيد نظرًا لحالة اليقظة والاحتراز والجهد، ويرتبط بمفهوم الكفاءة المحدودة مفهوم آخر مرتبط بها جوانيًا ألا وهو مفهوم الانتقائية"(١).

الانتباه: عملية انتقائية يقوم بها الإدارك. فالانتباه فرع من الإدراك، حيث ينتقي الفرد من بين مدركاته التي يراها أو يسمعها شيئًا واحدًا يدخله إلى بؤرة اهتمامه، ونعني بها بؤرة انتباهه، ويعالج هذا الشيء بناءً على كفاءة هذا الفرد في الاختيار.

هذه الكفاءة متغيرة تبعًا لحالة الانتباه واليقظة والوعي التي يتمتع بها الفرد في هذه اللحظة. وعملية الكفاءة هذه محدودة (أي أن القدرة التي لدى الفرد على الاختيار هى قدرة محدودة) ترتبط بقدرة أخرى هي القدرة الانتقائية. فكفاءة الفرد وقدرته تظهر من خلال عملية الانتقاء، فهو ينتقي الأشياء الجيدة نتيجة كفاءته وقدرته الجيدة على الاختيار، لهذا نقول: إن فلانا يحسن الاختيار، أي: يحسن الانتقاء. فيصبح الانتقاء كفاءة، وقدرة يتمتع بها الفرد، وهي تختلف من فرد لآخر، لأنها ترتبط بقدرة (جوانية) بداخل دماغه، فهي قدرة خاصة به، تأتي من دماغه.

الانتباه: (نظرية البراديغمات) : الانتباه والوعي واللاوعي من القضايا التي ترتبط بالتداولية، بل تقوم عليها النظرية التداولية. فالتداولية فن التواصل، فلا يوجد تواصل بين الناس إلا إذ حدث إدراك واعي وانتباه تجاه ما يقولون، فكلهاترتبط بالوعي والانتباه؛ لهذا نجد علماء التداولية دائمي الحديث عن هذه المصطلحات وتفسيرها؛ وذلك لشدة ارتباطهم بالتداولية، فقد أشار غي إلى البراديغمات المستعملة في دراسة الانتباه قائلا: "البراديغمات التجريبية الأساسية المستعملة في دراسة الانتباه تتضمن:

١ــ إما تبئير الانتباه حول المهمات أو المضامين النوعية على حساب مهمات أخرى ومضامين منافسة (مثلًا: مهمات التكرار الصوتي لإحدى رسالتين سمعيتين وصلتا بالتزامن، تركيز على موقف نوعي في الحقل البصري واستبعاد الحقول الأخرى، متغيرات مهمة ستروب Stroop).

(١) قاموس العلوم المعرفية:٨٣

٢ــ وإما – على العكس من ذلك – توزيع الانتباه على العديد من المهمات والمضامين (مثلًا: مهمات البحث عن هدف بين مجموعة من الخدع في الحقل البصري أو في الذاكرة، تحري أو تعرف على أهداف عديدة وصلت متزامنة أو بالتتالي السريع جدًا أحيانًا) "(١).

البراديغمات: النظرية المستعملة في دراسة الانتباه، ومعرفة طريقة عمله ؟، يتم هذا بطريقة من طريقتين وهما:

أولًا: تركيز الانتباه: حول مهمات ومضامين على حساب مهمات ومضامين أخرى. فالانتباه يتوجه نحو شيء دون غيره من الأشياء التي تثير الانتباه (صوتية. بصرية).

مثال: إذا وصلتْ الآن إلى سمعي رسالتان صوتيتان في آن واحد، لا يمكن أن أنتبه إليهما معًا. وهنا يقوم انتباهي باختيار رسالة واحدة منهما، ويضعها في بؤرة اهتمامي أي انتباهي، ويستبعد الأخرى، وكذلك عندما تُوضع في حقليِّ البصري (مجال رؤيتي) صورتان في آن واحد، فإن انتباهي يوجه إلى حقل بصري واحد (الصورة التي اختارها منهما انتباهي) مع استبعاد الحقول البصرية الأخرى، أي الصور الأخرى.

ثانيًا توزيع الانتباه: يقوم المخ بتوزيع الانتباه على العديد من الأشياء (الصوتية أو البصرية) وصلت متزامنة، أي يجعل انتباهه موزعًا على كل هذه الأشياء معًا، هذه الطريقة يسلكها المخ عند عدم قدرته على جعل تركيزه البؤريِّ حول شيء واحد يجعلهم وضع انتباهه، أو عند حاجته للانتباه لهذه الأشياء كلها معًا في آن واحد؛ وذلك لغرض تكوين فكرة عامة عن هذه الأشياء.

أنواع الانتقاء :

كيف لنا أن ننتقي صورة واحدة من بين الصور ؟ وكيف لنا أن نختار صوتًا من بين أصوات المتحدثين حولنا ؟، إنها أسئلة جد خطيرة، ترتبط بمدى انتباهنا للأشياء، وإلى أي شيء ننتبه أكثر ؟ لهذا يجب علينا عرض وتحليل هذه القضية في ضوء ما ذكره غي.

قسم غي الانتقاء إلى نظريتين يقول:"الدراسات التجريبية المتعلقة بالانتباه الإدراكي (يقصد البراديغمات) واجهت تعارضًا تقليديًا بين فئتين كبيرتين من النظريات، أي:

(١) قاموس العلوم المعرفية:٨٣

١ــ نظريات الانتقاء المبكر.

٢ــ ونظريات الانتقاء المتأخر.

في الأولى: يتم انتقاء المعلومة التي يجب معالجتها على قاعدة عدد من المؤشرات النفسية المادية (لاسيما في ما يتعلق بأصلها المكاني)، فيحصل التعرف فقط على المثيرات المنتقاة، بغية اكتناه معناها، (أي البحث عن كنه معناها).

وحسب نظريات الانتباه المتأخر فإن جميع المثيرات التي تجاوزت عتبة الوعي قد يتم التعرف عليها، فيجري الانتقاء حسب المعنى.

وتثبت الدراسات المعاصرة أن هاتين الرؤيتين مغاليتان. وخلافًا لما تقترحه نظريات الانتقاء المبكر يمكن البحث معا عن مثيرات تجريدية نسبيًا مثلًا: الحروف"[١].

إن ما ذكره غي تيبرغيان يتمحور حول زمن عملية الانتقاء، فإننا ننتقي الشيء بصورة مبكرة أو متأخرة، نتيجة عملية الإدراك من خلال البراديغمات أي التجريبية المستعملة في دراسة عملية الانتباه الإدراكي للأشياء، فهي:

الانتقاء المبكر: عندما نبحث عمّا نشرع في معالجته: (قضية، أو فكرة، أو معلومة ؟)، يتم هذا من خلال عدة مؤشرات استقرت في نفس الفرد حول الشيء، تدفعه لاختياره دون سواه، فيبحث عن المثيرات التي جعلته يختاره دون غيره، ليبحث عن معناه.

الانتقاء المتأخر: عندما يتم اختيار شيء ما والوصول إلى نتيجة حوله فإن هذا يعني أن وعيه تجاوز المثيرات والدوافع لاختيار هذا الشيء أي تجاوز عتبة الوعي وأصبح ضمن مدركاته، وقد أدركه فعلًا، ويمكنه التعرف علي جميع المثيرات فيما بعد، وانتقاء هذه المثيرات بالبحث عن معناها. أي على أساس من معناها الذي استقر في الذهن آنفا.

ثانيًا: عند برنارد بارز:

لقد جمع الرجل في كتابه (المعرفة والمخ والوعي: مقدمة لعلم الأعصاب المعرفي) أحدث الدراسات العصبية حول الوعي واللاوعي والانتباه، مما يجعلنا نتخذه مرجعًا

(١) قاموس العلوم المعرفية:٨٣

أساسيًّا ومحكمًا في نقاط الخلاف حول هذه المصطلحات، بل نعده ممثلًا للمرحلة الأحدث في تطور علم الأعصاب في هذه القضايا، فقد أشار إلى التطور السريع في مجال علم الأعصاب المعرفي، لهذا سنقف معه وقفة طويلة لمعرفة أحدث ما وصل إليه علم الأعصاب في هذه القضايا التي تعد من القضايا الأساسية في دراسة التداولية (قضية الوعي واللاوعي والانتباه) فنناقش عملية الكلام الداخلي. ونبدأ مع برنارد من استيقاظ الفرد من النوم وبداية عمل الوعي، لنعرف لماذا اعتبر بداية عمل الوعي من الاستيقاظ.

المحور الأول: الوعي استحضار العالم في الحوار التداولي :

١ – الوعي :

استحضار كل خبراتنا الحياتية عن العالم الخارجي داخل أدمغتنا لنستخدمها في إدراك وفهم ما يحدث حولنا، وما يأتينا من اتجاهات متعددةربما نفاجأ بها؛ لهذا يجب أن نكون على وعي أثناء اليقظة بكل ما يحيط بنا. فعندما نُجري حوارًا ما مع الآخر؛ فى تلك اللحظة يجب أن نكون قادرين على استحضار كل شيء عند إجراء حوار جدلي تداولي، نتواصل معه بناءً عليه. قال برنارد: "ينظر إلى وعي حالة اليقظة منذ زمن بعيد باعتباره يمثل حيز التفكير المنطقي، والناضج، والموجه نحو الواقع. وثمة موثوقية كبيرة في هذا الأمر حتى وإن كنَّا ننغمس أحيانًا في أوهام أثناء اليقظة، وربما أحلام اليقظة، أو تفكير منبثق عن حالتنا الانفعالية، أو كنَّا نتعرض لحالة من الشرود العقلي"(١).

لهذا لا يمكننا التركيز في شيء واحد عند إجراء أي حوار تواصلي تداولي، لماذا ؟ يجيب برنارد عن هذا السؤال الذي يبين العلاقة بين الوعي والتداولية منذ نشأة الإنسان، وضرورة أن يجمع الفرد أمورًا كثيرة، يستحضرها في عقله أثناء تفكيره أو حديثه قائلًا: "في الواقع قد يكون من الصعوبة بمكان التركيز تركيزًا كاملًا على مهمة واحدة فقط، وقد يرجع ذلك لأسباب بيولوجية، فالبشر لم يتطوروا في عالم مثالي، وهم يتلقون دروسًا تعليمية في فصول دراسية، ففي العصر الحجري تحتم على الصيادين وجامعي الثمار أن يكونا على حذر تام من المخاطر المحتملة، وتحين للفرص

(١) المعرفة والمخ والوعي: مقدمة لعلم الأعصاب المعرفي: برنارد ج.بارز؛ نيكول م. جيج، تر/ هشام حنفي العسلي، دار جامعة الملك سعود للنشر،ط١، ٢٠١٨م، ص:٤٥١

الممكنة؛ ولهذا كان التركيز الحصري الكامل على شيء بعينه وتجاهل كل الأشياء يشكل خطرا داهما عليهم. إن البشر يميلون إلى إجراء مسح طفيف للعالم الحسي، بدلا من التتبع الحثيث لهدف واحد أو لسلسلة من الأفكار، وفي الوقت نفسه، توفر لنا ضخامة أمخاخنا قدرة هائلة على التكيف. ونستطيع التحكم في انتباهنا على الأقل لوقت محدود"(١).

إن حالة الخوف من الوقوع في الخطأ التي تنتابنا أثناء الحوار تدفعنا إلى استحضار أشياء كثيرة في أمخاخنا عند الكلام كانتقاء الكلمات المناسبة لمكانة مَن نخاطبه، الوقوف على مسافة منه وغيرها من قول وسلوك وفعل ومعلومة نخفيها عند حديثنا مع المخاطب كل هذا راجع إلى طبيعة الوعي البيولوجية التي داخلنا والتي تحتم علينا في الحوار التداولي الحذر والحرص واستحضار كل هذه الأمور. كما كان يفعل أجدادنا الصيادون. وهذا يؤكد العلاقة المتأصلة فينا والموروثة من الحرص والحذر والقدرة على استحضار أمور كثيرة في إطار حالة واحدة نعيشها الآن أو إجراء حوار تداولي. إن هذا يشبه الساعة البيولوجية المخفية داخل أمخاخنا والتي توقظنا في نفس الوقت يوميًّا كما تعودنا.

٢- الوعي وعلاقته بالتداولية :

إن حالة اليقظة التي يعيشها الفرد تعني إدراكه كل شيء يحيط به، بل ما في خاطره وفكره من أشياء، كل هذا يصنع عالم هذا الفرد، ثم يدخل في حوار وجدل تواصلي تداولي مع غيره، يستحضر فيه كل خبراته وإدراكه للآخر، وإدراكه للعالم الخارجي، وأفكاره الداخلية، كذا كلامه الداخلي أيضًا، هذا الأمر يثير عصبونات في دماغه مختصة بتلك القضايا موضوع الحوار، ونتيجة هذه الإثارة تُستدعي هذه العصبونات بعد إثارتها لغيرها مما جاورها من عصبونات، وتستخرج كل خبراتها أثناء الحوار، وتدفع بها إلى خلاياه العصبية لتعينه في الحوار الآني. إننا نفعل هذا في حالة اليقظة، وفي حوارنا مع أنفسنا ومع غيرنا، هذا الأمر يحدث بكل حيثياته في تلك اللحظة الحوارية مع الآخرين، وذلك بغرض التواصل معهم وتوصيل أفكارنا وآرائنا

(١) المعرفة والمخ والوعي: مقدمة لعلم الأعصاب المعرفي:٤٥١

إليهم. إنها عملية تداولية تواصلية تقوم على عمليات عقلية تنفذها خلايانا العصبية وتشابكاتها. يقول برنارد: "تتضمن محتويات اليقظة الواعية العالم الإدراكي المباشر للمرء والكلام الداخلي والتخيل البصري؛ ومحتوى اللحظة الحاضرة وآثارها المتلاشية من الذاكرة المباشرة؛ والأحاسيس الجسدية..، والذكريات الشخصية حينما يجرى تذكرها، والنوايا الصريحة والمباشرة، والتوقعات، والأفعال؛ ومعتقدات الشخص الصريحة عن نفسه وعن العالم، والمفاهيم المجردة ذات الصبغة الحوارية ...، وتنغمس كل الأجهزة الحسية في تفاعلات مكثفة مع شتى المعالجات غير الواعية، ويفضي ذلك إلى خبرة واعية، مثل الالتفات إلى المناظر المرئية، أو الأصوات، أو المشاعر"(١).

إن هذه الأمور وغيرها تكوِّن الوعي الخاص بكل فرد يستدعيها عند حواره، فهي تمثل ما ندركه عن عالمنا وعن أنفسنا. إن كل هذا الكم من المعارف يظل قابعًا في شبكاتنا العصبية مسجلًا ومدونا فيها لوقت الحاجة. ويمثل هذا كله مجموع ما لدينا من وعي أي: خبرة تقدر بالمال الكثير عند أصحاب الأعمال. وعند استدعائها من الذاكرة تأتى في أسرع من البرق، وتدخل في سياق حوارنا، بل توجّه عملنا الوظيفي وحياتنا اليومية؛ لهذا فإن حوارنا التواصلي التداولي يقوم على هذه الخبرات عندما نوجه انتباهنا إليها، ومن هنا تبدو الحاجة إلى فهم وعي الفرد ومحتواه؛ لنحدد كيفية التعامل معه، والتواصل التداولي الصحيح معه، وهذا يعني أن دراسة الوعي ضرورة من ضروريات النظرية التداولية لتحقيق التواصل مع الآخر، ومع النفس (الكلام الداخلي) يقول برنارد: "يؤدي استدعاء الذكريات الشخصية إلى خبرات واعية، مثل استرجاعك ذكريات تتعلق بأول مرة رأيت فيها هذا الكتاب. ويشار إلى أن الكلام الداخلي والتخيل ينطويان على جوانب واعية. وحينما نطلب من شخص ما إجراء تسميع ذاتي لقائمة من الكلمات فإن هذا التسميع يستثير عادة كلامًا داخليًا واعيًا"(٢).

إن لحظة الحوار التواصلي التداولي لحظة حاسمة بالنسبة للأفراد المتحاورين؛ فتتدفق محتويات الوعي تلقائيًّا، ويدفع بها المتحاورون لقلب حوارهم كي ينتصروا بها على غيرهم.

---

(١) المعرفة والمخ والوعي: مقدمة لعلم الأعصاب المعرفي:٤٥٠

(٢) المعرفة والمخ والوعي: مقدمة لعلم الأعصاب المعرفي:٤٥٠

إذن عملية التواصل تتم في إطار قائمة من القيود التي تحكم كلامهم، وتحدد ما يمكن أن يفهمه السامع منهم. "ثمة أدلة جديدة على حدوث تدفق داخلي تلقائي لمحتويات الوعي مما يجعلها في حالة تنافس دائم مع مكونات العالم الإدراكي.

خلاصة القول في مواقف الحياة اليومية ينشأ تنافس دائم بين الأحداث الخارجية والأحداث الداخلية، وبين الإدراك، والاستجابة، وبين سيالات المدخلات المتزامنة. ويبدو أن الانتقاء الانتباهي يقوم بدور كبير في كل لحظة من لحظات اليقظة"(١).

هذا حقيقة التداولية في علاقتها بالوعي، فالوعي بالنسبة لها خلفية مليئة بالمعلومات المخزنة في الذاكرة التي تمثل أدوات الفرد في فهم العالم والآخر والتواصل معهم، فالوعي أساسي لفهم الفرد وعالمه والتواصل معه.

المحور الثاني: الوعي في حالتي: اليقظة والنوم :

يبدأ برنارد حديثه بعرض عمل الوعي من لحظة الاستيقاظ من النوم. فهي في عرف الناس جميعًا مرحلة الانتقال من اللاوعي والأحلام إلى الوعي والإدراك. يقول برنارد: "نستيقظ صباح كل يوم على سيالات متدفقة من الأحداث الواعية، وبمجرد أن نفتح أعيننا يبدأ العالم المرئي في العودة إلى الحياة مرة أخرى، وتتوارد إلينا تدفقات لكلام داخلي متماسك – نبدأ في التحدث إلى أنفسنا.

ونشرع أيضًا في ترميز محتوى الوعي باعتبارها ذكريات عرضية، وبهذا يمكننا تعلم الخبرات واستدعائها... عادة ما نتذكر مع استيقاظنا في كل صباح أهم أهدافنا الراهنة ويعني هذا أننا ندرب انتباهنا الإرادي على المعلومات التي سوف ترد على وعينا... وما أن نستيقظ يصبح بإمكاننا التحكم في عضلاتنا الهيكلية مرة أخرى، لهذا يمكننا الوقوف على أقدامنا؛ لنستكشف العالم المحيط بنا، ونذهب للصيد وللحصد، ونتحدث لبعضنا البعض"(٢).

أ) ماذا يحدث في المخ أثناء حالة اليقظة والنوم ؟ :

(المخ القائد الذي ينظم إيقاع حياتنا في النوم وفي اليقظة)

عند بداية نشاط المخ بعد النوم (حالة الاستيقاظ) يتحول المخ من حالة السكون والسلوك العشوائي غير المنظم مع الأحلام إلى حالة السلوك المنظم وإلى الوعي الذي يجمع أفعال الأمس ومشاريع اليوم.

---

(١) المعرفة والمخ والوعي: مقدمة لعلم الأعصاب المعرفي:٤٥٠

(٢) المعرفة والمخ والوعي: مقدمة لعلم الأعصاب المعرفي:٤١٧

فينطلق الفرد إلى العمل بنشاط تام فيصبح قادرًا على اكتساب المعلومات وتخزينها في المخ والتفاعل بها مع مجتمعه. ففي النوم تحدث تغيرات سريعة في المخ، منها تغيرات في التوقيت الشامل، أي: حالة توافق زمني شامل بين كل المعلومات التي في المخ. فتنهض القشرة المهادية من سُباتها، وتبدأ في إثارة وتفعيل كل القدرات التي يمتلكها الفرد كي يمارس حياته اليومية على أكمل وجه كما في الأمس.

فماذا يحدث للفرد أثناء النوم وإغلاق المخ وليس توقفه ؟ يسمح إغلاق الطور للمخ والتوقيت الإيقاعي بربط مختلف مستويات المعالجة ببعضها، وضبط توقيت حدوثها. أي أن عملية النوم هي عملية شحن لبطارية المخ، وضبط الأحداث مع أزمنتها، فيحدث تناغم بين الحدث وزمنه، وترتيب وتنسيق يمكِّن الفرد من استعادة نشاطه لينهض بذهن صافٍ، فيقوم بأعمال اليوم التالي بنجاح.

إن القشرة المهادية تشبه الناي الذي يعزف بتناغم وتناسق مع كل أعضاء الفرقة الموسيقية الكبرى تحت إشراف المايسترو الكبير (المخ)، الذي يشرف ويرتب وينسق عمل الفرقة كلها، وهنا يظهر دور القشرة المهادية في إعداد المخ للعمل التالي، يقول برنارد: "يوصف استيقاظ المخ بأنه أشبه بالوقوف على عتبة مرحلة انتقالية بين السلوك المنتظم والعشوائي، وتعظم هذه الحالة من فاعلية انتقال المعلومات وتخزينها... (وتشمل) فترات طويلة من إغلاق الطور، وحدوث تغيرات سريعة في حالة التواقت الشامل... وتتحسن حالةُ اليقظة القشريةَ المهادية إلى درجة تسمح بتفعيل شتى القدرات الممكنة.

ويسمح كل من التوقيت الإيقاعي وإغلاق الطور للمخ بربط مختلف مستويات المعالجة ببعضها البعض، وضبط توقيت حدوثها، وبهذه الطريقة، يمكن لناي صغير في أوركسترا المخ أن يعزف بتناغم إيقاعي مع آلات موسيقية أخرى"[(١)].

لكن ما علاقة هذا بالتداولية ؟ إن هذه العملية سابقة الذكر تشير إلى أن المخ يَعُدُّ نفسَه في حالة اليقظة للعمل بنجاح في كل حواراته التي ستحدث بعد النوم. وأن هذا العمل تقوم به القشرة المهادية في المخ. أي أن عملية الإعداد للحوار والنقاش تحتاج حالة من اليقظة الشديدة.

---

(١) المعرفة والمخ والوعي: مقدمة لعلم الأعصاب المعرفي:٤٥١

وتكون أفضل بعد نوم هادئ تقوم فيه القشرة المهادية بتنظيم التوقيت الإيقاعي للأحداث في المخ، ويبدأ يومه بذهن نشيط مستعد للحوار والتفكير.

ت) التغيرات التي تحدث في المخ في حالتي النوم واليقظة ؟:

١- في حالة النوم :

يقول برنارد عن دور النوم في توطيد الذكريات المتعلقة بالخبرات الواعية: "وتعد الأنشطة الإيقاعية للمخ بمثابة العلامة المميزة لمختلف حالات الوعي، وتوحي أدلة حديثة بأن الانتباه الانتقائي أيضا يعمل عن طريق تواقت إيقاعات المخ، ويبدو أن حالة التذبذب البطيئة للنوم العميق مكرسة لتوطيد الذكريات المتعلقة بالخبرات الواعية التي مر بها المرء خلال اليوم السابق. يبدو أن النوم يوظف الإيقاعات السريعة أثناء ذروة موجة دلتا البطيئة لتوطيد الخبرات الواعية لليوم السابق"(١).

فإذا كانت حالة اليقظة توطد الذاكرة وتثبتها في الذاكرة فإن "النوم وأحلام مرحلة النوم حركات العين السريعة يدعمان توطيد الذاكرة ... وتتضمن الذكريات الدائمة تغيرات بنائية في الخلايا والمشابك العصبية، وأحيانًا في شبكات المخ بأكملها. ويبدو أن تحسين النوم لعملية توطيد الذاكرة ينبثق عن توليف المعلومات، ويتطلب هذا التوليف تعبيرًا جينيًّا في خلايا مخية متنوعة"(٢). إذن النومُ ضرورة من ضروريات الحياة للمخ، فيقوم بعمل الآتي لتحقيق توازن الفرد:

- يوظف الإيقاعات السريعة أثناء ذروة موجة دلتا البطيئة لتوطيد الخبرات الواعية لليوم السابق.
- تدعيم توطيد الذاكرة وتثبيتها.
- توليف المعلومات.
- قيام خلايا مخية متنوعة بالتعبير الجيني لتحقيق التوليفة أثناء النوم، أي اللجوء إلى جينات وراثية تمكن المخ من العملية التوليفية التي تقوم بها خلايا المخ المتنوعة.

٢- في حالة اليقظة :

بداية عمل الوعي اليومي: ماذا يحدث في المخ عند الاستيقاظ ؟:

إننا عندما "نستيقظ يصبح بإمكاننا التحكم في عضلاتنا الهيكلية بخلاف الحالة الشبيهة الخدر التي نمر بها أثناء نومنا، ولهذا يمكننا الوقوف على أقدامنا لنكتشف العالم

---

(١) المعرفة والمخ والوعي: مقدمة لعلم الأعصاب المعرفي:٤٥٢
(٢) المعرفة والمخ والوعي: مقدمة لعلم الأعصاب المعرفي: ٤٥٥

المحيط بنا، ونذهب للصيد والحصد، لاحظ أن كل قدرة من هذه القدرات تحشد شبكة مختلفة من الأحداث المخية التي لا يمكن تعلمها، وإتقانها، والتحكم فيها سوى في حالة اليقظة، وتتوفر لدينا في حالة اليقظة قدرات هائلة لا تُتاح لنا في حالات أخرى"(١).

عندما نستيقظ يبدأ وعينا باستحضار العالم وذكريات الأمس ومشكلاته؛ لتبدأ في استكمال عمل الأمس. هذا يعني أن مرحلة النوم: مرحلة سكون تام للمخ أو توقف مؤقت بعدها يستيقظ ويبدأ في التفكير من جديد.

إننا نستيقظ فنسأل ونتعرف على عالمنا الذي كنا فيه بالأمس، فنقول ماذا حدث بالأمس ؟ كأننا جئنا من عالم آخر للتو. هذا يحدث بكثرة لدى كبار السن، فيقومون من نومهم فاقدي التوازن والوعي فيسأل الواحد منهم عن كل شيء، ربما يكون قد وضعه بالأمس بيده في هذا المكان، من جاء بهذا الشيء هنا ؟، من هذا ندرك أن الدخول في النوم: سفر إلى عالم آخر، يجدد الجسد والمخ نشاطهما به، يقوم بشحن بطارية الطاقة الداخلية، وربما محو كثير من آلام الأمس. لكن في النهاية نوم وتوقف مؤقت للمخ (على اعتبار الأحلام جزءاً من صراعنا الداخلي) يقول برنارد: "تعد المناطق الحسية في الفص الخلفي ذات حساسية شديدة للتعزيز الانتباهي، ويبدو أن مناطق القشرة المخية الحركية، وبروكا، والذكريات الدلالية تدخل ضمن بؤرة الانتباه بشكل انتقائي"(٢).

ماذا يحدث في مخنا من تغيرات لنستعيد وعينا عندما نستيقظ ؟ يحدث الآتي:

١- نتحكم في عضلاتنا الهيكلية، لنتمكن من الوقوف على أقدامنا، ونذهب إلى عملنا.

٢- نحشد شبكات الأحداث المخية المختلفة السابقة بفضل قدراتنا في اليقظة على هذا.

٣- تتوفر قدرات مخية هائلة لتقوم بعمل اليوم الجديد والتي لا تُتاح إلا في اليقظة.

المناطق المخية التي تعمل أثناء اليقظة :

١- المناطق الحسية في الفص الخلفي: شديدة الحساسة للتعزيز الانتباهي.

٢- مناطق القشرة المخية الحركية، وبروكا، والذكريات الدلالية، تدخل ضمن بؤرة الانتباه.

---

(١) المعرفة والمخ والوعي : مقدمة لعلم الأعصاب المعرفي ٤١٨

(٢) المعرفة والمخ والوعي: مقدمة لعلم الأعصاب المعرفي:٤١٨

المحور الثالث: الوعي والانتباه :

أولًا: الوعي :

١ – عندما نوجه اهتمامنا إلى شيء ما فهذا هو الانتباه، وعندما ندلي برأي سديد في أمر ما بناءً على خبرة سابقة فهذا هو الوعي، والغريب أن الفرق بين المعنيين هو ما تقوله العامة عندما يقولون لشخص: انتبه، ففي الطرق مصاعب. يقولون هذا للفت انتباهه، فيجعلونه يوجه تركيزه وبؤرة انتباهه نحو هذا الشيء كحفرة في الطريق. وعندما يقولون: زيد الرجل الواعي، يكون المقصود أنه ذو خبرة؛ مما يعني أن المعنى العامي هو المعنى الصحيح، والذي استقر في أذهانهم، وهو المستخرج والمستخدم في الحياة اليومية.

والمعنيان مستخدمانب هذا المفهوم لدى النظرية التداولية أيضًا، **فالانتباه:** هو ما يقوم به الفرد عند اندماجه في الحوار مع الآخرين، وتواصله معهم، مما ينتج حوارا صحيحًا. وهو يستخدم **الوعي** أيضًا في حواره وتواصله مع غيره، وذلك عندما يلجأ إلى ما لديه من خبرات سابقة (الافتراض المسبق) فيستدعيها ليتحاور بها مع غيره. يقول برنارد: "إن وجود اختلاف بين الانتباه والوعي يبدو منطقيًّا. حيث **تشير كلمة الانتباه عادة إلى القدرة على توجيه المصادر المعرفية نحو حدث ما.** وإذا لم تكن قادرًا على تذكر مصطلح فني في هذا الكتاب، علي سبيل المثال، ربما تحاول على تصفية ذهنك من الأفكار الأخرى، وتوجيه قدر أكبر من الانتباه نحو تذكر هذه الكلمة.

ويُشار إلى أن كلمة الانتباه تنطوي في جوهرها على نوع من التوجيه أو الالتفات **ويشير الوعي بلغة الحياة اليومية إلى خبرة** – قراءة هذه الجملة، على سبيل المثال، أو الحصول على أفكار ومشاعر معينة، وربما صور ترد بمجرد قراءة هذه الكلمات – وينطوي الانتباه الانتقائي على الاختيار من بين مجموعة من الأحداث المحتملة؛ وبالتالي يبدو أن الوعي يشير إلى الخبرة المتعلقة بحدث ما بعد انتقائه"[(١)].

---

(١) المعرفة والمخ والوعي: مقدمة لعلم الأعصاب المعرفي:٤٨٠

٢- أحداث المخ الواعية وغير الواعية (الوعي واللاوعي) :

يقول برنارد: "إن المعرفة الواعية تمثل اتجاهًا جديدًا في علم الأعصاب المعرفي، ويتركز الاهتمام فيها على محاولة فهم الفروق بين أحداث المخ الواعية وغير الواعية"[١]. إن هذا التطور البحثي يعني دخولنا بقوة داخل المخ، وذلك محاولة منا لفهم الوظائف الدقيقة للمخ؛ وذلك بالتمييز بين عمليتين يقوم بهما المخ: الأحداث الواعية والأحداث غير الواعية، واستخدام حركة العينين لفهم هذا الفرق. يقول برنارد: "ويعد التنافس بين العينين من الأمثلة الرئيسة في هذا الصدد، حيث ينطوي على تعريض كلتا العينين لتدفق يتضمن منبهين بصريين مختلفين، وعلى هذا النحو لا يحدث وعي في أي لحظة عبر المسار الزمني للأحداث سوى بمدخل بصري واحد فقط. ومن الناحية السلوكية يستطيع الأشخاص تقديم تقارير عن المعلومات الخاصة بأحد المنبهين فقط"[٢].

إن ما يعنيه برنارد هو عملية الوعي واللاوعي تجاه الأشياء التي ننظر إليها. فإذا ظهر لدينا شيئان معًا في صورة أو في حدث ما فإن أبصارنا تستجيب لشيء واحد فقط مما نرى أو نفكر فيه، ويدخل هذا الشيء ضمن وعينا للأشياء التي نراها ونعيها، لكن ما مصير الشيء الثاني ؟ إنه يدخل إلى اللاوعي. وهذا ما يعنيه برنارد بأحداث المخ الواعية وغير الواعية.

مثال :

يحدث هذا بالفعل لنا، فلو نظرت إلى صورة لفنان مشهور أو فنانة أو شخص تحبه وفي الصورة بعض الأشخاص الآخرين، ثم أخذتُها منك وسألتُك، ماذا رأيت في الصورة؟ ستقول: رأيت الفنان أو الفنانة أو رأيتُ فلانًا أو فلانة. لو سألتُك: من كان في الصورة من المرافقين له ؟ تقول: لا أدري ربما بعض الأفراد. لماذا ؟ لأنك تعرضت لمنبهين في آن واحد في الصورة، أحدهما أقوى من الثاني؛ لهذا أدركت الأول وأهملت الثاني، فلم يدخل ضمن بؤرة الانتباه، ولا ضمن مخك الواعية، فذهب إلى اللاوعي أو مخك غير واعية.

(١) المرجع السابق:٢١٢
(٢) نفسه:٢١٢

لقد تحدث برنارد عما يحدث عندما نرى شيئين في لحظة واحدة إلى أيهما نركز انتباهنا وأيهما نضعه في بؤرة انتباهنا. لكن هناك حالة للعينين ترتبط بالإدراك؛ حيث تؤثر على حركة العينين بوصف الإدراك أساس الانتباه، وتعد حركة العين انعكاسًا لهذه الحيرة، لكن برنارد لم يتكلم عن تأثر العينين بالشيء المبهر لحظة الإدراك المفاجئ له.

إن الموقف ببساطة شديدة، عندما تسأل فلانًا سؤالًا غريبًا أو لا يذكره، فإذا نظرتَ إلي عينيه في هذه اللحظة ستراهما يدوران أو يتخشبان ويحدقان في أي اتجاه أو يركزان في النظر لك كأنه يتفحصك. والحقيقة العلمية غير ذلك، فكل ما حدث آنفًا بعيدًا عن الحقيقة. إن ما حدث هو شرود في مخ هذا الشخص، جعله ينفصل عن العالم للحظات قليلة يبحث في شبكته العصبية عن الرد المناسب، لهذا فهو لا يراك على الرغم من أنه ينظر إليك، فقد انفصل بمخه عن عالمنا وشرد في بحر شبكته العصبية، يبحث فيها عن الشيء المطلوب.

هنا يبدو لنا بوضوح تفسير ما يفعله هذا الشخص المحدق فينا. وكذلك نفهم عمل المخ في هذه اللحظة. فدوران العينين في هذه اللحظة يعد مؤشرًا لدى علماء الأعصاب عن عمليات تحدث في المخ وكأن هذا الشخص مبحر في عالمه الخاص.

لقد أشار القرآن الكريم إلى تأثير الدهشة والرعب والفزع على العينين وحركتهما في مواضع كثيرة؛ ليؤكد الحقيقة التي أثبتها العلم بعد أكثر من ألف واربعمائة عام، وهي ذهول العينين وزيغهما؛ نتيجة حالة الدهشة والرعب والفزع، وكذلك أثناء عملية التفكير العميق والتركيز، ونحن نرى هذا عندما يقوم بعض زملائنا بعملية تركيز شديدة، فنجده يحدق بعينيه، أويوجه نظره إلى مكان ما لينعزل بذهنه عما يحيط به؛ لقد سبقهم القرآن الكريم في الإشارة إلى تأثير الأحداث المفزعة على العينين في تلك المواقف، والتي أكدتها بحوث علم الأعصاب، وحددت مواضعها في المخ. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا في مواضع كثيرة منها: ﴿**وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ**﴾ [سورة إبراهيم:٤٢] **وقوله:** ﴿**أَاتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيّاً أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ**﴾ [سورة ص:٦٣][(١)].

---

(١) راجع تفسير الآيات في كتب التفسير لبيان معنى الكلمات: (تشخص وزاغت)

وقوله: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ﴾ [سورة الأحزاب: ١٠]، ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ٩٧].

تشير هذه الآيات إلى أن العين تتأثر بالأحداث المفزعة؛ فتزيغ وتشخص، هذا يعني أن العين في هذه اللحظة لم تعد تنظر إلى الأشياء، بل هي دالة ومشيرة إلى حالة الذهول والفزع بالأحدث أو بالتفكير العميق، يحدث هذا نتيجة ارتباط العينين بمراكز الإدراك بالمخ؛ لهذا نرى طبيب الأعصاب (عند فحصه لمريضه) يقول له: اغمض عينيك كي افحصك؛ إنه يحاول فصل مراكزه المخية عن عملية الإدراك الآتية من إبصاره الآن؛ لهذا يجب ألا يرى ما حوله، لارتباط البصر بمراكز المخ؛ مما يؤثر على نتيجة الفحص، ويجعل الصورة مشوشة لدى الطبيب.

ثانيًا: الانتباه :

الانتباه: توجيه النظر (ماديًا،ومعنويًا) تجاه شيء ما؛ لنفكر فيه ونتفاعل معه، فنذكره في كلامنا ونشير إليه أو نتوجه إليه في حركتنا. ولا يتأتى لنا هذا إلا إذا كان هناك شيء يشدنا إليه فنوجه اهتمامنا نحوه، وندخله في بؤرة انتباهنا، لهذا أولت التداولية **الانتباه** عناية خاصة، فهو ما يثيرنا نحو الشيء، ويكوّن لدينا الدافعية نحوه. يقول برنارد: "ينظر إلى الانتباه باعتباره يشير إلى قدرة على انتقاء المعلومات بهدف إجراء مزيد من المعالجات الذهنية. وربما يتشكل هذا الانتقاء في ضوء الانفعالات، أو الدافعية، أو البروز. ويخضع الانتباه على الأقل في جزء منه لعمليات ضبط تنفيذي"(١).

نعرض لأهم قضايا الانتباه. وهي:

١- أنواع الانتباه :

يقسم برنارد الانتباه إلى نوعين: إرادي وتلقائي، يقول: "لا يلاحظ مثل هذا الفصل بين الانتباه الإرادي والتلقائي في العالم الواقعي، فقد ندرب أنفسنا على توجيه انتباهنا إلى صوت رنين الهاتف. وعندما يصدر رنين الهاتف فجأة نوجه انتباهنا إليه، والسؤال الآن، هل توجيه الانتباه هذا تلقائي أم إرادي ؟، حسنًا، يبدأ الانتباه عادة

(١) المعرفة والمخ والوعي: مقدمة لعلم الأعصاب المعرفي:٤٩٢

بشكل إرادي ثم يتحول بعد ذلك إلى انتباه تلقائي. يعني هذا أن الفصل بين نوعي الانتباه قد يكون تعسفيًا، وقد يكون من الأجدى النظر إليهما باعتبارهما يمثلان متصلًا، حيث يقع الانتباه التلقائي عند أحد طرفيه، ويقع الانتباه الإرادي عند الطرف المقابل"(1).

لكن ما الذي يوجه انتباهنا نحو الشيء ؟ يقول: "يعنى هذا أن الانتقاء الانتباهي يعمل بشكل وثيق الصلة مع المكونات الأخرى لمخطط الإطار الوظيفي ... ودون أن تتوفر القدرة على الضبط المرن، والإرادة للوصول إلى المنبهات، لن تتمكن الكائنات البشرية من التعامل مع الحالات الطارئة غير المتوقعة، ولن نتمكن من مقاومة ميولنا التلقائية عندما تصبح بالية وبلا قيمة تذكر، ولن نتمكن كذلك من تغيير عاداتنا الانتباهية للاستفادة من فرص جديدة. من ناحية أخرى، دون وجود انتباه منبثق عن المنبه يتسم انتقاؤنا للأحداث الحرجة والجوهرية بالبطء. ويعني ذلك ببساطة أننا بحاجة شديدة لكلا نوعي الانتباه: الإرادي والتلقائي"(2).

٢- شبكة الانتباه :

ما الآلية التي يسير عليها الفرد عندما يرى شيئًا ما فيشد انتباهه نحوه ؟، هناك شبكة تسمى شبكة الانتباه تتجه نحو الشيء، وتنقله إلى بؤرة انتباهه على عدة مراحل يقول برنارد: "تعد شبكة الانتباه نسخة أكثر عمومية من مهمة التجاور، وتُستخدم لاختبار ثلاثة جوانب منفصلة للانتباه:

- الاحتراس قبل ظهور إشارة متوقعة (في ظل حالة التأهب لظهور منبه محدد)؛
- والتوجه لموقع محدد في الحيز (استخدام سهم للإشارة للمنبه القادم)؛
- والانتباه التنفيذي، القيام بعمل مناقض للتوقعات التي تفرضها المهمة.

وفي هذا الإطار التجريبي ينظر إلى الانتباه التنفيذي بوصفه يمثل الجانب المقابل للانتباه المضبوط التلقائي"(3).

إذا حاولنا التفكير في هذه المراحل سنجد أننا نفعلها أيضًا في حياتنا اليومية تلقائيًّا.

---

(١) المرجع السابق:٤٩١ــ ٤٩٢
(٢) نفسه:٤٩٢
(٣) المعرفة والمخ والوعي: مقدمة لعلم الأعصاب المعرفي:٤٨٤

٣- آلية عمل شبكة الانتباه :

إن آلية عمل هذه الشبكة تتم بصورة متتالية دون تقديم إحداها على الأخرى "تسمح مهمة شبكة الانتباه بحدوث كل مكون من مكونات الانتباه الثلاثة في وقت مختلف عن وقت حدوث المكونات الأخرى. وتتيح هذه المزية إمكانية تسجيل صور مخية للمكونات الثلاثة. وتخضع هذه المهمة لمعالجات تجريبية متنوعة، مما يوفر لنا إمكانية إحداث تغيير انتقائي في الاحتراس، أو التوجه، أو الانتباه التنفيذي"[(١)].

مثال :

"خذ مثالًا على ذلك حالة طالب يجلس في قاعة محاضرات في وقت يتوالى فيه صدور عدد متنوع من التنبيهات المتزامنة. قد يتمكن الطالب من الوصول إلى درجة احتراس مقبولة. وتوجه فعَّال نحو السيال الحسي المستهدف، وتوزع المصادر الانتباهية على المهام المتعلقة بمتابعة المحاضرة، وتدوين الملاحظات، وما شابه من مهام"[(٢)].

إن ما ذكره برنارد من شرح تفصيلي لعملية الانتباه وكيف تتم كافٍ لبيان آلية العملية. لكن ما يمكن أن نضيفه هنا هو ما يحدث للفرد عند توجيه انتباهه نحو الشيء، فهي عملية معقدة تدل على أن مجرد توجيه انتباهنا نحو الشيء ليست بالأمر الهين، إنما هي عملية تفاعل وتواصل تحدث بين الفرد وعالمه بكل مكوناته، وأن انتباهنا هو عقلُنا نوجهه نحو الشيء، وهو يحتاج إلى إثارة كبرى ليقوم بهذا التوجه نحو الشيء، فكثير من الأشياء تحدث حولنا ولا تملك القدرة على إثارة انتباهنا إليها، مما يعني أن الانتباه أساس التواصل بين الناس، وأن التواصل يتحقق وينبثق من الدماغ عن طريق إثارة الانتباه.

٤- التحكم في الانتباه وتوجيهه :

نستطيع أن نتحكم في انتباهنا بتوجيهه جهة أمر ما، وقد يكون هذا التوجيه نتيجة إثارة معينة آتية من الشيء نفسه تجعلنا نوجه انتباهنا نحوه. وقد يكون توجيه انتباهنا إلى هذا الشيء قد تم بصورة تلقائية؛ هذا لأننا تعودنا القيام بمسح مستمر للعالم المحيط بنا بصورة تلقائية دون إثارة من هذا العالم، وهي صفة متأصلة في البشر

---

(١) المعرفة والمخ والوعي: مقدمة لعلم الأعصاب المعرفي:٤٨٤

(٢) المعرفة والمخ والوعي: مقدمة لعلم الأعصاب المعرفي:٤٨٥

(النظر حولهم)، تكاد تكون داخلة ضمن تكوينهم الوراثي؛ لقد ورثوها عن أسلافهم في عصور سحيقة نتيجة توقعهم هجومًا مباغتًا من عدو (حيوان أو إنسان). لهذا يقومون بهذا المسح للعالم المحيط بهم بصورة تلقائية دون إرادة منهم للقيام بهذا المسح.

من هذا نستنتج أننا دائما في تفاعل مع العالم المحيط بنا بصورة تلقائية. وهو قمة التواصل التلقائي مع العالم؛ مما يعني تداولنا الدائم التلقائي معه، ومع كل ما فيه. لهذا فدراسة الانتباه بنوعيه التلقائي والإرادي هو من تمام عملنا في دراسة الجانب العصبي للتداولية. يقول برنارد: "يمكننا أيضًا تحديد الشيء الذي نعيه: سواء نستمر في قراءة هذا الكتاب، أو نتحول لمشاهدة التلفاز، أو التوقف عن التفكير في صديق، وهكذا. ويحدث انتقاء انتباهي تلقائي عندما تكون المنبهات كثيفة، أو متغيرة، أو حيوية أو ذات أهمية بالنسبة للشخص. إننا ننغمس دومًا في إجراء مسح للعالم من حولنا، حتى وإن لم نتعمد القيام بذلك، وغالبًا ما نلتقط الأحداث التي تمثل أهمية بالنسبة لنا بشكل تلقائي"(١).

هذا القول يعني أن إدراكنا لكثير من الأشياء في عالمنا تتم بالصدفة من خلال المسح التلقائي الذي نقوم به في كل لحظة كي نرى العالم لحظة بلحظة من خلال حركة العين. أما حركة العين المستمرة (تحريك رمش العين كل ١٥ ثانية) فهي عملية تجديد مستمر وسريع للصورة المتكونة في الشبكة البصرية، وذلك بمسح الصورة القديمة والتقاط الصورة الأحدث فورًا. بل إنها أصبحت مقياس زمني عند الناس قديمًا وحديثًا، ودليلًا على السرعة الفائقة، فنحن نقول: سأحضر لك في طرفة العين، وقد قال هذا لسليمان من عنده علم من الكتاب؛ مستخدمًا الحركة العينين دليلًا على السرعة، قال تعالى: ﴿**قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنْ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ**﴾ [سورة النمل: ٤٠].

٥- أثر الانتباه على البنية العصبية :

إن الانتباه هو الإدراك الذي يصل إلى مخ كل المخلوقات (القردة والبشر وغيرهم) كي يسلكوا سلوكًا عدائيًا أو غير عدائي بناءً على هذا الإدراك والانتباه.

(١) المعرفة والمخ والوعي: مقدمة لعلم الأعصاب المعرفي:٤٨١

حيث "يُظهر كل من البشر والقردة ارتفاعًا في استجابة العصبونات الوجهية البصرية ردا على مشاهدة الوجوه التهديدية، ويبدو أنها ذات أهمية من الناحية البيولوجية. ولهذا السبب ويرجح أن تجرى معالجة الوجوه التهديدية بطريقة تصاعدية مثلما نتوقع أن تتم معالجة صوت جرس التحذير بطريقة تصاعدية: لاحظ أن هذا الحرج يعيق تدفق الخبرات الأخرى"(١).

ونتيجة الشعور بالتهديد الذي يصل إلى عصبونات الفرد فإن هذا الشعور يصنع (وبطريقة بيولوجية) رد فعل عليه؛ وهو أن يعيق تدفق الخبرات السابقة، فيُصاب الفرد بشلل مؤقت يمنعه من التفكير السريع، أو أخذ رد فعل مناسب ضد هذا التهديد. إذن الانتباه له دور فعَّال وأساسي في اتخاذ القرار السريع تجاه الأشياء والأخطار، وأن الانتباه يترجم للفرد الحدث الذي أمامه ويفسره له، كي يتفاعل معه، وهذه العملية عملية عصبية تفسرها المراكز العصبية فور حدوثها، وتنقلها عبر أجهزة السمع والبصر والشم (الأجهزة الإدراكية) داخل المراكز الخاصة بها في الدماغ، والتابعة لكل حاسة لتفسرها، وتستجيب لها بناءً على هذا التفسير، وإليك هذا المثال التوضيحي، هذه القصة البسيطة التي توضح العلاقة بين التداولية والأجهز العصبية، وكيف نتفاعل معها:

مثال :

جلس عليٌ في داره وسط أولاده يحتسون الشاي في سعادة غامرة. وفجأة انطلق عليٌ نحو المطبخ، وجرى ولده الأكبر إلى الشارع، وقفز ولده الأصغر من نافذة الدار، وقام ولده الأوسط إلى الباب. كل هذا دون أن يتكلم أحد منهم ماذا حدث للعائلة ؟ لقد أدرك كل واحد منهم بحواسه الخاصة مثيرًا مختلفًا جعله يسلك سلوكًا مختلفًا، كرد فعل لما حدث له وأدركه هو وحده دون الآخرين، لهذا يتفاعل ويتواصل معه بناءً على هذا الإدراك.

فالإدراك أول خطوة إلى التواصل، والتواصل هو التداول، فنتداول أي: نتواصل، فلننظر: ماذا حدث لكل فرد من أفراد هذه العائلة ؟.

---

(١) المعرفة والمخ والوعي: مقدمة لعلم الأعصاب المعرفي:٤٨١

التفسير العصبي للحدث :

أ- الأب :

جرى إلى المطبخ؛ لأنه بحاسة الشم شم رائحة دخان آتية من المطبخ، فتوقع أن هناك نارًا، فأسرع إلى إخمادها دون أن يتكلم، ودون أن يفهم أحد لماذا فعل هذا.

لقد أدرك أن نارًا تحدث في المطبخ من خلال حاسة الشم ومركزها في الدماغ. فيصبح الدخان وسيلة إدراك لهذا الحدث، فتم التواصل مباشرة، وفي سرعة فائقة مع الحدث من خلال الدخان الذي وصل إليه، فتفاعل وتداول مع الحدث نتيجة هذه الإثارة. إذن حاسة الشم وسيلة إدراك وتنبيه تنطلق من الدماغ وتؤدي إلى تواصل الفرد وتفاعله مع الحدث الآني. إنها عملية تواصل تداولي تنطلق من الدماغ. ليحدث السلوك التالي نتيجة هذه الإثارة، وكرد فعل فوري لها فيسرع بلا كلام؛ لقد شُلَّ وتوقف مخه عن التفكير نظرًا لخطورة الحدث، فهو أكبر من أن يفكر في الكلام عنه.

لماذا ؟ لأن العصب السمبتاوي (هو عصب مسؤول عن أمن الفرد ينتفض عند الخطر الذي يتزل بالفرد فيدفعه بعيدًا عنه، دون ترك تفكير للفرد أو الرجوع إليه في قرار إبعاده الفوري عن الخطر) هذا العصب هو ما جعله ينتفض، ويسرع إلى المطبخ لإخماد النار، وهذا الأمر مماثل لما حدث لنبي الله موسى عند رؤية العصا تهتز كأنها جان، فكان رد فعله الفرار من المكان ليس لأنه خائف أو شعر بالخوف. ولكن تحت تأثير هذا العصب مما أوقف تفكيره وشله شللًا مؤقتًا وتصرف بدفع موسى بعيدًا عن هذا الخطر.

ب- الابن الأصغر :

أدرك بحاسة السمع صوت سيارة تصطدم في شارعهم فقفز من النافذة، فرأى أخاه قد صدمته السيارة، فحدث له ما حدث للأب، فأسرع لنجدته بلا تفكير أو كلام.

ج- الابن الأوسط :

أبصر بحاسة البصر عمه واقفًا بالباب، فقام مسرعًا ليدخله ويرحب به.

د- الابن الأكبر :

فهم من قفز أخيه من النافذة أن مصيبة قد حدثت، فأسرع للشارع ليرى ما حدث.

٦- الصورة المتداخلة (الكأس والوجهان) :

إن صورة الكأس والوجهين تمثل سيطرة الانتباه الأول أو قل الإدراك الأول لمحتوى الصورة على الفرد، فيراها كأسًا، ويراها الآخر وجهين. لقد كثر تفسير هذه الصورة (الشكل الذي يمكن أن يؤول بمزهرية أو وجهين) لدى علماء علم النفس والفلاسفة إلى أن جاء علم الأعصاب ليحلل هذه الصورة ويفسرها في إطار عملية الإدراك والانتباه وما تثيره من عصبونات في الدماغ تحدد حقيقة ما في الصورة.

فقد وجدنا لدى علماء الأعصاب تفسيرًا لها، يقوم على تحليل عملية الإدراك والانتباه. يقول برنارد: "في الشكل رقم (٨,١٤) يمكن للمنبه البصري في الصورة (أ) أن يُرى بوصفه شمعدانا، أو باعتباره وجهًا ينظر إلينا في الصورة (ب)، أو وجهين ينظران إلى بعضهما البعض في الصورة (ج)، ويعني هذا أن مدخلًا ماديًا واحدًا ينطوي على ثلاثة تفسيرات محتملة. وينطوي كل إدراك من إدراكات الشيء على تنظيم مختلف للشكل والأرضية. فإذا التقطت العصبونات الحساسة للشيء الشمعدان (الشيء الأول)، يمكنها في هذه الحالة دفع العصبونات الأخرى على التواقت معها وتثبيط الأشياء الأخرى.

وقد يؤدي اتحاد الخرائط المتواقتة التي تطلق الإشارة العصبية الأكبر إلى استبعاد تأثير الأشياء غير المنتقاة، أو التثبيط الفعَّال لها لاحقًا، نقدم دليلًا مباشرًا على تواقت نبض العصبونات الحساسة للملمح البصري باستخدام بيانات التسجيلات المخية"[1].

ما سبب هذا التداخل بين الأشكال الثلاثة التي في صورة واحدة ؟ وكيف نفسره؟ لو حاولت فهم هذا الحدث وتحليله بطريقة بسيطة لقلت: إنني أي شمعدانًا في الصورة (كتفسير خاص بي وقد يخالفني غيري)، فإذا سألتني لماذا اخترت هذا الشكل؟ أقول لك: إنه الشكل الذي رأيته في الصورة (وقولي صحيح) هو الانطباع الأول للصورة في دماغي. فقد أثار هذا الشكل عصبوناتي الحساسة فرأيته شمعدانًا، وقامت العصبونات الأخرى بمحو الأشكال الأخرى التي يمكن أن تخلق في ذهني من خلال تلك الصورة.

السؤال الآن: هل هناك علاقة بين هذا الاختيار وحقيقة الصورة ؟

---

(١) المعرفة والمخ والوعي: مقدمة لعلم الأعصاب المعرفي: ٤٤٦ــ ٤٤٧

الإجابة: لا، إنما هو عمل العصبونات التلقائي دون تدخل أو اختيار مني، فهذه العصبونات تعمل بصورة تلقائية لا دخل لنا في عملها فى كثير من الأحيان، خصوصًا عندما تُلْقي علينا أفكارًا غائبة عنا منذ سنين وسط الحديث مع الآخر أو أثناء الكلام الداخلي.

٧- الكلام الداخلي :

إنه يثبت شيئًا غريبًا غائبًا عنا، هو أن الإنسان يتداول مع نفسه كما يتداول مع غيره الأفكار والمشكلات، ويدير معها حوارا صامتا، فالكلام الداخلي حوار ذاتي يجريه الفرد مع نفسه، ويتداوله معها، ويتواصل معها به، مما يؤدي إلى نزوعه إلى سلوك ما نتيجة هذا التفكير والحوار الداخلي،فيفعل شيء ما تداوله ويتواصل معها به. والغريب أننا نتحاور مع أنفسنا ليل نهار؛ و لم ننتبه إلى أنها عملية تداولية عصبية تقوم على حوار وكلام داخلي قد يليه سلوك ما منا كنتيجة لهذا التداول والتحاور الذاتي.

الأشكال الأخرى في الصورة :

ما وضعية الأشكال الأخرى التي يمكن تأويلها في الصورة ؟، تقوم العصبونات الأخرى بتثبيط الأشكال المحتمل تأويلها في الصورة. فإذا نبهتني أنت، وقلتَ لي: بل في الصورة وجهان وليس مزهرية، فإنني أسرع بإعادة النظر إلى الصورة لأتأكد من قولك، فأجده صحيحًا، وهنا أدرك أن ما وصل إلى دماغي من تصور ورؤية للصورة يمكن أن يكون الشكل الثاني أو الثالث.

إذن ما سر هذا التداخل ؟ إنه الإدراك الأول للصورة والذي يمحو الاحتمالات الأخرى. قد أتى من الشكل الذي التقطته العصبونات الحساسة، فأثارت العصبونات الأخرى لتكمل هذا الشكل معها، وتثبط الأشكال الأخرى. فأنا أرى الشيء من أول انطباع ليصلني كتقرير عما بالصورة من عصبوناتي الحساسة إلى دماغي التي قامت باختياره وتكوينه من خطوط الصورة ورسمه والتقاطه، مما جعلني أعتقد بصدقه؛ لأنه تقرير جاءني عن طريق عصبوناتي الحساسة الخاصة بي، لذا لابد أن أعتقد بصحته.

هذا الأمر يحدث أيضًا في الرسالة الصوتية أثناء الحوار؛ فإن العصبونات الحساسة للسمع لديَّ توصل إلى مركز سمعي الرسالة الصوتية اللغوية وغير اللغوية على أنها صوت فلان، أوصوت قطار أو حيوان، والحقيقة أن هذا الصوت غير ذلك.

فهذا الصوت يشبههم فقط. فأسرع إلى الاستماع له مرة أخرى لأتأكد منه، وأنطلق في حواري مع الآخر مرة أخرى بصورة صحيحة بعد أن أتأكد من حقيقة الصوت. وأتواصل معه في إطار مبادئ التداولية الصحيحة التي تدعوني إلى الاستدلال الصحيح، ومما سبق ندرك مدى دور العصبونات الحساسة والانتباه الشديد في تحقيق التواصل التداولي الصحيح.

٨- التفسير العصبي للصورة المتداخلة :

يعرض برنارد تفسير الأمر من خلال التحليل العصبي له قائلا: "قد تقوم الإيقاعات المخيةبربط (توحيد) ملامح عديدة للمنبه البصري في شكل بصري واحد، ولقد صرنا على دراية بأن المخ يعالج ملامح المنبه البصري بشكل منفصل: الموقع، اللون، وتباينات الحواف، والتوجه، وفي نهاية المطاف هوية الشيء، وتتضمن (هوية الشيء) رؤية ما، مثل فنجان قهوة الجمع بين كل الملامح المنفصلة في شكل هوية (جشطالية) منفردة.

لهذا السبب يعتقد بأن تمثيل الشيء ينطوي على الربط بين العديد من الملامح البصرية، ويطلق على هذا الأمر في بعض الأحيان مشكلة الربط. وهذه المشكلة ذات صلة بقضية الوعي البصري، حيث إننا نميل للوعي بالأشياء والأحداث باعتبارها كلاً متكاملًا، وليس مجرد ملامح منفصلة"(١). إننا نكون في أدمغتنا صورة كلية (جشطالية) للشيء الذي نراه وما يستقرفي أدمغتنا عنه، وهذا يؤكد صنع العصبونات البصرية للصورة المختارة.

ثالثًا: الفرق بين الانتباه والوعي :

١- الفرق بينهما:

كثر الخلط بين الوعي والانتباه. لكن "نستطيع أن نفصل بين ظاهرتي الانتباه والوعي. وحينما نسعى لبحث الأحداث الواعية نقوم عادة بدراستها بشكل تجريبي في مقابل أحداث غير واعية مشابهة لها، ... في مقابل ذلك يُطلب من الأشخاص في تجارب الانتباه – عادة – انتقاء منبه محدد من بين بديلين أو أكثر من المنبهات وعلى

(١) المعرفة والمخ والوعي: مقدمة لعلم الأعصاب المعرفي: ٤٩١

هذا النحو ينصب الاهتمام في دراسة الانتباه على عملية انتقاء الخبرات القابلة للتقرير والوعي بها."[١] من هذا القول نتبين الفرق بين الوعي والانتباه، وهو:

الوعي: عندما نعود لخبراتنا ونبحث فيها عما نحتاجه في اللحظة الآنية، لنفيد منه فذلك هو الوعي، فهو دراسة بشكل تجريبي لخبراتنا السابقة. والتعامل بها في الحياة.

الانتباه: عندما ننتقي/ نختار منبهًا أو مثيرًا محددًا من بين المنبهات والمثيرات التي أمامنا، أو من بين بدائل متعددة يكون هذا هو الانتباه، فالانتباه عملية انتقاء أو اختيار من متعدد. نضعه في بؤرة اهتمامنا وانتباهنا كشعاع نسقطه على شيء ما فنراه دون غيره. يقول برنارد: "يوحي الفصل الشائع بين كل من الانتباه والوعي بوجود آليات ضبط تحدد دومًا ما يتم الوعي به وما لا يتم الوعي به. وثمة أدلة قوية تدعم هذا الاعتقاد"[٢].

إذن هناك آلية تعمل على الفصل بينهما (الانتباه والوعي) وتحدد ما يتم الوعي به من الأشياء، وما لا يتم الوعي به، وهي آلية يقوم بها المخ لتنبيهنا إلى ذلك.

٢- التأثير والتأثر بين الانتباه والوعي :

"هل الانتباه والوعي يمثلان وجهان لعملة واحدة ؟ في الواقع هذه قضية أخرى من القضايا التي لم تحسم إلى الآن. اتخذنا – سابقًا - موقفًا يوحي بأن الانتقاء الانتباهي يؤدي إلى أحداث واعية، وأن الخيرات الواعية بدورها يمكن لها أن تؤثر في الانتباه يوحي هذا بإمكانية الفصل بين الخبرات الواعية والانتقاء الانتباهي، لكنهما مع هذا يتفاعلان مع بعضهما البعض"[٣].

مثال :

"وتتمثل الاستعارة التقليدية في النظر إلى الأمر باعتباره يشبه تسليط بؤرة الضوء على نقطة ما فوق خشبة مسرح مظلم، حيث يستطيع المخرج توجيه الضوء نحو ممثل محدد ... وتتمثل نتيجة تسليط الضوء في استحضار أحد الأشخاص إلى خشبة المسرح وقياسًا على ذلك، تتمثل بؤرة الضوء فيمن يتم انتقاؤه من بين مجموع الممثلين على خشبة المسرح، ويشبه ذلك إلى حد بعيد ما يحدث عندما تجري عملية انتقاء انتباهي

---

(١) المعرفة والمخ والوعي: مقدمة لعلم الأعصاب المعرفي:٤١٨

(٢) المعرفة والمخ والوعي: مقدمة لعلم الأعصاب المعرفي:٤٤٧

(٣)المعرفة والمخ والوعي: مقدمة لعلم الأعصاب المعرفي:٤٩٦

لحدث ما من مجموعة من الأحداث المحتملة. ويتماثل الحدث الواعي في ظهور ممثل أو آخر على خشبة المسرح وتسليط بؤرة الضوء عليه، ووفقا لهذه الرؤية لا تتطابق محتويات الانتباه والوعي مع بعضها البعض لكنها تتفاعل على نحو مستمر"(١).

رابعًا: مناطق المخ المسؤولة عن الانتباه والوعي :

أ- مناطق الانتباه في المخ :

يجب تحديد موضع الانتباه في المخ، وذلك لمتابعة حدوث الإثارة لتلك المناطق ومعرفة أثر الأحداث الآنية على انتباه الفرد وسلوكه الانفعالي تجاه الشيء، مما يستتبع تأثير مباشر أو غير مباشر على تواصله مع الآخرين، وتداوله للحدث وتفاعله معه. كذلك يمكننا تصوير التغيرات المخية في مراكزها وأثناء حدوثها كرد فعل للحدث. يقول برنارد: "يوجد مناطق في المخ تدعم وظائف معرفية محددة مثل الإدراك الحسي، والذاكرة العاملة، واللغة، والذاكرة طويلة المدى، ويوجد جانبان للانتباه الإرادي في المخ، ويعتقد أن المناطق الجبهية والجدارية متضمنة في توجيه الانتباه الإرادي؛ وفي حالة الرؤية يعتقد أن المناطق المستهدفة تقع في مناطق القشرة المخية البصرية، بالتالي، هناك قضيتان تستحقان الاهتمام في أي نموذج للانتباه (أ) ضبط عمليات الانتقاء، و(ب) خصائص الهدف الذي يُلتفت إليه ... الافتراضات المقترحة حول الارتباطات المخية للانتباه الإرادي لموقع مكاني أو لمنبه بصري"(٢).

ويقول في موضع آخر: "وتقع المناطق المخية المرتبطة بالاحتراس في المنطقة الجبهية اليمنى والمنطقة الجدارية. ولا يقتصر الأمر على هاتين المنطقتين. ولعلك لاحظت أن الاحتراس يتطلب أيضًا حالة يقظة واعية، وترتبط هذه الحالة بجذع المخ، والمهاد، والقشرة المخية، وتقع المناطق المخية المتصلة بالتوجه في التقاطع الجداري الصدغي الأيمن وفي التلفيف الجبهي السفلي (المقابل لمنطقة بروكا في النصف المختص باللغة)، أخيرًا يرتبط الضبط الإرادي للانتباه بالقشرة الحزامية الأمامية والقشرة قبل الجبهية الجانبية، والنواة، وسادة المهاد، والأكيمة العلوية"(٣).

ب- المناطق المرتبطة بالوعي في المخ ووظيفتها:

١ـــ المنطقة الجبهية اليمنى والمنطقة الجدارية: المنطقة المرتبطة بوظيفة الاحتراس.

(١) المرجع السابق:٤٩٦
(٢) نفسه:٤٩٢
(٣) المعرفة والمخ والوعي: مقدمة لعلم الأعصاب المعرفي:٤٨٥

٢ــ جذع المخ والمهاد والقشرة المخية: مرتبطة بحالة اليقظة الواعية.

٣ــ التقاطع الجداري الصدغي الأيمن والتلفيف الجبهية السفلى (المقابل لمنطقة بروكا في النصف المختص باللغة) : يرتبط بالتوجه.

٤ــ القشرة الحزامية الأمامية والقشرة قبل الجبهية الجانبية والنواة وسادة المهاد والأكيمة العلوية: يرتبط بالضبط الإرادي للانتباه.

والملاحظة التي يجب أن ننتبه إليها من هذا التحديد لمواضع الانتباه والوعي في المخ (كما ذكرها برنارد) تتركز غالبًا في النصف الأيمن من المخ، لأنه المسؤول عن هذه الأمور (الوعي والانتباه واللاوعي). وهذا يؤكد ما ذكره أوبلر من وصف النصف الأيمن من المخ بأنه المسؤول عن العملية التداولية، فحددها - كما رأينا - برنارد كما حددها أوبلر كمواقع مخيةمسؤولة عن ذلك، وكذا الوظيفة التي يقوم بها.

ت- التداخل بين موقع الانتباه والوعي بالمخ :

يشير برنارد إلى أن مناطق الوعي والانتباه بالمخ لم يتم تحديدها بدقة، فهناك تداخل بينها يقول برنارد "ليس من المعروف إلى الآن ما إذا كانت مناطق القشرة المخية الجدارية الجبهية ذاتها متضمنة في كل من الانتباه والوعي على حد سواء أو لا، لكن فيما يبدو يوجد نوع من التداخل بينهما.

وعندما تصبح المعلومات الحسية المنتقاة واعية، تجري عملية تنشيط لبعض المواضع الجدارية الجبهية التي سبق وأن انتقت هذه المعلومات للمرة الأولى، مما يسهم في إنشاء حلقة عائد ذاتي الاستدامة لبعض من الوقت"(١).

(١) المعرفة والمخ والوعي: مقدمة لعلم الأعصاب المعرفي:٤٩٧

الفصل الثامن
الوعي وحل المشكلات
(كيفية حل المشكلات من المنظور التداولي والعصبي)

يقوم الوعي بدور أساسي في حل المشكلات التي يتعرض لها الفرد في حياته اليومية، فنحن نحيا في عالم مليء بالمشكلات التي نعيشها في كل يوم، وعلى الرغم من هذا فإننا نتعايش معها محاولين حلها. وذلك من خلال عمليات عقلية تداولية تواصلية نتواصل فيها مع الآخر لحلها، بواسطة هذه العمليات العقلية، حيث يقوم المخ بمراكزه المختلفة معًا بحلها، وتثار مراكز ومناطق فيه للقيام بهذا العمل. وقد تناول قضية حل المشكلات كل من علماء التداولية، وعلى رأسهم جون سيرل، وكذا علماء الأعصاب؛ لهذا سنتناول هذه القضية من المنظورين التداولي والعصبي.

المحور الأول: المنظور التداولي (جون سيرل نموذجًا) :

إن حل أي مشكلة يقوم على أساس عمل الوعي في الربط بين عناصرها للوصول إلى حل لها. ويكون دور الوعي هنا استحضار عناصر المشكلة في الدماغ ليتولى حلها. فوعي المرء هو مجموع المعارف التي يملكها داخل دماغه، والحلول السابقة لمثل هذه المشكلة. لكن سيرل يرفض هذا الرأي، لأنه يرى الوعي ليس أجزاءً مفككة يقوم المخ بجمعها معًا كما لو كانت أجزاء سيارة؛ لهذا يرى أنه لا يوجد سبب لافتراض أن وحدة الوعي هي مسألة عناصر مترابطة، يقول سيرل: "لقد تحدثت كما لو أن مجموع وعي المرء، عند أي نقطة معينة، هو جمع الأجزاء الصغيرة المتنوعة داخله. وهذه الطريقة في التفكير، حيث نفكر في المجموع كما لو كان مركبًا من عناصر مفيدة وطبيعية بالنسبة لنا في معالجة المشكلات الأخرى التي لا ندرك لها نطاقًا ملائمًا حيث يكون الوعي معنيًا، إذا فكرت في الوعي، مثل حقلك الواعي الحالي، على أنه جمع عناصر منوعة ... فإنك تواجه مجموعة من المشكلات الخطيرة والمشهورة إلى حد بعيد أنك تواجه المشكلة ... التي مؤداها، كيف يستطيع المخ أن يربط كل هذه العناصر المنوعة معًا في خبرة واعية موحدة، هذه المشكلة المعروفة في بيولوجيا الأعصاب على أنها مشكلة الربط، نوقشت في غالب الأمر فيما يتعلق بالرؤية.

كيف يربط الجهاز العصبي – الذي خصصت عناصره للون والخط والزاوية وهلم جرا – كل هذه المدخلات المنفصلة في خبرة بصرية موحدة لشيء مثل المنضدة التي أمامي ؟، ولكن المشكلة عامة إلى حد بعيد تعود إلى كانط الذي أدرك بصورة صحيحة أنها مشكلة للوعي بصفة عامة، وبالفعل أعطى كانط الظاهرة اسمًا غير جذاب، وهو الوحدة المتعالية للوعي الاستبطاني. ولكن في المناقشات الحالية لمشكلة الربط ربما نفكر في الوعي بطريقة خاطئة، ولا يوجد سبب جيد لافتراض أن وحدة الوعي هي مسألة عناصر مترابطة، وأن الوعي يتألف مثل السيارة أو المترل من مجموعة عناصر منفصلة"(١).

١– مثال لتصور سيرل للحل :

يرفض سيرل فكرة أن يكون الوعي مجموعة عناصر مفككة نلجأ إليه لحل المشكلة. ويبدأ في طرح تصوره عن كيفية حل المشكلات رافضًا نظرية الربط (ربط العناصر المختلفة المفككة من الوعي)، فيسأل هذه الأسئلة: ماذا يحدث عندما أستيقظ من نومي ؟ ما مدى وعيي بالمكان الذي أنا فيه ؟ كيف أستعيد إدراكي بما حولي ؟ كيف أبدأ في تنظيم أمور حياتي ؟ وأفكر في أمر كان يشغلني قبل النوم ؟ ثم يجيب عن هذه الأسئلة قائلا: "ودعنا نجرب طريقة مختلفة. بدلا من أن أبدأ بحالتي الحالية من الوعي النشيط المدرك تمامًا، تخيل أنني أستيقظ بالتدريج في حجرة مظلمة لا صوت فيها، ولنفترض أنني أصل شيئًا فشيئًا إلى حالة أكون فيها يقظًا تمام اليقظة، ولكنني لا أملك خبرات حسية كائنة ما تكون، والحجرة مظلمة تمامًا، ولا يوجد فيها صوت، ولا أتذوق أي شيء أو أشمه، وأستطيع أن أركز – إذا ركزت انتباهي – على وزن جسمي مقابل السرير، والتقبل الذاتي لأجزاء جسمي المتنوعة، ولكن على جانب من ذلك، يتوقف وعيي على مجال واع مشغول فقط بسلسلة من أفكاري الواعية، والآن بالنسبة لهذا الوعي لا تبدو هناك مشكلة ربط بنفس الطريقة تماما التي وجدت بها من قبل، وأفكر في وعيي على أنه يأتي حقلًا فارغًا، ولا يوجد أي سؤال حول ربط عناصر متنوعة معًا، إنه يأتي مرتبطًا بالفعل؛ إذ الربط يكون من أجل التحرر.

(١) العقل واللغة والمجتمع الفلسفة في العالم الواقعي:١١٨

والآن عندما أستيقظ وأبدأ في التحرك هنا وهناك، وأشعل الأنوار، والراديو وهلم جرا، فمن المغري التفكير في أن فوق هذا الحقل تبدأ الخبرات المتنوعة في الظهور"(١).

٢- الاستعارة وفهم عملية الربط :

لقد أراد سيرل أن يوضح فكرته بصورة أبسط؛ وذلك من خلال هذه الاستعارة، حيث استعار خشبة المسرح ووضع عليها قزما مُعْتَبِرًا إياه مَن يدير عملية الفهم والوعي في رأسي، أي: أن هناك داخل مخ كل فرد منا قزم صغير هو من يتولى إدارة شؤون حياتنا والتفكير في كل أمورنا، هذا التصور ذكره من قبله غي تيبرغيان في قاموسه المسمى قاموس العلوم المعرفية،حيث تصور أن من بين الخلايا العصبية في كل مركز من مراكز المخ، ومن بين عصبونات هذا المركز توجد خلية عصبية هي الخلية القائدة التي تتولى عمليات التفكير واتخاذ القرار في الأمور التي تعالجها بالمخ.

يقول غي: "واستعارة المسرح التي يظهر عليها الممثلون المنوعون بوصفها عناصر الوعي، ولكني، مرة أخرى، أظن أنه ليست هذه هي الطريقة الصحيحة تماما للتفكير في الوعـــي بداية لا مفر من الوقوع في مغالطة القزم - مغالطة افترض أن جميع خبراتي يمتلكها شخص قزم في رأسي - إذا فكرنا في وعينا على أنه خشبة مسرح تظهر عليها الخبرات المتنوعة؛ لأنه من ذا الذي سيدرك الممثلين على خشبة المسرح غير القزم ؟"(٢).

ويشير غي تبرغيان إلى فرضية المسرح هذه قائلا: "**نظريات الوعي**: الفرضيات التي نصادفها بالعادة حول الوعي هي: ... **فرضية المسرح:** يُنظر إلى الوعي هنا على أنه المكان الذي تقدم فيه النتائج الناجمة عن المعالجات الصادرة عن حواسنا (انظر: أفلاطون وكهفه، أو المسرح الديكارتي للوعي الذي يفترض وجود مكان بالدماغ تتجمع فيه المعلومات لتصبح واعية"(٣)، هذا ما يسمى حديثًا بالفضاء الذهني. وهو مكان افتراضي في الدماغ، يتم بناء الأفكار والتصورات، وكل ما يغيب عنا في هذا المكان، ثم نستدعيه من هذا المكان (الفضاء الذهني) لنتكلم عنه، كذا عندما نصفه يظهر بصورة واضحة في (الفضاء الذهني) الذي نسميه الآن بمسرح الوعي الذي نضع

(١) العقل واللغة والمجتمع الفلسفة في العالم الواقعي:١١٨ ــ ١١٩
(٢) العقل واللغة والمجتمع الفلسفة في العالم الواقعي:١١٩
(٣) قاموس العلوم المعرفية:١٥٤

عليه أفكارنا في شكل أشخاص نخاطبهم ونحاورهم في كلامنا الداخلي كفرد يفهم ويتكلم ويتحاور معنا.

٣- المشكلة والحل :

يطرح سيرل تصوره عن كيفية حل المشكلات، فقد شبه الوعي بوادٍ لا زرع فيه، أي أننا لو افترضنا أن الوعي صفحة بيضاء فإن التغييرات في حالات الوعي لدينا تشبه نتوءات وروابي، كأننا وضعنا زرعًا وتلالًا في هذا الوادي، إننا عندما نفكر في مشكلة ما كأننا نزرع أو نضع تلالًا في هذا الوادي وأن شلالًا من الماء يتدفق في هذا الوادي، والمقصود بالشلال هنا كم المعلومات التي ترد على الدماغ عند التفكير في مشكلة ما في شكل شلال من المعلومات المتدفقة في انسيابية لا نتمكن في أحيان كثيرة أن نجمعها معًا وننسقها، لأنها تتدفق على الدماغ بشكل كثيف ومتسارع. فأقول: دعني أرتب أفكاري.

وفي ضوء هذا الفهم لا توجد مشكلة الربط التي نسأل فيها عن دور المخ في الربط بين عناصر الوعي المختلفة حول المشكلة لحلها؛ لأن المعلومات تأتي إلى المخ متتابعة ومتدفقة مترابطة معًا، وهذا يرجع لعمل الشبكات العصبية التي دُوِّنَ عليها هذا الكم من المعلومات من قبل؛ فتقوم الشبكات بضخ المعلومات التي لديها داخل الخلية العصبية، وتقوم الخلية بمعالجتها وترتيبها، وتقديم الحل للمخ في سرعة فائقة، بمعاونة خلايا مجاورة.

"إذا فكرنا في وعيي على أنه يشبه نجد أجرد مفتوح، فإن التغييرات في حالاتي الواعية سوف تشبه إلى حد بعيد النتوءات والروابي التي تظهر على النجد. وأظن أن التغييرات والتحولات في بنية المجال هي الاستعارات الصحيحة لفهم تدفق خبراتنا الواعية. والآن إذا فكرنا في الوعي بهذه الطريقة على أنه حقل واسع. وفكرنا في المدركات الحسية، والأفكار، والخبرات وهلم جرا) على أنها تغييرات وتعديلات في بنية الحقل فإننا لا نعاني من مشكلة الربط التي عانينا منها من قبل. ولا يوجد أي سؤال كيف يكون الوعي موحدًا. إنه موحد منذ البداية بحكم التعريف. ولا شيء يكون واعيا إذا لم يكن جزءًا من حقل موحد للوعي. وبالتالي لا يوجد سؤالان: كيف يسبب المخ الوعي، وكيف يكون الوعي موحدًا ؟، وإنما يوجد سؤال واحد

فقط. والجواب عن السؤال كيف يسبب المخ الوعي. هو بالفعل جواب عن السؤال كيف ينتج المخ وعيًا موحدًا؟. ولا نزال نواجه مشكلة الربط بالنسبة لأشكال معينة من الإدراك الحسي. كيف تتماسك المدخلات الحسية المختلفة المنوعة بوصفها خبرة بشيء محدد ؟ ولكن لا توجد أية مشكلة بناء شاملة بالنسبة لبنية الوعي بصفة عامة؛ لأن الوعي يأتي إلينا موحدًا بمقتضى التعريف"(١).

٤- سبب رفض سيرل لنظرية ربط العناصر :

يرفض سيرل نظرية ربط العناصر المكونة للوعي لحل للمشكلات، يقول: "لا يمكن أن نتصور أن حالاتي الواعية لابد أن تأتي إلى وصفها سلسلة متزامنة من أجزاء منفصلة؛ لأنه إذا كانت جميع الأجزاء جانبًا من إدراكي الواعي في وقت واحد فسوف تكون كلها جانبًا من حقل واعٍ وحيد. ومن ناحية أخرى، إذا فكرنا على سبيل المثال، في سبعة عشر وعيًا منفصلًا، وليس وعيًا واحدًا بسبعة عشر عنصرًا، والنتيجة التي أخلص إليها إذن هي أن استعارة الحقل لوصف بنية الوعي أفضل من استعارة جمع الأجزاء الصغيرة معًا التي تعمل بصورة جيدة تمامًا في مجالات أخرى من التحليل العلمي والفلسفيّ"(٢)، إن نظرية الحقل التي ذكرها سيرل هي تصور مختلف، لكن لا يعني هذا أنه التصور الوحيد لبيان كيفية حل المشكلات، ويجب أن نسمع لآراء أخرى.

المحور الثاني: حل المشكلات من المنظور العصبي :

تصور برنارد لعمل المخ في حل المشكلات:

يرى برنارد أن حل المشكلات يرتبط بالوعي واللاوعي والانتباه. فكلهم له دور كبير في حل المشكلات. وأن هناك بؤرة الانتباه التي يضع فيها الفرد ما يريد أن يفكر فيه، وهنا تنطلق عملية التفكير وحل المشكلات. يقول برنارد: "إن أي مشكلة نحاول حلها خلال حياتنا اليومية تفرض متطلبات على انتباهنا البؤري - ما نعي بوجوده - وكذلك على سعة الذاكرة المباشرة لدينا، وتفرض علينا أيضًا التحكم فيما نريد أن ننتبه إليه"(٣).

---

(١) العقل واللغة والمجتمع الفلسفة في العالم الواقعي:١١٩

(٢) المرجع السابق:١١٩

(٣) المعرفة والمخ والوعي: مقدمة لعلم الأعصاب المعرفي: ٦٢٠

هذا يعني أن بؤرة الانتباه هي موضع في الدماغ نتصور وجوده (كالفضاء الذهني) لكنه يرتبط بعملية التفكير الواعي حيث نضع فيه كل شيء نفكر فيه، لهذا فهو يدخل ضمن العمليات التداولية؛ فالحور الذي نجريه مع الآخرين يقوم على مدى التركيز والانتباه إليهم. وذلك بوضعهم في بؤرة الانتباه، وكذلك سعة الذاكرة، وقدرتنا على التحكم فيما نريد أن ننتبه إليه لندخله في حوارنا التواصلي/ التداولي.

١- برنارد يعرض رأي نيلسون كوان :

يعرض برنارد لرأي نيلسون من خلال حديثه عن تصور نيلسون لحل المشكلات يقول: "يرى نيلسون كوان أنه من الممكن النظر إلى الذاكرة المباشرة باعتبارها تمثل الأجزاء النشطة للمخازن طويلة المدى. وعلى سبيل المثال، يؤدي تكرارك للكلمات إلى تنشيط معارفك اللغوية المخزنة في الذاكرة طويلة المدى، وما تشتمل عليه من مفردات. ومن المثير للاهتمام أن عقد روابط جديدة بين عناصر معروفة يفرض استحضار هذه العناصر مجتمعة في بؤرة الانتباه حتى يتم ترميزها في الذاكرة طويلة المدى. وثمة أهمية للنظر إلى الذاكرة المباشرة وبؤرة الانتباه، والتسميع الهمسي، وجوانب الذاكرة العاملة الأخرى باعتبارهم يمثلون الجوانب النشطة للمعرفة، وبالتالي، قد تُستعار عناصر الذاكرة العاملة مؤقتًا من الذاكرة طويلة المدى، وقد يستفيد الكلام الداخلي من إمكانات الكلام الخارجي المتاحة للمخ البشري"(١).

إن الذاكرة طويلة المدى والعاملة كل منهما يعين على استحضار العناصر التي نفكر فيها، وندخلها ضمن حوارنا وكلامنا الداخلي والخارجي"، لم تزل هناك الكثير من الأسئلة التي لم نحصل لها على إجابات حاسمة، فقد اقترح كل من أربيروير وبيالكونا وجود بؤرة واعية للانتباه يتم فيها الاحتفاظ ببند واحد فقط، علاوة على هامش يتم فيه الاحتفاظ بما يتراوح ما بين ٣ إلى ٥ بنود، ولا يوجد خلاف على محدودية السعة بالنسبة للأرقام"(٢).

فالمخ البشري قدرته كبيرة، فلديه قدرة على جمع عناصر كثيرة داخلها في آن واحد والتفاعل معها، هذا الأمر أكبر من قدرة العقل الصناعي (الحاسوب) لماذا ؟ لأن

(١) المعرفة والمخ والوعي: مقدمة لعلم الأعصاب المعرفي:٦٢١

(٢) المرجع السابق: ٦٢٣

الإنسان يملك حواس لا تملكها الحاسوب مثل: (الشم والتذوق واللمس والتفكير الآني في الموقف المفاجئ ..) يستعين بها في التفاعل مع الكون، كل هذه القدرات تعمل في آن واحد ولحظة واحدة معًا؛ مما يجعل الدماغ تملك قدرات لا يملكها الحاسوب، إننا لم نر حاسوبًا يشم أو يلمس أو يتذوق، وتتفاعل هذه الحواس داخلنا في حوارنا الآني لحل مشكلاتنا.

مثال :

الغلام الذي يقول لأمه: أنا أشم رائحة دجاج مشوي، هل هو ضمن غداء اليوم؟، وينظر في غرفة الطعام، فيقول: نعم، ولكنه لم ينضج بعد (حاسة الشم والتذوق) إننا نسأل هل من بين حواسيبنا من يفعل هذا ؟ إن دماغ البشر ذات قدرة على التفاعل مع العالم المحيط والكون، فيحدث تداولنا معنا من خلال هذه الحواس التي تفوق الحواسيب.

أما قضية الأرقام فإن الإنسان لا يحفظ منها في الذاكرة أكثر من سبعة بنود؛ لأن هذا الأمرتتصل بقدرة أخرى هي القدرة التخزينية. وهي تختلف عن القدرة على الإبداع. فالدماغ البشرية ذات سعة تخزينية محددة، فهي كأي مخزن في عالمنا مهما كبر محدود السعة. وسعة ذاكرة الدماغ البشري لا تخزن أكثر من سبعة بنود، فهي من هذا الجانب ذات قدرة محدودة مقارنة بقدرة الحاسوب التخزينية. أما القدرة الإبداعية فهي الطاقة المتولدة داخل الدماغ، تعمل طوال لحظات اليقظة. لهذا فهي غير محدودة، إنها تعمل وتنتج أفكارًا بلا حدود، ونحن مهما طورنا في علمنا لا نستطيع أن نصنع جهازًا يفكر بهذه الصورة وقد فشلت محاولة تورينغ في صنع آلة تقوم بهذا العمل؛ فتحدد أفكارنا والآراء المتوقعة منّا ومن كل فرد يتكلم معنا، وإن كنَّا نجتهد في سبيل هذا باستعمال أدمغتنا أيضًا في معرفة السلوك المتوقع من الآخر. نحن نحاول أن نعرف ونتوقع ما سيصدر من أدمغة الآخرين من سلوكهم وأقوالهم وأفكارهم، وقد نُصيْبُ أو نخطئ في هذا التوقع، فهو ليس صائبًا في كل الحالات.

٢- مصاعب حل المشكلات :

يذكر برنارد أن هناك مصاعب تواجه الدماغ عند حل المشكلات منها: "إن محدودية السعة وما يرتبط به من مختنقات في نسق معالجات المعلومات تعرقل التدفق

الذهني للمعلومات لها مترتبات عميقة على كل من التعلم وحل المشكلات. وثمة فروق فردية بين البشر في قدرتهم على توجيه الانتباه وضبطه لتجنب التشتت، ولمواصلة الإمساك بخيوط مهمة صعبة. وترتبط هذه الفروق بالخصائص المعرفية للأشخاص، مثل مستوى الذكاء، والمثابرة، وزمن الرجع، وتتطور هذه القدرات على نحو يمكن التنبؤ به عبر المسار النمائي للشخص"[١]. إن محدودية سعة الذاكرة لدى بعض الأفراد تعرقل وصول المعلومات من مخازنها بالذاكرة إلى موضع التفكير، نتيجة للفروق الفردية بينهم.

٣- الاستدلال :

يعد الاستدلال من خصائص التداولية التي يسعى المتحاورون إلى الوصول إليها كنتائج لحوارهم، وقد ذكرها جاك موشلار كأحد أهم مبادئ التداولية. حيث نسعى من خلال حوارنا التداولي إلى الوصول بالاستدلال إلى تقديم حلول للمشكلاتالراهنة. يقول جاك موشلار "يعد منوال غرايس منوالًا استدلاليًّا مقيدًا بقواعد المحادثة (أو صادرًا عنها)، ولقد عرفنا على نحو شكلي الاستدلال باعتباره عملية منطقية تنطلق من عدد معين من المعلومات المعروفة (المقدمات المنطقية) لتتولد منها نتيجة أو نتائج جديدة. تمتاز هذه العمليات المنطقية بأنه إذا كانت المعلومات التي تنطلق منها العمليات أي المقدمات صادقة، فإن النتيجة أو النتائج التي يتم استخلاصها منه تكون صادقة أيضًا. لهذا لا تستعمل العمليات المنطقية أنساقًا للاستدلال صحيحة، أي أنساقًا للاستدلال تكون خاصيتها على وجه الدقة المحافظة على (أو التعميم) الصدق أو الكذب انطلاقًا من المقدمات وصولًا إلى النتيجة"[٢].

عرضنا كلام جاك موشلار ومنوال غرايس لنبين أن الاستدلال عملية منطقية ترتبط بالتداولية، بل إنها من أهم أهدافها، وهو الوصول إلى نتائج بالاستدلال. هذا من الجانب الفلسفي المنطقي، فهم يتحدثون عن الصدق والكذب وهما من قضايا المنطق. لكن علماء الأعصاب يتحدثون عن القضية من الجانب العصبي، فيشيرون إلى مناطق المخ القائمة بهذا العمل، وكيف تتم عملية الاستدلال من الناحية العصبية،

(١) المعرفة والمخ والوعي: مقدمة لعلم الأعصاب المعرفي: ٦٢٤

(٢) التداولية اليوم علم جديد في التواصل: ٦٢

يقول برنارد: "اقترح هالفورد وكوان وأندروز وجود علاقة خاصة بين الذاكرة العاملة والاستدلال، مثلما هو الأمر في حل المشكلات (أحجية الفرسان والأشرار) حيث تحل هذه النوعية من الألغاز بعملية مزاوجة بين مختلف العناصر، وتعزى محدودية السعة عند أداء مهام الذاكرة العاملة، والاستدلال إلى عدد الروابط والثغرات التي ينبغي الاحتفاظ بها في أي نسق متآزر من العلاقات. ويبلغ الحد الأقصى للذاكرة العاملة ما يقرب من ٤ بنود يمكن الاحتفاظ بها نشطة، في حين أن السعة المتعلقة بتمثيلات الاستدلال تقتصر على أربعة تغيرات مترابطة"(١).

إنه يشير هنا إلى كيفية القيام بعملية الاستدلال التي تتم في الدماغ، وقدرة الدماغ على التفاعل مع عدد محدود من البنود، أي العناصر التي يستحضرها الفرد في حواره مع غيره، مما يحفظ في ذاكرته. يضعها في بؤرة انتباهه، ويتحاور ويجادل حولها، وتلك قضية ضرورية لفهم العمليات التداولية، لأنها تبين مدى قدرة الفرد على الحوار وحل المشاكل.

٤- أقسام حل المشكلات :

يقسم برنارد طريقة حل المشكلات على قسمين؛ ضمني وصريح :

أ) **الحل الصريح :**

الحل الصريح له أهداف واعية، حيث ينطلق من إدراك واع لأبعاد المشكلة التي يبحث لها عن حل، وهو يحشد مناطق القشرة المخية لتحقيق أهدافه الصريحة والتفكير فيها. يقول برنارد: "حل المشكلات يظهر لدى البشر في شكلين : الصريح والضمني. ويختلف هذان الشكلان عن بعضهما اختلافًا واضحًا، وتجدر الإشارة إلى أن التفكير الصريح له أهداف واعية وواضحة وأهداف فرعية، وكذلك خطوات محددة للانطلاق من نقطة معينة وصولًا إلى نقطة النهاية ... ويتضمن التفكير الصريح قدرًا كبيرًا من الضبط التنفيذي، وعبئًا ذهنيًّا أعلى، ووصولًا واعيًا متكررًا، وحشد أكبر للمناطق القشرية لتحقيق الأهداف الصريحة"(٢).

"وصف كل من أنتيرانر وأوين المحددات الرئيسة لحل المشكلات الصريحة على النحو التالي: يحتاج المرء في البداية لتكوين تمثيلات ذهنية، تشمل كلا من الحالة

(١) المعرفة والمخ والوعي: مقدمة لعلم الأعصاب المعرفي: ٦٢٤

(٢) المرجع السابق: ٦١٩

الراهنة وحالة الهدف. علاوة على ذلك ينبغي عقد صلة بين هذه التمثيلات، تقوم على تحديد الإجراءات اللازمة للانتقال من الحالة الراهنة إلى حالة الهدف؛ ومن ثم تنطوي أي مشكلة نتعرض لها على ثلاثة جوانب رئيسة، هي:

١) حالة الاستهلالية: وتلك هي الحالة التي تقوم فيها حلال المشكلات بتصنيف المعطيات المقدمة له؛

٢) حالة الهدف، وهي حالة الحل التي يسعى حلَّالُ المشكلات للوصول إليها؛

٣) الخطوات التي يقوم بها حلال المشكلات للوصول إلى حالة الهدف، وتلك الخطوات لاتظهر بشكل واضح في الحالة الاستهلالية"[(١)].

كيف يتم حل المشكلات الواقعية ؟:

"يُنظر إلى حل المشكلات باعتباره العثور على مسار للحل في ظل وجود عدد من الاختيارات الرئيسة المحتملة التي تتوسط بين الهدف النهائي الذي يسعى المرء للوصول إليه... الأحجية المستخدمة في دراسة حل المشكلات، مثل مشكلات برج هانوي ليست من مشكلات الحياة الواقعية. والمشكلات الواقعية التي يتصدى لها البشر في حياتهم اليومية قد تتمثل في كيفية السفر من مكان إلى آخر عبر أراضي وعرة وخطيرة أو كيفية العثور على الغذاء والمأوى أو كيفية حماية الأطفال، وأعضاء الجماعة من المخاطر أو كيفية الاحتفاظ بالعلاقات، أو كيفية الانتصار في مواقف الصراع. ويصعب تحديد مشكلات الحياة الواقعية تحديدًا دقيقًا ... في الواقع، يندر وجود وصف كامل لحيز مشكلة من مشكلات الحياة الواقعة"[(٢)].

ب) الحل الضمني :

"يعتقد أن الحل الضمني للمشكلات قد يكون الأكثر شيوعًا، استنادًا إلى أن التعلم عملية مستمرة ودائمة، وأننا نتمرس على أداء أنواع عدة من المهارات منذ مرحلة مبكرة من حياتنا؛ لذلك يُلاحظ أن مهاراتنا في حل المشكلات تصبح أكثر كفاءة، وتحدث بشكل ضمني (غير واعية) وتلقائي مع الممارسة... ويتطلب حل المشكلات الضمنية درجة من الضبط التنفيذي أقل مما يتطلبه حل المشكلات الصريح،

---

(١) المعرفة والمخ والوعي: مقدمة لعلم الأعصاب المعرفي: ٦٣٢

(٢) المرجع السابق: ٦٣٣ــ ٦٣٤

وكذلك وصولا واعيا أقل، وعبئًا معرفيًّا أقل، وتضمينًا قشريًّا أقل. من ناحية أخرى يعتمد حل المشكلات الضمنية بدرجة أكبر على الذاكرة طويلة المدى، والروتينيات المتقنة"[١].

ويقول في موضع آخر: "إن إكمال المتواليات المتوقعة يعد مثالًا لحل المشكلات الضمني. لاحظ أننا لا نطلب من أنفسنا بشكل واع أن ننصت لمعزوفة موسيقية إلى أن تكتمل المتوالية الموسيقية. لكن بمجرد أن تبدأ المعزوفة الموسيقية نشعر بحاجتنا إلى القيام بذلك. وفي هذه الحالة يكون الهدف ضمنيًّا أو غير واع، مثل أن يتسق العزف مع قواعد التناغم أو اللحن ... وإذا قارنا الاستماع إلى لحن موسيقي بحل مشكلة أبراج هانوى، نجد أن فهم الموسيقى غير واع، في حين أن حل مشكلة أبراج هانوي يحدث بشكل واع في أغلب مراحله تقريبا"[٢].

"وينظر إلى الجزء الأكبر من حل المشكلات لدى البشر بوصفه ينطوي على مزيج من المكونات الضمنية والصريحة، فثمة ميل لدينا للتقليل من قدراتنا لمدى تعقيد المعرفة الضمنية، ويرجع ذلك – تحديدا – لكونها غير واعية في الواقع، وتتضمن المعارف الضمنية عاداتنا الخبيرة والمتقنة، التي يُعتقد أنها تمثل أدوات فعَّالة لحل المشكلات. وقد يستخدم الجانب الضمني لحل المشكلات بشكل أفضل في التصدي للوظائف التنفيذية المؤقتة المتضمنة في أداء مهام معتادة غير حل المشكلات. على سبيل المثال، عند قيادتنا للسيارة تعمل العمليات التلقائية طوال الوقت، نظرًا للطبيعة الروتينية للمهمة، وقابليتها للتنبؤ. لكن حينما تصبح حركة المرور كثيفة وغير متوقعة، أو عندما تُثقب إطارات السيارة ... تبرز الحاجة للضبط التنفيذي لمهام القيادة. لذلك قد تكون هناك علاقة تناوبية مرنة بين الجوانب الأكثر ضبطًا والجوانب التلقائية لقيادة السيارة. وقد ينطبق المبدأ ذاته على الأنواع الأخرى لحل المشكلات"[٣].

٥- التفكير التلقائي :

"تدعم أدلة قوية الافتراض القائل بأن التفكير التلقائي الموجه نحو حل مشكلة، حتى وإن لم يكن هدف العملية الذهنية واضحًا. وينظر إلى محتويات الأفكار التلقائية

(١) المعرفة والمخ والوعي: مقدمة لعلم الأعصاب المعرفي: ٦١٩

(٢) المعرفة والمخ والوعي: مقدمة لعلم الأعصاب المعرفي: ٦٥٧

(٣) المعرفة والمخ والوعي: مقدمة لعلم الأعصاب المعرفي: ٦٥٧

على أنها تمثل الاهتمامات الراهنة للشخص. وتشير تجارب علم النفس الاجتماعي إلى أنه من الممكن تهيئة الشخص تجريبيًّا بطرق تجعله ينشغل باهتمامات محددة؛ مثل علاقات جدلية محددة، وذلك من خلال عرض أفلام فيديو تعمل على استثارة هذه الاهتمامات ... مع هذا، يكشف إجراء دراسات محكمة حول المسار الروتيني الواعي لحل المشكلات عن وجود أنماط حل متشابهة وشائعة، ويبدو أن عملية القفز من خطوة لأخرى أثناء تدفق الأفكار الروتينية يمكن إحداثه بشكل تجريبي باستخدام تجارب (على طرف اللسان)"[(١)].

٦- الاسترجاع :

يقوم الحوار التواصلي بين الأشخاص على تقديم أدلة مقنعة، مما يستدعي استرجاع المعلومات من الذاكرة. لذا تعد عملية الاسترجاع من العمليات الضرورية لتحقيق الغاية التواصلية التداولية. يقول برنارد عما يحدث بالدماغ من عمليات عصبية كي تتم عملية الاسترجاع : "لكي يكون الاسترجاع فعَّالًا يجب أن تتشابك المعلومات أثناء الاسترجاع مع المعلومات المتعلمة أو المرمزة. علاوة على ذلك يجب أن يتمثل هدف الشخص في استرجاع الذكريات، وأن يوجه انتباهه للهاديات التي تساعده في ذلك. كذلك إجراء بحث ذهني عن الذكريات المطلوبة. وعند إجراء أي معالجة من المعالجات الذاكرة تلك تبرز أهمية كل من المراقبة والتحقق، وكذلك التآزر بين مختلف الأنشطة. وتشترك مناطق مختلفة من القشرة المخية قبل الجبهية في كثير من هذه العمليات. وتشترك الفصوص الصدغية قبل الإنسية بقوة في الاسترجاع الناجح للذكريات العرضية. ويظهر الاسترجاع التلقائي للذاكرة عادة بمجرد العثور على الهادي الملائم. ومع هذا عند إجراء عمليات استرجاع هادف يتطلب ذلك قدرًا من الانتباه، ويضعف الاستدعاء نتيجة لأي جهد تتطلبه أي مهمة متنافسة"[(٢)].

مراحل عملية الاسترجاع :

إن عملية الاسترجاع تتم كالآتي :

١- تتشابك المعلومات مع المعلومات الأخرى المتعلمة أو المرمزة سلفًا في الدماغ.

٢- تمثيل الهدف أي: تحديده، تقوم الدماغ بتحديد الهدف الذي ستعمل عليه.

(١) المعرفة والمخ والوعي: مقدمة لعلم الأعصاب المعرفي: ٦٦٤

(٢) المعرفة والمخ والوعي: مقدمة لعلم الأعصاب المعرفي: ٦٠٩

٣- توجيه الانتباه ناحية الهاديات (ما ترشدنا إلى الهدف: ألفاظ إشارات رموز).

٤- بحث ذهني في الذاكرة عن كل ما يتعلق بالموضوع من أشياء مخزنة سلفًا بها.

٥- القيام بعمليات مراقبة، ومتابعة، وتحقق من قيام الدماغ بالعمليات السابقة.

٦- ملاحظة التعاون والتآزر بين مختلف الأنشطة لتحقيق الهدف من الاسترجاع.

المحور الثالث: (**نظرية حيز العمل الشامل**) :

الوعي ونظرية حيز العمل الشامل في المخ وحل المشكلات :

أ) مقدمة :

كيف نحل المشكلات؟ إن الوعي هو مجموع ما لدينا من خبرات ومعلومات مخزنة في المخ. لكن كيف نتعامل معها أثناء حوارنا مع الآخرين ؟ وهل نستدعي هذه الخبرات كاملة داخل الحوار ؟ وكيف يتعامل المخ معها ؟ وهل يعكس الوعي حيز العمل الشامل المتاح في المخ ؟ هناك نظرية تدعى (**حيز العمل الشامل**) تناقش هذه القضية، وتطرح إجابات على هذه الأسئلة، يقول برنارد عن مفهوم النظرية: "تفترض نظرية حيز العمل الشامل وجود بنية معرفية محددة، ويؤكد على الدور الجوهري للوعي لدى البشر. وتقترح أن محتويات الوعي في المخ تنطوي على سعة ذاكرية تكاملية سريعة الزوال، ولا يمكن أن تهيمن عليها في أي لحظة من اللحظات سوى محتوى واحد متسق، ويحتمل أن تتنافس الأحداث الواعية في الوصول إلى حيز العمل محدود السعة"(١).

إن لدى كل فرد داخل مخه مساحة تدون فيها المعلومات، وهى ذات سعة محدودة. تعمل وفق نسق متسق ومنظم لعرض المعلومة على المخ بعد استدعائها من مخزنها، ولا تقدم الذاكرة للمخ إلا محتوى واحدًا متسقًا كي يفكر فيه، وعلى الرغم من هذا قد تتنافس المعلومات والخبرات التي في ذاكرتنا في الدخول إلى حيز العمل محدود السعة، أي تتنافس المعلومات والخبرات في جعلنا نفكر فيها كلها في آن واحد، على الرغم من أن حيز العمل محدود السعة، ولا يتحمل أكثر من بند واحد لنفكر فيه فعلًا. لهذا فإنه أثناء الحوار التداولي بين المتحاورين نجد أن المخ تتصارع الأفكار داخله متجهة إلى حيز العمل الشامل؛ لتجتمع فيه أفكار كثيرة وتتسابق، لهذا يسارع

(١) المعرفة والمخ والوعي: مقدمة لعلم الأعصاب المعرفي:٥١٣

الشخص فيقول: دعوني أرتب أفكاري. إذن نظرية حيز العمل الشامل لها وجود في مخ المتكلم والمخاطب ولها دور في توجيه الحوار بينهما.

ب) فكرة النظرية :

هذه النظرية تنظر إلى المخ كوعاء يحوى كمًا كبيرًا من المعلومات والخبرات، هذه المعلومات تنتشر في المخ على نطاق واسع، حيث يقوم الجهاز العصبي بتوزيع هذه المعلومات على مناطق مختلفة في المخ لحل شفرتها وفهمها وتوزيع العمل على شبكاته للاشتراك في حل المشكلة. يقول برنارد: "وتقترح نظرية حيز العمل الشامل أن المعلومات المهيمنة للحظات تنتشر في المخ على نطاق واسع. وهذا ما يعطي منطقًا للنظر إلى الجهاز العصبي باعتباره جهاز توزيع ضخم، يتكون من شبكات ذات أهداف محددة. وفي مثل هذا الجهاز يمكن لأنشطة مثل التآزر، والضبط، وحل مشكلة جديدة أن تأخذ مكانها من خلال التبادل المركزي للمعلومات؛ مما يسمح لبعض المناطق – مثل القشرة المخية الحسية – بتوزيع المعلومات على مناطق أخرى"(١).

ت) قيمة نظرية :

يمكن أن نفيد من النظرية في فهم كيفية حل مشاكل جديدة، من خلال عملية التعاون بين مناطق المخ وشبكاته، حيث تقدم كل شبكة جزءًا من الحل، هذا الأمر نفعله ونحس به عندما نفكر في مشكلة جديدة تعرض علينا؛ إننا نفكر في حلها، وهنا نشعر بعمل تلك النظرية، حيث نشعر أثناء عملية التفكير أن المشكلة توزع على المخ. فتبدأ كل منطقة في المخ بتقديم حل للمشكلة أو بمعالجة جانب منها، ويأتي الرد الفوري على هذا الحل القادم من تلك المناطق. فتقول المنطقة الأولى: إنهذا الحل لا يصلح للأسباب الآتية، ثم يأتي حل من منطقة ثانية أو ثالثة فنأخذ به.

هذا الأمر يشير إلى عمليات التفكير التي نقوم بها بالفعل عندما نفكر في مشكلة ما. ويشير التصوير المغناطيسي للمخ إلى المناطق التي تنشط في المخ أثناء عملية التفكير في حل مشكلة ما. فإذا قلنا: فما علاقة هذا بالتداولية ؟، يكون الرد: إن هذا ما يحدث بالفعل للمتكلم والمخاطب أثناء الحوار الجدلي الذي تتصارع في أثناء حدوثه مناطق المخ المختلفة وتتعاون وتتنافس، فنشعر بظهور فكرة ما (حل آت من مركز ما

(١) المعرفة والمخ والوعي: مقدمة لعلم الأعصاب المعرفي:٥١٣

في المخ)، ثم غيابها فجأة قبل أن يقرأها مخنا. وحالة الغياب هذه هي أهم قضية عندنا؛ لأنها تؤكد على فكرة تصارع الأفكار، فقد قدمت فكرة جديدة إلى خلايانا العصبية، فسطت على الحل الأول ومحته وشوشت عليه فلم تظهر، فانطلقنا نقول: تصارعنا فكرة تظهر وتختفي ونريد أن نعبر عنها، لكن توجد فكرة أخرى تشوش عليها وتخفيها.

هذا القول والشعور به صادقٌ، فهو ينتابنا بالفعل لحظة التفكير في حل لمشكلة ما، وهو تقرير صحيح لحالتنا في هذه اللحظة، فهو ليس بدعًا أو شيئًا غريبًا علينا، بل يشعر به كل من يعمل عملًا يقوم على التفكير الدائم. يقول برنارد: "تفيد هذه الاستراتيجية على وجه الخصوص في التعامل مع المشكلات الجديدة التي لا يعرف لها حلًا واضحًا، وقد يجري حل هذه المشكلات من خلال التنشيط التعاوني و/ أو التنافسي بين مختلف الشبكات المتخصصة، والتي قد تسهم كل منها بدور محدد في الحل. ويعمل هذا المنحى بشكل جيد في الحاسبات الضخمة التي تكشف عن سلوك السعة المحدودة المعتاد حينما تتدفق المعلومات في طريقها إلى حيز العمل الشامل"(١).

مثال: تطبيق لغوي :

لو قمنا بتطبيق هذه النظرية على اختبار لغوي؛ فيتضح لنا قيمة هذه النظرية فهى تظهر دور الوعي في تحقيق التواصل الشامل لدى البشر. وهذا المثال التطبيقي جاء لبيان قدرة المخ على التمييز بين الكلمات الواعية (التي نعرفها سلفًا) والكلمات غير الواعية (التي لم نسمع بها من قبل). يقول برنارد: "تشير مجموعة كبيرة من الأدلة البحثية الحديثة إلى أن الوعي هو الوكيل الرئيس لوظيفة الوصول الشامل هذه لدى البشر والثدييات الأخرى. وقد استخدم ديهان وزملاؤه التقنيع العكسي البصري لمقارنة الكلمات الواعية وغير الواعية، حيث قاموا بتعريض المشاركين لقناع بصري بعد عرض الكلمات مباشرة. وتجدر الإشارة إلى أن الكلمات القناعية لم تكن واعية، لكن هذا لم يمنع ملامحها المادية في النفاذ عبر العين. وقد أظهر تحليل التصوير المخي حدوث تنشيط في المناطق القشرية البصرية والمناطق الخاصة بالتعرف على الكلمات، سواء كان هذا عند عرض الكلمات الواعية أو الكلمات غير الواعية، ويُعرف عن

---

(١) المعرفة والمخ والوعي: مقدمة لعلم الأعصاب المعرفي:٥١٣

هذه المنطقة أنها متضمنة في تحليل موقع المنبه، والشكل، واللون، وماهية الكلمة. ومع هذا كانت استثارة الكلمات الواعية للنشاط أعلى ١٢ مرة من الكلمات غير الواعية. علاوة على ذلك تثير الكلمات الواعية قدرًا من النشاط في القشرة المخية الجدارية والجبهية. ويبدو أن النشاط المرتبط بالمنبه في حالة الوعي قد يتوزع عبر نطاق واسع من المناطق البصرية ومناطق المخ الأخرى"[١].

وسر التنشيط الزائد للمناطق القشرية البصرية والخاصة بالتعرف على الكلمات الواعية هو أن هذه الكلمات الواعية موجودة سلفًا في هذه المناطق القشرية للمخ التى تسارع بالاستجابة لهذه الاستثارة، وبيان معرفتها بها، إنها تشبه قدرة الجذب التي لدى المغناطيس عندما يجذب الحديد إليه مندفعًا ومسرعًا بسبب قوة مغناطيسية غير مرئية تدفع الحديد إليه، فهناك علاقة بينهما هي التي فعلت هذا؛ يحدث هذا للكلمة الواعية أن تنجذب بسرعة عند سماعها إلى أختها المسجلة سلفًا بالمخ، بل إن الكلمات الواعية تثير أيضًا قدرًا كبيرًا من النشاط في القشرة المخية الجدارية والجبهية إذن الوعي بالكلمات ضرورة، وتؤثر في إدراكنا لها واستجابة القشرة المخية لها، وإن الوعي يعكس حيز العمل الشامل المتاح في المخ.

(١) المعرفة والمخ والوعي: مقدمة لعلم الأعصاب المعرفي:٥١٣

الفصل التاسع
تداولية التداولية

المقصود بتداولية التداولية: العناصر التداولية اللغوية وغير اللغوية التي تحقق التواصل بيننا. إنها عناصر موجودة لغرض تواصلي، فهو عملها الأصلي، وهذا مفهوم التداولية. عندما نقول: تداولية التداولية لا نكون قد خرجنا عن الجانب اللغوي. فكل المستويات اللغوية ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالتداولية، بل هي التداولية بشكل عام لدى البعض، لقد وضع أوبلر التداولية ضمن مستويات اللغة وجعلها المستوى اللغوي الخامس عند تحليله لمستويات اللغة، وسماه المستوى (البرجماتي/ التداولي).

كي نميزه عن مستويات اللغة الأخرى؛ فسميناه – كما فعل أوبلر – المستوى التداولي؛ لهذا نناقشه بوصفه دراسة تبين تداولية الإنسان بشكل عام، فهو (تداولية التداولية)، هذه الدراسة تُنعى بالتداولية على نطاق واسع أكبر مما عرضنا له آنفًا.

المقصود بتداولية التداولية :

كل ما يحقق للفرد تواصله مع نفسه ومع غيره. وأفضل تصور لهذا التواصل بوصفه نص، أي النظر إلى ما يحدث حولنا على أنه نص بصور عامة تبين الجوانب التداولية في كل ما يحدث داخل النص أو خارجه؛ فكل نص مقروء أو منطوق أو مشاهد هو نص تداولي، الغرض منه تحقيق التواصل مع الآخر، بنقل فكرة إليه أو عنه، ويستعمل في سبيل ذلك كل الوسائل اللغوية وغير اللغوية، فالنص وفق هذا التصور هو تداولي من هذا الجانب يحوى بداخله كل العناصر التداولية.

سنناقش في هذا الفصل عدة محاور هي :

المحور الأول: مراحل التفسير العصبي للتواصل.

المحور الثاني: لباقة الخطاب.

المحور الثالث: العناصر التداولية في الخطاب.

المحور الرابع: مشكلة فهم الآخر.

إن التداولية بعامة تَعني ما يقوم به النصف الأيمن من المخ من مهام تواصلية بين الفرد ومجتمعه. لكن دعنا من هذا وألقه جانبًا، فقد أصبح من المسلمات؛ لنسأل أسئلة بسيطة ومنطقية تفسر كثيرًا من الأشياء التي ربما كانت غامضة علينا مثل:

١- ما عناصر التداولية الأساسية التي تحقق التواصل بشكل عام بين الفرد ومجتمعه؟.

٢- كيف تعمل هذه العناصر، أي كيف تقوم بعملها التداولي ؟.

٣- ما العضو المسؤول عن تحقيقها في الجسد ؟ وماذا لو مرض هذا العضو ؟.

هذه الأسئلة وغيرها يمكن الإجابة عليها بصورة ضمنية داخل المحاور الآتية:

المحور الأول: مراحل التفسير العصبي للتواصل :

كيف نفهم اللغة ونستوعبها ؟ إنها عملية عقلية معقدة قد تطور علم الأعصاب واستطاع أن يفسرها، فهي تتم على مراحل مرتبة ومتناسقة يجب معرفتها لفهم إسهام نصفي المخ الأيمن والأيسر في هذه العملية.

لهذا جعلت لها محورًا خاصًا يضم هذه النقاط:

أ) مرحلة الاستقبال في النصف الأيسر من المخ :

عندما يخاطبنا أحد فإن كلامه يصلنا في شكل رسالة لغوية، يقوم النصف الأيسر من المخ بحل شفرتها اللغوية، وتقديم تفسير حرفي لكلماتها وجملها، هل نكون بهذا فهمنا الرسالة اللغوية التي أرسلت لدماغنا ؟ هل نتواصل بهذه الطريقة، ونقدم ردًا بناءً على هذا الفهم ؟.

الإجابة: لا؛ لأن فهمنا للرسالة بعد تفسيرها في النصف الأيسر من المخ بشكل حرفي، لا يعد كافيًا لفهمها، فهناك الإيماءات والإشارات والكلمات الموحية والمجازات والاستعارة والنكات والتهكم والسخرية كل هذه أشياء لم نفهمها بعد، ولم يتضمنها التفسير الحرفي للغة الآتي من النصف الأيسر من المخ، فماذا نفعل ؟.

ب) مرحلة التأويل التداولي في النصف الأيمن من المخ :

بعد أن فهمنا التفسير الحرفي للرسالة عبر النصف الأيسر من المخ، تتجه الرسالة اللغوية تلقائيًا في سرعة البرق إلى النصف الأيمن من المخ عبر الجسم الجاسيء، لتقوم بتأويل العناصر التداولية التي في الرسالة اللغوية، أي الجانب التداولي، حيث نفهم هناك: الجوانب البلاغية كالاستعارة والكناية والتشبيه، والافتراض المسبق، والاستلزام الحواري، ومقصد المتكلم (المزاح أو تهكم) وقوة الفعل الإنجازي، وما وراء السطور. فيتولى النصف الأيمن التفسير والإجابة. فإذا أصيب الفرد بآفة في النصف من المخ، فإن

هذه العمليات لا تتم. ويقف إدراك الفرد عند حدود المعنى الحرفي للرسالة اللغوية دون سائر معانيها.

ت) مرحلة التعاون بين نصفي المخ :

لقد أشار إلى هذا الجانب جرايس في نظريته التداولية، ووضع لها مبدأً سماه: مبدأ التعاون (م تع)، وكان يقصد بمفهوم التعاون الشكل البسيط الذي يفهمه كل فرد منا، لكن ما أراده أوبلر أعمق من هذا، وهو النظر إلى قضية التعاون بين نصفي المخ، وهو أصل القضية، وهو النظر إلى ما يقدمه النصف الأيمن من المخ من إسهامات تعين على فهم الآخر، والتواصل معه، مثل معالجة العواطف والانفعالات، فهذا الأمر يرتبط بأشياء أخرى ربما لا يكون لها علاقة باللغة كأصوات، ولكن لها علاقة بالقضية الكبرى، وهي التواصل بين البشر. لهذا نقول: إن الإنسان يمكن أن تُثار عواطفه (حب، فرح، حزن، خجل) بكلمة. هذا القول صحيح. ولكن إلى جانب ذلك قد تكون إثارة الانفعال أو العواطف لدى الفرد بسبب شيء غير الكلمة، ربما نظرة عين أو لمسة يد. فكيف لنا أن نفهم الآخر ونتواصل معه إذا لم نُدْخِل هذه الأمور ضمن تحليلنا لرسالة الآخر اللغوية ؟ عندما ترافق الرسالة اللغوية نظرة عطف أو حب أو استهزاء. إنها أمور تحقق ما نرنو إليه، وهو تحقيق التواصل بدقة مع الآخر، وفهم أشياء لم ينطق بها، وهذا الأمر يؤكد حقيقة ما قاله علماء التداولية عند تعريفهم للتداولية:

إنها فهم أكثر مما يُقال، فالمتكلم ينطق كلمات قليلة ومحددة، والسامع يفهم منها أكثر مما قِيلَ فيها من كلمات.

مثال :

الموسيقى المصاحبة للحدث أو للكلام لها دور مماثل يوضح الفكرة السابقة؛ مما جعل المخرج يضع مهندسًا للصوت، يكون عمله ترجمة الحدث الكلامي إلى أنغام موسيقية تصاحب عرض الحدث، فيُدخل موسيقى معبرة عن الحدث ومرافقة له، وكذا الذين يسبحون في نظرة تأملية إلى صور لكبار الرسامين؛ ترافقهم موسيقى وأضواء خاصة تمكنهم من العيش لحظات من التأمل العميق في الصورة، وقراءة متعددة لها. كل هذا يثبت أن قضية التواصل التي تحدثتْ عنها التداولية، والأغراض التواصلية بين الأقوام التي ذكرها ابن جني لا تتحقق في النصف الأيسر من المخ، بل

هناك النصف الأيمن من المخ الذي يقوم بهذا العمل، لهذا قال علماء التداولية بوجود عناصر غير لغوية تحقق التواصل الصحيح بين الناس، وأن مكانها في النصف الأيمن من المخ، فمن بين مهام النصف الأيمن فهم الانفعالات، والأنغام، فكيف نلغي دوره التواصلي !.

ث) العمل التكاملي بين نصفي المخ :

إن التعاون بين نصفي المخ يجعلنا نراهما كآلة واحدة يكمل بعضها بعضا. فعلى الرغم من تخصيص كل شق بعمل من الأعمال المحققة للتواصل فإن استعداد كل نصف للقيام بعمل النصف الآخر (لكن بكفاءة أقل) يشير إلى تزويد الله سبحانه وتعالى لهذا الجزء من الجسد (المخ) بقدرات تعويضية تجعل التعاون لازمًا بين نصفيه لأداء مهمة لا يقوم بها سواه؛ مما يجعلنا نعيد النظر إلى الصورة العامة للمنتج (تحقيق التواصل باللغة وغيرها) في إطار الدور التكاملي لكل من نصفي المخ.

يشير جريت ريكهايت وزملاؤه إلى عمل النصف الأيمن من المخ في استيعاب اللغة، والجوانب الاجتماعية والتداولية/ البراجماتية، بما يعني تخصص هذا النصف بجوانب عليا في اللغة والتواصل التداولي، يقول: "إن النصف الأيمن لكرة المخ أساسي لاستيعاب اللغة، فهو يؤدي دورًا جوهريًّا في الاتصال الاجتماعي، وهكذا يكون النصف الأيمن لكرة المخ لا محيد عنه لاستيعاب جوانب براجماتية لتحليل الخطاب (ستيفن جيورج وآخرون، ١٩٩٩)، ولفهم المزح (الفكاهة) والمفارقة (التهكم)، ويبدو أن النصف الأيمن لكرة المخ يؤدي دورًا مهمًا في استيعاب لغة مجازية (تخييلية) ... وفضلا عن ذلك يُسْهِم الفص الجبهي والفص الصدغي الأيمنان في التحليل التطريزي ومعرفة فروق النغمة بشكل حاسم"(١).

ويقول أيضا: "إذا كان المرء قد انطلق فيما سبق من سيادة مذكورة للنصف الأيسر لكرة المخ بالنسبة للغة فإنه يتحدث اليوم عن تخصيص مكمل لنصفي كرة المخ. فلم تعد توجد ثنائيات تصف نصفي كرة المخ، مثل الاستيعاب لمثيرات لفظية في مقابل مثيرات غير لفظية، بل بالأحرى عمليات متباينة، أي الكيفية التي يتعامل بها نصفا كرة المخ مع المثير.

---

(١) علم اللغة الإدراكي نظريات، ونماذج، ومناهج: جيرت ريكهايت وآخرون، تر/ د.سعيد البحيري، زهراء الشرق، القاهرة،٢٠١٧ ،ص١٦٥

وينطلق المرء في الوقت الحاضر من أن لنصفي كرة المخ دورًا أساسيًا في استيعاب اللغة، وأن كل نصف لكرة المخ متخصص في وظائف وعمليات معينة، وأن كل واحد منهما يكمل الآخر على نحو مفيد. وهكذا يراعي النصف الأيسر لكرة المخ بالأحرى تفاصيل لغوية (وظيفة منطقية – تحليلية) في حين أن النصف الأيمن يراعي بالأحرى الخلفية العامة لطريقة التفكير (انفعالية – تأليفية).

هذا يفسر لماذا :

١ـــ يستجيب النصف الأيسر لكرة المخ بالأحرى لمهام فونولوجية وصرفية نحوية.

٢ـــ في حين أن النصف الأيمن لكرة المخ يراعي بالأحرى السياق، والتطريز الصوتي والبراجماتية، والمعنى"(١).

ومع هذا التعاون والتكامل بين نصفي المخ فإننا نري مشاركة من النصف الأيسر لمهام النصف الأيمن والعكس صحيح. إنها استراتيجية الصانع سبحانه وتعالى في صنعته بدليل وجود من يستخدم يده اليسرى في الكتابة، على الرغم من أن النسبة الكبرى من البشر تستخدم اليد اليمنى.

ج) مرحلة صراع السيطرة بين نصفي المخ :

لقد أشار أوبلر إلى أن هناك قدرات لغوية كامنة في النصف الأيمن قائلا: "من الاحتمالات المنطقية أن يكون للنصف الأيمن من المخ ذات القدرات الكامنة الخاصة باكتساب اللغة التي يتمتع بها النصف الأيسر، لكنه يفسح المجال أمام النصف الأيسر لأغراض تتعلق بالكفاءة.

ولو كان إسناد مسؤولية اللغة إلى نصف واحد من المخ يجعلنا أكثر كفاءة، لصح منا أن نتوقع توزيعًا عشوائيًّا للغة بين نصفي الكرة المخية؛ أي: يكون النصف الأيمن هو المسيطر بالنسبة إلى اللغة عند نصف البشر تقريبا، وأن يكون النصف الأيسر هو المسؤول عن نصفهم الآخر ... ربما يكتسب النصف الأيمن من المخ بعض القدرات اللغوية، لكن النصف الأيسر هو المسيطر يكبتها فيما بعد"(٢).

---

(١) علم اللغة الإدراكي: نظريات ونماذج ومناهج١٦٥ ــ ١٦٦

(٢) اللغة والدماغ:١٠٣ ــ ١٠٤

إنه يتحدث عن صراع قدرات بين نصفي المخ، مَن المسيطر ومن المكبوت، مما يشير إلى امتلاك كلا النصفين ذات القدرات اللغوية، مع اختلاف واحد، هو عنصر الكفاءة والسيطرة؛ أي: لمن تكون السيطرة ؟ ومن يقع عليه الكبت ؟.

إن القضية أكبر من هذه الاحتمالات. فالصانع (الله سبحانه وتعالى)، أعطي كلا النصفين قدرات متساوية، مع زيادة في كفاءة أحدهما على الآخر. فإذا أصيب أحد النصفين بأذى يقوم النصف الثاني بعمل الأول التالف، ولكن بكفاءة أقل. هذا الأمر يحدث في كثير من خلايا المخ. وقد اُختُصَّ النصف الأيسر باللغة، وعندما يصاب بعطب في الصغر يقوم النصف الأيمن بعمله، لكن بكفاءة أقل. فلا تتوقف حياة الفرد وتواصله مع الآخرين تمامًا بسبب تلف هذا النصف.

ويطرح أوبلر وجهة النظر الخاصة بالفكر المعاصر في القضية، (ويعني بها التطور العلمي في دراسة الأعصاب القائل بهذا الرأي) قائلا: "إلا أن الاحتمال الأكثر في الفكر المعاصر أن يكون لنصفي الكرة المخية الأيمن والأيسر أنماط مختلفة من الاتصالات بين الخلايا تختلف فيما بينها بحيث تكون الأنماط القياسية في النصف الأيسر هي الملائمة للقدرات التحليلية اللازمة للغة أكثر من أنماط النصف الأيمن، وربما لأتمتة Automatization هذه القدرات فيما بعد"[(١)].

إن عمل المخ يتم بصورة لم نتوصل لها من قبل وهي صورة أعمق وأدق مما كنَّا نعتقد. وهى ما قدمته الدراسات الحديثة في علم الأعصاب، وهي ما ذكرتُه آنفًا من أن العمل يتم بين خلايا المخ في تعاون تام، حيث يتم التواصل بين خلاياه لإتمام العمل المطلوب كفهم قضية ما وإدراكها وتحليلها. ولكن على أساس مراعاة مسألة أي النصفين أكثر تخصصًا وملائمة لهذه المهمة. فنجد أن النصف الأيسر أكثر ملائمة في جانب القدرات التحليلية اللازمة للغة، والنصف الأيمن أكثر ملائمة للقضايا التداولية.

ح) القدرة اللغوية للنصف الأيمن من المخ :

١- رأى أوبلر :

يقول أوبلر عن النصف الأيمن من المخ: "سنعرض الإسهامات التي يمكن للنصف الأيمن من المخ أن يقدمها لإدراك اللغة ونطقها واستخدامها، فالمعطيات التي رأينها في

(١) اللغة والدماغ:١٠٤

الفصول السابقة عن الحبسة توحي بأن النصف الأيسر من المخ هو المسؤول الوحيد عن اللغة، لكنها لم تبرز إمكانية ضلوع النصف الأيمن في اكتساب اللغة ... ولا تؤدي آفات النصف الأيمن من المخ عادة إلى أية أنماط معروفة من فقدان اللغة، بل إن ندرة المرضى المصابين بعجز لغوي ناشئ عن إصابة في النصف الأيمن من المخ تعد في واقع الأمر من الأدلة التي تؤيد توضع اللغة في النصف الأيسر من الكرة المخية لدى معظم الناس.

ولطالما ساد الاعتقاد بأن القدرات اللغوية في النصف الأيمن من المخ قليلة جدًا أو معدومة، اللهم إلا في حالة تعرض النصف الأيسر إلى آفة كبيرة في مرحلة مبكرة. وكان الاعتقاد السائد هو أن للنصف الأيمن علاقة بمعالجة العواطف، والمسائل البصرية المكانية، والموسيقى وما شابه ذلك"(١).

إن النصف الأيمن من المخ يعد مركزًا لأمور غير لغوية كثيرة، وتلك المشكلة الكبرى لدى علماء الأعصاب وعلماء اللغة، وهذه المشكلة لا توجد لدى علماء التداولية. وهي أنهم لم يدرسوا اللغة من خلال نظرة كلية شاملة تراعي أمورًا غير لغوية تدخل ضمن مكملات الفهم اللغوي، وتفسير الرسالة اللغوية. إن اللغة التي نتكلمها ليست أصواتًا فحسب. إنها أكبر وأعمق من هذا؛ لقد ركز هؤلاء العلماء انتباههم في دراسة اللغة على جانب واحد هو: كيف تنتج اللغة كأصوات ؟ وأين مخارج الأصوات ؟ وأي نصفي المخ المسؤول عن اللغة ؟ كيف يقوم المخ بإنتاج اللغة؟ وكيف نتواصل باللغة ؟ فالتداولية على الرغم من إيمانهم أنها فن التواصل إلا إنها عندهم أيضا هي استخدام اللغة.

لكن الأمر غير ذلك، فاللغة ليست أصواتًا فحسب، بل هناك أمور لابد أن ندخلها في الحسبان عند دراسة اللغة، وعند فهم دورها في التواصل؛ فعندما نجيب على هذه الأسئلة: (كيف تعمل اللغة لتحقيق التواصل بعيدًا عن منطوقها اللفظي الحرفي؟ هل توجد عناصر أخرى في اللغة تحقق التواصل غير النص المنطوق ؟) نكون أدركنا أن اللغة ليست هذه الألفاظ.

(١) اللغة والدماغ:١٠٣

لكن ما الشيء الذي يعطي النصف الأيمن من المخ هذه القدرات اللغوية ؟ إنها النظم التي في النصف الأيمن من المخ، أي القدرات الكامنة في هذا النصف والتي سماها النُظم، فهي التي تقوم بتحريض هذا النصف لمعالجة القدرات اللغوية، وتلك ما ذكرته آنفًا من أن الله سبحانه وتعالى زود كل نصف من نصفي المخ بالقدرة على ممارسة عمل النصف الآخر ولكن بكفاءة أقل. يقول أوبلر: "لكن النُظم في النصف الأيمن من المخ، التي تلائم الأنواع الشمولية holistic من المعرفة تستطيع بتحريض بسيط أن تتولى معالجة القدرات اللغوية أيضًا"(١).

٢- رأى برنارد ج. بارز :

يعرض برنادر خُلاصة رأيه حول دور نصفي المخ في معالجة اللغة وفهمها، فهو يرى اشتراك كلا النصفين في معالجة اللغة، وقد وضح دور كل منهما، إلى جانب بيان دور الجسم الثفني الرابط بينهما؛ مما يجعلنا نؤكد على حقيقة دور النصف الأيمن في معالجة اللغة، يقول برنارد: "يُنظر إلى النصف الكرة المخي الأيسر بوصفه متحيزًا لوظائف اللغة لدى معظم الأشخاص، لكن هذا لا يعني أن وظائف اللغة تقتصر على النصف الأيسر للمخ فقط، ثمة أدلة جيدة على أن الكلام ومدخلات اللغة يعالجان في - كلا الجانبين - إدراك الكلام واستيعابه، ولكن لسبب غير مفهوم، يرجح أن يميل إنتاج اللغة، والتخطيط للكلام وضبطه نحو الكرة المخي الأيسر لدى ٩٠% من الأشخاص. ونعرض - لاحقا - أدلة تشير إلى أن نصف الكرة المخي الأيمن له طريقته الخاصة في فهم أشكال التواصل المعقدة مثل النكات والاستعارات والسخرية، في حين يفضل نصف الكرة المخي الأيسر معالجة اللغة الحرفية"(٢).

وهذا ما قلناه آنفا من دور كل نصف من الكرة المخي في معالجة جانب من اللغة، فتخصص النصف الأيمن بالعمليات العقلية المعقدة كمعالجة النكات والاستعارات، وسنعرض هذا بالتفصيل في فصل أمراض التداولية.

ويقول في موضع آخر من كتابه: "وفرت لنا دراسة حالة طفل صغير- أجريت له جراحة مخية في النصف الأيسر للمخ- دليلًا على أن تحيز الجانب الأيسر للغة يمكن أن يتحول إلى الجانب الآخر إذا لحقت بنصف الكرة المخي الخاص بالكلام أعطاب

(١) المرجع السابق:١٠٤
(٢) المعرفة والمخ والوعي: مقدمة لعلم الأعصاب المعرفي:٦٧٩

شديدة في وقت مبكر من مرحلة الطفولة ... وما يستحق الاهتمام به في هذا السياق، ملاحظة أن التوزيع الواسع لنقاط نشاط اللغة لا يقتصر على نصف الكرة المخي الأيسر، بل يغطي نطاقًا كبيرًا من نصف الكرة المخي غير الكلامي، ويتمثل الجسر الرابط بين كلا نصفي كرة المخ في الجسم الثفني، الذي يمتد عبر كلا الجانبين في شكل وصلات من نقطة إلى نقطة؛ ولهذا فإن العصبونات في جانب من القشرة المخية الجبهية ترسل محاور عصبية تمتد إلى القشرة المخية الجبهية إلى الجانب الآخر، وبالنسبة لعدد من الوظائف يُلاحظ أن كلا نصفي كرة المخ يتكاملان تماما في أدائها"(١).

الخلاصة :

نخلص من هذا أن النصف الأيسر من المخ مسيطر على اللغة إنتاجًا وفهمًا. وأما النصف الأيمن من المخ فمختص بالأشياء التداولية، هذا الأساس الذي نبني عليه تصورنا لشيء آخر؛ وهو متابعة عمل الجانب غير اللغوي الذي يكمِّلُ مع النصف الأيسر من المخ عملية فهم اللغة بصورة دقيقة، ويحقق معه عمليات التواصل الناجحة، فإذا حدث فشل في العمليات التواصلية غير اللغوية كان ذلك بسبب وجود آفة أو عطب في النصف الأيمن من المخ، وأنه أثر على العملية التداولية التي هي عملية تواصلية؛ فالتواصل يكون باللغة وغيرها، وهذا ما نسعى إلى بيانه هنا من خلال دراسة الآفات التي تصيب النصف الأيمن من المخ، وتؤثر على الجانب التداولي.

المحور الثاني: العناصر التداولية في الخطاب :

أولًا: عناصر الخطاب :

ذكر علماء الأعصاب أن الجانب التداولي يتمركز داخل الإنسان في النصف الأيمن من المخ، لكن ما هذه العناصر التداولية التي تحدثوا عنها ؟ وما مفهومها ببساطة؟ إنها تعني الأشياء الكثيرة التي نفعلها بصورة تلقائية عفويًّا في حياتنا اليومية صباح مساء، ربما لا ننتبه إلى أننا نفعلها، على الرغم من أنها ضرورية لاستمرار حياتنا وتفاعلنا مع مجتمعنا وعالمنا ولولاها ما كان للبشر حياتهم المزهرة بحضارتها وتقدمها ونهضتها التي يتمتعون بها.

(١) المعرفة والمخ والوعي: مقدمة لعلم الأعصاب المعرفي:٦٨٢

لهذا يجب عرض هذه العناصر ودراستها ووصفها لدى الأسوياء والمرضى على حد سواء، لبيان أثر فقد هذه العناصر على الفرد وعلاقته بنفسه ومجتمعه. لقد أشار العالم التداولي الكبير **جون سيرل** إلى أننا لا يمكن أن نفهم هذه العناصر التداولية مثل: الوعي واللاوعي والانتباه التي نملكها ونتمتع بها إلا إذا فقدناها. لذا شدد سيرل على ضرورة دراسة الحالات المرضية (أي فقدان هذه العناصر التداولية بسبب المرض)، كي نشعر بوجود هذه العناصر لدى الأسوياء. فكلنا نعي ونفهم وننتبه لما حولنا ونفعل هذا بصورة تلقائية آلية ورثناها عن أجدادنا، لكن، وعلى الرغم من هذا، فإننا لا ندري أن لدينا شيئًا اسمه الوعي أو الانتباه أو اللاوعي، ولا نعرف الفرق بينهما، إلا إذا قرأنا بحثًا حول الوعي وخصائصه، أو حدثنا أحد عنهم، ساعتها نقول: نعم نحن نفعل هذا كله في كل لحظة في حياتنا. لذا كان علينا رؤية هذه الأشياء ودراستها في حالتي (الصحة والمرض).

ثانيًا: السلوك التداولي في الخطاب :

يجب علينا النظر إلى التداولية على أنها نمط وسلوك لحياتنا، فهي المتحكم في حياتنا وسلوكنا تجاه أنفسنا والناس والمجتمع وكل ما في عالمنا. لهذا وضُعِتْ قوانينٌ وقواعدٌ تحكم سلوكنا وتنظمه، هذه القوانين والقواعد خارجة عن اللغة بمستوياتها المعروفة، وغير مقيدة بها، بل هي من يصنع اللغة الحياتية، وكيف تكون. فتختار لنا من اللغة الكلمات التي ننطق بها في كل موقف من مواقف حياتنا اليومية. إذن التداولية تصنع اللغة ليست كأصوات وتراكيب وأبنية ودلالة فهي موجودة سلفًا، بل إن التداولية مستوى أعلى من اللغة بكل مستوياتها، أما اللغة فهي أداة طيعة بين يد التداولية تصنع منها التداوليةُ العبارات وتختار منها الألفاظ التي يتحاور بها الناس ويتكلمون، إنها ليست داخلة في سلوكنا أو منظمية له ولأنماط حياتنا، بل هي صانعة كل هذه الأشياء فينا.

مثال :

إليك مثال توضيحي لهذه الحقيقة التي ربما تبدو غريبة :

دخل علينا الآن رجلان، قال الأول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وقال الثاني: لعنكم الله فأنت كلاب.

فما سلوكنا تجاه الرجلين ؟ تجاه الأول قمنا برد السلام والتحية، أما الثاني: قمنا بضربه، السؤال الآن: ما الاختلاف بين الرجلين ؟ وما الذي دفعنا لأن نسلك معهما سلوكين مختلفين ؟ أقول لك، من حيث اللغة: لا فرق بينهما، فكلاهما استخدم اللغة نفسها (العربية) بصورة صحيحة في أصواتها وتراكيبها وأبنيتها ودلالتها. إذن ما الذي دفعنا إلى أن نسلك هذين السلوكين المتناقضين تجاههما ؟.

إن ما دفعنا إلى هذا السلوك أن التداولية بقواعدها وقوانينها فرضت على أبناء هذا المجتمع لغة معينة اختارت لها التراكيب والأصوات والأبنية والدلالات؛ ليعبر بها كل قوم عن أغراضهم حسب ضوابط وقوالب لغوية محددة، لها قواعد صارمة، هي أقوى من حد السيف، نستعمل منها في كل السلوك ما يناسبه بألفاظ وعبارات محددة، فلا نخرج عن هذه القوالب اللغوية التي حددتها لنا التداولية وفرضتها علينا قواعدها التداولية، ومن يفعل عكس هذا فإن من يخرج عن قواعد التداولية في استعمال اللغة يكن جزاؤه وثوابه وأجره الضرب، فمَن منهما يصنع الآخر ؟ هل اللغة تصنع التداولية ؟ أم التداولية تصنع اللغة ؟ الإجابة: التداولية تصنع اللغة، على الرغم من أسبقية اللغة على التداولية.

إذا نظرنا إلى التداولية من هذا المنظور، فإننا سنفهم التداولية حقًّا، ونعرف أن ما قام به علماء التداولية من أولهم إلى آخرهم يدورن حول السلوك التداولي، وليس السلوك اللغوي، فاللغة ليست سلوكا، بل قوالب يُصب فيها السلوك، لتنظم تعاملنا معًا حسب قواعد وآداب وسلوكيات صارمة كحد السيف صنعتها لنا التداولية بقواعدها الاجتماعية في استعمال اللغة؛ لهذا عندما يكلمنا غرايس عن مبدأ التعاون (م تع)، أو عندما يحدثنا ليتش عن مبدأ الأخلاق والتأدب (م خ)، فإنهما يتحدثان عن سلوك الفرد وليس عن لغته، ولهذا فإن مبادئهم تنطبق على كل مجتمع بغض النظر عن لغته. هذا مفهوم التداولية في أبسط صوره عندي، لهذا أدرس العناصر **التداولية التداولية** التي هي سلوك وآداب وقواعد، توظف اللغةَ، وتستخدمها في التعبير عن سلوكنا وأخلاقنا.

وأدرس عناصر التداولية التي تحقق التواصل، كجوانب أساسية تصنع وتنظم العلاقة بين الناس.

ثالثًا: العاطفة في الخطاب :

١- كيف نلاحظ العاطفة في الخطاب ؟:

يمكننا أن نلاحظ الجانب العاطفي في الخطاب من خلال الحالات المرضية، يقول أوبلر: "فالتفاعل الخاص الذي يجري بين المحتوى العاطفي مع الخطاب واضح بطبيعته التي تثير المشكلات بالنسبة إلى المصابين بآفات في النصف الأيمن من المخ، وهذا بدوره يوحي بوجود مستوى متميز آخر هو المستوى فوق اللغوي الذي يشمل اللغة (على الأقل المعجم) كما يشمل النضج والخطاب.

ويمكننا أن نرى في اختبار لغة الحديث عند ثنائي اللغة قدرة براجماتية يمكن أن تتعطل بصورة مستقلة عن غيرها، ومع أن هذا نادرًا الوقوع عند ثنائي اللغة المصابين بالحبسة، إلا أنه واضح بشكل خاص في المصابين بالعته الذين يخاطبون محدثهم بشكل لا يليق وبلغة لا يفهمونها"(١).

هذا الأمر يدعونا إلى التساؤل عن عدة قضايا هي: ما حقيقة التداولية اللغوية وغير اللغوية ؟ وما مفهوم التداولية ؟ إن التداولية فن التواصل بشتى أنواعه وصوره، فمعنى تحقيق الجانب التداولي في حديثنا معًا هو تحقيق للجانب التداولي التواصلي بيننا، أي أنني لديَّ رسالة أحاول إيصالها إليك، نجحتُ في ذلك أم فشلت، وتنطلق عملية التواصل هذه من المخ الذي يقوم بترتيب وتنسيق الحوار الذي يدور فيه كلامنا، لهذا يعد المخ مركز نجاح أو فشل العملية التواصلية، ولاسيما في حالات الإصابة المخية، ومن هذا يتبين لنا ببساطة شديدة العلاقة بين المخ (مركز التفكير) وبين نجاح أو فشل العملية التواصلية التي هي أساس العملية التداولية.

وهذا ما دعا أوبلر للقول: إن هناك مستوى متميز للتواصل فوق اللغوي، يشمل النضج والخطاب، هذه الجوانب الثلاثة تحتاج إلى إيضاح:

١- فما فوق اللغوي هو المستوى التداولي العاطفي الذي يستخدم وسائل غير لغوية (فوق اللغوي) نحو: تقطيب الوجه، والنظر بسخرية، الانصراف بالوجه.

٢- النضج في إدراك أبعاد الكلام أو ما يعرف بـــ (فهم ما وراء السطور) بناءً على النضج العمري، والثقافي، والفكري للمتلقي. فلا يدرك هذا الأمر إلا إنسان ناضج بلغ حدًا معينًا من الفهم والإدراك؛ ليستوعب ويفهم كلام محدثه.

(١) اللغة والدماغ: لورين أوبلر وكريس جيرلو، تر/ محمد زياد يحيى كبة، دار جامعة الملك سعود، ط١، ٢٠٠٨ ، ص٢٠٤

٣- أخير الخطاب، وهو وعي المستمع بكلام المتكلم نتيجة علاقة شخصية به، أو أحداث سابقة تجعله يفهم خطابه، وهذا الأمر يختلف عن النضج الذي يرتبط بمرحلة عمرية معينة. أما الخطاب فقد لا يفهمه الأكبر سنا، في حين أن الأصغر سنا يفهمه، لوجود وعي مسبق وعلاقة وأحداث بينهما تمكنهما من فهم حديث هذا الشخص، أو ما يعرف بالافتراض المسبق، أو ربما تدرب على مثلها، أو مرت به في حياته العملية.

كل هذه الأشياء تشير إلى وجود محتوى عاطفي في الخطاب والحوار الذي يدور بيننا، فندرك هذه المعاني كلها من خلال الخطاب. إن هذه العبارة قال بها أوبلر: "إلا أنه واضح بشكل خاص في المصابين بالعته الذين يخاطبون محدثهم بشكل لا يليق وبلغة لا يفهموها"(١).

هذه العبارة لأوبلر تعني أننا يمكن ملاحظة العلاقة بين الخطاب والعاطفة من خلال الحالات المرضية التي كشفت عن حالات فقدان العاطفة في خطاب المرضى المصابين بالعته، من خلال عدم إدراكهم لمكانة محدثهم واحترامها، فإدراك الآخر واحترامه، هو محتوى عاطفي يجب توافره بين الناس في خطابهم معًا، وأننا استطعنا فهم العلاقة بين العاطفة والخطاب من خلال حالات فقدانها عند مرضى العته.

٢- أثر الانفعال على الخطاب :

الخطاب رسائل متبادلة بين المتكلم والمخاطب، وهي لا تخلو من عنصر عاطفي أي جانب انفعالي، فالعاطفة عنصر أساسي تداولي بينهم، فكل الكلام لا يخلو من انفعال ما، إلا الخطاب العلمي الذي يعرض للنظريات العلمية ويفندها. فهو يقوم على نظريات وبراهين لا مكان فيه للعاطفة أو الانفعال. أما سائر الكلام فلا يخلو من هذا الجانب، كما قال فندريس، لهذا، يجب أن نبحث عن الجانب العاطفي والانفعالي في كل حديث أو خطاب نسمعه. فهو يعد جزءاً من هذا الحديث أو الخطاب الموجه إلينا. فعندما نتكلم معا يوجد كثير من المعاني غير المنطوقة، لكنها مفهومة يتضمنها حديثنا وخطابنا لا يمكن تجاهلها وتؤثر كثيرًا على مسار الحديث ومضمونه وفهمه الذي يصل إلى عقول كل الحضور أو بعضهم.

(١) اللغة والدماغ:٢٠٤

لهذا يجب أن نبحث عن العضو المتسبب في صنع هذا الجانب العاطفي والانفعالي في الجسد، إنه النصف الأيمن من المخ المسؤول عن الجانب العاطفي والانفعالي فينا. فما حال الأسوياء والمرضى في لحظة الانفعال؟ وما دوره في الجانب التداولي ؟ إنه مَن يُكوِّنُ لدينا الحالات الانفعالية والعاطفية تجاه عالمنا، فإذا أصيب الفرد بآفة فيه فإن العاطفة والانفعال تختفي عند هذا المريض من كلامه وسلوكه جملةً، فنجد لغته تخلو من الألفاظ الانفعالية (حب أو كره)، وتصبح خشنة، وفي سلوكه جفوة وفتور تجاه الآخرين. لماذا ؟ ليس لأن الفرد المريض يتعمد فعل هذا. لكن لأن الجانب الذي ينفعل ويتأثر بالانفعال لديه مريض؛ إنه معطل عنده الآن، فلا يتفاعل مع الأحداث الانفعالية ولا يستجيب لها أو يبدي اهتمامًا بها، لكنه يتكلم ويتفاعل مع الآخرين في ضوء المعاني الحرفية للغة فقط. ولا نستطيع أن نقول عنه أنه لا يدرك وجود الآخرين (كما يزعم أوبلر)، لكن الحقيقة أنه لا يدرك مشاعرهم ولا يفهمها، فالجانب المسؤول عن الانفعال لديه معطل.

لهذا يجب المقارنة بين الأسوياء والمرضى في هذا الأمر.

٣- عاطفة الخطاب لدى الأسوياء :

ذكرنا آنفًا أن النصف الأيمن من المخ له ارتباط وثيق بالجانب العاطفي الانفعالي؛ وما تصدر عن الفرد من عاطفة أو انفعال يكون مصدره النصف الأيمن من المخ. وأن إدراكها وفهمها مرتبط بهذا النصف، فإذا أصيب بآفة ما فيه فإن هذه الإصابة ستؤثر على الجانب العاطفي الانفعالي عنده.

يعد تعبير الوجه وإيماءاته وتعبير الفرد عن عواطفه ومشاعره وانفعالاته باللغة وغيرها من وسائل التعبير عن داخل الفرد. وهي تدخل ضمن الوسائل التداولية في التواصلية، يستقبل الفرد هذه التعبيرات من الآخرين أو يرسلها لهم، فهي وسيلة تواصل وتفاهم عاطفي وانفعالي بينهم. وهو لا يستخدم اللغة دائمًا، مما يعني أن التواصل لا يكون باللغة وحدها، بل هناك الإيماءات والتعبيرات بالوجه. لكن هذا لا يمنع من وجود عبارات لغوية متضمنة في تلك الرسائل العاطفية والانفعالية، تقوم بهذا العمل أيضًا، فإذا عجز الفرد عن إصدار هذه الإيماءات أو عجز عن فهمها عندما يراها (نتيجة آفة تصيب النصف الأيمن من المخ) فإن هذا يؤثر على عملية التواصل مع

الآخرين؛ لعدم القدرة على استخدام اللغة التعبيرية (اللغة الشعرية العاطفية) أو عدم فهم الإشارات والإيماءات وتعبيرات الوجه. مما يعني فشله في الجانب التداولي الذي يسكن في نصف المخ الأيمن (العضو الجسدي التداولي) المسؤول عن تفسير هذه الإيماءات والإشارات، كما ذكرنا آنفًا. يقول أوبلر: "من الملاحظ على مستوى إنتاج النص واستخدام اللغة أن أقوى الأدلة التي تدعم ضلوع النصف الأيمن من المخ تتركز في الجوانب العاطفية من الخطاب. فالنصف الأيمن من المخ - كما أسلفنا - هو المسيطر في معالجة النغمات الانفعالية. كما يتحكم النصف الأيمن حتى بتعبيرات الوجه التي تنم عن الانفعال، وكذلك إدراك تعبيرات الوجه الانفعالية"(١).

المحور الثالث: لباقة الخطاب :

سنتناول هنا شيئين هما: اللباقة والخطاب والعلاقة بينهما، وما يصيب الجزء المسؤول عنهما من أمراض نسميها (**أمراض اللباقة**).

أولا: اللباقة :

١- مفهوم اللباقة :

ماذا نعني باللباقة؟ هل هي حسن الأدب والحديث ؟ أم قدرة المتكلم على توصيل رأيه وإقناع الآخرين به ؟ ومن أين تأتي هذه القدرة - إذا اعتبرنا اللباقة قدرة لدى البشر ؟ وأي أجزاء المخ المسؤول عن صنع هذه القدرة والإشراف عليها ؟ إنها أسئلة تحتاج إلى إجابة مقنعة. فالقضية في حقيقتها تواصلية تداولية أكثر منها لغوية أو اجتماعية، إن ما دفعنا إلى هذا هو الحالات المرضية التي تكشف - كما قال سيرل - عن أمور لا يمكن معرفتها بملاحظة الأسوياء. على الرغم من رؤية اللباقة لدى كثيرين في كل يوم، لكننا لا ندركها إلا من خلال الحالات المرضية، فيجب الاستشهاد بهؤلاء المرضى.

إن اللباقة مقدرة مخية داخل كل أمخاخ البشر، لكنها تختلف في الفروق الفردية بينهم. إنها قدرة لدى المخ على الجمع بين عناصر كثيرة بعضها مختلفة وبعضها متنافر داخل الحوار والتنسيق بينها، لصنع نمط من الحديث والأفكار المتسقة المرتبة التي

---

(١) اللغة والدماغ: ١٠٩

تناسب الموقف الحواري الآني. ونتيجة هذه العملية المخية يستطيع صاحب هذه القدرة (الإنسان اللبق) أن يحسن حديثه مع الآخرين، ويقنعهم ويكسب احترامهم. إذن ما هو الجزء المسؤول عن ذلك في المخ البشري ؟ إنه النصف الأيمن من المخ، لماذا؟ لأنه مسؤول عن عناصر ترتبط بسلوك الفرد وعلاقاته الاجتماعية والتواصلية والتداولية والعاطفية والانفعالية والنغمية.

إنه الجزء المرتبط بالإحساس، بل كل أحاسيس البشر، فالفرد يستطيع من خلاله أن يحس المعنى وينتقي الألفاظ ويُحسِّنها، فيختار أفضلها لهذا الموقف أو ذاك.

لهذا عند دراسة اللباقة لابد أن نضعها في مكانها المناسب، كقدرة شخصية يتفرد بها بعض البشر دون غيرهم. هذه القدرة مكتسبة تأتي بالتعلم والتعود. حيث يتدرب عليها الفرد من قِبل والديه أو المؤسسات الخاصة بذلك على كيفية ترتيب أفكاره وكيفية التأدب في الحديث مع الآخرين. فتدون تلك السلوكيات في مخزن المعارف لديه (شبكته العصبية) ليستدعيها في حديثه وحواره مع الآخرين.

إن مفهوم اللباقة أنها تدخل ضمن عملية التواصل التداولي، فوجودها وتحقيقها في الكلام هو نوع من التواصل التداولي، لأنها تمثل قدرة الفرد على معايشة اللحظة الآنية والتفاعل معها بحلوها ومرها وبشخوصها بصورة ناجحة مُرْضية، يرضى عنها الحضور هذا التفاعل هو من أسس ومبادئ التداولية. وتحقيق هذا الأمر (اللباقة) في الكلام ليس بالشيء الهين. فنجاح المرء في التعامل مع الآخرين وكسب حبهم أمر يحتاج إلى قدر كبير من سلامة المخ، والقدرة علي التفاعل والتفاهم معهم، وكسب محبتهم وتعاونهم، والقدرة على محاورتهم وإقناعهم برأيه أو الاقتناع برأيهم، هذا الأمر ربما لا يتوفر للكثيرين.

لهذا كانت اللباقة من أهم غايات التداولية ومبادئها. إنها تبين مدى نجاح الفرد في علاقته بمجتمعه والاندماج فيه.

لقد وضع علماء التداولية شروطًا ومبادئ للتحاور مثل: مبدأ التعاون لغرايس (م.تع)، ومبدأ التأدب والأخلاق لليتش (م.خ)، فهي تحقق للفرد قدرًا كبيرًا من التواصل الناجح.

انطلاقًا من هذين المبدأين نرى اللباقة عملية تداولية. لهذا فإننا نسمي من ينجح في التواصل مع الآخرين اسم (الإنسان اللبق)، تمييزًا له عمن لا ينجح في هذا الأمر (وهم

كُثر)، وتسمى هذه العملية بـــ (لباقة الخطاب) أي حسن التعبير ومناسبة المقال للمقام الذي يُقال فيه، فكم في مجتمعنا من يقال له: أنت لبق ؟!.

٢- اللباقة مكون مخي :

لقد أضحى الأمر حقيقة بعد أن كان خيالًا. فما كنّا نتحدث عنه كافتراض، فنصف الفرد ذا الحديث الحسن المقنع باللباقة استنادًا إلى تقديرنا الشخصي لسلوكه: (كلباقته في الحديث ومراعاته مقام القول، وحسن أدبه في التعامل مع الآخرين). أصبح هذا الوصف حقيقة علمية، لها قوانينها ونظرياتها التي تحكمها، ولها مكانها في المخ.

لم تعد اللباقة نظرة أو تقديرًا شخصيًا، أو فكرة فلسفية تداولية، إنها حقيقة علمية هذا بفضل تطور علم الأعصاب وآلته التصويرية، وقدرتها على أن تُرينا ما يحدث في المخ وخصوصًا في النصف الأيمن منه، عندما يقوم الفرد بالكلام، واختياره من بين الكلمات ما يناسب المقام ليُقال فيه. لقد أثبت تصوير المخ أن النصف الأيمن من المخ يقوم بالعملية السابقة، فهو المسؤول عن اللباقة في المخ. كيف عرفنا هذا ؟ عرفناه وتأكدنا منه من المرضى المصابين بآفة في النصف الأيمن من المخ. حيث يتعطل عن القيام بعمله، مما يؤثر على لباقتهم، فنراهم يثرثرون في كلامهم، ولا يراعون المقام الذي يجب أن يُقال فيه قولهم، لهذا نحن نؤمن الآن أن اللباقة حقيقة مادية ملموسة، وليست فكرة فلسفية أو سلوكًا اجتماعيًا، إننا نقول عن اللباقة أنها سلوك اجتماعي، ينطلق من قاعدة في المخ، هي المسؤولة عن نجاح الفرد في تحقيق تواصله مع مجتمعه في لباقة، هذه القاعدة المخية هي النصف الأيمن من المخ. هذه حقيقة وجود المكون المخي للباقة.

كل هذا جعلنا نؤمن أن اللباقة وحسن الخلق ناتجة عن عملية تحدث في المخ، وليست خيالًا.

استطاع علم الأعصاب أن يقدم لنا حالات مرضية ناتجة عن فشلها في التواصل مع الآخرين؛ بسبب آفة أصابتهم في النصف الأيمن من المخ. وقدمت لنا النظرية التداولية تطبيقات على ذلك من خلال تلك الحالات المرضية، تؤكد هذا الرأي العلمي، فبدأنا نتعايش مع هؤلاء المرضى بطريقة سلسة، وعن اقتناع منا بهم، وقدرة

على التفاهم معهم، وبدأنا في معرفة موضع المرض في الدماغ، وتعلمنا كيفية التعامل معهم، بل إننا بدأنا نؤمن أن التداولية ليست نظرية فلسفية، بل هي سلوك نعيشه ونتعامل معه، كأنه جزء في الجسد يمكن أن يمرض (كما قلنا آنفا). عندما يفقد الفرد القدرة على التواصل مع الآخرين بصورة لائقة، ويتعامل معهم بجفوة وخشونة، ودون لباقة أو أدب، فإن هذا السلوك الفشل غير اللبق الذي لا يراعي فيه الالتزام بمبادئ التداولية، يرجع إلى أن هذا الشخص مريض، لهذا فإننا نصفه بالمرض التداولي، والعامة تقول: ده عنده خلل في مخه.

وقد عرضها أوبلر وزميله تحت عنوان: اللباقة في الخطاب. فبينا دور النصف الأيمن من المخ في تنظيم الخطاب.

ثانيًا: الخطاب :

١- لباقة الخطاب :

قال أوبلر: "أشار بعضهم إلى دور معين للنصف الأيمن من المخ في تنظيم الخطاب، ولكي نبين الفارق بين سلامة التركيب ومستوى الجملة ومستوى الخطاب كان من الضروري فحص الفارق بين مكانة سلسلتين، بالاعتماد على السياق. فعلى مستوى الجملة نرى أن قولنا (الزبد أصفر اللون) جملة مفيدة، على العكس من قولنا (مِنَ العمل). أما إذا أخذنا السياق الآتي بعين الاعتبار، فإن الحكم قد يصبح معكوسًا:

المتكلم أ: يدهشني أن أراك عند موقف الحافلة هذا. من أين أتيت ؟.

المتكلم ب: من العمل/*.

الزبد أصفر اللون"(١).

٢- الفرق بين الجملة والخطاب: (تداولية النص) :

يتحدث أوبلر عن عمل النصف الأيمن من المخ في الجانب اللغوي، ويشير إلى دوره في تنظيم الخطاب.

فيبدأ حديثه ببيان الفرق بين اللغة والخطاب فالجملة الصحيحة نحويًّا ودلاليًّا (الزبد أصفر اللون) تخضع للقوانين التي تنظم اللغة. فهي جملة مفهومة فعلًا كجملة صحيحة نحويًّا تحمل رسالة خبرية لفظية محددة. أما الجملة الثانية وهي جملة مقتطعة من السياق، فلا يمكن فهمها إلا داخل السياق الخاص بها.

(١) اللغة والدماغ: ١١٠

على الرغم من أنها صحيحة نحويًّا ودلاليًّا، لكنها غير مفهومة. لهذا يجب أن نعيدها إلى السياق الذي أتت منه، عندئذ سوف نفهمها كما أراد بها قائلها.

إننا على مستوى الجملة وحدها لا نحتاج إلى فهم السياق الذي أتت منه، فهي لم تأت من سياق، بل هي جملة مكتفية بذاتها عن أي سياق يفسرها، ومهمتها معروفة ومحددة وهي الإخبار، أما الخطاب فهو بناء كامل متكامل يُكمل بعضه بعضًا، ويحمل رسالة أكبر ومضامين أكثر، إنه النص الكامل، صاحب الغاية المحددة على الرغم من طوله الكبير أحيانا، واحتوائه على عدد كبير من الجمل. لهذا لو حاولنا نزع جملة أو كلمة منه فإن البناء يسقط، أما سقوطه فيظهر من خلال عدم فهم معناه فهمًا جيدًا.

لهذا فالجملة في سياق النص تمثل جانبًا واحدًا من بناء أكبر هو هذا النص الذي يُكْمل بعضه بعضًا، ويأتي فهمه من التكامل التام بين أجزائه من جمل وعبارات، تكون الفكرة العامة المستهدفة منه. فإذا نزعنا جملة منه سقط البناء، وفشلت عملية توصيل المعلومة به، ويعد هذا الأمر مساسًا بالقضية الأساسية في الخطاب، أي: فهم ما يقوله صاحب الخطاب، إن الترابط بين جمل الخطاب النصي مرجعه إلى تحقق الجانب التداولي فيه، فصاحب الخطاب لابد أن يقدم لنا نصًا كاملًا مترابطًا تؤدي كل كلمة أو جملة فيه دورًا في بنائه، وفهمه بصورة جيدة.

نحن نحتاج إلى هذا التمييز بين مستوى الجملة ومستوى الخطاب (النص)؛ لبيان أن الخطاب مجموعة أشياء تتعاون معًا لتوصيل رسالة من المتكلم إلى السامع، وهذه الأشياء قد تكون لغوية أو غير لغوية. لهذا نرى أوبلر عند حديثه عن المستوى التداولي جعل النص أداة تمثيل على النظرية التداولية وليس الجملة، لماذا ؟ لأن النص يحوى عناصر تداولية لا نجدها في الجملة المستقلة، فنجده يقول: "من الملاحظ على المستوى إنتاج النص واستخدام اللغة أن أقوى الأدلة التي تدعم ضلوع النصف الأيمن من المخ تتركز في الجوانب العاطفية من الخطاب"(١).

إن فهم الخطاب التداولي ينطلق من تحليل ودراسة النص. فهناك أشياء يذكرها المتكلم ضمن مكونات حديثه، أي في نص حديثه.

(١) اللغة والدماغ: ١٠٩

وهناك أشياء يفهمها السامع منه من خلال عناصر أخرى غير لغوية أتت متضمنة داخل النص (مكتوبًا أو منطوقًا)، وفي سياقه مثل: ملامح الوجه. ووقت الحدث، وخلفياته، وغيرها مما يبين مقصد المتكلم من خطابه، وغايته وهدفه منه.

٣- لباقة الخطاب في مبادئ جرايس وفهم النص :

وضع فيلسوف التداولية جرايس دستورا لنجاح التعاون والتواصل بين المتكلمين، أي أنه يجب على المتكلمين الالتزام به، وهو "يشمل أربعة مبادئ رئيسة للحديث وهي:

١- مبدأ الكمية: يجب على المشتركين مراعاة عدم الإفراط أو التفريط في تقديم المعلومات عند تبادل الخطاب.

٢- مبدأ المناسبة: على المشتركين الحفاظ على موضوع معين عند الانتقال من عبارة إلى التي تليها، بحيث لا يسمح بتغيير الموضوع إلا في وقفات معينة.

٣- مبدأ الكيفية: يجب أن تقدم المعلومات بطريقة منظمة وواضحة.

٤- مبدأ النوعية: بصفة عامة، ينبغي على الناس أن يقولوا ويكتبوا ما يعتقدون أنه الحق"(١).

إن مبادئ جرايش تحكم الخطاب، وتضع له إطارًا عامًا يلتزم به المشاركون في الحوار كموصوفين باللباقة وحسن الحوار مع غيرهم، وهي تؤثر على بنية الخطاب، فتفرض على المتكلم قيودًا يجب أن يلتزم بها عند حديثه مع غيره. فإذا اعتبرنا مبادئ جرايس قيودًا على المتكلم يجب عليه الالتزام بها، فإن هناك قيودًا أخرى يفرضها الخطاب على المتكلم أيضًا منها:

١- يجب على المتحدثين الحفاظ على مستوى مناسب من الرسمية مع الآخرين.

٢- يكون استخدام السلوك الرسمي خطأ في السياقات غير الرسمية مع الأقل مكانة.

المحور الرابع: مشكلة فهم الآخرين :

هذا المحور على جانب كبير من الأهمية؛ فهو يوجه أنظارنا إلى جانب آخر في العملية التداولية قائلًا: مهلًا لقد ناقشتم وأطلتم النقاش حول تداولية الفرد مع نفسه،

---

(١) اللغة والدماغ: ١١٢

دون أن تتعرضوا لهذا الشخص: (المتلقي، والمخاطب، والآخر) الذي يمثل النصف الثاني من القضية. فالحوار: متكلم ومخاطب، يتبادلان المواقع في الحوار الواحد أكثر من ألف مرة. إننا تحدثنا عن المتكلم فقط، ولابد أن ندرك الطرف الثاني، ونتفاعل معه ونشعر بوجوده ومتطلباته، هذا الأمر يمكن معالجته وفهمه من خلال عناصر هذا المحور وهي:

أ- نسبة الأفكار إلى الآخرين :

كيف نفهم الآخرين إنسانًا كان أو حيوانًا أو جمادًا ؟ هل باللغة وحدها ؟ يقول جاك موشلار: "يهدف المخاطب الذي يؤول جملة إلى إدراك الفكرة التي يريد المتكلم التعبير عنها، وهذا الأمر هو إذن - وإلى حد ما - عملية يؤدي محصلها إلى نسبة أفكار إلى الآخرين ... لا تنفصل نسبة حالات ذهنية إلى الآخرين عن استعمال اللغة، ورغم ذلك فإن عملية النسبة هذه ليست أمرًا تختص به اللغة واستعمالها. فكما هو شأن العمليات الاستدلالية، فإن هذه النسبة هي قدرة عامة يختص بها الجنس البشري تتجاور قدرة عدد من الثدييات العليا.

ويمكن أن نضيف هنا أننا لا ننسب أفكارًا ومقاصد إلى الكائنات البشرية الأخرى أو الحيوانات وحسب، بل ننسبها كذلك إلى الجوامد التي نعلم جيدًا أنها تفتقر إلى حالات ذهنية ... فهل يمكن أيضًا اعتبار أن هذه الأشياء، وهي من صنع الإنسان، قد ورثتْ من صانعيها بعض الحالات الذهنية ؟ ... إذن لا يقتصر الموقف الذي يقوم على عملية نسبة الحالات الذهنية إلى الآخرين على استعمال اللغة، ويطلق عادة على هذه العملية تسمية استراتيجية المؤول"(١).

لقد كنا نظن أننا لا ندرك الآخر، والحقيقة أنه موجود ومتجسد داخلنا بصورة لا انفكاك منها، كيف؟ إننا كي نفكر بنضج ونتفاعل مع الآخر بشكل جيد نفعل الآتي:

١-نتخيل الآخر ونستحضره في حوارنا مع أنفسنا (الكلام الداخلي) الكل يفعله.

٢- نتكلم ونخاطب الجماد وحيوان على أنه إنسان يفهمنا، وكلنا يفعل هذا أيضًا.

٣- ننسب حالات ذهنية للآخر، فنراه يعتقد كذا، ويفكر بكذا، أو لا يفكر بكذا.

---

(١) التداولية اليوم علم جديد في التواصل: ٢٣ ــ ٢٤

كل هذا لأننا لدينا استراتيجة تأويل، أي: تفسير أفعال الآخر، (ربما يكون هذا التأول أو الافتراض لم ولن يرد إلى ذهن الآخر، لماذا نفعل هذا؟ لأننا نضع أنفسنا مكانه، نتخيل أنه هكذا يفكر، وهكذا سيفعل. إنها طبيعة التفكير لدى الثدييات، لأنهم في صراع دائمًا مع الآخر من أجل البقاء، فهم يتوقعون هجومًا عليهم، لذا هم في حالة تأهب دائم للدفاع عن النفس، فيفكرون ويتوقعون نتيجة تجارب سابقة ما سيفعله الآخر. حتى أصبح هذا التأويل والسلوك التفكيري لدى الثدييات جينيًّا وراثيًّا داخلهم.

ب- بداية إدراك الآخرين: (نظرية العقل) :

يوضح أوبلر بداية إدراك الآخر للتواصل معه منذ الطفولة قائلا: "تعتمد هذه النظرية – وتعرف بـــ (نظرية العقل) – على فكرة مفادها أن الأطفال بعد سن معينة تتكون لديهم حساسية لما يعرفه محاوروهم ومالا يعرفونه. فعلى سبيل المثال في تلك السن تقريبًا يبدأ الأطفال باستخدام الضمائر بصورة ملائمة أكثر من ذي قبل في أماكن تمكن محاوروهم من معرفة المتعلق المقصود، وباستخدام أسماء العلم عند تعذر ذلك"[(1)].

هنا يعرض لقضية إدراك الإنسان للآخر منذ مرحلة الطفولة،حيث تظهر لديه القدرة على إدراك المحيطين به، والإحساس بهم، والتفاعل معهم، يظهر هذا في مخاطبتهم لهم بالضمائر التي تناسبهم وباستخدام الأسماء التي تشير إلى أشخاصهم إذا تعذر استخدام الضمير، ويبدأ الإدراك عندهم بضمير المتكلم (أنا)، بما يعرف بالتمحور حول الذات، ثم تتسع دائرة إدراكهم ليدخل ضمير المخاطب: (أنت)، ثم ضمير الغائب: (هو)؛ مما يصور نموتطور التحام الطفل واختلاطه واندماجه في المجتمع، وكذا نمو إدراكه للآخر.

هذه إشارة إلى بداية التفاعل مع الآخر في مرحلة الطفولة من خلال عملية تداولية تواصلية؛ لهذا يمكننا القول: إن التداولية قدرة خفية توجد لدى الإنسان تمكنه من التواصل مع الآخرين بصورة صحيحة ومناسبة للمكان والزمان والأشخاص الذين يتحدث معهم، توجد لدى الثدييات جميعًا، وهي تبدأ لدى الإنسان منذ الطفولة.

---

(1) اللغة والدماغ: ١١٣

مثال:

(بداية إدراك الطفل للآخرين)

هذه قصة تؤكد أن الطفل يستطيع أن يفهم الكبار؛ فعندما كنتُ في عمر الخمس سنوات، أدركت أن أبي يمكن أن أحصل منه على نقود، ولا يمكن أن يعطيني حلوة؛ أمَّا أمي فكانت لا تعطيني النقود أبدًا لكنها كانت تعطيني الحلوة، فإذا أردت الحلوة ذهبت إلى أمي وإذا أردت النقود ذهبتُ لأبي، إنه إدراك وفهم لسلوك الآخرين وماذا سيفعلون منذ الطفولة جعلني أفعل هذا، إنه ذكاء مبكر سبقت به جيلي في الدهاء والمكر.

ت- عدم القدرة على إفهام الآخرين مقصدنا :

إذا **كنَّا** فهمنا الآخر كقدرة جينية داخلنا تعمل لدينا منذ الطفولة. يجب أن نُفْهِم الآخر مقاصدنا وأهدافنا، تلك قضية تداولية، لماذا ؟ لأن التداولية هي فن التواصل مع الآخر بفهمه وإفهامه، هنا يأتي الحديث عن عملية الإفهام، هل ننجح في إفهام الآخر ما نريد ؟ إنها مشكلة تواصلية لها شق آخر، ليس الإحساس بالآخرين وفهمهم؛ بل المشكلة تتعلق بقدرتنا على إفهام الآخر مقصدنا من قول أو فعل، تلك مشكلة كبيرة يعاني منها الأسوياء والمصابون على حد سواء، وحتى الأسوياء متفاوتون في هذه القدرة، لكنها تظهر بصورة أكبر لدى المصابين بآفة في النصف الأيمن من المخ.

يقول أوبلر: "فالمصابون بآفة في النصف الأيمن يواجهون صعوبة أكبر في توضيح المتعلق المقصود"[1]. لو نظرنا إلى هذا الأمر بعمق أكبر لأدركنا أنها عملية تداولية نؤديها في كل لحظة دون أن ندري أننا نفعلها.

مثال :

من يمشي لا يدرك أنه كي يمشي يجب أن يحرك أعضاء من جسده وعضلاته، بل ربما لا يدرك أنه كي يمشي لابد أن يصل إلى أعضاء جسده أمرٌ بالتحرك من مخه، تنقله شبكة عصبية طويلة يصل طولها قدر محيط الكرة الأرضية. يفعل كل هذا دون أن يدري بكل العمليات العصبية الفسيولوجية التي تتم داخله. لكن إذا أخبرتُه بهذا،

(١) اللغة والدماغ: ١١٣

قال لي أعرف ذلك. لكنه سيظل لا يعرف أو يتجاهل أنه يعرف حتى تحدث مشكلة في أي عضوفي عملية المشي، ساعتها يقول: أنا لا أشعر بقدمي، أنا أهم بالقيام فلا تستجيب قدمي، فيدرك أن هناك حلقة لا يشعر بها بين استجابة قدمه للمشي وعملية المشي هي الأمر الصادر من خلاياه العصبية بالمشي، ولا يمكنه تنفيذه بسبب مرض يمنعه من هذا.

ث- عدم إدراك مكانة الآخرين المخاطبين :

ثم يحدثنا عن قضية أخرى، وهي مراعاة المكانة الأدبية والاجتماعية للأكبر سنًا أو سلطة، ويذكر أصل القضية أنها سلوك نتعلمه منذ مرحلة للطفولة قائلا: "من الملحوظ أننا نتعلم بدءًا من الطفولة وعلى امتداد حياتنا العملية كيف نختار السجل الملائم من اللغة register التي نستخدمها بحيث نأخذ في الحسبان الاختلاف في السلطة بين رب العمل والعامل مثلا. فبينما نرى الأسوياء يدركون أن الموظف لا يقل لرئيسته (إياك أن تفعلي هذا!) فإن المصابين بآفات في النصف الأيمن قد يختارون تلك الإجابة بنفس نسبة اختيارهم لعبارة (ألا تعتقدون أن من الأفضل ألا نفعل ذلك ؟) عند وصفهم حالة مشابهة (كأن تكون ربة العمل قد اتخذت الترتيبات للقيام بنزهة في ذات اليوم الذي كان الموظفون يزمعون فيه مفاجأتها بحفلة)"(١).

إنها إحدى مشكلات التواصل مع الآخر، حيث يعجز هؤلاء المصابون عن مراعاة المكانة الاجتماعية والأدبية للآخرين، كما يفعل الأسوياء في مثل هذه الحالة. وهذا الأمر يعني أن مراعاة مكانة الآخرين سلوك تداولي تفرضه قواعد التداولية عند التواصل مع الآخرين. ولا يخرج عنه إلا إنسانٌ مريض تداوليًا في النصف الأيمن من المخ، فهو غير طبيعي، إن التداولية تربي الإنسان منذ ولادته على أن تكون له شخصية تواصلية متفاعلة مع مجتمعه طبقًا للقواعد الاجتماعية الخاصة بهذا المجتمع الذي يعيش فيه. ووصف هذا الأمر بأنه سلوك مكتسب يجعلنا نفهم أن التداولية سلوك مكتسب لا يولد به الفرد، بل يكتسبه من مجتمعه الذي يحيا فيه. ولهذا يختص كل مجتمع بسلوك تداولي خاص به، وكثيرًا ما يختلف مع سلوك المجتمعات الأخرى.

وقد أشار إلى هذا السلوك ليتش في كتابه (مبادئ التداولية) كشرط أساسي لصحة التحاور مع الآخرين، مقرنًا إياه بمبدأ التعاون (م تع) لجرايس، وقد سماه مبدأ

---

(١) اللغة والدماغ: ١١٤

الأخلاق (م خ) يقول: "ستكون حجتي لصالح دراسة التداولية مدعومة بواسطة مبادئ تحاورية من النوع الذي أوضحه مبدأ التعاون عند جرايس (م تع) ... وأريد أن أدخل في التداولية لا مبدأ التعاون (م تع)، فحسب، بل مبدأ حسن الأدب والخلق، والتفاعل بين هذين المبدأين (م تع) ومبدأ الخلق (م خ) سيكون — الحقيقة – أحد الاهتمامات الأساسية في هذا الكتاب"(١). إنه يرى أن التحاور الصحيح بين الناس لابد أن يقوم على هذين المبدأين: مراعاة التعاون بينهم، وحسن التخاطب معهم أي التأدب معهم.

إن هذا المبدأ الذي أضافه إلى مبدأ جرايش إلى جانب مبدأ ليتش يختلف فيهما الناس من مجتمع إلى آخر حسب ثقافتهم. يقول: "إن مبدأ التعاون: (م تع)، ومبدأ الخلق (م خ) إنما يجريان على نحو متغاير في الثقافات المختلفة أو الجماعات اللغوية في المواقف المجتمعية المتباينة بين الطبقات الاجتماعية المتعددة ...

وبعبارة أخرى فإن التداولية المجتمعية هي السطح التوسطي الاجتماعي للتداولية"(٢). ويشمل مبدأ الخُلق لديه على مجموعة قواعد هي: "قاعدة اللياقة، وقاعدة السماحة، وقاعدة الاستحسان، وقاعدة التواضع"(٣).

يقول ليتش عن قيمة هذين المبدأين مقارنًا إياهما بمبادئ الخطابية: "المبادئ الخطابية تفيد من الوجهة الاجتماعية السلوك التواصلي في شتى طرقه. إلا أنها ...، لا توفر تعليلًا أو سببًا داعيًا للنقاش والحوار، مثل مبدأ التعاون ومبدأ الخلق هما عاملان منظمان يضمنان بأنه متى شرع الإنسان في التحاور، فلا يترتب عن ذلك قطع مسارهما ولا تشويش المسلك وعدم فائدته"(٤).

---

(١) مبادئ التداولية: ١٧
(٢) مبادئ التداولية: ٢١
(٣) المرجع السابق: ٢٧
(٤) نفسه: ٢٨

الفصل العاشر
أمراض التداولية

مقدمة: المرض التداولي :

١- هل التداولية جزء في الجسد ؟:

هل التداولية جزء في الجسد كالقدمين واليدين والساقين ؟ إذا كان الأمر كذلك، هل يمكن أن يمرض هذا الجزء ؟ سؤال غريب والإجابة عليه أغرب، إن الإجابة عليه تكون: (**نعم**) هناك جزء في الجسد يمكن أن نسميه التداولية.

وبطبيعة الحال يمكن أن يمرض، فكل جزء من الجسد معرض للمرض، إذن يبقى السؤال على حاله. ماالعضو التداولي في الجسد ؟ وكيف يمرض ؟ وإذا مرض فكيف نعالجه ؟.

٢- أين توجد التداولية في الجسد ؟:

إذا كنَّا نتواصل باللغة كوسيلة أساسية للتفاهم فلابد أن نعرف: أين توجد اللغة في الدماغ بشكل عام ؟ إنها توجد في نصفي المخ الأيمن والأيسر، ولكن كل نصف منهما يسيطر على جانب في اللغة، فالنصف الأيسر مسؤول عن اللغة: استقبال اللغة، وحل شفرتها من خلال مركزي بروكا وفيرنيكا، اللذان يقدمان تفسيرًا أولي للغة؛ وذلك بتقديم الترجمة الحرفية للغة، أما الجانب التداولي فهو مسؤول عن النصف الأيمن من المخ، وهو يتعاون مع النصف الأيسر في معالجة اللغة في صورتها النهائية كرسالة ذات معنى ومفهوم قد وصلت إلى أدمغتنا، يقول برنارد: "لاحظ أن مناطق اللغة هذه موجودة في النصف الأيسر من المخ، وقد كشفت أدلة لغوية حديثة عن أن الجانب الأيمن للمخ متضمن في استيعاب اللغة، لكنه لا يتحكم في الناتج الصوتي للغة، ويُعتقد أن النصف الأيمن للمخ أكثر حساسية للمحتوى الانفعالي للغة، مثل الفكاهة والسخرية، ويبدو أن ٩٠ في المائة تقريبا من الأشخاص يهيمن لديهم النصف الأيسر من المخ على الوظائف اللغوية، في حين يوجد ١٠ في المائة تقريبًا من الأشخاص الأسوياء يهيمن لديهم النصف الأيمن من المخ على وظائف اللغة"[(١)].

(١) المعرفة والمخ والوعي: مقدمة لعلم الأعصاب المعرفي: ٣٥.

ونحاول هنا مناقشة الأمراض التداولية التي تصيب الفرد بسبب آفة في النصف الأيمن من المخ، تؤثر على عملية تواصله مع الآخرين من خلال عدة محاور، هي:

المحور الأول: كيف تمرض التداولية ؟ :

١- عرض الفكرة :

نبدأ الإجابة على هذا السؤال بالقيام برحلة مع المعلومة، حيث تأتي إلينا من خارج الجسد ومن داخله لتبدأ رحلة الوصول إلى أدمغتنا، وإلى مراكز استقبالها في المخ، وحل شفرتها، وتخزينها، ثم يتم استدعاء المعلومة من مخزنها بالدماغ، وهو الشبكة العصبية التي تمتد من داخل الخلية إلى جدارها؛ فتخزن فيها المعلومة وتستدعيها الخلية منها للتحاور والتفاعل والتفكير بها لحل المشكلات. وهذه الشبكة تنمو وتزيد بزيادة المعلومات الواردة إليها من الخارج، وتبلغ درجة الزيادة المفرطة، ثم تليها مرحلة تكسير هذه التشابكات، والنتائج التي توصل إليها الشخص بعد عملية التفكير في قضية ما أو أمر شغله.

ثم تتكسر بعض التشابكات - كما ذكرتُ آنفًا - وتزول بسبب آفة النسيان، ويقوم الشخص بتدوينها من جديد من خلال عملية المراجعة والتذكر. ويحدث تواصل الشخص مع الآخرين بناءً على هذه المعلومات المدونة في تشابكاته العصبية، ويتفاعل مع مجتمعه بها. هنا تأتي المعلومات إليه من هذا المخزن الذي تخزن به؛ كي تحدد سلوكه اللغوي وغير اللغوي مع الآخرين وتحكمه.

مثال:

إذا دخل شخص على جماعة فقال: السلام عليكم. فلماذا فعل هذا السلوك اللغوي الاجتماعي ؟ فعله لأنه تم تخزين هذا السلوك في تشابكاته العصبية، ليصبح سلوكًا اجتماعيًا تفرضه عليه قوانين مجتمعه الذى يعيش فيه، فإذا لم يفعل هذا فإن الجماعة تحاسبه وتلومه على فعله.

لقد نشأ فى مجتمعه على هذا السلوك، فلا يخرج عنه أبدًا، إلا إذا أصيب بآفة في دماغه، فيقول القوم ساعتها عنه: لا تعاتبه، فهو مريض في دماغه أو عنده خلل في رأسه، هذه العبارة العامية هي تشخيص صحيح لحالة هذا الشخص الذي خرج عن أساليب اللياقة الاجتماعية لمجتمعه، من هذا نرى أن عدم مراعاة السلوك الاجتماعي أو

الخروج عليه، هو مرض يجب أن يُعالج منه هذا الشخص الذي لم يستطع أن يتواصل مع مجتمعه كما ترى النظرية التداولية.

٢– المرض التداولي :

ماذا حدث في دماغ هذا الشخص نتيجة إصابته ؟ لقد حدث عطب في النصف الأيمن من مخه. هذا العطب حقيقة علمية قال بها علماء الأعصاب، وتم تحديد حالات المرض التداولي، مثل: الثرثرة في الكلام، وعدم التحدث بصورة لائقة مع الآخرين، وعدم اللباقة. قالوا: إنها ناتجة عن عطب يصيب النصف الأيمن من المخ. وقد سميتُها بأمراض التداولية، ليس بالنظر إلى العضو الذي يمرض أو يسبب المرض أو اسم المرض العلمي، ولكن بالنظر إلى نتيجة هذا المرض، وهي اضطراب في الجانب التواصلي عنده أي الجانب التداولي، فسميتها بالنظر إلى الجانب الذي تأثر بالمرض، وهو الجانب التداولي، فصح أن نقول: **المرض التداولي**؛ لأنه نتج عن آفة في المخ؛ مما يجعل الفرد غيرَقادرٍعلى التواصل بصورة جيدة مع مجتمعه حسب عادات وسلوك ولغة هذا المجتمع.

إذن يمكن القول: إن هناك مرضًا يصيب الفرد يؤدي إلى عدم قدرته على التواصل مع مجتمعه، يمكن أن نسميه بالمرض التداولي. لكن يبقى السؤال على حاله كما هو، ما العضو المسؤول عن هذا المرض الذي يصيب الجانب التداولي، فيؤدي إلى فشل الفرد في إقامة علاقة اجتماعية وتواصلية مع مجتمعه ؟ الإجابة: إنه العضو الذي يحقق التواصل مع الآخرين في المخ، ليس مكان إنتاج اللغة واستيعابها (بروكا وفيرنيكا) في النصف الأيسر، بل النصف الأيمن من المخ، بتشابكاته وخلاياه العصبية، فإذا أُصيب هذا الجزء من المخ بعطب أو آفة فإن هذا يؤثر على عملية التواصل، أي: التداول بين الفرد ومجتمعه.

بعد هذا العرض المبسط للفكرة، يمكننا التأكيد على وجود عضو مسؤول عن تحقيق التواصل بين الناس هو النصف الأيمن من المخ؛ وذلك من خلال دراسة موسعة لهذه المشكلات المرضية التي تحدث في النصف الأيمن من المخ، وأثرها على عملية التداول التواصليِّ، فإذا أصيب هذا الجزء بعطب فإن من نتائج هذه الإصابة فشل في تحقيق التواصل بين المصاب ومجتمعه بصورة كاملة وصحيحة.

لهذا يمكن القول: إن في الجسد عضوًا تداوليًّا مسؤولًا عن تحقيق التواصل بصورة جيدة قد يمرض، ويمكن إيجاز ما سبق وعرضه في صورة خطوات تتمداخلالمخ ليحدث التواصل التداولي الجيدمع الآخر:

أ- تستقبل الحواس المعلومة من الخارج، وتنقلها لمراكزها في المخ داخل أحد نصفيه.

ب- يتم حل شفرة المعلومة بمراكز الاستقبال الخاص بها، وتخزينها بالشبكة العصبية.

ت- يتم استدعاء المعلومة من الشبكة العصبية عندإجراء حوار حولها وبتوجيه منه

كل هذا يتم في سرعة فائقة دون شعور من الفرد بما يحدث داخل دماغه إلا أنه إذا سُئِل أجاب إجابة جيدة. إننا لا نشعر بالعملية السابقة إلا عند إصابتنا بآفة في خلايانا العصبية وتشابكاتها، فنلاحظ حينها أننا نكرر كلامنا ونثرثر دون لباقة أو لياقة فيه.

مثال:

أ) **افتراض حالة مريض تداولية :**

هذه قصة افتراضية حول فكرة المرض التداولي: جلس رجلان يتحدثان عن ثالث:

قال الأول: لا تمزح مع فلان، فهو لا يفهم المزاح ولا المجاز والسخرية والتهكم.

قال الثاني: لماذا ؟.

قال الأول: إن فهمه لا يرقى إلى إدراك هذه الأشياء، وأنا لا أفهم أكثر كلامه إلا بصعوبة، إنه لا يقدر على متابعة حديثنا/ خطابنا، فتراه يثرثر في كلامه، ويخرج عن موضوع الحديث، ويتكلم بطريقة مضطربة لا انتظام فيها دون اكتراث بفشل محدثه في فهم قوله؛ مما يجعل مستمعه ومحدثه يرتبكان بسبب فشله في التواصل معه، رغم أنه يتكلم ويفهم كلامنا.

قال الثاني: نعم إنه لا يدرك العبارة اللائقة، ولا يحسن اختيارها، ولا يراعي ما يحقق التواصل مع الآخر. كالمكانة الاجتماعية لمخاطبه والتأدب معه، أو اللباقة في الحديث.

قال الأول: إنه مصاب بخلل في عقله، بالعامية مخه ضارب، وسلوكه مخه محروقة.

هذا القول – على بساطته – يصف حالة الرجل الثالث: المريض التداولي، وصفًا بالغ الدقة، فهذه الأنماط من الناس موجودة في مجتمعاتنا بكثرة، نراهم صباح مساء. ونتعايش معهمعلى الرغم من ظروفهم المرضية، دون سخرية منهم، فهم أمر واقع ومتكرر، فكان بعضُنا يصفهم بهذه العبارة العامية (دماغه ضربة) سخريةً منهم. لكن الحقيقة العلمية أثبتت صحة هذا الوصف من خلال علم الأعصاب. لهذا نحاول معرفة حقيقة الأمر من خلال علمالأعصاب وبحوثه، وعلماء اللسانيات العصبية أيضًا.

ب) قصة حقيقية لمريضة تداوليًّا :

هذه قصة واقعية ذكرها أوبلر لحالة مريضة عصبية تداولية، نشأت نشأة خاصة. اسمها **جيني**، "وهي طفلة حبسها أبوها الظالم ولم يتجاوز عمرها عشرين شهرًا في غرفة صغيرة معتمة ليلًا ونهارًا دون أية محفزات ... حتى بلغت البنت الثالثة عشرة من العمر، بعدئذ أدخلت جيني المستشفى وعولجت من سوء التغذية، وأعطيت فرصة البدء بتعلم اللغة، والتعرف على المجتمع"[١].

في هذه الظروف الخاصة، نشأت جيني منعزلة عن عنصرين هما: المجتمع واللغة، إذن كيف يكون انعكاس هذه العزلة على الفتاة في لغتها وتواصلها مع مجتمعها (تداوليًّا) ؟.

قال أوبلر عن تأثير هذه العزلة على القدرة المخية؛ ومن ثم التواصلية التداولية للفتاة: "وقد أشارت اختبارات عدة إلى أن جيني كانت تستخدم نصف مخها الأيمن في تعلم اللغة، فالاختبارات الدايكوتية dichotic (السمعية) بينت أن أداء الأذن اليسرى أفضل بكثير من أداء الأذن اليمنى، كما بين الاختبار التاكيستوسكوبي (البصري)، ... أنها كانت تميل إلى إظهار تأثير الحقل البصري الأيسر أيضًا"[٢].

لقد تعطل لدى جيني النصف الأيسر من المخ، أو قل: يعمل بكفاءة أقل، لهذا كانت تستخدم نصفها الأيمن بكفاءة أفضل. لقد عرفنا أن جيني تستخدم النصف الأيمن من المخ أفضل من النصف الأيسر من خلال الاختبارات التي بينت استخدامها عند السمع الأذن اليسرى بصورة أفضل. ونتيجة الارتباط العكسي بين نصفي المخ

(١) اللغة والدماغ: ٩٢
(٢) المرجع السابق: ٩٥

ونصفي الجسد، حيث يرسل النصف الأيمن من الجسد مدركاته في شكل إشارات إلى النصف الأيسر من المخ، ويحدث العكس في النصف الأيمن. لهذا نراها تسمع بالأذن اليسرى أفضل من الأذن اليمنى؛ مما يعني أن نصف مخها الأيمن يعمل بصورة أفضل من نصف مخها الأيسر، مما يؤكد أنها تستخدم النصف الأيمن من المخ بصورة أفضل. فإذا علمنا أن النصف الأيمن من المخ هو المسؤول عن الجانب التداولية – كما ذكرنا آنفًا – فهذا يعني أن نجاحها في التواصل التداولي سببه سلامة النصف الأيمن من مخها.

مشكلة التداولية لدى جيني :

أكدت دراستنا للحالة المرضية التي نحن بصددها (جيني) أنها كانت تعاني من عجز في التواصل الاجتماعي التداولي. يقول أوبلر: " ولم تكن اللغة هي الشيء الوحيد الذي يعالج في النصف الأيمن عند جيني؛ فقد أظهرت معظم هذه الاختبارات أن القدرات غير اللغوية مثل معالجة الأصوات البيئية كانت تعالج في النصف الأيمن من المخ أيضًا، وتشير كيرتس إلى أن كثيرًا من عناصر اللغة ... أنها ترتبط بالنصف الأيمن من المخ، كالكلام الصيغي formulaic speech، ليست موجودة ضمن العناصر التي تجيدها جيني على نحو خاص، وتعزو هذا إلى عجز جيني الشديد عن إقامة علاقات اجتماعية وإلى أن كثيرًا من عناصر اللغة في النصف الأيمن من المخ هي عناصر براجماتية"(١).

تبين لنا عجز جيني التداولي من خلال عدم قدرتها على إقامة علاقات اجتماعية، فهي تعجز عن الكلام الصيغي، أي الكلام الذي يأتي في شكل قوالب ذات صيغ محددة ثابتة متكررة يوميا مثل كلمات التحية والامتنان وعبارات المناسبات. إن مَن لا يستطيع استخدام هذه الصيغ الكلامية يعجز عن إقامة علاقات اجتماعية تواصلية.

والمقصود بالكلام الصيغي هنا العبارات الاجتماعية التي تحقق تواصلًا تداوليًّا مثل عبارات التحية والعبارات التي تشير إلى العلاقات الاجتماعية والتي تأتي في شكل قوالب وصيغ لغوية متكررة ثابتة معروفة لدى أبناء المجتمع والتيمثلنا لها آنفا بعبارة (السلام عليكم) التي تشير إلى سلوك اجتماعي تداولي، فإذا كانت جيني لا تفهم هذه

(١) اللغة والدماغ: ٩٥

العبارات ذات القوالب اللغوية المعروفة فإن هذا يعني تأثر الجانب التداولي عندها نتيجة مرضها.

٣- عناصر التداولية :

لكن قبل أن ننطلق في دراسة الحالات المرضية يجب أن نعرض عناصر التداولية التي ذكرها علماء التداولية كأساس للتواصل الجيد بيننا، ويصبح الخارج عنهذه العناصر مريضًا تداوليًّا. إنها مبادئ التداولية التيقد يحدث لها انحراف يؤدي إلى مرض تواصلي.

تفترض التداولية مجموعة مبادئ لصحة التواصل مع الآخرنذكرها هنا للتذكرة فقط :

١- الإشاريات ٢- الافتراض المسبق ٣- الاستلزام الحواري.
٤- قصدية المتكلم ٥- أفعال الكلام.

إذا كان بعض العلماء قد عرَّفَ التداولية أنها استعمال اللغة، فإن مفهوم التداولية أكبر من هذا وأعمق، فهي كما عرفها جاك موشلار: أنها فن التواصل، وهو تعريف أعم وأشمل لمفهوم هذه النظرية، والذي سننطلق منه في فهم أصول هذه النظرية والغرض منها. فهي فى أبسط صورها تعرض حقيقة قدرة المخ البشري على خلق واقع اجتماعي مترابط متفاهم بكل وسائل التفاهم التي يتحقق بها التواصل بين أفراد المجتمع، مما يخلق بينهم تعاونًا بنَّاءً، على أسس من الخُلق الحسن، هذه من أهم أسس ومبادئ التداولية. فالتواصل بغرض التعاون مبدأ تداولي (م تع)، وكذلك كونه على أسس من الأخلاق الحسنة والتأدب (م خ). إن هذه المبادئيتم صنعها وتكوينها في مخ الفرد أثناء تعامله مع مجتمعه. لهذا كانت العلاقة بينهما (المخ ومبادئ التداولية والمجتمع) علاقة تكاملية ترابطية، فلا يمكن فهم حقيقة هذه المبادئ والأسس إلا إذا فهمنا أن خلفها مخًا سليمًا، يقوم بصنعها لا يخرج الفرد عنها مُطلقًا، وإذا خرج عنها يكون هذا بسبب عطب في الآلة التي تقوم بهذا العمل (المخ).

من هنا كانت دراسة المخ وما يصيبه من أعطاب ضرورة لفهم الجانب الحقيقي من النظرية التداولية -جانبها التطبيقي-عندما تعمل الآلة بصورة جيدة وعندما يصيبها العطب هذا ما يجب دراسته لذا يجب دراسة الأمراضوعرضها على النحو الآتي:

أولًا: الحالات المرضية وشكلها.

ثانيًا: الجزء المصاب من المخ ومكانه.

ثالثًا: أثر المرض الذي يسبب العجز التداولي، والمبدأ التداولي الذي أصيب بسببه.

المحور الثاني: حالات المرض التداولي :

المرض الأول: مبادئ غرايس وأمراض التداولية :

يتخذ أوبلر من كلام جرايس عن مبادئ الحديث الصحيحة منطلقًا لحديثه عن مبادئ التداولية الصحيحة، كيف ينجح الحديث أوالنقاش المتبادل بيننا، إنه حقًّا أصلٌ من أصول التداولية. فما ذكره جرايس يمكن أن نقيم عليه أساس تقييمنا لحديث مَن يتكلم معنا، فنقول لمن لم يلتزم بهذه المبادئ: إنه مريض عقليًّا أو أنَّبه آفة في دماغه.

هذا القول على بساطته، صحيح كل الصحة، لهذا يجب علينا مراعاة هذه المبادئ في حديثنا مع هذا الشخص المريض تداوليًّا، وأن نضم الخروج عن هذه المبادئ إلى الحالات المرضية،كما ذكرها جرايس، يقول أوبلر: "مبادئ الحديث الثلاثة الأولى عند جرايس Grice (وهي الكمية، والعلاقة بالموضوع، والطريقة) تبدو بوضوح حين لا يلتزم بها المصابون بالعته، فتراهم يكثرون الثرثرة، ويخرجون عن موضوع الحديث، ويتكلمون بطريقة مضطربة لا انتظام فيها دون الاكتراث بفشل محدثيهم في استيعاب ما يقولون. ولاحظ جرايس أن المبادئ تعكس ما يتوقعه المستمعون. فلدى الاستماع إلى المصابين بمرض الزهايمر يرتبك المستمعون بسبب فشل التواصل برغم الجهود التي يبذلونها. ولا يمكن استنباط المكونات المحددة لفشل الحديث إلا بتحليل يجريه أحد علماء اللغة"[١]. كل هذه الظواهر نلحظها بكثرة على هؤلاء المرضى، لهذا يجب أن نتعامل معهم كمرضى تداوليين قد أصابتهم آفة في النصف الأيمن من المخ.

المرض الثاني: فقدان الوعي :

تعد مشكلات الأمراض التي تصيب الدماغ ناتجة عن مشكلات العصر الكبرى؛ وذلك لكثرة الضغوط النفسية والفكرية التي تقع على الفرد مما يجعله في حالة توتر دائم، بسبب ما يراه في يومه وبيته وعمله، إلى جانب ما يسمعه من كوارث تصيب العالم من دمار وحروب ومجاعات.كل هذا يُصَبُّ في بوتقة واحدة هي الدماغ فيشعر بالخوف والقلق من يومه وغده هذه المشكلات التي لم تكن تعتري الآباء ولا الأجداد.

---

(١) اللغة والدماغ:٢٠٤

لهذا ليس من المستغرب أن نرى هذه الأمراض العصبية العجيبة التي لم تكن تصيب الأجيال السابقة، بل إننا نسمع عن مرض نعرضه الآن لا يتصوره أحد إلى الآن، وهو المرض التداولي. لقد سمعنا في عصرنا أسماء أمراض لكنَّنا نعدها غريبة، لقد أصبحت معروفة ومتداولة اليوم بيننا، وشائعة في مجتمعنا المعاصر لم تكن معروفة من قبل، كفقدان الوعي، والاضطرابات النفسية، والسكر، والسرطان، لقد سميناها كلها (أمراض العصر).

لكننا في إطار دراسة فن الاتصال التداولي ندرس ما يصيب المرء من أعطاب في الجزء المسئول عن الاتصال في الدماغ، أو قل ما يصيب آلة التواصل التداولي، فينتج عنه عدم القدرة على التواصل. وبشكل عام، يعد النصف الأيمن من المخ المسؤول عن تحقيق التواصل التداولي بين البشر، ليس كنصف خاص بالجانب اللغوي، بل كنصف مسؤول عن العملية التنظيمية للعلاقات التواصلية بين الفرد ومجتمعه.

إننا في سبيلنا لفهم العملية التواصلية التداولية، لابد أن ندرس الجانب الآخر منها. ليست عمليات التواصل الناجحة، ولكن عمليات التواصل التي تصيبها إعاقة تمنعها أن تكون ناجحة، ثم نبحث عن سبب هذه الإعاقة. ونعرض هنا لعدد من الأمراض التي تصيب المخ في النصف الأيمن من المخ، وأثرها على الجانب التواصلي التداولي.

١ – معنى فقدان الوعي :

أول الأمراض التي نعرض لها هومرض فقدان الوعي، عرفنا آنفًا أن الوعي هو الخبرات التي يخزنها الفرد في تشابكاته العصبية. قد حَفَل به جون سيرل كثيرًا، نظرًا لدوره في تحقيق التواصل التداولي، بل إنه حدثنا — باستفاضة – حديثًا علميًّا دقيقا أو قل عصبيا دقيقًا عن أمراض الوعي؛ مستشهدًا بذلك على وجود الوعي في الدماغ، ودوره في تحقيق التواصل بين البشر. لكننا لم ننظر إلى الجانب الآخر من القضية وهو: ماذا يحدث للفرد عندما يفقد وعيه ؟ وما نتيجة ذلك ؟ أي جزء بالمخ يسبب فقدان الوعي ؟ لقد عرفه سيرل قائلًا: "الملمح الأساسي والجوهري إلى أبعد الحدود للعقول هو الوعي consciousness، وأنا أعني بالوعي هذه الحالات من الإحساس أو الإدراك التي تبدأ بصورة نموذجية عندما نستيقظ في الصباح من نوم بلا أحلام، ونستمر خلال اليوم حتى نستسلم للنوم مرة أخرى"[(١)].

(١) العقل واللغة والمجتمع الفلسفة في العالم الواقعي:٨٠

الوعي: هو ما إذا ذهب عنا قلنا: لقد فقدانا وعينا، والفقدان يحدث نتيجة شيئين:

الأول: لدى الأسوياء،هو فقدان الوعي المؤقت نتيجة تكرار أعمال يومية نؤديها بصورة روتينية، مارسناها كثيرًا وتدربينا عليها، فأصبحنانؤديها بصورة تلقائية دون وعي بما نفعل، كقيادةالسيارة لدى المتمرس، يؤديها بمهارة حتى ولو انشغل بأشياء أخرى، في فقد وعيه مؤقتًا أثناء القيادة، فإذا حدثت مفاجأة في الطريق يعود وعينه إليه سريعًا.

النوع الثاني: هو فقدان الوعي المرضي نتيجة إصابة في المخ، مما يؤدي إلى فقدان الوعي بصورة مرضية، فتظل باقية لدى المريض حتى يعالج منها، فهويحتاج إلى علاج.

٢– فقدان الوعي المؤقت عند برنارد بارز :

عندما يعتاد الفرد على عمل ما ويتعلمه ويحترفه فإنه سيؤديه بصورة آلية تلقائية، ربما يؤديه وهو يعمل عملًا آخر نتيجة هذا الاحتراف والمهارة. هذا الأمر يؤدي إلى أنه يكون غير واعي بما يفعله عند أدائه نتيجة هذه الاحترافية، بل إنه يكون فاقد الوعي تجاه هذا العمل، مما يجعلنا نسميه فقدان الوعي المؤقت غير المرضي. وتكلم برنارد عن هذه الحالة قائلًا: "عادة، يؤدي توجيه الانتباه نحو منبه محدد إلى طرق مختلفة من الخبرة به، لكن هناك حالة أخرى قد يحدث فيها خلاف ذلك: ويقصد بذلك ما يحدث عند ممارسة المرء لعادات يتقنها. وكقاعدة: كلما زادت احتمالية التنبؤ بالمهارة الحركية، كلما قلت درجة الوعي بها ... ويطلق عادة على اضمحلال الوصول الواعي للمهارات المتقنة (**التلقائية**)، وتسير التلقائية جنبًا إلى جنب مع فقدان الضبط الإرادي المحكم للتفاصيل المعتادة ... تميل الأحداث المتكررة للتلاشي من الوعي إن لم تكن ذات أهمية خاصة بالنسبة للشخص ...

إن الجاذبية وإن كانت تستثير الحاسة الدهليزية لدينا (الاتزان) لكن يندر أن نوجه انتباهنا إليها نظرًا لأنها قابلة للتنبؤ. ومع هذا تصبح العلاقة بين الجسد والجاذبيةبؤرة لتركيز الانتباه، مرة أخرى، لدى رواد الفضاء، والقافزون بالمظلات، وحين يركب الأطفال عجلة التزلج"(١).

---

(١) المعرفة والمخ والوعي: مقدمة لعلم الأعصاب المعرفي: ٤٥٨ ــ ٤٥٩

المقصود بالتنبؤ: تكرار الحدث وتوقع حصوله، فنتنبأ به قبل حدوثه، كأن نقول: فلان سيسرق هذه الدار إذا مر بها؛ نظرًا لتكرار هذا الفعل منه، فنتنبأ بالأمر قبل وقوعه، نظرًا لتكراره من هذا الشخص، وهو يقوم بهذا العمل بصورة تلقائية اعتادها.

ثم يذكر برنارد توضيحًا أكثر مع عالم آخر قائلًا: "كتب شنيدر التالي: ثمة ترابط بين مفاهيم التلقائية والمعالجة المضبوطة، والوعي ... حيث تنطوي معالجة التلقائية ... على المعالجة المتوازية للمهام، وبذل قليل من الجهد، ولهذا يصعب التحكم فيها. وتعمل المعالجة المضبوطة عند التعرض لمواقف جديدة متغيرة، انطلاقًا من مجموعة من المناطق القشرية عامة المجال، وتكشف عن معالجة تسلسلية، وتتطلب مزيدًا من الجهد"(١).

ويقول برنارد عن عمل التلقائية: "تعمل التلقائية ... على تمكين المعلومات المهمة من أن تكون واعية. وبشكل عام تؤدي الممارسة المكثفة إلى تلقائية الأداء، وانخفاض في إمكانية الوصول الواعي للمهارة المتقنة. وتستند كثير من الأنشطة الذهنية المعتادة في حياتنا اليومية على حشد روتينيات تلقائية غير مرئية بالنسبة لنا، لكن هذه الروتينيات التلقائية هي التي تسمح بحدوث مختلف أنشطة الحياة اليومية"(٢).

٣- معالجة فقدان الوعي المؤقت :

يشير برنارد إلى كيفية معالجة فقدان الوعي في المخ قائلًا: "كشفت الدراسات المخية التي أُجريت حول المهارات المتقنة عن أن إشارات التصوير بالرنين المغناطيسي الوظيفي تنخفض انخفاضًا شديدًا عندما تتلاشى المهارة من الوعي ... ونتيجة للممارسة والتعلم، يُلاحظ أن إشارة التصوير بالرنين المغناطيسي الوظيفي الخاصة بشبكة محددة من المناطق القشرية قد انخفضت إلى ما هو أقل من عتبة الاكتشاف. ويُلاحظ مثل هذه الانخفاضات المميزة في الأنشطة القشرية عند أداء المهمات المتقنة، والقابلة للتنبؤ. لاحظ أن جزءًا من القشرة المخية السمعية يظل نشطًا حتى بعد أن تصبح مهمة المسح تلقائية، ويوجد هذا الجزء عند الحواف الخلفية العليا للفص الصدغي. ويرجع السبب في هذا إلى استمرار عملية تحليل المدخل السمعي.

(١) المعرفة والمخ والوعي: مقدمة لعلم الأعصاب المعرفي: ٤٥٩

(٢) المعرفة والمخ والوعي: مقدمة لعلم الأعصاب المعرفي: ٤٥٩

ويبدو أن التنشيط المحلي في هذه الحالة لاينتشر على نطاق واسع، مثلما يحدث عند معالجة أحداث واعية"[1].

يشير بارنارد إلى ما يحدث في المخ عند فقدان الوعي المؤقت الذي يظهر بالتصوير بالرنين المغناطيسي؛ فيظهر في صورة عدم استجابة الخلايا العصبية لهذه الإثارة الناتجة عن حدث ما (مسموعًا كان أومرئيًّا) بسبب تكراره؛ نتيجة ممارسته وتعلمه؛ مما ينتج عنه عدم إثارة هذا الحدث لمراكزللمخ، فلا تستجيب له هذه المراكز، بسبب التكرار والألفة لهذا الحدث. إن ما ذكره برنارد حقيقة يمكن أن نؤكد عليها، لنقول: إن علم الأعصاب وآلته التصويرية الحديثة أثبت ما نعرفه ونلمسه في حياتنا اليومية. فالإنسان عبارة عن دوائر كهربائية تعمل داخل المخ، تحقق له التواصل والتداول مع العالم المحيط به،فهذا عملها. فإذا قلنا: إن الإنسان يمكن أن ينعزل بأجهزته العصبية عن عالمه نكون قد أخطأنا. فهو يتفاعل – حتى في صمته – مع ما يحيط به، نتيجة إشارات كهربائية غير مرئية تقوم بهذا العمل الذي لا نراه، فجاءت التداولية لتفسر كيفية حدوثه، وقدم علم الأعصاب الدليل عليه.

مثال :

كنت أتعلم قيادة السيارة في شبابي، وعانيت كثيرًا عند بدء تحريك السيارة بتزويدها بالوقود، مع رفع قدمي الثانية عن الكابح (الفرامل)، فكنت أركز بشدة في هذه العملية، وأنصرف بذهني عن أي شيء يحدث حولي، فلا أرى في عالمي إلا عملية القيادة، فإذا حدثني أحدُ المحيطين بي لا أسمعه؛ وأشعر بفروة رأسي مشدودة خوفًا أن أصدم أحدًا. مضت السنوات وأصبحت متمرسًا ومحترفًا في قيادة السيارة، فأقود وأنا أحدث مَن معي. إذن أين ماكنت أشعر بهفي بداية تعلم القيادة ؟ وماذا كان يحدث في مخي أثناء التعلم ؟ وماذا أشعر الآن في رأسي بعد أن احترفت القيادة ؟ وما مدى استجابة مراكز مخي للحدث، وانفعالها به بعد الاحتراف ؟.

في الحالة الأولى: أشعر بتركيز كبير في مخي من خلال انصرافه عن أي عمل آخر غير القيادة، فلو صورتُ مخي في هذه اللحظة، سأجد إثارة شديدة في خلاياه العصبية ومراكز المخ المختلفة، وحركة غير عادية داخل مخي بين هذه المراكز بسبب تواصلها معًا.

---

(١) المرجع السابق: ٤٦٠

فى الحالة الثانية: بعد تعلم القيادة، لو صورتُ مخي في هذه اللحظة، سأجد استرخاءً في خلاياه، وسكونًا، وعدم استجابة لأي إثارة.

إن مراكز المخ اعتادت الحدث فلا تثار به أو تنتبه له، فهو يحدث بصورة تلقائية روتينية يومية، لهذا يمكن التنبؤ به قبل حدوثه. فلو اتصل بي صديق أثناء القيادة وتحدث معي فسأرد عليه وأتحدث معه في هدوء؛ ذلك لأن مخي اعتاد الحدث، فهو يفعله يوميًّا دون تفكير.

مثال آخر :

لو سمعت صوتًا مزعجًا يحدث بجوار دارك، ماذا سيحدث لك ؟ ستهب واقفًا مترعجا، وتسرع إلى مصدر الصوت لتعرفه، فتثار خلاياك العصبية ومراكزها، ويرتفع تدفق الأدرينالين في دمك ويحمر وجهك من الفزع.

لكنك لو علمت أنه صوت آت من آلة ضخمة وضعوها في المصنع المجاور، تصدر هذا الصوت المزعج يوميًّا؛ ماذا ستفعل مع هذا الصوت المزعج المتكرر يوميا ؟ إنه شيء معتاد، تصحوا عليه من نومك كل يوم دون أن تنفعل أو تترعج. فتشرب الشاي في هدوء قائلًا بالعامية المصرية:

(ربنا مش هيتوب علينا من مزيكة حسب الله دي كل يوم)، وتستمر في ممارسة حياتك ككل يوم. فلو قمنا بتصوير مخك في هذه اللحظة لن نجد إثارة في خلاياك العصبية، أو مركز مخك، ولن نجد حركة غير عادية بها، فقد أَلِفَ جهازُك العصبي هذا الصوت واعتاده.

٤- الحالة الثانية: فقدان الوعي المرضي :

أولا: جون سيرل وحالات فقدان الوعي :

عرض جون سيرل لأمراض التداولية ضمن حديثه عن الوعي، ويعد الوعي أساس قضية التداولية عنده، فلابد لكل حوار صحيح ناجح تداوليًّا أن يكون كلا الطرفين (المتكلم والمخاطب) على وعي تام بما يقول أويسمع.

وقد يُصاب أحدُهما بآفة في آلة تنسيق وصنع الحوار (المخ) بعطب ما؛ مما ينتج عنه عدم القدرة على الوعي بما يقول أو يسمع. وهو ما تحدث عنه سيرل ضمن حديثه عن أدلة وجود الوعي وأثره، يقول: "وإحدى الطرق الجيدة لدراسة الوعي هي دراسة حالات توقفه عن العمل وحالاته المرضية، ولقد وجدنا حالات التوقف عن العمل في الأبعاد الأفقية والرأسية معًا.

ويُظهر مرضى المخ المنفصم توقفًا عن العمل في وحدة رأسية. والمرضى أصحاب عيوب المخ التي تقدم حالات عجز في التذكر القصير الأجل والأيقونية يمثلون حالات تعطل في وحدة أفقية"(١) فرق سيرل بين نوعين من التعطل هما تعطل في:

١- الوحدة الرأسية يقصد به: مرض انفصام المخ.

٢- الوحدة الأفقية يقصد به: حالات عجز في التذكر القصير الأجل والأيقونية.

لقد أتى سيرل بفكرة جديدة لدراسة الوعي، وهي توظف الحالات المرضية في دراسته، وهو توجه علمي دقيق، يبين مدى فهم سيرل العلمي لقضية الوعي.

مثال :

ويشير سيرل من خلال حالات مرضية إلى أثر هذا على الوعي كمرض انقسام المخ؛ وذلك بسبب قطع الروابط بين شقي المخ باستئصال الجسم الجاسئ/ الثفني، وهو الرابط بين نصفي المخ. يقول سيرل: "ومرضى انقسام المخ هم الأمثلة المدهشة لحالات الانهيار في الوعي الموحد. في هذه الحالات نجد أن المرضى الذين يعانون من صور خطيرةمن الصرع اقتضت حالاتهم أن يقطع الأطباء لهماالجسم الجاسئ، وهو جسم مننسيج يربط نصفي المخ. وكانت النتيجة أن ظهر أنهم يملكون موضعين مستقلين للوعي، وأن هذين الموضعين يتصل أحدهما بالآخر اتصالًا ناقصًا فقط"(٢).

١- تجربة على فقدان الوعي المرضي :

إن نصفي المخ يرتبطان معًا بالجسم الجاسئ، وهما أيضًا يرتبطان بصورة عكسية في العمل؛ فالنصف الأيمن مسؤول عن متابعة أعمال النصف الأيسر من الجسد، والعكس صحيح. وقدم لنا سيرل نموذجًا لهذا الأمر من خلال تجربة يقول عنها: "في تجربة نموذجية، عرضت على مريض انقسام المخ ملعقة على عينه اليسرى التي ترتبط بالجانب الأيمن من مخه، وبعد هذا سُئِل ماذا ترى ؟ وكانت قدرته اللغوية في الجانب الأيسر من مخه، وبالجانب الأيسر من مخه أجاب بصدق لا أرى شيئًا، وبعد هذا نراه يتناول بيده اليسرى التي يتحكم فيها الجانب الأيمن من مخه، الذي يرى الملعقة في الواقع، ويمسك بها ... فهؤلاء المرضى يظهرون انهيارًا في الوحدة الرأسية للوعي"(٣).

(١) العقل واللغة والمجتمع:١١٢ ــ ١١٣
(٢) العقل واللغة والمجتمع:١١٢ ــ ١١٣
(٣) المرجع السابق:١١٢ ــ ١١٣

٢- حالات أخرى لفقدان الوعي عند سيرل :

أشار سيرل إلى حالات مرضية أخرى لفقدان الوعي، وهي :

أ- "وهناك أيضًا تجارب كثيرة أثبتت أن المرضى الذين يعانون من أنواع معينة من أذى المخ لا يستطيعون امتلاك سلسلة من الحالات الواعية لأنهم فقدوا القدرة على تنظيم خبراتهم عن طريق الذاكرة"(١)، وذكر مثالًا على هذه الحالة من فقدان الوعي كالتذكر. يقول: "والمثال النموذجي هو مثال المريض الذي يعاني تزامن كورساكوفو الذي دخل على طبيب وأجرى معه محادثة قصيرة. ثم ترك الطبيب الحجرة، وعندما عاد بعد دقائق قليلة لم يدركه المريض. فذاكرة المريض غير قادرة على إدراك السلسلة المتطورة من حالاته الواعية"(٢).

ب- يوضح سيرل كيفية الاستفادة من الحالات المرضية في بيان شروط حد الوعي؛ وذلك عندما تكون هناك حالة إصابة تؤثر على الوعي. يقول: "ومرة أخرى، كما هو الحال مع ملامح كثيرة للوعي ربما تكون الطريقة الواضحة إلى حد بعيد لدراسة شروط حد الوعي هي النظر إلى الأمثلة المريضة، وفي بعض صور الانحراف الذي يتسبب في دوخة تقريبا. لا يستطيع المرء أن يتذكر ما عسى أن يكون الشهر. أو أين يكون المرء"(٣).

ت- العجز عن الربط بين الأشياء: يرجع سيرل هذا العجز إلى فقدان الوعي؛ وسببها كما يرى (**مرض انقسام المخ**) فعند أصحاب الحالات المرضية مثل مرض انقسام المخ؛ يعجز المرض عن القيام بعملية الربط بين الأشياء. يقول سيرل: "ويمكن أن نفهم هذه النقطة فهمًا جيدًا إذا رجعنا إلى مرضى انقسام المخ. إذا فكرنا في مرضى انقسام المخ على أنهم يملكون مركزين للوعي، فإننا لا نفكر في وعي فريد يحدث في مركزين. وإنما بالأحرى في حقلين واعيين منفصلين موحدين، والشيء الذي لا سبيل إلى تصوره هو أنه لا بد أن يوجد عنصر للوعي لا يكون موحدًا. وهذا يعني أنه لا يمكن أن نتصور أن حالاتي الواعية لابد أن تأتي بوصفها سلسلة متزامنة من أجزاء منفصلة؛ لأنه إذا كانت جميع الأجزاء جانبًا من إدراكي الواعي في وقت واحد"(٤).

---

(١) نفسه: ١١٣

(٢) نفسه:١١٣

(٣) العقل واللغة والمجتمع الفلسفة في العالم الواقعي:١١٦

(٤) المرجع السابق:١٢٠

ثانيًا: برنارد ج. بارز وحالات فقدان الوعي :

التداولية فن التواصل، أي بيان كيف تكون لدى الفرد مهارة في التواصل بالآخر؟ إذا فقد الفرد هذه المهارة، فهو مصاب بآفة في مخه. لهذا يجب أن نعرف هذه المهارات التي يجب أن يتمتع بها الفرد العادي، ثم نعرف الآفات التي تصيب هذه المهارات، وما يستتبعها من تأثير على قدراته ومهاراته التواصلية التداولية بصورة متخصصة أكثر.

عرض برنارد حالة الوعي لدى الأسوياء، وحالة الوعي لدى المرضى، والقدرة التواصلية لدى الفرد في الحالتين، وكان منطلقه هو التحليل العصبي؛ فشرح عمل المخ ومراكزه في عملية الوعي بصورة أكبر عمقًا من سيرل نظرًا لطبيعة عمله وتخصصه كعالم أعصاب، وأشار إلى دور الوعي في حياتنا، وأن خبراتنا الواعية تأتي من معايشتنا للآخر، لهذا يجب تقييم مستوى الوعي الذهني للفرد؛ لنتمكن من تحديد قدراته الواعية وخبراته، يقول: "تأتي معارفنا الرئيسة عن الخبرات الواعية مما يمكن أن يخبرنا به الأشخاص الآخرون، وعند إجراء فحص عيادي لمريض مصاب بعطب مخي، يبدأ الأخصائي النفسي العصبي عمله بتطبيق اختبار مختصر لتقييم الوضع الذهني الراهن"[(١)].

١- الخبرات الواعية لدى الأسوياء :

إن الخبرات الواعية لدى الأسوياء يُظهرها هذا الاختبار الذي أشار إليه برنارد بقوله: "يوضح هذا الاختبار ما نتوقعه من شخص واع ذي مخ سوي:

- التوجه نحو الزمان والمكان والآخرين: (أي يوم هذا من أيام الأسبوع، والتاريخ، والمكان، وأي فصول السنة) ؟ أين أنت الآن ؟ من أنت ؟ من أنا ؟ [الفاحص]
- الذاكرة العاملة البسيطة: (أحفظ الأشياء الثلاثة التالية)
- الانتباه والحساب: (قم بإجراء عد تنازلي سباعي للأرقام بداية من١٠٠) (١٠٠, ٩٣, ٨٦, ٧٩, ٧٢...).
- الاستدعاء متوسط المدى: (ما الأشياء الثلاثة التي طلبت منك حفظها سابقا ؟).
- اللغة: (اطلب من المريض أن يسمي ساعة اليد، أو القلم الرصاص، أو يكرر جملة، أو يتتبع ثلاثة أوامر بسيطة، أو يقرأ ويفهم جملة بسيطة، أو يكتب جملة من تكوينه).

---

(١) المعرفة والمخ والوعي: مقدمة لعلم الأعصاب المعرفي: ٤٥٣

- المهارات الحركية البصرية الرئيسة: نسخ رسم لشكل ثماني الأضلاع.

لاحظ أن هذه المهام قائمة على تسليم ضمني بقدرة الشخص على الضبط الإرادي لما يقوم به"[1]، هذا نموذج للخبرات يشير إلى قدرة الإنسان الواعي السوي التي يمتلكها.

٢- بعض الحالات المرضية :

ولكن في حالات المرض يصبح الوضع مختلفًا، وكذا في حالة النوم أو النعاس، يقول برنارد عن هذه الحالات: "قد يجد الأشخاص المصابون بقصور في الفص الجبهي صعوبة في أداء هذه المهام نظرًا لضعف الوظائف التنفيذية، وبقدر ما تبدو عليه هذه الأسئلة من بساطة، لكنها تغطي الإدراك الحسي، والتحكم الإرادي، والذاكرة العاملة والذاكرة المباشرة ومتوسطة المدى، والاسترجاع طويل المدى، والجهد الذهني واللغة، والانتباه للأحداث اليومية، والتحديث المنتظم للذاكرة مع مرور الوقت، والتخيل الذهني، والمهارات المكانية، وكثيرًا من الأشياء الأخرى،ويتطلب أداء هذه المهام حالتي يقظة ومعرفة يجري تعديلها بشكل واع. ويضعف أداء هذه المهام نتيجة للنعاس، والهفوات الانتباهية، وأثناء موجات النوم البطيئة، وخلال أحلام مرحلة نوم حركات العين السريعة، وكذلك نتيجة لتعاطي العقاقير أو الإصابة باضطرابات مخية تتسبب في إضعاف الوعي. تُعد حالة اليقظة الطبيعية بمثابة الشرط الضروري لكل العمليات المعرفية"[2]. إذن حالات فقدان الوعي لا ترتبط بالمرض فقط، بل تتأثر بسبب النوم أو النعاس أيضًا.

٣- حالات فقدان الوعي بسبب المرضأو التعب أو النوم :

"عادة يفتقد المرضى المصابون باضطرابات في الفصوص الجبهية المرونة المعرفية، ويميلون للحصول على درجات منخفضة في اختبار الفرز لويسكونسن. ويعد التمادي في القيام بمحاولات خاطئة بمثابة مؤشر على الإصابة باضطرابات مثل خرف الزهايمر. ويُعدُّ ويسكونسن لفرز البطاقات على قدر كبير من الأهمية عندما تكون أعطاب الفص الجبهي دقيقة للغاية، بحيث يصعب اكتشافها باستخدام مسوح المخ المعتادة.

---

(١) المرجع السابق: ٤٥٣

(٢) المعرفة والمخ والوعي: مقدمة لعلم الأعصاب المعرفي: ٤٥٣

"يصعب علينا كثيرًا تغيير القواعد عندما نكون منهكين ذهنيًّا أو عندما نشعر بالنعاس، أو في أي حالة أخرى من حالات الضعف، بل إن التحول من أداء مهمة إلى مهمة أخرى يتطلب موارد ذهنية إضافية، تتجاوز المستخدمة في أداء الأعمال الروتينية والتلقائية أمثلة لذلك: قد يجد سائق السيارة الذي يعاني من النعاس، صعوبة كبيرة في اتخاذ قرارات سريعة عند التعرض لمواقف مرورية، ربما لأن الفص الجبهي لديه يعمل بمستوى أقل مما هو مطلوب. وقد لوحظ أن العاملين في نوبات العمل الليلية يرتكبون أخطاء أعلى من التي يرتكبها العاملون في نوبات العمل النهارية، ويبدو أن هناك دور للفصوص الجبهية في صنع هذه الفروق"(١).

ثالثا: فقدان الوعي النوعي عند غي تيبرغيان :

يقول غي عن فقدان الوعي : "الدراسات التجريبية المتعلقة بمدة التمرد النفسي تفيد بأن مرحلة اتخاذ القرار تفرض تبئيرًا تعاقبيًّا في الفكر قد يترافق – على المستوى الظواهري – مع انطباع في الوعي النوعي. وغالبا ما تربط الدراسات العصبية النفسية اضطرابات الانتباه ذات الطبيعة المعرفية بعلل في الفص الجبهوي من الدماغ"(٢).

المقصود بمرحلة اتخاذ القرار، أي: مرحلة التفكير في الشيء قبل اتخاذ قرار الفعل، ثم لاتخاذ قرار ما تجاهه، وهو ما يسمى بمرحلة اتخاذ القرار. أما فرضية التبئير التعاقبي في الفكر، فإنه يعني تركيز الانتباه في الفكرة التي نفكر فيها بشكل مستمر متعاقب؛ قد يرافقه انطباع سابق من الوعي النوعي حول الشيء، وقد يمتد التفكير في الشيء بشكل متعاقب فننتقل في التفكير فيه من قضية إلى أخرى.

المرض الثالث: مرض الانفعال العاطفي التداولي :

١) الانفعال العاطفي :

أ) لدى الأسوياء :

لقد رأينا أن النصف الأيمن من المخ هو المسؤول عن الجانب الانفعالي العاطفي في الدماغ، لكننا نشير هنا إلى ما يحدث للفرد عند إصابته في هذا الجزء من الدماغ، وتأثيره على انفعال الفرد العاطفي، بما يؤدي إلى التأثر على عملية التواصل بين

(١) المرجع السابق: ٦٣٥

(٢) قاموس العلوم المعرفية:٨٤

الأفرادفى انفعالهم العاطفي، الذي نعبر عنه باللغة أو غيرها. فتعبير الفرد عن انفعاله بعاطفة الحب أو الكره أو الاحتقار يتم بوسائل كثيرة منها اللغة، إلى جانب الإيماءات والإشارات ونظرات الإعجاب أو الكره أو الاحتقار أو الدهشة. والتي يفهمها كل إنسان سوي صحيح في جانب النصف الأيمن من مخه. فإذا لم يدركها ولا يفهمها فإن هذا الفرد مصاب في هذا الجزء من مخه. إنها لغة التواصل بالمعنى الواسع الذي أشرت إليه سابقًا، والذي قالت به النظرية التداولية فهي فن التواصل، وهنا تظهر قيمة تعريفنا للتداولية.

فإذا كانت العاطفة نوع من الانفعال فإن الإنسان عندما ينفعل بأمر ما (حبًا أو كرهًا) فإن عواطفه تثار بناءً على نوع هذا الانفعال، فالعاطفة (كما قلت آنفا) نوع من الانفعال. هذا الانفعال يحقق له تواصلًا مع الآخر حبًا أو كرهًا. فالانفعال والعاطفة ينعكسان على تواصل الفرد مع الآخر.

ينعكس الانفعال العاطفي على الفرد، ويحدد نوع تواصله مع غيره، فهو:

١-إن كان الانفعال العاطفي حبًا، فيؤدي للتروع إلى سلوك اقتراب بين المحبين.

٢-إن كان الانفعال العاطفي كرهًا، فيؤدي للتروع إلى سلوك الابتعاد بينهما.

ب) لدى المرضى :

لكن ماذا يحدث إذا مرض الفرد في النصف الأيمن من مخه ؟ وهو المسؤول عن الانفعال العاطفي. ستظهر آثار الإصابة فى التغيرات التي نلاحظها على المريض نحو:

١- عدم الشعور أو الإحساس بأي عاطفة تجاه أي كلمة عاطفية والإحساس بها.

٢- عدم إنتاج كلمات تحمل انفعالًا عاطفيًّا نحو: أحب أكره أشتاق أهوى أعشق

٣- عدم إدراك الإشارة أو الإيماءة والتلميحة العاطفية أو فهمها عندما توجه إليه.

٤- عدم إصدار إشارة أو تلميحة عاطفية تعبر عن انفعاله تجاه الأشياء والآخرين.

٥- عدم فهم العبارة المعبرة عن الانفعال العاطفي نحو: نظر شذرًا، أو قطب وجهه.

يقول أوبلر: "نرى أنه عندما طلب بلوندر وباورز وهايلمن من عدد من المصابين بآفة في النصف الأيمن من المخ وفي النصف الأيسر من المخ ومن الضابطة الأسوياء تأدية عدد من الاختبارات بهدف التمييز بين عوامل التنغيم والمعجم وتعبيرات الوجه

الدالة على الانفعال، استطاع المصابون بآفات في النصف الأيمن أن يستشفوا المحتوى العاطفي للجمل التي تصف حالات انفعالية. وينطبق هذا على الجمل التي تحتوي على مؤشر انفعالي صريح (مثل: سررت بزيادة الأجر)، والجمل الصعبة التي تحمل معنى إيحائيا (مثل: كانت الذكرى الثالثة لوفاة ولدك)، والجمل التفسيرية (مثل: بعد أن تشرب الماء، تشاهد العلامة).

فهذا كله يفند الادعاء بأن المصابين بآفات في النصف الأيمن من المخ يعانون من تعطل شامل في القدرة على تمثيل الحالات الانفعالية"(١).

إنه يشير بهذه التجربة والاختبار إلى عدم التعطل الشامل في الجانب العاطفي والانفعالي لدى بعض المرضى المصابين في النصف الأيمن من المخ. لكن الأصل أن يظهر التعطل لدى كثير من حالات الإصابة المرضية في النصف الأيمن من المخ. لكن هل يمكن القول: إنه في حالة تعطل النصف الأيمن من المخ يقوم النصف الأيسر من المخ بهذا العمل مكانه ولو بكفاءة أقل ؟ استنادًا لنتائج سابقة ربما يكون افتراضي صحيحًا !.

ماذا يقصد بالتمثيل الانفعالي ؟:

ورد في كلام أوبلر هذا القول: "فهذا كله يفند الادعاء بأن المصابين بآفات في النصف الأيمن من المخ يعانون من تعطل شامل في القدرة على تمثيل الحالات الانفعالية."(٢) فماذا يعني أوبلر بعبارة (تمثيل الحالات الانفعالية) ؟ وكيف فهمها ؟ وما علاقة ذلك بالتداولية ؟ لهذا نحاول هنا فهم عبارة (**التمثيل الانفعالي**).

إنها تعني تمثيل الانفعال في الدماغ، ويحدث هذا التمثيل باستدعاء ما يماثل هذا الانفعال من الذاكرة كتمثيل له؛ كي نفهم هذا الانفعال الآني ونفسره، فنصنع مثيلا له في فضائنا الذهني لنفهمه.

مثال: الإنسان الذي يمر بحالة انفعالية نتيجة حزن أو فرح أو دهشة. كيف يعبر عن هذا الانفعال الآني ؟ إنه يستدعي من ذاكرته انفعالًا مشابهًا أو مماثلًا للانفعال الذي هو فيه الآن، فيتمثله ويعبر عنه الآن، كما عبر عنه من قبل أو شاهد غيره يفعله. فيكون هذا تمثيلًا للانفعال الآني.

(١) اللغة والدماغ: ١١٠

(٢) اللغة والدماغ: ١١٠

التداولية :

التداولية فن التواصل، أي فهم ما يصدر عن الآخر: كلمات وعبارات وتلميحات وإيماءات، والقدرة على إصدار ما يماثلها مما فى المخ ليتم التواصل به بصورة جيدة. ماذا نستنتج من تعريفنا للتمثيل الانفعالي والتداولية ؟ وماذا لو جمعنا بين مفهوم التعريفين معًا ؟.

إن تمثيل الانفعال قدرة على فهم انفعال الآخر، بتمثيله في الذهن، واستحضار مثله وتحديد: (فرح. حزن. غضب. خوف)، وإصدار مثله عند الحاجة. كل هذا نفعله جميعًا بغرض التواصل مع الآخر ومع أنفسنا، إنه التداولية التي هي فن التواصل مع الآخربشتى وسائل التواصل. هنا تبدو بوضوح العلاقة بين التداولية والمرض العصبي إننا يمكننا أن نفيد من هذا الجانب في علاج الفشل التواصلي/ التداولي بين المرضى ومجتمعهم.

٢) عدم فهم العبارات الانفعالية :

لماذا لا يفهم المصابون بآفة في النصف الأيمن من المخ العبارات والإشارات والتلميحات الانفعالية ؟ يقول أوبلر: "تعزز الدراسة التي أجراها بولدر وزملاؤه البحث السابق حول الصعوبة التي يجدها المصابون بآفات في النصف الأيمن من المخ في تمييز الوجوه وتعبيرات الوجه. على أية حال، وَجَد المرضى الذين أجريت التجارب عليهم صعوبة أكثر من الضابطة الأسوياء والمصابين بآفة في الشق الأيسر من المخ في تفسير الأوصاف الكلامية للتعبيرات الانفعالية مثل (قطب جبينه) أو النغمات الانفعالية (مثل: تحدَّث بسرعة وهو يلهث)، وهذا يوحي بتعطل تمثيل التعبيرات الانفعالية غير الكلامية (أي الإيمائية والنغمية)"(١).

الإجابة:

إن عدم فهم المصابين للعبارات الانفعالية التي تحمل علامة تعبير عن هذا الانفعال شيء طبيعي وملاحظة مفهومة، لا تحتاج إلى استنتاج وتدوين، فهم لا يفهمون ما تعنيه هذه الإيماءات ولا التلميحات وتعبيرات الوجه، والعلامات والإشارات غير اللغوية، فكيف يفهم الألفاظ والمسميات التي نطلقها عليها، مثل: قطب جبينه، أو

(١) اللغة والدماغ: ١١٠

نظر إليَّ شذرًا، أوالنغمات الانفعالية التي نفهم منها استحسان الشيء أو التهكم منه واحتقاره ؟.

إن الشيء يوجد أولًا داخل الفرد ويدركه، ثم يختار اسمًا له، فإذا لم يُوجد إدراك له مخزنًا في مخ الفرد بفضائه الذهني، فإن الألفاظ والتعبيرات الدالة عليه غيرمخزنة في مخه بمعجمه الذهني فكيف يستحضر هذه الألفاظ ؟ إنه لم يشعر بهذا الشيء سابقًا، فكيف يجد له اسمًا في دماغه عندما تُذكر أمامه ؟ وكيف يستدعيها ؟ أيخلقها من العدم ؟!.

إننا نتحدث عن هذا المريض بوصفه المتلقي للرسائل اللغوية، ولكنه لا يستطيع فهم مضمونها؛ وهو أيضًا لا يستطيع إبداع مثلها، بمعنى أنه لا يستطيع أن يرسل رسائل لغوية تحمل هذه الإشارات والإيماءات والاستعارات، فلا يقول: قطب فلان وجهه إليَّ؛ لأن من لا يفهم هذه المصطلحات، وما تعنيه حتى لو سمعها منا أو يتلقاها من محدثه فإنه يعجز أن يفهمها أو ينتج مثلها. لكننا نراه يلوذ بالمعنى الحرفي للعبارة. هذا الفهم يوجه نظره إلى ناحية بعيدة تمامًا عن المعنى المراد من الكلمات أو الإشارات لأن النصف الأيسر من المخ عنده سليم، فهو يتكلم بصورة صحيحة، وينتج لغة جيدة، ويفهمها فقط بصورة حرفية، ولكنه لا يفهم المضامين العاطفية والانفعالية التي فيها. إن هؤلاء الأشخاص موجودون في مجتمعنا بكثرة ويمارسون حياتهم بصورة طبيعية، ويتعامل الناس معهم بسهولة ويسر. كل ما في الأمر أننا نتعامل معهم في إطار المعنى الحرفي للغة، لأن هذا ما يدركونه من الكلام، دون الدخول معهم في حوار حول المشكلة الناتجة عن المعنى الثاني أو الثالث، أو الصور البلاغية من مجاز وتشبيه وتورية واستعارة وجناس.

وهم يتفاوتون في درجة الإصابة التي لديهم وآثارها عليهم، حيث نجد بعضهم يفهم بعض النكات والمجازات والمزح والهزل، وبالعض الآخر لا يفهمها مطلقًا.

٣) عدم فهم العبارات المجازية :

إن عدم فهم العبارات المجازية ولا الفكاهة ولا التلميحات ولا التهكم نتيجة إصابة النصف الأيمن من المخ هي مشكلة كبرى يعانيها هؤلاء المصابون، تحد من تواصلهم مع مجتمعهم وتفاعلهم معه، وفهم كل صغيرة وكبيرة فيه.

يقول أوبلر: "لا يواجه المصابون بآفات في النصف الأيمن من المخ صعوبات في الخطاب الوصفي وفي المحادثة بصفة عامة فحسب، بل يلاقون صعوبة في اللغة المجازية أيضًا، ففي سلسلة من الدراسات أجرى جاردنر وبراونل وزملاؤهما اختبارات لقدرات المصابين بآفات في النصف الأيمن من المخ على إدراك التهكم والفكاهة والمعاني المجازية للكلمات ... فالمصابون بآفات في النصف الأيمن من المخ يفسرون التعبيرات المجازية على الدوام بطريقة حرفية؛ ...

وقد بحث براونل وزملاؤه في قدرة المصابين بآفات في النصف الأيمن من المخ على التعامل مع الاستعارات والمصطلحات، والأمثلة الأخرى من المفردات التي تحمل أكثر من معنى واحد (مثلًا قصر بمعنى البيت الفخم الواسع وقصر بمعنى التقصير)"(١).

٤) عدم اللباقة في الحديث :

أ- مقدمة عن أمراض اللباقة :

إن المصابين بالعته والحبسة لا يحسنون التعامل مع الآخر بصورة لائقة؛ لأن القدرة التواصلية التداولية عندهم ضيقة ومتوقفة عند حد الإدراك المادي للآخر فقط، فهم لا يدركون المكانة الأدبية والاجتماعية للآخر، لقد توقف إدراكهم للآخر عند الإدراك المادي.

فهم يرونه كشخص أو شيء مادي ماثلًا أمامهم، أما الجانب الآخر في الفرد فهو شبه منقطع عنهم كالمكانة الاجتماعية؛ لأن تفكيرهم منصب على الأشياء المادية فقط. لأن الأشياء المعنوية مرتبطة بالنصف الأيمن من المخ، وهو معطل وبه تلف. فلديهم ضعف في القدرة الكاملة على التواصل التي نسميها القدرة التداولية (البراجماتية) مع الآخر.

يقول أوبلر: "ويمكننا أن نرى في اختبار لغة الحديث عند ثنائي اللغة قدرة براجماتية يمكن أن تتعطل بصورة مستقلة عن غيرها، ومع أن هذا نادر الوقوع عند ثنائي اللغة المصابين بالحبسة، إلا أنه واضح بشكل خاص في المصابين بالعته الذين يخاطبون محدثيهم بشكل لا يليق وبلغة لا يفهمونها"(٢).

---

(١) اللغة والدماغ: ١١٤

(٢) اللغة والدماغ:٢٠٤

ب– أمراض اللباقة :

قد أيقنا الآن أن اللباقة عملية تتم في النصف الأيمن من المخ. لتحقيق التواصل الراقي بين الناس ومادام الأمر كذلك، فمن الطبيعي أن يمرض هذا الجزء من المخ وأن تظهر آثار هذا المرض على القدرة المخية على اللباقة، يقول أوبلر: "لقد بينت الدراسات التي أجريت على المصابين بآفات في النصف الأيمن من المخ صنوفًا دقيقة من الفشل في بعض هذه العناصر الكلامية البرجماتية"(١).

لقد عد أوبلر الإصابة في جانب اللباقة فشلًا في العناصر الكلامية البراجماتية، بوصفها عناصر تحقق التواصل التداولي الصحيح بين الناس، وأن عدم امتلاك هذه القدرة (اللباقة) يعد فشلًا في العناصر الكلامية البراجماتية. إننا نفهم من كلامه أن هذا الفشل الذي يتحدث عنه إنما هو ما يظهر في كلامه من علامة تشير إلى تلف بالجانب التداولي، فهو لا يتواصل مع الآخرين بصورة جيدة، فتسقط لديه عناصر التواصل، فلا نصفه باللباقة ولا ببارع الحديث. ويعرض لنا أوبلر نماذج للحالات المرضية وهي:

ت– قلة المعلومات تؤدي إلى عدم التواصل الجيد :

"فحص بلوم وزملاؤه أداء المصابين بآفات في النصف الأيمن، ... في اختبار رواية القصة باستخدام صور صممت لاستدراج خطاب انفعالي أو غير انفعالي، فقد عرض على المشاركين رسوم أعدت خصيصًا لهذه الدراسة، بعضها يتعلق بحدث انفعالي (عاطفي) (مثل فتاة تفقد كلبها وتشاهده يصدم بسيارة) وبعضها يتعلق بحدث غير انفعالي (مثل طريقة قلي البيض) في هذه الدراسة، انصب الاهتمام على كمية المعلومات المتوفرة ... بعض مجموعة المصابين بآفات في النصف الأيمن من المخ لم تتمكن من إعطاء القدر المناسب من المعلومات بالرغم من إنتاجها قدرًا من الخطاب مماثلًا لما أنتجته مجموعة الضابطة الأسوياء. ففي سياق القصة العاطفية، كان أداء المصابين في النصف الأيمن سيئًا على نحو خاص؛ إذ لوحظ أن المحتوى في كلامهم أقل بكثير من محتوى كلام الأسوياء"(٢). السبب هنا أن هؤلاء المصابين لا يولون الجانب العاطفي اهتمامًا كبيرًا في حديثهم. فحديثهم منصب على توصيل المعلومة والتواصل بها بأقل قدر من الكلمات.

---

(١) اللغة والدماغ: ١١٣

(٢) اللغة والدماغ: ١١٣

فهذا الجانب العاطفي غير متصل لديهم بتوصيل المعلومة، بل متصل بالإحساس بها. وعملية الجمع بين هدفين غير موجودة لديهم، فهم يركزون اهتمامهم على التفاعل مع المعلومة فقط توصيلًا واستقبالًا، لأنهم يقفون عند المعنى الحرفي للكلمات.
لكن هناك تفسير آخر للأمر ذكره أوبلر، هو: "يقول أحد التفسيرات المحتملة للمشكلات التي واجهها المصابون بآفات في النصف الأيمن من المخ إنها ناجمة عن نقص في قدرتهم على التفكير فيما يدور في أذهان مستمعيهم"(١). إنني أوافق على هذا التفسير. لأنه يشير إلى إصابة بالجانب التداولي التواصلي مع الآخرين والتفاعل معهم. فمادام هؤلاء المصابون يفقدون القدرة على التواصل مع الآخرين فإنهم يفقدون الإحساس بهم، ومشاركتهم في مشاعرهم، ومقاسمتهم آلامهم.

المرض الرابع: الوظائف التداولية للنصف الأيمن وأمراضه :

أولًا: لورين أوبلر :

أمراض نصف المخ الأيمن التداولية ووظائفه :

أشار أوبلر إلى ما تسببه التداولية من أمراض، نتيجة إصابة النصف الأيمن من المخ. فانطلق في حديثه عن الأمراض التداولية من خلالحديثه عن وظائف النصف الأيمن من المخ. يقول:" إن التوصل إلى ما يفيد بأن النصف الأيمن من المخ يسهم بطريقة ما في إدراك اللغة ونطقها يوجب علينا البحث عن الدليل الذي يبين وقوع الفشل اللغوي إثر تعرض النصف الأيمن من المخ إلى الأذى ... صحيح أن النصف الأيمن من المخ لا يؤدي فيما يبدو دورًا أساسيًّا لدى الأسوياء بالنسبة للعمليات اللغوية الأساسية مثل: النظام الصوتي والصرفي والتركيب، إلا أنه يسهم إسهامًا مهمًا في العديد من الظواهر فوق اللغوية. فالتنغيم يبدو أنه يعالج في النصف الأيمن من المخ، سواء كان هذا التنغيم يميز البنية التركيبية أو التواصل الانفعالي.

ويبدو أن لبعض عناصر الاختيار المعجمي علاقة مهمة بالنصف الأيمن من المخ، مثل اكتشاف تعدد المعاني ولاسيما المعاني المجازية للكلمات. زد على هذا أن فشل القدرات البراجماتية مرده إلى تأذي النصف الأيمن من المخ وليس الأيسر. وتشمل هذه القدرات استيعاب الفكاهة، والتهكم، والتضمين، ومناسبة الخطاب للمقام، والمعرفة بالمحادث، وما شابه ذلك"(٢).

---

(١) اللغة والدماغ: ١١٣

(٢) اللغة والدماغ:١١٨ ــ١١٩

يقوم النصف الأيمن من المخ بأعمال تتصل بالعملية التداولية، وهذا العمل لم ينسبه أحد إلى النصف الأيسر على الرغم من كونه المسيطر على اللغة في الدماغ، وفيه منطقتا بروكا وفيرنيكا. هذا الأمر يجعل النصف الأيمن محط دراستنا التداولية التواصلية لهذا سنُفصِّلُ الحديث حوله وحول عمله، والأمراض التي تصيبه وأثرها على عملية التواصل التداولية. سندرس كل هذا، نظرًا للدور الذي يقوم به النصف الأيمن من المخ في الجانب التداولي، ويصبح حديثنا منصبًا على النصف الأيمن من المخ، وبيان وظائفه، وما يحدث للمخ عند انشطاره بقطع روابطه (الجسم الجاسئ) وما ينتج عنه من أمراض، وتأثير الانشطار على الوظائف التداولية.

ثانيًا:جيرت ريكهايت :

أمراض النصف الأيمن التداولية وقدراته اللغوية :

قسم جريت ريكهايت المخ إلى نصفين: "يُقسم من خلال شق طولي مخي إلى نصفين مخيين (نصفي كرة المخ)، حيث يُوجه النصف الأيسر لكرة المخ الإدراكيات الحسية والحركات للنصف الأيمن للجسم. ويربط نصفا المخ من خلال الدعامة (الجسم الجاسيء) التي تتكون من ٢٥٠ مليونًا من الألياف العصبية التي تكفل نقلًا للمعلومة بين نصفي المخ"(١).

يقول عن التخصيص الوظيفي لنصفي المخ: "لدى أغلب البشر تتحكم أبنية الدماغ للنصف الأيسر لكرة المخ في القراءة والكتابة والكلام. فهو بالتأكيد مسئول عن الإنتاج اللغوي (مثلًا سيمونيان وآخرون ٢٠٠٩)، وبالنسبة للتمييز الفونولوجي لأصوات (مثل b/ في مقابلp) يبدو أن النصف الأيسر لكرة المخ مناسب بشكل أفضل أيضًا(مثلا بوبل ١٩٩٦) يبدو هنا أيضًا أنه تجرى عمليات زمانية – تركيبية، تشكل الأساس لتحليلات صرفية – نحوية (مثلًا فريدر يصي وآخرون٢٠٠٠)، وفضلًا عن هذا يكون النصف الأيسر لكرة المخ مسؤولًا عن عمليات مشكلة للغة، ودلالية للذاكرة (مثلًا فيز ١٩٩٧)"(٢). ويخصص حديثه عن الدور اللغوي للنصف الأيمن من المخ قائلًا: "يمكن ألا يُعبر النصف الأيمن لكرة المخ لفظيًّا أو كتابيًّا، فهو في الواقع

(١) علم اللغة الإدراكي: نظريات ونماذج ومناهج: ١٥٥

(٢) المرجع السابق:١٦٥

يمتلك وعيًا لغويًّا، لكن لديه بالكاد قدرات إنتاجية. وبشكل منفصل عن النصف الأيسر لكرة المخ **يستقل النصف الأيمن لكرة المخ بحياة خاصة،** لا تتوافر لنا معرفتها إلا بشكل غير مباشر عبر قنوات حسية للنصف الأيسر لكرة المخ، فهو يمتلك بحق معجمًا عقليًّا محدودًا، بل إن وظائفه النحوية قاصرة ... غير أن النصف الأيمن لكرة المخ أساسي لاستيعاب اللغة. فهو يؤدي دورًا جوهريًا في الاتصال الاجتماعي. وهكذا يكون النصف الأيمن لكرة المخ لا محيد عنه لاستيعاب جوانب **براجماتية** لتحليل الخطاب، ولفهم المزاح (الفكاهة) والمفارقة (التهكم). ويبدو أن النصف الأيمن لكرة المخ يؤدي دورًا مهمًا في استيعاب لغة مجازية (تخيلية)، وفضلًا عن هذايسهم الفص الجبهي والصدغي الأيمنان في تحليل التطريزي ومعرفة فروق النغمة بشكل حاسم"[(١)].

إن هذا القول قد ذكرناه آنفًا منسوبًا إلى أوبلر مما يعني أن هذا القول تأكد علميًّا، فقد اتفق عليه العلماء، ويجب علينا التعامل معه كحقيقة مؤكدة. وإذا أعدنا النظر إلى ماسبق في ضوء مفهوم النظرية التداولية لرأينا أن النصف الأيمن من المخ مسؤول عن أشياء تحقق التواصل بين البشر، ليس باللغة فحسب (وإن كان له دور لغوي ضئيل، فهو غير مسيطر على اللغة كالنصف الأيسر)، هذا الأمر يجعلنا ننظر إلي النصف الأيمن من المخ بوصفه الجزء المسؤول عن التداولية في الدماغ، فكل عمل يقوم به أو يشرف عليه؛ يرتبط بهذا الجانب التواصلي الاجتماعي بين البشر. وهو مستوى أعلى في الإدراك وتحقيق التواصل من مجرد التفسير الحرفي للغة. هذا الأمر يجعله داخلًا بقوة في تفصيلات دقيقة في السلوك البشري وتعاملاتهم معًا. فالجانب الأيمن من المخ مسؤول عن:

١- الاستيعاب اللغوي: فيعطي صورة عامة للرسالة اللغوية ومفهومها واستيعابها بالدماغ.

٢-التواصل الاجتماعي:ترابط أفراد المجتمع من خلال مفاهيم لا توجد في نص الرسالة.

٣- استيعاب الجانب البراجماتي الذي يُعِينُ على تحليل الخطاب ومضمونه غير المنطوق:

أ) **المزاح**: مشكلة كبرى لمن لا يعمل لديه النصف الأيمن من المخ، حيث يفهم المعنى الحرفي للرسالة فقط. وهنا يبدو هذا الشخص في حالة دهشة

(١) السابق نفسه:١٦٥

واستغراب لما يحدث حوله، حيث يرى جميع من حوله يضحكون، ولا يدرى لماذا يضحكون ؟ فالنصف المختص بتفسير الأمر (النصف الأيمن) عنده معطل.

والعمل الذي كان على هذا النصف أن يقوم به لا يتم، وهو أعمق من فهم المعنى الحرفي للعبارة، فهو يغوص فيما وراء السطور وما خلف الألفاظ من معان غير منطوقة، إنه مجهود ذهني أكبر وأعمق من المعنى الحرفي للعبارة، ويظهر دور النصف الأيمن في تحقيق التواصل الاجتماعي التداولي الذي يجعلنا نتجاوب مع الآخر ونشاركه أفراحه وأحزانه وضحكه. أما المريض فمنعزل عنه غير المتواصل معه، فلا يفهم ما وراء قوله، رغم أنه يفهم المعنى الحرفي لكلامه.

ب- التهكم: ونقول هنا ما قلناه آنفًا من أنه لا يفهم ما وراء العبارة. فالشاعر الذي يسخر من شخص قائلا: فاقعد فأنت الطاعم الكاسي. يفهم الشخص المريض من العبارة أنه يمدحه. أما الصحيح فيدرك مقصد الشاعرأنه يتهكم.

ج- المجاز: عندما يسمع المريض قائلًا: وقف الأسد خطيبًا في مجلسنا. يقول كيف يفعل هذا وكيف يدخل الأسد مجلسنا ؟ ولا يدري أنه معنى مجازي.

د - **الأصوات التطريزية**: وهي التنغيم الخاص بالكلمات والتي تحتاج إلى عمق أكبر في تمييزها. لهذا فإن المريض لا يستطيع التمييز بين المعاني الضمنية التي توجد في تنغيم الكلمات. فإذا قال قائل: (شفت أخوك ؟!) لا يدرى هل المقصود هو: السؤال عن أخيه، أم الاندهاش من فعلة فعلها أخوه،إنها المعاني التي يحملها التطريز أو التنغيم الكلمات لا يدركها المريض.

وبالجملة نستطيع القول: إن النصف الأيمن من المخ يقوم بمهام أعمق وأكبر من النصف الأيسر، فاللغة ليست أصواتًا لها دلالات فحسب، بل هناك مضامين ومعاني داخل الرسالة اللغوية لا يقوم بتفسيرها سوى النصف الأيمن من المخ،حيث تغير المعنى الأساسي والعام للرسالة (أحيانًا) إلى ضده.

المرض الخامس: آفات وعمليات جراحية تسبب إعاقة تداولية :

ذكرنا آنفًا أن النصف الأيمن من المخ مسؤول عن الأشياء غير اللغوية. وهذه الأشياء مكملة لعملية فهم اللغة، وأن اللغة تأتي من النصف الأيسر بعد حل شفرتها

وفهم معناها الحرفي، ثم تُرسل اللغة بعد ذلك إلى النصف الأيمن لفهمها ومعرفة مضامين المستوى الأعلى أي المستوى فوق اللغوي. كل هذا يؤكد أن اللغة ليست أصواتًا فقط، بل هناك عناصر أساسية لعملية فهم اللغة: كالإشارات والإيماءات والمعاني المجازية التي يدركها الفرد ويتم استحضارها أثناء الكلام، وتشكل جزءًا لا يتجزأ من مضمون رسالته اللغوية. وهذا العمل الذي يقوم به النصف الأيمن من المخ قد يصيبه خلل نتيجة لإصابة النصف الأيمن بعطب ما.

ونذكر بعض حالات الإصابة، لنرى أثرها على عملية التواصل التداولي.

أولًا: استئصال نصف الكرة المخية للأطفال :

ماذا تحدث عند إصابة جزء من مخ الطفل بمرض ما،مما يضطرنا إلى استئصاله؟ هناك "عدد ضئيل من الأطفال مصابين باضطراب عصبي يعرف بمتلازمة ستيرغه – ويبر – ديمتري Sterge – Weber – Dimitri التي تنطوي على مشكلات تَحُوْل دون وصول الدم إلى قشرة المخ. ويمكن تحقيق أفضل النتائج بالنسبة إلى هؤلاء عن طريق استئصال النصف المصاب من المخ في مرحلة مبكرة. وعلينا أن نتذكر أن النصف المتبقي من المخ قادر على القيام بكثير من الوظائف التي كان يؤديها النصف الذي تم استئصاله. وسواء أكان النصف المستأصل هو الأيمن أم الأيسر، فإن الأطفال يكتسبون اللغة. وأما الأطفال الذين استؤصلت الأنصاف اليمنى من أدمغتهم فلا يختلفون عن الأطفال أصحاب الأدمغة السليمة.

وأما من استؤصل نصف دماغهم الأيسر فيعانون من بعض المصاعب اللغوية الدقيقة. ونستخلص من الدراسات التي أجريت على الأطفال الذين استؤصلت الأنصاف اليمنى من أدمغتهم أن هناك شكوكًا تحوم حول التكافؤ التام في القدرات الكامنة في نصفي المخ، كما أنها تدعم قدرة النصف الأيمن من المخ على القيام بالوظيفة اللغوية"(١).

هذه النتائج تشير إلى :

١- تأثير الإصابة العضوية على التواصل التداولي، نتيجة عدم وصول الدم لقشرة المخ.

٢- تساوي كلا النصفين في كفاءة العمل مكان الآخر، كاحتياطي عند تلف الآخر.

٣- سيطرة النصف الأيسر اللغوية تؤدي إلى فهم المعنى الحرفي للغة دون المعنى التداولي.

(١) اللغة والدماغ:١٠٤ ــ ١٠٥

مثال: دخل علينا رجل الآن وقال: كيف حالك يا علي ؟ ففهمنا أنه يسأل عن حال علي (المضمون اللغوي الحرفي للعبارة) لكن لم نفهم ما يريده المتكلم بسؤاله هذا من مقاصد غير منطوقة، هل هو مجرد السؤال ؟ أن خلف السؤال دلالات وأشياء لا نعرفها ؟، حتى رأينا على وجه عليٍّ عدم الرضا والغضب، و لم يرد على سؤال الرجل. فبعد هذا الرد غير اللغوي أي غير المنطوق من عليٍّ تبدل فهمنا للعبارة، وبدأنا نسأل: ماذا بينهما من خلاف؟ هل سؤال الرجل كان سخرية من علي ؟ ماذا يحمل عدم رد علي ونظراته إلى الرجل من المعاني الضمنية التي لا يمكن للغة أن تعبر عنها ؟، لكننا فهمناها بدقة وبلاغة تفوق بلاغة اللغة كلها، إنها أسئلة تداولية، لا يجيب عنها النص اللفظيِّ الحرفيِّ للعبارة، ولا يفهمها أحد منَّا. فتأتي التداولية بالإجابة على هذه الأسئلة بأركانها ومبادئها: كالافتراض المسبق، والاستلزام الحواري، وقصد المتكلم، ونبرة صوته وتنغيمها فتعطي إجابات متعددة في صورة احتمالات ممكنة لها يمكن استنتاجها والاستدلال عليها من صمت عليٍّ، إنها التداولية التي نفهمما و لم تذكره العبارة.

ثانيًا: مرض انشطار المخ :

١ – معناه :

"إن الاتصال بين نصفي الكرة المخية ينقطع عند المصابين بانشطار المخ"[١] فما معنى هذا ؟ إن معناه أن نصف الرسالة اللغوية المرسلة من المتكلم إلى السامع لن تُفهم أو أقل معنى الرسالة الحقيقي لم يُفهم بعدُ، ولن يفهم السامع المصاب بانشطار المخ سوى المعنى الحرفي للرسالة (في أحسن الأحوال إذا افترضنا أن النصف الأيسر من المخ لازال يعمل). إذن انشطار المخ هو انشطار للمعنى والفهم، أي أنه انشطار تداولي.

٢ – ما نتيجة ذلك ؟:

نتيجة ذلك "أن التنبيهات التي تأتي من الحقل البصري الأيسر لا يمكن أن تعالج لغويًا بشكل تام. فالنصف الأيمن من المخ يسجل هذه التنبيهات وربما يتفاعل معها. وقد أثبت بعض المصابين بانشطار المخ في عدد من الدراسات ... قدرتهم على استنباط معلومات لغوية من تنبيهات وردت إلى النصف الأيمن من المخ فبعضهم، على سبيل المثال استطاع تحديد كلمة لها القافية ذاتها من لائحة من الكلمات. لكن

(١) اللغة والدماغ: ١١٦

النصف الأيمن المعزول لا يستطيع التعليق على مدركاته حتى عند بعض المصابين بانشطار المخ، الذين تبدى أنصاف أدمغتهم اليمنى بعض القدرات اللغوية البدائية"[١].

٣- أثر انشطار المخ على لغة المريض :

ما الآثار اللغوية على المريض بانشطار مخه ؟ قال أوبلر: "إذا علمنا أن النصف الأيمن من المخ قادر على اكتساب اللغة في حال إزالة النصف الأيسر أو إصابته بضرر بالغ، كان من المنطقي أن ننظر في إمكانية حيازة النصف الأيمن من المخ بعض القدرات اللغوية التي لا تظهر عادة بسبب تأثيرات الكبت التي يمارسها النصف الأيسر المسيطر"[٢]. هذا ما قلناه آنفا من أن الخالق سبحانه وتعالى أعطى كلا النصفين المخيين القدرة اللغوية ذاتها، لكنه ميَّز بينهما؛ فكان النصف الأيسر مسيطرًا لغويًّا والثاني مكبوتًا.

٤- القدرة على جمع بين المعلومات الواردة من النصفين :

"يقدم كاتزانيجا في مراجعته لدراسات حول مصابين بانشطار المخ وصفًا لقدرات النصف الأيمن اللغوية لدى مريضين بانشطار المخ (من بين ٤٤ مريضًا كانوا على قيد الحياة عام ١٩٨٢م) طورا قدراهما على الكلام من خلال النصف اليمن من المخ (على الأرجح إثر جراحة أجريت لهما). وكانت قدرة هذين المريضين على فهم التنبيهات الواردة إلى النصف الأيمن لدى (لديهما)[٣] اعتيادية بصفة أساسية، وكانا قادرين على تسمية الأشياء، وإصدار الأوامر الكلامية، وحتى على الكشف عن أخطاء دلالية في جمل معروضة على النصف الأيمن وحده. لكن النصف الأيسر عند المريضين كليهما ظل هو النصف المسيطر الأكثر كلامًا. ويمكن رؤية هذه من خلال استجابة المريض P.S لقصة قصيرة عرضت عليه بشكل ثنائي. فقد عرضت على المريض سلسلة من الشرائح يومض كل منها بكلمة في الحقل البصري الأيمن (النصف الأيسر من المخ) وكلمة في الحقل البصري الأيسر (النصف الأيمن من المخ). فعند الأسوياء تتحد المعلومات الواردة من نصفي الشريحة ... لقد أبدى المريض P.S فهما

---

(١) المرجع السابق: ١١٦

(٢) اللغة والدماغ: ١١٦

(٣) في الكتاب (لدى) واعتقد أنها (لديهما)

للمعلومات المقدمة إلى نصفي المخ، لكنه روى القصة بطريقة مختلفة تماما، إذ روى نصف مخه الأيسر أولا ما رآه فقط، ولم يبذل جهدًا لضم الاستجابات الكلامية من النصف الأيمن من المخ إلا بعد الضغط عليه"(١).

وقد تبين من حالة الانشطار أنه لا يوجد اتصال بين نصفي المخ، مما أدى إلى عدم القيام بضم الاستجابات الكلامية الواردة من نصفي المخ معًا، مما أضاع المعنى التداولي.

ثالثا: القدرة اللغوية لدى البالغين المصابين بآفات في النصف الأيمن :

أشرنا آنفًا إلى حالات الإصابة المخية لدى الأطفال التي يؤدي إلى استئصال أحد نصفي مخهم. ونشير هنا إلى إصابة البالغين، وذلك بغرض دراسة علاقة التداولية بين أمراض الكلام، وما ينتج عنها من فشل تواصلي تدولي. فندرس حالات المرض العصبي الذي يصيب الدماغ، ويصبح الغرض الحقيقي لهذا التناول إثبات أن هناك جزءًا بالجسد يمكن أن نسميه مجازًا الجزء التداولي، وأنه يمرض كسائر أعضاء الجسد.

والحقيقة أن النصف الأيمن من المخ له ارتباط باللغة بصورة غير مباشرة أشارت لها مونيكا شفارتس بقولها: "إذا طُلِب من المريض أن يزود الشيء الذي يبحث عنه باسم، فإنه يجيب عبر نصف كرة المخ الأيسر. وتبعًا لذلك يكون نصف الكرة المخ الأيمن بلا لغة. وتؤكد البحوث فرضية عدم تناسق وظيفي بين نصفي كرة المخ. ويطلق المرء على تقسيم الوظائف بين نصفيكرة المخ (التحكم الجانبي)(٢) ومن الواضح أن نصفي المخ مخصصان بوظائف معينة. ومع البشر الذين يستخدمون اليد اليمنى يوجه نصف كرة المخ الأيسر كل الجوانب الجوهرية للمقدرة اللغوية، في حين أن نصف كرة المخ الأيمن يحدد أعمالا غير لغوية (مثلًا معرفة علاقات محسوسة – مكانية)"(٣). وكذلك تحدث لورين أوبلر عن علاقة التداولية بأمراض الدماغ تحت عنوان (المصاب بآفة في النصف الأيمن من المخ)، قائلا: "على النقيض من المصابين

---

(١) اللغة والدماغ: ١١٧

(٢) يعني أن هناك عمليات عقلية معينة تختص أساسا بجانب من المخ وأخرى بالجانب الآخر. فالنحو والألفاظ موجودة في الجانب الأيسر من المخ في حين أن فهم المضمون الانفعالي للغة هو وظيفة الفص الأيمن. المترجم.

(٣) مدخل إلى علم اللغة الإدراكي: مونيكا شفارتس، تر/ سعيد بحيري، مكتبة زهراء الشرق، ٢٠١٥م، ص٧٤

بآفة في النصف الأيسر من المخ الذين لا يبدون مختلفين كثيرًا عما كانوا عليه في السابق، ينظر إلى المصابين بآفة في النصف الأيمن من المخ على أنهم أناس مختلفون"(١).

يشير إلى المصابين بآفة في النصف الأيمن من المخ، ويبين تأثير الإصابة على العملية اللغوية التداولية. على الرغم من أن النصف الأيمن من المخ معروف عنه أنه لا علاقة له مباشرة باللغة. فلا توجد فيه منطقة بروكا ولا منطقة فيرنيكا. لكن أوبلر يخبرنا أن هذا الجزء من الدماغ يحوي عضو التداولية في الجسد، فإذا أصيب بآفة ما سيؤدي إلى خلل في الجانب التداولي. ثم يذكر مظاهر هذا الخلل وهي مظاهر تداولية في حقيقتها. وينتج عنها أن يصاب المريض بفشل في الجانب التداولي.

وتظهر آثار الإصابة في سلوك هؤلاء المرضى تجاه الآخرين وفي علاقتهم بهم، وهو ما نقصده بالجانب التواصلي التداولي. يقول أوبلر عن مظاهر التغيير الذي يصيب هؤلاء المرضى: "إذ لا يعود لديهم اهتمام بأنفسهم أو بهندامهم كما كانوا يفعلون قبل الإصابة الدماغية، ويبدو على وجوههم ونبرات أصواتهم ما يعرف بالإحساس الفاتر flat affect كما لو لم يكونوا مشتركين في الحديث. وأما سلوكهم فغالبًا ما يكون غريبًا؛ فقد يطلقون النكات حول موضوعات لا نطرحها عمومًا في مجتمعاتنا (مثل الجنس)؛ بشكل غير لائق، أو يقاطعون اجتماعات أو أحاديث جدية بتعليقات لا علاقة لها بالموضوع، أو بأشياء صرفت انتباههم بعيدًا عن الموضوع، وقد يشردون عن الفكرة الرئيسة حين يتكلمون، ويدخلون في مسائل لا أهمية لها، وينسون العودة إلى الموضوع الأصلي. فعلى الرغم من عدم تأثير القدرات اللغوية في حد ذاتها عند هؤلاء المرضى على النحو الذي نراه عند المصابين بالحبسة الواضحة، لكنهم يعانون من صنوف الفشل اللغوي والتواصلي، مما يعطينا المزيد من المعلومات حول طريقة إسهام النصف الأيمن من المخ في اللغة والتواصل"(٢).

إن سلوك هؤلاء المرضى بعد إصابتهم بتلف في الدماغ يشير إلى التأثير الذي أصابهم فى قدرتهم التواصلية غير اللغوية التي فقدوها نتيجة هذه الإصابة،هذه القدرة تتمثل في ارتباطهم بمجتمعاتهم وسلوكهم نحوها، بما يشبه الانعزالية أو الانطوائية، فهم

---

(١) اللغة والدماغ:١٠٥

(٢) اللغة والدماغ:١٠٥ ــ ١٠٦

لا يشعرون بوجود الآخر؛ مما يدفعهم إلى التصرف كأهم وحدهم في العالم، فهناك عدم إدراك منهم للعالم المحيط بهم وبمن فيه؛ مما يعني أن قضية التواصل مع الآخر مهملة لديهم، وساقطة من حساباتهم، وهؤلاء المرضى المصابون في الجانب التداولي يحيون في انعزالية عن عالمهم المحيط بهم.

وتظهر الإصابة في سلوكهم من خلال الأمور التي لا علاقة لها باللغة؛مما يدل على فقداهم القدرة على التفاعل والتواصل التداولي مع مجتمعهم، هل لأنهم لا يكترثون بهم؟ أم أنه عدم إدراك منهم بوجودهؤلاء حولهم أصلًا ؟ أم أنهم يعتمدون في تفاعلهم مع المجتمع على ما يتلقونه من النصف الأيسر من المخ من المعاني الحرفية للكلماتفقط التي ينقصها الجانب التداولي ؟.

الإجابة :

إننا نلاحظ بشكل عام أن هذه المظاهر الخاصة بالانعزالية لدى هؤلاء المرضى لا ترتبط بأي جانب من جوانب اللغة، مما يعني أنهم انتهوا من حل شفرة الرسالة اللغوية وفهموا معناها الحرفي كما وصلتهم منذ قليل، لكنهم لم يصلوا إلى المعنى غير الحرفي أي المعنى التداولي المتضمن في الرسالة اللغوية. إنهم لم يقصروا في جانب التفاعل مع الآخر، ولم يفعلوا كل الاحتمالات التي تضمنتها أسئلتي السابقة، فهم أناس أذكياء ويفهمون ما يُقال لهم بدقة، ولكن على مستوى المعنى الحرفي للغة، وأذكر هنا مثالًا توضيحيًا هو:

مثال :

ألتقيتُ منذ أسبوع بزميل يعمل معي في الجامعة، ويحمل درجة الدكتوراة، وحدث موقف له أمامي. حيث اختلف مع زميل آخر، ودار حوار وجدل بينهما، فلاحظت على هذا الزميل الأول (وأنا أراقب الحوار من قريب دون الدخول فيه) السلوك الآتي:

١- أنه يعيد كلامه ويكرره بصورة غريبة (حالة من الثرثرة غير العادية).
٢-الأول لا يَفهم من كلام زميله الثاني سوى المعنى الحرفي له كمزاحه وتشبيهاته
٣-الأول يتحدث في أشياء بعيدة عن موضوع الحوار الذي يدور بينهما.
٤- بل إنه لا يعرف أصل موضوع حديثهما ومشكلته، كأنه آت من عالم آخر.
٥- يسأل أسئلة ساذجة لا عمق فيها ولا علاقة لها بموضوعهما.

٦-ثم تدخلت في حوارهما: لم يلتزم معي بقواعد اللباقة بصفتي زميل أكبر منه سنًّا

٧- وعندما سألته عن أشياء جانبية كنتُ أراه ينظر إليَّ مندهشًا و لم يفهم قولِي.

إن هذا الشخص نموذجٌ لكثير من الأشخاص الذين يعيشون بيننا، ويتفاعلون معنا في حياتنا اليومية، ويحملون درجات علمية كبيرة، وعندما نتعامل معهم نسأل: لماذا لا نُرسلون إلى مصحة نفسية ؟، فهم مرضى لا يفهمون من الكلام إلا معناه الحرفي، وعلى الرغم من هذا فهم يتكلمون ويتفاعلون ويجادلون معنا في حدود مستوى المعنى الحرفي للكلام، فقدرتهم التداولية محدودة. لهذا لا يمكن وصفهم بصفة المرضى نتيجة إصابتهم بمرض التداولي، لأنهم يتكلمون ويتفاهمون، ولكن في حدود ضيقة، وعلى الرغم من هذا، فإننا نلتمس لهم العذر ونتعامل معهم دون أن نبدى لهم اعتراضًا أو نجادلهم.

تعقيب :

وتعقيبًا على القصة السابقة، ونظرًا لكوني أفهم حقيقة مرض الزميل الأول، فإنني تحدثت معه بما يرضيه، وأخذت الزميل الثاني إلى جانب آخر، وأفهمته الحالة المرضية للزميل الأول، وطلبت منه عدم الدخول معه في جدل، نظرًا لقدرته التداولية المحدودة، وانتهى الأمر. إننا نعاني من حالات مرضية مثل هذه كثيرة، ولا مفرَّ من التعامل معهم لهذا نحن نتعامل معهم، فعلينا عدم الدخول معهم في حوار أوجدل قدر الإمكان.

لهذا أرجو منك أن تعيد النظرإلى من حولك، وأن تبحث فيهم عن المظاهر التي ذكرها أوبلر، ستجد أنهمكثيرون، وأن هذه المظاهر لا توجد كلها في شخص واحد، لكن ستجد بعض الأشخاص يحملون بعض هذه الصفات، وهي:

١- عدم الاهتمام بالمظهر والهندام.

٢- الإحساس الفاتر في نبرة الصوت تجاه الآخر.

٣- إطلاق نكات حول موضوعات الجنسية بشكل غير لائق.

٤- يعلق تعليقا في الاجتماع لا علاقة لها الموضوع.

٥- صرف الانتباه بعيدًا عن الموضوع.

٦- الشرود عن الفكرة الرئيسة حينما يتكلم.

٧- يدخل في مسائل لا أهمية لها.

٨- ينسى العودة إلى الموضوع الأصلي.

٩- يعاني من صنوف الفشل اللغوي والتواصلي.

بعد أن تبحث عن هؤلاء المرضى الذين فيهم هذه الصفات (وهم كُثر، فستجدهم لا محالة، في: بائع أو عامل أو زميل)، ابحث فيهم عن هذه الظاهرة، ستجدها بدرجات متفاوتة، والغريب أنهم كما ذكر أوبلر لا يخطئون في إنتاج اللغة وفهمها، لكن يقف فهمهم عند المستوى الحرفي للغة. وكل هذا لا علاقة له باللغة الكاملة الصحيحة التي لدى الأسوياء.

وقد أثبت البحث العصبي أن النصف الأيمن من المخ له دوره الجوهري في عملية التواصل التداولي. ونحاول هنا إثبات أن هذا الجزء من المخ مسؤول عن العملية التداولية. فعندما يفشل الفرد في استخدام اللغة في التواصل مع مجتمعه (وهو لب القضية التداولية)، فهذا يعني أن هذا الفرد مصاب في هذا الجزء من المخ (نصفهالأيمن) لأنه المسؤول عن العملية التواصلية، إذن فهو مصاب في الجانب التداولي من مخه. مما يؤكد على وجود جزء في الجسد يمكن أن نسميه الجزء التداولي، وأنه يمرض.

المرض السادس: أمراض نصف المخ الأيسر التداولية ووظائفه :

لا يكون المرض التداولي نتيجة إصابة النصف الأيمن من المخ فحسب؛ بل إن النصف الأيسر قد يصاب أيضًا بآفات يكون لها تأثير على الجانب التداولي نتيجة الإصابة التي تحل بالنصف الأيسر من المخ، يقول أوبلر: "هناك مجموعة أخرى من الظواهر البرجماتية عند المصابين بآفات دماغية في نصف المخ الأيسر تسبب مشكلات للمحاور؛ وبذلك تبدو حقيقية بالنسبة إلى الباحث"(١).

(١) اللغة والدماغ:١٠٥

الفصل الحادي عشر
مستويات اللغة التداولية

إن مفهوم المستويات اللغوية التي عرفناها سابقًا يختلف عن مستويات اللغة التداولية التي نقصدها هنا، إن مانعرفه سابقًا عن مستويات اللغة وتحليلها أنها تعني المستوى:

أ- **الصوتي**: الأصوات التي ننطق بها في كلامنا ويصدرها جهازنا النطقي.

ب- **الصرفي**: يُعنى بدراسة الأبنية التي تُنتج بجمع الأصوات في أبنية محددة.

ج- **النحوي**: يُعنى بدارسة الجمل التي تُنتجها الكلمات وفق قواعد تركيبية محددة.

د- **الدلالي**: يُعنى بدراسة المعاني التي أنتجتها الجمل الصحيحة لغويًّا.

وقد أضاف علماء الأعصاب وعلماء النفس إلى هذه المستويات السابقة تصورًا أوسع وأعمق لفهم العلاقة بين مستويات اللغة مما يجعلنا نرى هذه المستويات بصورة جديدة وقد وضح لنا علماء النفس والأعصاب هذا التغيير في مفهوم مستويات اللغة المعروفة بطرح هذا التصور الجديد لمستويات اللغة وهو المستوى التداولي، ونحاول عرض آراء بعضهم؛ مثل لورين أوبلر الذي أضاف إلى مستويات اللغة (المستوى التداولي).

أ) مستويات اللغة التداولية عند لورين أوبلر :

أضاف لورين أوبلر إلى مستويات اللغة المستوى التداولي، ونعرضه لرأيه في كالتالي :

١- **المستوى التداولي: (مراحل توصيل الرسائل بين المتحدثين) :**

إنه مستوى يخرج باللغة عن الأطر اللغوية التي عرفنها سابقًا، فالمستويات اللغوية السابقة تمثل شكلًا قاصرًا محدودًا يدرس جانبًا واحدًا من القضية هو جانب اللغة التي نطقها ونسمعها (اللغة المستعملة)، ولكن حقيقة اللغة كوسيلة تواصل بين البشر أكبر وأعلى وأسمى من هذا المفهوم القاصر. لهذا يجب دراستها في إطار مفهوم جديد ينطلق من واقعها الفعلي الذي نعيشه معًا في كل لحظة من حياتنا اليومية.

الغاية من اللغة التواصل،كما قال ابن جني عنها، فهي (أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم)، فنحن نستعملون الصوت كي نتواصل معًا ونحقق أغراضنا به. لكن هل الصوت وحده هو ما يحقق لنا تواصلنا معًا ؟ من هذا الجانب تدخل التداولية

بوصفها فن التواصل لتحقيق غرضنا الأساسيِّ التداولي بالتواصل معًا بوسائل لغوية وغير لغوية.

كيف يتحقق الجانب التداولي باستعمال اللغة ؟ إنه يتحقق بأن توظف اللغة كل قدرة كامنة في المخ للتواصل بها مع الآخر، فلو أننا أمامنا آلة كبرى نصنعها ونركبها لتؤدي وظيفة ما لإنتاج مركب معين، فماذا يفعل المهندس الذي يصنع هذه الآلة ؟ إنه يجمع كل مكوناتها، ويركبها معًا، وينظم عملها، ويرتبه لتعطينا المنتج المطلوب منها.

كذلك يفعل الشخص الذي يسمع الصوت أو ينطق به (لغويًّا وغير لغويّ). فإنه يوظف الصوت كمكون أساسيٍّ يصنفه إلى أصوات لغوية وغير لغوية، ليحقق به تواصلًا مع الآخر، فماذا يفعل لتوصيل رسالته إلى الآخر ؟ فيقوم بالمرور بهذه المراحل:

مراحل توصيل الرسائل بين المتحدثين :

أ- المرحلة الأولى :

نجمع داخل الدماغ على خط فرز الصوت المسموع والمنطوق، كل صوت نسمعه، لنفسركل مكوناته ونحللها؛ فنجمع الصوت على خطين: استقبال الصوت، وإنتاج الصوت في الدماغ أي كل العناصر التي تمكننا من فهم الصوت وإنتاجه وهي:

١- عناصر لغوية: تشمل مستويات اللغة (صوت، ودلالة، وأبنية، وتراكيب).

٢- عناصر تداولية: الإشارة والإيماءة والمجاز، فهي تمثل العناصر التداولية فيها.

ب- المرحلة الثانية :

نبدأ بفهم هذه العناصر والاستدلال منها، والتفكير بها؛ باستعمال الدماغ للتواصل بها، فنقوم بإنتاج لغة ذات مستويات لغوية تداولية وفهمها، ونحن نفعل هذا تلقائيًّا.

٢- مفهوم مستويات اللغة التداولية :

نفهم من هذا الطرح أن هناك مستويات أخرى للغة غير التي عرفناها سابقًا يمكن أن نسميها **مستويات اللغة التداولية**، يجب أن ندخلها ضمن دراستنا للغة لا لنحقق بها التواصل معًا، بل لندرك بوضوح وعمق وجودها الفعلي في حياتنا، وندرك كيف نتكلم وكيف نفهم ما نقول ونسمع، وندع ما ألفنا عبر أجيال من أن اللغة التي

نتكلم ونتواصل بها تتكون من مستويات اللغة المعروفة فقط، والتي قتلناها بحثا، لكي نلج داخل مستويات جديدة للغة هي مستويات اللغة التداولية، وعلى الرغم من هذا فإننا لا نستطيع القول أنها مستويات لم تكن موجودة سلفًا؛ فهي موجودة في اللغة، إنما الجديد هو إدراكنا لهذا الجانب التواصلي فيّنَا، رغم ممارستنا له صباح مساء.

إنها مستويات التواصلي التداولي، وهذه المستويات اللغوية التداولية لم ندرسها في إطار هذا التصور التداولي من قبل. على الرغم من أننا نفعل هذا في حياتنا اليومية في إطار المفهوم التداولي، بل الأكثر من هذا أننا نستنكر خروج أي فرد في مجتمعنا علي قواعد الكلام والفعل الذي يتم خارج الإطار التداولي؛ فنقول عنه: إنه ليس لبقًا وليس مؤدبًا ولايحترم الكبير، على الرغم من أنه لم يخرج عن قواعد اللغة نحوها وصرفها ودلالتها وأبنيتها.

لهذا فإننا نلتزم بالجانب التداولي، ونفعله بدقة متناهية في تواصلنا مع عالمنا عن اقتناع تام بضرورة وجود الجانب التداولي، واستحضاره في كلامنا وسلوكنا، ولا يمكننا الخروج على تلك القواعد التداولية، لقد وصلت لقمة تطورها وقدرتها التواصلية إلى ما يفوق قواعد اللغة بمستوياتها المختلفة، فإننا نتجاوز عمن يخطئ لغويًا، ولا نتجاوز عمن يخطئ تداوليًا، فالقائد أو الرئيس يتجاوز عن الخطأ اللغوي الذي يصدر عمن يرأسه، ولا يتجاوز عن خطئه التداولي؛ كأن يسبقه في الكلام أو يقول كلمة تدل على أنه يفهم أفضل من رئيسه، ولا يقبل حتى مجرد أن يقاطعه في الكلام، مما يظهر خطورة المستويات التداولية اللغوية وغير اللغوية، وضرورة دراستها بعمق كبير ضمن بحوث لغوية جديدة تتم في هذا الإطار التداولي الذي يجمع فيه الباحث بين المستوى اللغويِّ والتداوليِّ.

٣- كيف تُنظَّم اللغةُ تداوليًّا ؟:

كيف تتم عملية معالجة اللغة وتنظيمها في المخ في إطار المفهوم اللغوي التداولي ؟ أو قل كيف يستطيع المخ أن يجمع بين العناصر اللغوية والعناصر التداولية ؟.

الإجابة :

نبدأ الإجابة بسؤال هو: هل نحن نتكلم باستحضار قواعد اللغة في مخنا ؟ ثمنتج بها عبارات وكلمات ننطق بها في الموقف الآني ؟ هذا التصور غير صحيح، فهناك

مراحل تسبق مرحلة إنتاج اللغة، إنها مرحلة تصور اللغة قبل النطق بها، وذلك بالنظر في الموقف الآني الذي سنقول في إطار هذا القول من الظروف والملابسات ومكان القول ومكانة المخاطب وخطورة ما سنقوله علينا، هذه مرحلة الإعداد التداولي للقول الذي سيقال، ثم نقوم باختيار من كلمات اللغة وعباراتها ما يناسب هذا الوقف الآني: مكانة المخاطب، والاستلزام الحواري، وبيان مقصد المتكلم، وضرورات الموقف التي تحتاج إلى النطق بكلمة وترك كلمة أخرى.

٤- مستويات اللغة التداولية عند أوبلر :

إذا مرض الإنسان في النصف الأيمن من مخه، فسنرى عجزًا لديه عن إدراك المعاني غير اللغوية، وما تحمله من مضامين غير منطوقة، فهو يفهم فقط المعنى الحرفي للكلمة لأن نصف الأيسر من مخه هو الذي يعمل. يستمر أوبلر في عرضه لدور النصف الأيمن من المخ في معالجة التواصل التداولي، فاستشهد بآفات النصف الأيمن من المخ التي تؤثر على اللغة والتواصل التداولي لينطلق إلى الحديث عن مستويات اللغة التداولية، فقال: "فعلى الرغم من عدم تأثير القدرات اللغوية في حد ذاتها عند هؤلاء المرضى على النحو الذي نراه عند المصابين بالحبسة، لكنهم يعانون من صنوف الفشل اللغوي والتواصلي، مما يعطينا المزيد من المعلومات حول طريقة إسهام النصف الأيمن من المخ في اللغة والتواصل. لابد لنا من أن نأخذ في اعتبارنا عددًا **من المستويات المختلفة** عند دراسة إمكانية إسهام النصف الأيمن من الدماغ في معالجة اللغة الطبيعية ونطقها. وسنبدأ بالمستوى الصوتي - أي الفونولوجي - ومن ثم نرجع إلى مستوى التمثيل المعجمي، وإلى التركيب، وإنتاج النصوص أو المستويات البرجماتية"(١).

هذا القول يعني أن النصف الأيمن من المخ يؤثر على اللغة بكل مستوياتها، فكل مستوى من مستويات اللغة له دوره في التواصل التداولي، لأنه يبين جانبًا من الرسالة اللغوية المتبادلة بين الناس. ليست كألفاظ أو أصوات ننطق بها ونفهمها حرفيًّا، بل هناك مضامين تحملها الرسالة اللغوية غير منطوقة، هذه المضامين هي ما يصنع النص .بمستوياته البرجماتية مع المستويات اللغوية، حتى فهم النص من إشارات التداولية، فهذه الإشارات أعلى من المعنى الحرفي للغة، لهذا جمعنا بين المستويين بالاسم **مستوى اللغة التداولي**.

(١) اللغة والدماغ: ١٠٦

ب) مستويات اللغة التداولية عند برنارد ج .بارز :

الغموض والاختيارمن مستويات اللغة :

يرى برنارد أن اللغة تشمل عدة مستويات يحويكل مستوى منها مجموعة من الاختيارات، يقوم المتكلم باختيار ما يناسب حديثه منها، هذا التعدد اللغوي يُحْدِث غموضًا في اللغة، يقوم المتكلم من خلال تداوله مع الحدث وما يحيط به من ملابسات بإزالة الغموض؛ وذلك باختيار إحدى هذه الاختيارات فيزول اللبس ويتضح المقصود يقول برنارد: "إن اللغة تزخر بأوجه غموض كثيرة عند أي مستوى من مستويات التحليل، سواء بالنسبة للمدخلات أو المخرجات. ويوحي هذا بأن اللغة تنطوي على نقاط اختيار عديدة على سبيل المثال، معظم الكلمات الشائعة تحمل أكثر من معنى، ويعني هذا أن تعيين التمثيل المعجمي والمفاهيمي للمدخلات الصوتية ينطوى دائمًا على الاختيار من بدائل عديدة كذلك، ثمة جوانب غموض متكررة في التحليل الصوتي"(١).

لكن كيف يتواصل الفرد مع مجتمعه في ظل هذا الغموض ؟ إنه يختار من اللغة الكلمات والعبارات المناسبة للموقف الآني، إنها التداولية بعينها: أن يُزِيل المتكلم ما في لغته من غموض باختياره من بين خياراتها ما يناسب مقام القول، بلغة يراعي فيها كل الجوانب التي أشارت إليها النظرية التداولية.

إن فهم اللغة والتواصل بها يتم في إطار فهم ما يعتريها من غموض، هذا الغموض تسببه كثرة الاختيار بين مكونات اللغة (أصوات وكلمات وجمل ومعاني) وهذا الاختيار الذي يسبب الغموض يأتي من أننا لا نعرف ماذا سيختار المتكلم من بين خيار اللغة المتاحة له، لكنه عندما يتداول مع نفسه حول ما يجب أن يقال سيختار الكلام المناسب للموقف الذي هو فيه.

إن حل مشكلة تعدد الاختيارات الممكنة في اللغة بكل مستوياتها هو تداول الفرد مع لغته حتى يختار منها ما يناسب حديثه، وهذا يعني أن التداول هو أساس الاختيار اللغوي. وأن مستويات اللغة جميعها تخضع لمايختاره الفرد منها، كنتيجة لتداوله معها.

هذا هو الجانب التداولي في كلامنا الذى يجمع بين مستويات اللغة والمستويات التداولية في الدماغ، وكي نفهم القضية بصورة أكبر وأدق لابد من دراسة مستويات

(١) المعرفة والمخ والوعي مقدمة لعلم الأعصاب المعرفي: ٦٧١

اللغة في إطارها التداولي، ولا ندرسها كمستويات لغوية فقط، بل ندرسها في شكلها الجديد الذي نمزج فيه بين اللغة كقواعد معروفة وبين واقعها الفعلي الذي يتمثل في كونها تواصلية تداولية، أي نعالجها باستحضار جانبيها التداولي واللغويِّ، كالآتي:

أولًا: المستوي الصوتي التداولي :

١ – ما معنى تداولية الصوت ؟:

إنه مستوى يحقق فيه الصوتُ تداولًا وتواصلًا بين مصدره وسامعه، وهنا نتحرر من قيد المفهوم القديم لعبارة (الصوت اللغوي)، لنرى كم جنتْ علينا هذه العبارة وحرمتنا من أشياء كان علينا دراستها بعمق. لنرى أن للصوت قيمة تداولية (تحقق التواصل) لم نكن نعرفها من قبل، ليس لكونه صوتًا لغويًّا ضمن أصوات اللغة، بل في إطار صورة أكبر وأعمق كنَّا نهملها عند دراستنا للصوت، ونزعم أنها بعيدة عن دراسة الصوت وخارجة عنه. لأننا سجنَّا أنفسنا في سجن الصوت اللغوي، فلم ننظر للصوت نظرة أوسع، لنرى كم يحقق تواصلًا أكبر من المعنى المحدود الضيق للصوت اللغوي. إنها نظرة قاصرة له، لذا يجب دراسته في إطار مفهوم أوسع هو حقيقته الواقعية (**صوت تداوليّ**).

مثال:

إليك هذا المثال الذي يبين الحقيقة الواقعية التداولية الكامنة في الصوت، والتي يحقق فيها الصوت تواصلًا أوسع وأهم وأخطر – أحيانًا – من الصوت اللغوي، ماذا تقول عند سماعك صوت: بومة تنعق خارج الدار، وسيارة تصطدم شخصًا، وصوت برق ورعد في السماء، ورجل يطرق بابك ؟ هل تقول: إن هذه الأصوات يجب ألا ندخلها ضمن دراستنا الصوتية التداولية، لأنها ليست أصواتًا لغويّة ؟ أم ستدخلها ضمن حديثك عن الصوت بمفهومه الواسع، الذي قال به عبقري العربية (**ابن جني**) ؟ فمفهوم اللغة عنده أنها صوت يحقق تواصلًا، ولم يقيدنا هذا العبقري بكلمة (صوت لغوي)، بل ترك الباب مفتوحًا لنُدخل فيه كل صوت، لغويًّا كان أم غير لغويٍّ، هذا ما نعنيه بمفهوم الصوت في التداولية: **كل صوت يحقق تواصلًا بعالمنا، لغويًّا كان أم غير لغويٍّ.**

هذا التصور القاصر للصوت هو تصور غير صحيح. لأن الصوت تداوليًّا بطبيعته ومفهوم الصوت التداولي له قيمة لغوية أيضًا كوسيلة تواصل تداولية، إن قيمته

التداولية التواصلية تظهر من خلال واقع الصوت التواصلي. فقد أخبرنا كل صوت سمعناه آنفا: أن خارج الدار بومة، وهناك سيارة صدمت شخصًا، وأن برقًا ورعدًا في السماء، وأن هناك طارقًا خارج الدار يطرق الباب لا ندري من هو.

وبناء على المعلومات التي حملها كل أصوت سمعناه وذكرناه آنفًا أصبح له قيمة تداولية تواصلية، لقد أخبرنا بهذه المعلومات، فانطلقنا فور سماعها من مرحلة الإدراك إلى مرحلة الترو ع نحو الهدف لنغيره:

أ- فأسرعنا خارج الدار لطرد البومة.

ب- وأسرعنا خارج الدار لمعرفة الشخص الذي صدمته السيارة.

ت- وأسرعنا إلى أمتعتنا نحميها إلى داخل الدار خشية أن يتلفها المطر.

ث- وأسرعنا إلى الباب لنفتحه، ونعرف من بالباب.

إن هذه الأخبار عرفناها وتفاعلنا معها (من إدراك إلى نزو ع). بناءً على أصوات غير لغوية سمعناها، فتفاعلنا مع الصوت غير اللغوي كالصوت اللغوي، فطرق الباب صوت سمعنا وهو غير لغويٍّ، فتفاعلنا معه بصوت لغوي وقلنا: من بالباب ؟ أجاب أنا فلان، فقمنا لفتح الباب له ليدخل. فلولا صوت طرق الباب (غير لغوي) لما أصدرنا صوتًا لغويًا. لقد رددنا على صوت غير اللغوي بصوت لغوي، وتلك مشكلة كبيرة وقع فيها اللغويون والنحاة، أنهم لم يضعوا جانب (الصوت التداوليّ) في بؤرة دراستهم للغة.

إذن هناك قيمة تداولية تواصلية للصوت بشكل عام، خارج الإطار اللغوي الضيق الذي قيدنا به مصطلح الصوت اللغوي، وانفككنا عنه – أخيرًا – لنفهم أن هناك شيئًا اسمه الصوت التداولي، يفوق ما نعرفه عن الصوت اللغوي. ويحقق لنا تواصلًا أكبر من الصوت اللغوي، فليس الصوت اللغوي الصوت الوحيد في الوجود وفي تفاعلنا مع عالمنا، إن سماعنا للصوت أيًّا كان نوعه ومصدره وتفاعلنا معه؛ يمثل حقيقة تواصلنا مع عالمنا، إنها في حقيقتها تقوم على: **الصوت التداولي.**

الصوت التداوليّ عند جاكلين فيسيار :

يؤكد جاكلين فيسيار على فكرة تداولية الصوت بحقيقيه التواصل بين الناس سواءً كان صوتًا لغويًّا أو غير لغويّ؛ قد أعطانا تصورًا أوسع وأرحب عن الصوت ليس

كصوت لغوي تواصلي فقط، فهو يرى أن الصوت غير اللغوي يحقق جوانب تواصلية تداولية يعجز الصوت اللغوي عن تحقيقها، يقول: "إذا كان النظام اللغوي هو في الأساس ما يُحقق ملكة اللغة، فهذه الملكة يُمكنها أيضًا أن تستفيد من عناصر أخرى تُنتجها الأعضاء نفسها التي تُنتج الكلام (التنهيدات، والضحكات، والسعال، وعلى هامش اللغة، المُحاكيات الصوتية) أو تُنتجها أعضاء الجسد الأخرى: إذ تشكل الحركات وإيماءات الوجه نظامًا (وضعيًا – إيمائيًا – حركيًّا) ... الإنسان في صميمه كائنٌ تواصليّ"[(١)].

هذه العناصر الصوتية التي ذكرها جاكلين تحقق تواصلًا على الرغم من أننا لا نعدُّها أصواتًا لغوية؛ لكنها لها قيمة تداولية تواصلية بما تحمله من دلالات مختلفة، فالتنهيدة صوت غير لغوي لكنه له معنى تواصلي (قد يحمل معنى الضيق والضجر)، كذا الضحكة صوت غير لغوي (قد تحمل معنى السرور والسعادة وقد تحمل تعني السخرية والشماتة)، والسعال (قد يعني توجيه انتباه الآخر لشيء خطير أو دلالة على المرض)، وكل صوت أو حركة تصدر من الجسد لها دلالة تواصلية، حتى إيماءة الوجه تحقق تواصلًا، ثم يجمل جاكلين الأمر في وصفه للإنسان قائلًا: (الإنسان في صميمه كائنٌ تواصليّ) فهو متواصل بطبيعته بكل الوسائل وأهمها الصوت بدلالاته المختلفة.

العناصر التداولية الصوتية عند جاكلين :

ويقول عن ما يمكن أن يحمله الصوت من دلالات مختلفة داخله ذاكرًا إياها؛ مما يبين القيمة التداولية والتواصلية للصوت؛ ثم يعدد لنا هذه القيم: "يحمل النظام الصوتي:

أ- تشكيلة واسعة من المعلومات.

ب- فالمتكلم يُوصل معلومات مختلفة وفقًا للطريقة التي يلفظ بها الرسالة الكلامية.

ت- والتي لا تخضع لسيطرته إلا جزئيًا. فهو يعبر عن المشاعر أو الانفعالات أو الموقف.

ث- وهو يستدعي بذلك ردة الفعل هذه أو تلك لدى المخاطب.

---

(١) الصوتيات: جاكلين فيسيار، تر/ بسام بركة وروز الكلش، مركز دراسات الوحدة العربية، ط/١ ٢٠١٣، ص٣٠

ج- ويكشف عن هويته الاجتماعية، والإقليمية والثقافية"[1].

ثم يقول مجملًا القول فيه: "يمكن وصف اللغة من حيث التمفصل المزدوج (كما عند مارتنية) تتألف كل رسالة من سلسلة أصوات تتوافق مع سلسلة من الإشارات. كل إشارة (نموذجًا: الكلمة) تملك وجهين هما الدال والمدلول اعتباطية واصطلاحية"[2].

هذا يعنى أن السلسلة الصوتية تتضمن إشارات تحمل دلالات كثيرة غير حقيقة ما تعنيه ألفاظها، وهو أمر آتٍ من الطبيعة الاتفاقية الاعتباطية للصوت مما يدل تداوليته.

٢- قدرة النصف الأيمن على تمييز الأصوات :

كيف يكون للصوت تأثير على عملية التواصل التداولي ؟ إن ما ذكره أوبلر في حديثه عن المستوى الصوتي يبين تأثير الصوت على الجانب التداولي من خلال تحديد الصوت الخاص بالفرد من معرفة خصائص صوته الخاصة به، فنعرفه من سماع صوته فقط دون رؤيته، بمعرفتنا خصائص صوته مثل: النغمة والتنغيم والمفصل والمقطع والنبر واللحن الخاص به، كل ملامحه الصوتية، ومنها هذه الخصائص فوق تركيبية/ تطريزية لصوته.

وهي بشكل عام، وسائل تحقق التواصل التداولي بدقة متناهية بين الناس، والتعرف عليهم، إننا لن نتحدث هنا عن أصوات اللغة كأصوات تكوّن كلمة وجملة لها معنى محدد، إنما نتحدث عن الصوت بعد إنتاجه في صورته الطبيعية كصوت لغوي يعبر عن الكلمة والجملة والمعنى؛ ويمكِّننا من معرفة الأفراد والتمييز بينهم دون رؤيتهم أي: نتحدث عن الصوت اللغوي في صورته التداولية. لنتبين من قدرة الصوت اللغوي على التواصل التي تفوق مجرد فهم المعاني الحرفية للأصوات. ويمكن فهمها من هذا المثال.

مثال :

اتصل بكَ هاتفيًّا شخصٌ فقلتَ له: كيف حالك يا عصام، ماذا أصابك هل أنت مريض ؟ لا يعجبني صوتك، ماذا حدث لك بالأمس ؟ أريد أن أطمئن عليك، أقول

(١) الصوتيات: ٣٠
(٢) الصوتيات: ٣٠

لك: لماذا تسأل عصام هذه الأسئلة ؟ بل كيف عرفتَ أنه عصام ؟ كيف أجريت الحوار معه دون أن تراه ؟ والمفاجأة الكبرى أن يقول لك: أنا لستُ عصاما.

الإجابة :

إنك تعرفت على عصام بعد سماع صوته بفضل نغمة صوته الخاصة به، وذلك نتيجة عمل النصف الأيمن من المخ المختص بإدراك التنغيم والموسيقي. فلكل فرد نغمة وتون صوتي خاص به، أي خصائص صوتية يتفرد بها عن غيره. لهذا فإن خصائص الصوتية لهذا الفرد هي ما يساعدنا في معرفته عندما يتكلم وتحدد حالته الصحية والنفسية. فعندما سمعتَ صوته لأول مرة كصديق جديد فإن صوته يُسجل في الشبكة العصبية بأدق خصائصه، وعند سماعه مرة أخرى دون رؤيته (بحديثه الهاتفي) فإنك تعرفه فورًا، بفضل خصائص صوته التي سمعتها من قبل، وسجلتها في ذاكرتك.

ومع هذه الدقة البالغة لجهاز فرز الأصوات لدينا فإننا نقع في مشكلة كبرى، وهي التشابه الكبير بين أصوات الناس، مما يؤدي إلى إحداث خطأ في التمييز بين الناس، وهذه القصة حدثتْ لي شخصيًا سمعتُ صوتًا في الهاتف فقلتُ: كيف حالك يا فلان؟ فقال: أنا لستُ فلانا.

في هذه اللحظة أدركتُ خطئي، وأخذتُ أبحث في ذاكرتي عن شخص له هذه الخصائص الصوتية، فقلت له: إذن أنت فلان أو فلان أو فلان، فأوقف هو ما أنا فيه من حيرة بقوله: أنا شخص لا تعرفه، إن هذه القصة تحدث لكل شخص منّا، ذكرتُها لأثبت لك أنك على الرغم من نجاحك بنسبة عالية تفوق ٩٠% في التعرف على الشخص عند سماع صوته هاتفيًّا؛ فإنك قد تفشل في هذا بنسبة قليلة.

كذلك يمكنك تحديد نوع الآلة الموسيقية التي تسمعها (بيانو. عود. طبلة)، بفضل هذه القدرة على فرز الأصوات التي يمتلكها النصف الأيمن من مخك، بل إنك يمكنك التعرف على الحالة النفسية والصحية لعصام دون أن تراه بمجرد كلامه معك، أو بسماع صوته هاتفيًّا، لهذا تقول: ماذا أصابك يا عصام ؟ إنني أسمع نغمة حزن وألم في صوتك، فيقول: نعم إنني مريض، لقد مكنتك خصائصه الصوتية من التعرف عليه وعلى حالته الصحية والنفسية.

بهذا يكون للتنغيم والنغم والنبر قيمة تداولية تمكنك من تحديد المتصل بك ومعرفة ظروفه النفسية والصحية، وبهذا يمكنك التواصل معه، وتداول الحديث معه بصورة جيدة.

لذا يجب إدخال الصوت خصوصًا الفونيمات فوق التركيبية ضمن تحليلنا للصوت لبيان الجوانب التداولية التي حققها سماع الصوت، ضمن الوسائل التي تحقق التواصل الدقيق بين الناس، لهذا يمكننا أن نعد الصوت عنصرا تداوليًّا.

٣- تداولية الصوت لدى علماء الإدراك والأعصاب والقدماء :

أ) الصوت التداولي لدى أوزوالد دوكرو :

تحدث أوزوالد عن المستويات التداولية في إطار حديثه عن القيمة التواصلية لها، ووضَّح أثر التداولية في فهم المستوى الصوتي والمستوي النحوي والصرفي والدلالي، وركز إهتمامه على الجانب الصوتي التنغيمي وقيمته التداولية التواصلية؛ نعرض لرأيه هنا:

١- التنغيم الإيقاعي وحسن الفهم :

يقول أوزوالد عن التداولية التواصلية إنها تتحقق من خلال الإيقاع التنغيمي للكلام الذي يحقق الفهم الصحيح له: "إن التنظيم الإيقاعي والتنغيمي المحكم يؤدي إلى فهم حسن، حتى ولو لم يكن إنجاز القطع مرضيًا بكل مكوناته. وهذا ما يعرفه جيدًا مَن يهتمون بإنتاج لسان أجنبي والتعرف إليه، ما دام المتكلم فيه، ومن يهتمون بإنجاز وإدراك كلام الصم، أو الأشخاص الذين يتحكمون في التصويت تحكمًا رديئًا"[(١)]. أشار أوزوالد إلى مبدأ تداولي وهو حسن الفهم، ويأتي من انتظام الإيقاع والتنغيم في أصوات الكلام؛ فإذا كان الإيقاع والتنغيم منتظمين فإن هذا سيؤدي إلى الفهم الحسن؛ حتى وإن لم يكن نُطقُ بعض المقاطع مرضيًا نتيجة وجود لكنة أجنبية فيه أو إذا كان المتكلم مريضًا.

٢- دور الهيكل التناغمي في التداول :

ويشير إلى دور الهيكل التناغمي في فهم اللغة والتعرف عليها قائلًا: "كيف تحدد الصوتية التركيبية للجملة البسيطة، أي نحو متضمن للعلاقات بين الأبنية الصرفية التركيبية والأبنية العروضية"[(٢)]. يقصد بالصوتية التركيبية التنغيم (العروضي) الناتج عن البناء الصوتي التركيبي للجملة؛فهو عبارة عن هيكل تناغمي لها، يحدد ملامح الجملة، ومن ثم معناها، وكذا يحدد البناء الصرفي لها، والعلاقة النحوية/ التركيبية بين أجزاء الجملة. وعلى هذا، فإننا عندما نسمع جملة ما (بسيطة) سبق لنا سماعها كثيرًا؛

(١) المعجم الموسوعي الجديد في علوم اللغة:٣٤٥

(٢) المعجم الموسوعي الجديد في علوم اللغة:٣٤٥

فإن ما يصل إلى مركز سمعنا ونتواصل به هو التنغيم الخاص بها؛ فنفهمها فهمًا جيدًا؛ حتى وإن كانت بعض مقاطعها غيرَ واضح، لأن المركز السمع يعرضها على ما هو مدون فيه من هياكل تناغمية فيتعرف عليها وإن كان نطقها غيرَ واضحًا ومن هنا يظهر الدور التواصلي التداولي للجانب الصوتي (التنغيمي / العروضي) في الفهم الحسن للكلام.

٣- التنغيم الصوتي وتأثيره على الدلالة التداولية :

يمكن أن نرى أثر التنغيم (العروض) على دلالة العبارة، يقول أوزوالد: "يمكن أن ندرك أنه يمكن لنا أن ننتقل تدريجيًا من الجوانب التركيبية البحت إلى الجوانب الدلالية – التداولية"[(١)] أي أننا يمكننا الانتقال إلى الجانب الدلالي التداولي من خلال التنغيم، فالتنغيم يعطى الجملة دلالة تداولية لا يمكن أن نراها في الجانب التركيبي، فالبناء التركيبي للجملة لا يكفى وحده لإكساب الجملة دلالة تواصلية، في حين أن التنغيم يمكنه أن يعطيها إياها، ويذكر مثالا يوضح هذا يقول: "في الفرنسية وفي كل لسان آخر، أن نعبر عن موقف بوسائل معجمية كما هو الشأن في الملفوظ: (للتأثير فيك ولأحقق رغبتي سأقول لك إنني جائع، وأود أن أحصل على شيء آكله بفضل منك توًّا). لكن ربما يكفي، في الكلام، أن أتلفظ قائلاً: (إني جائع) تلفظا له منحنى تنغيمي معين. يمكن للتأثير في الغير، والتعبير عن انفعال أن يُشار إليهما باستعمال عناصر معجمية تركيبية مصحوبة أو غير مصحوبة بتغير عروضي ناشئ عن الثقل الدلالي للكلمات المستعملة، لكن يمكن للمؤشرات العروضية وحدها أن تكفي للقيام بهذه الوظائف؛ فالأمر يتعلق فعلًا بالدلالة على صعيد المواقف المؤداة بواسطة التنغيم"[(٢)].

إذن للتنغيم قوة دلالية تداولية لا تملكها الكلمة بصرفها ونحوها فقط؛ فلا تستطيع أن تعبر عمَّا تحمل العبارة من مفاهيم ومعان ودلالات لم ينطق بها المتكلم، فلو حاولنا إيجادها في نحو الجملة وصرفها ومعاجمنا فلم نحصل على شيء منها، ويذكر لنا أوزوالد مثالا يوضح هذه الفكرة التي أتفق معه فيها؛ أن الفرد عندما يعبر عن أنه جائع في جملة بسيطة مثل: إنِّي جائع، بمنحنى تنغيمي معين يجعلك تقتنع بمدى حاجته للطعام، فتتأثر بكلامه وتطعمه فورًا، أفضل من أن يقول لك: أرجوك إني فقير وجائع أحتاج إلى طعام، إنها القدرة الإقناعية الكامنة داخل التنغيم التي تفوق الكلمات المعجمية والتراكيب النحوية، إنه تأثير التنغيم الذي يفوق دلالة الكلمات وأبنيتها

(١) المعجم الموسوعي الجديد في علوم اللغة:٣٤٦

(٢) المعجم الموسوعي الجديد في علوم اللغة:٣٤٦

وتراكيبها، مما يدل على إيمانه بالقيمة التداولية للتنغيم في جانب الإقناع؛ فالإقناع مستوى تداولي يقوم بإقناعنا بكل ما في المستويات اللغوي، مما يجعلنا نؤمن أن هناك مستوى تداوليًّا يُحمِّل للعبارة دلالات غير منطوقة، نفهمها منها، وإن لم ينطق بها المتكلم صراحة.

مثال :

ويؤكد هذه الفكرة هذا المثال الذي حدث لي شخصيًّا عندما ذهبتُ مع زميلي إلى طبيب الشركة التي نعمل بها؛ وقلتُ عند توقيعه الكشف عليّ: آه، آه؛ بمنحنى تنغيمي معين؛ أمَّا زميلي فوقف أمام الطبيب صامتًا و لم ينطق شيئا، فكل نتيجة توقيع الطبيب علينا أن قال لي: يمنح المرض أسبوعًا أجازة، أما زميلي فقال: يعود المريض لعمله فورًا.

من هذا يتبين أن المنحنى التنغيمي الذي نطقتُ به كلمة آه، أثر في الطبيب وأقنعه أنني مريض، على الرغم من أنني لم أصف له معاناتي ولا ألمي، لكنه أقتنع بمرضي من خلال التنغيم المصاحب لكلمة آه، أما زميلي فلم يفعل؛ فأوصى الطبيب بعودته لعمله. وقد استنكر زميلي نتيجة الفحص قائلا: لقد قلتَ للطبيب آهةً أقنعته بمرضك، ثم يستدرك قائلا: لكن في الحقيقة أنت كنتَ أكثرنا مرضا، إنه يؤكد صحة تقرير الطبيب.

هذا الأمر حدى بأوزوالد أن يقول بوجود هياكل تناغمية في كل لغة تحقق التواصل بين أصحابها، فهي نمط محفوظ في عقول أبناء اللغة يستطيعون باستحضارها معرفة كلام الآخر وإن أخطأ في بعض مقاطعه، يقول: "يقترح مصطلح cliché m'elodique (قالب تناغمي) لوصف تشكيلات عروضية مستقلة ممثلة لخصائص الكلام في مختلف المستويات الخطابية أو التداولية أو السياقية"[1].

إن الكلمة التي ذكرها في المصطلح توضح فكرته، وهي كلمة (أكلاشي/cliché) كما تقول العامة، أي قالب تناغمي؛ ننسج على نمطه جملا مماثلة ننطق بها، وتشمل هذه الهياكل التناغمية كل قوالب اللغة، مما يحقق فهمًا سريعًا نتواصل به معًا ونتداوله.

٤- دور عناصر غير الصوتية في تأويل الكلام :

يشير أوزوالد إلى دور العناصر التداولية غير الصوتية في تأويل الكلام؛ فيرى أنها تستطيع تمكيننا من تأويل النص تأويلا سليما، عندما نجنب الإنجاز العروضي (العناصر

---

(١) المعجم الموسوعي الجديد في علوم اللغة:٣٤٧

النغمية)، فالمتكلم والسامع تسيطر عليهما هذه العناصر أكثر من القواعد الصوتية التركيبية والقواعد النحوية والصرفية، مما يُظهر الدور الكبير لهذه العناصر في فهم الكلام والتواصل بدون اللغة وقواعدها، مثل: التلميح والإشارة والإيماءة، فيقوم المتكلم والسامع باستحضارها دون تدخل من قواعد اللغة، ثم يضيف عنصري الزمان والمكان، أشار غليهما بقوله: ملفوظ مُحَيَّنْ ومقام مُعَيَّنْ؛ فمحين: له زمن محدد، ومقام: قيل في مكان معين، فهو إشارة إلى دور الزمان والمكان في صنع المعنى كعناصر تداولية، يقول: "ليس المتكلم ولا السامع واعيين حتما بقواعد النحو؛ حتى بالقواعد الصوتية التركيبية منها التي يستعملوها؛ فقلَّ ما يُحدث ملفوظ مُحَيَّنْ يُلقى في مقام مُعَيَّنْ، التباسا ويحيل إلى تأويلين ممكنين؛ ولا يمكن للسامع أن يؤول إلا بكيفية واحدة حتى ولو كان المثال العروضي غير صحيح من وجهة نظر القاعدة التركيبية؛ وستمكن عناصر أخرى، قد تكون تداولية، أو خارج لغوية من التأويل السليم عندما يحدث تحييد الإنجاز العروضي"[١].

٥- الصوت البشري وصوت الآلة وعناصر التداولية :

يشير أوزوالد إلى أن الآلة التي تنتج كلامًا ككلام البشر مهما بلغتْ من الدقة فإنها لا تقارب قدرة الصوت البشري على نقل المعاني المتضمنة في الرسالته الصوتية، نظرًا للعناصر التداولية الصوتية التي ينقلها الصوت البشري؛ ولا يمكن للآلة نقلها للمتلقي، يقول: "يمكن لهذه المناويل[٢] أن يُستعمل في تأليف الكلام لإنتاج محاكاة الكلام البشري وخاصة في ما يسمى تأليفًا انطلاقًا من النص. والأمر يتمثل في محاكاة، إذا كانت مقبولة بالنسبة إلى الجملة القصيرة جدًا، فإنها سرعان ما تصبح رتيبة مملة بطابعها الآلي، ومن ثم تصبح لا تطاق وغير مفهومة في الملفوظات الطويلة طولا عاديا"[٣].

إن الآلة لا يمكنها أن تعبر عن المعاني التداولية المتضمنة في الرسالة الصوتية مثل أصوات البشر: "ومثل هذه المناويل تستعمل بصعوبة في التعرف إلى الكلام الطبيعي التلقائي، إذ إنها لا يمكن أن تأخذ بعين الاعتبار الواقع الخطابي التداولي للإنتاج الشفاهي الذي لا يتكون من مجرد تسلسل جمل منمقة تُقرأ، وتتضمن دائما نصيبًا من الطاقة التعبيرية غير المنتظرة، لكنها يمكن أن تكون مرضية نسبيا في ملفوظات مختصرة

(١) المعجم الموسوعي الجديد في علوم اللغة:٣٥٥

(٢) يقصد بالمناويل هنا الآلات التي تحاكي كلام البشر، فهي لا تقدر على هذا العمل.

(٣) المعجم الموسوعي الجديد في علوم اللغة:٣٥٦

جدا كالأوامر"[1]. إن الصوت البشري يحمل طاقة تعبيرية انفعالية لا يمكن للآلة أن تحملها؛ ممايتبين مدى القدرة التداولية التعبيرية التي تحملها الأصوت البشرية.

تظهر التداولية في الصوت البشري بأنها تضع في حسبانها الواقع الخطابي التداولي، وما يستلزمه ويفرضه على المتكلم والسامع في حوارهما الخطابي التداولي، عندما ينتجان كلامًا منطوقًا شفاهيًا، مما يجعل الحديث الشفهي بآلياته الإقناعية أكثر تأثيرًا، لهذا نقول: إن الخطاب الشفهي أكثر إقناعا بسبب المواجهة الشفهية التي تبين صدق المتكلم من كذبه، لإمتلاكه عناصر تداولية إقناعية أكبر من المكاتبة، بل أكثر صارحة من الحديث الهاتفي؛ لما يتضمنه من تلميحة وإيماءة وتقطيب الوجه تبين الحقيقة وتقنعنا بها.

٦- المتغيرات العروضية ومستويات النشاط اللغوي :

"إن تمثيل المتغيرات المفيدة وتوقعها في كل مستويات النشاط اللغوي يبدو لو كان الكلام يتكون فقط من ملفوظات تلقى حسب طريقة تُعتبر محايدة، أي لو لم تكن تتحكم فيها إلا قيود معجمية أو تركيبية يمكن العدول عنها حسب بعض المقامات التداولية المحددة إجمالا، لكن من المعلوم أن كل تلفظ يُنجز في عدد لا يُحصى من الظروف القابلة للتحديد قليلًا أو كثيرًا، ما هي الوظائف التعيينية والانتباهية والمعرفية والشعرية التي يركن إليها المتكلم ؟ ما هو الموقف الذي يعبر عنه عن وعي أو عن غير وعي، وفي أية لحظة"[2].

إنها قدرة تداولية متضمنة في الصوت البشري؛ تجعلنا لا نتوقع السلوك الذي سيقوم به الفرد، ومعرفة ما يريد فعله قبل أن يقوله هو أو يفعله، فهي معلومة لازالت في رأس المتكلم، ولن تمكننا معلوماتنا التداولية عنها من معرفتها، يقول أوزوالد: "يمكن أن نربط خصائص عروضية بمختلف وظائف اللغة، وبالتعبير عن المواقف والانفعالات، لكن لا يمكن توقعها، لأنه لا يمكن توقع ولا معرفة متى يريد المتكلم أن يعبر عن تغيير الوظيفة أو الموقف، ولا ما هو الحل الملموس الذي سيتوخاه؛ ولنقل محاكين كلام د.بولنجار؛ إنه لا يمكن توقع التنغيم حقا إلا إذا أمكن قراءة ما في رؤوس الناس"[3].

(١) المعجم الموسوعي الجديد في علوم اللغة:٣٥٦
(٢) المعجم الموسوعي الجديد في علوم اللغة:٣٥٦
(٣) المعجم الموسوعي الجديد في علوم اللغة:٣٥٦

ب) الصوت التداولي لدى أوبلر :

١. القيمة التداولية للصوت في التمييز بين اللغات :

نذهب مع أوبلر إلى مستوى أعلى في بيان قيمة الصوت التداولية، حيث يمكننا الصوت التداولي من التمييز بين اللغات والتعرف عليها، فقد بيَّنَ أوبلر قيمة الصوت في تحقيق التواصل التداولي في اللغات قال: "يحتوي المستوى الصوتي للغات الطبيعية كافة مكونًا نغميًّا معينًا. فعلى سبيل المثال تستخدم اللغات جميعها النغمات للتمييز بين الأسئلة والجمل التقريرية.

وبالإضافة إلى ذلك فإن بعض اللغات كالصينية والفييتنامية تستخدم النغمة سمة مميزة فوق قطعية ... وحيث إن نصف المخ الأيمن هو المسيطر بالنسبة إلى إدراك النغمات الموسيقية، فهل يمكن أن يكون حيويًّا أيضًا في إصدار وإدراك النغمة اللغوية أو التنغيم أو كليهما ؟"(١).

هذا السؤال الذي ختم به أوبلر كلامه يمكن الإجابة عليه، وذلك من خلال قدرة النصف الأيمن على التحليل الموسيقي والنغمي. إنها القدرة على التحليل الصوتي، وهي قدرة تداولية في حقيقتها. لأن النصف الأيمن يشرف على صحة إنتاج الصوت اللغوي بوصفه نغمة رمزية، تدخل ضمن اختصاصه وهو الجانب الموسيقي، فاللغة أصوات في حقيقتها، ويشرف النصف الأيمن من المخ على استقبال أصواتها، وتحليلها خارج مضمونها الحرفي، وذلك بإعطائها تفسيرها التداولي الذي يمكننا من تحديد الشخص المتكلم، وكذا ما يحويه صوته من المعاني غير الحرفية: (الحزن والفرح والألم)، إنها انفعالات اختص بتفسيرها النصف الأيمن، وكذا تحديد الغاية من السؤال (تقرير استفهام سخرية) فكلها قضايا تداولية يقوم بمعالجتها النصف الأيمن من المخ.

إن أوبلر يتكلم عن الطبيعة الصوتية لكل لغة، حيث تمتلك كل لغة نغمات خاصة بها تميزها عن سائر اللغات. فعندما نسمع في المذياع متحدثًا ما، يمكننا القول: هذا المتكلم إنجليزي أو عبري أو فرنسي أو عربي. على الرغم من عدم فهمنا لما يقوله، غير أننا نلم ببعض ألفاظ هذه اللغات. لأن لكل لغة منطقة من الجهاز النطقي تستعملها بكثرة لإنتاج أصواتها في مقابل مناطق أخرى لا تستعملها مطلقًا، وهذا الأمر جعل

(١) اللغة والدماغ: ١٠٦

لكل لغة نغمها الخاص وإيقاعها المتميز الذي يُمكننا من التعرف عليها، وإن لم نفهمها، لأن لها خصائص صوتية متفردة، فعند سمعها نتعرف عليها ونحددها من بين اللغات، إذن هذه تدخل ضمن القدرات التداولية للصوت، والتي تجعلنا – على الرغم من عدم تخصصنا في تحليل الأصوات – أن نعرف جنسية وبلد المتكلم من خلال لغته، لنقول: إنه من أبناء الصعيد أو الإسكندرية أو بور سعيد، وذلك عند قراءتهم جميعًا لنص واحد، وكذا عند سماع صوت مذيع ما في المذياع؛ فتقول: هذا فلان أنا أعرفه من نغمة صوته.

إن الملامح التداولية لصوتهم حددتهم، وميزت شخوصهم والبلاد، على الرغم من أنهم جميعا أبناء لغة واحدة هي العربية، ووطن واحد فكلهم عرب.

٢. الأصوات التطريزية وتمييز المعنى :

إن اللغات جميعها – كما ذكر أوبلر – تجعل نغمًا خاصًا بالجملة الاستفهامية وآخر للتقريرية، مما يعني أن النغم الصوتي يخلق دلالة جديدة ومختلفة للجملة، فتتحول الجملة نفسها كجملة اسمية (مثلاً) من جملة استفهامية إلى تقريرية أو استنكارية دون تغيير في ألفاظها أو تركيبها، وهذا الأمر يظهر بوضوح في اللغة العربية والإنجليزية عندما ننطق بجملة واحدة بنغم معين، ثم نغيره بنغم آخر، فإن هذا يغير في دلالة الجملة، فتتحول من معنى الاستفهام إلى معنى التقرير أو الدهشة. كعبارة: (**شفتَ أخاك**). فهى تعني السؤال عن الأخ، وقد تعني الدهشة مما فعله هذا الأخ، إن الذى يميز بينهما هو النغم الخاص بهذه العبارة، وهذه العملية يقوم بها النصف الأيمن من المخ، مما يدل على قدرته التمييزية الصوتية الكبيرة والهائلة لدى هذا النصف، لا يصح إغفالها، إنها قدرة صوتية تداولية.

إن هذا الأمر يشير إلى القدرة الخاصة للنصف الأيمن من المخ، فهو لديه القدرة على استيعاب الموسيقى والأنغام والانفعال والتمييز بينها. لقد تبين لنا من قبل، القيمة الدلالية للفونيمات فوق التركيبية/ التطريزية، ونؤكد هنا على قيمتها التداولية، مما يبين أن اللغة ليست حكرًا على النصف الأيسر من المخ على الرغم من أنه المسيطر. فإننا نعود للنصف الأيمن للإفادة من قدراته في التمييز بين:

أ- اللغات التي نسمعها (عربية/ إنجليزية/ فرنسية).

ب- المتكلمين بهذه اللغة الواحدة.

ت- حالات المتكلم بلغة واحدة في معنى جملة واحدة (تقرير/ استفهام/ دهشة).

ث- الحالة النفسية والصحية والانفعالية للمتكلم وإن لم يصرح بها. إنها قدرة تمييزية (موسيقية وتنغيمية وانفعالية) يمتلكها النصف الأيمن من المخ تؤكد دوره التداولي، فإذا أصيب هذا الجزء بعطب فإن العملية التواصلية التداولية تتأثر بذلك.

٣. أنواع اللغات: **(نغمية وغير النغمية)** :

إذا كنَّا قد حددنا مهمة كل نصف من نصفي المخ في العملية اللغوية التواصلية؛ فإن هذا التحديد له ما بعده، فعند تحديد دور النصف الأيسر أنه مختص بفهم وتقديم التفسير الحرفي للغة بكل مستوياها (أصوات. أبنية. تراكيب. دلالة. تداول)، فإننا يمكننا القول: إن هذه القدرة الخاصة به تجعله يميز بين أصوات اللغة الأساسية ودلالتها وتراكيبها كي يستقبل رسالة لغوية، ويفسر معناها الحرفي فقط. وذلك في اللغات غير النغمية. ونقصد باللغات النغمية اللغات التي تستخدم النغمة سمة مميزة فوق القطعة لها، فهي تميز بين كلمتين لهما النطق ذاته، لكنهما يختلفان من حيث النغمة، فكل معنى له نغمة تميزه في نفس ذات الكلمة، هذا الأمر لا يتوفر في اللغات غير النغمية. وتَعْتبر اللغات النغمية التنغيم مكونًا أساسيًّا في بنيتها كي يفهم أبناؤها معاني ألفاظها، وكذا يميزون بينها. فإذا قلنا: إن النصف الأيمن من المخ هو المسيطر بالنسبة لعملية إدراك النغمات الموسيقية؛ فهذا يجعل ذاقيمة تواصلية في الرسائل اللغوية التي تحمل نغمات مختلفة، حيث يميز بينها. وكذلك إذا قلنا إن للنصف الأيمن من المخ قدرة على التمييز بين الانفعالات المختلفة، تكون تلك ضمن قدراته التداولية.

وفي الوقت ذاته، فإن للنصف الأيمن من المخ قدرة تداولية على التمييز بين دلالات النغمات المختلفة، وما يريده المتكلم بها، أو ما تحمله من المعاني غير المنطوقة التي تشير إلى مضمون الرسالة. فمن يسمع - كما ذكرنا آنفًا - متكلمًا يعرفه كصديق له. فإنه يسأله: لماذا أنت حزين وفي صوتك نغمة حزن ؟ فيقول له الآخر: ماتت زوجتي. إذن من أين عرف الأول حزنَ الثاني على الرغم من أن الثاني لم يتكلم عن موت زوجته، ولم ير الأول وجه الثاني ؟ لقد عرف ذلك من نغمة صوته التي لم

يعتدها فهي نغمة غير معتادة بالنسبة للسامع. هنا تظهر القيمة التداولية التواصلية للنغم والتنغيم. هذا التمييز بين الدلالة الذي أشرت إليه آنفًا طرحه أوبلر ضمن سؤال له، يقول فيه: "هل يمكن أن يكون النصف الأيمن من المخ فعَّالا في إصدار وإدراك النغمة اللغوية أو التنغيم أو كليهما ؟"(١).

الإجابة :

لابد أن نميز بين شيئين هما: الصوت اللغوي الأساسي، والتنغيم كصوت لغوي يعد ثانويًّا في بعض اللغات. فالأول يختص بأصوات اللغة الأساسية مثل: ب. ت. ث الخ. وذلك من خلال عمل النصف الأيسر من المخ، ويُخزن فيه وما يشير إليه كل صوت منها. والثاني يتصل بالأصوات فوق التركيبية/ التطريزية التي تعطي ملامح تنغيمية تمييزية للأصوات الأساسية، تفرضها طبيعة الحوار وخصائص المتكلم الصوتية. وتقيم اللغات التنغيمية بناء دلالات كلماتها والتمييز بينها على أساس من الأصوات فوق التركيبية. فمن الذي يقوم بهذا العمل كله ويختص به ؟ إنه النصف الأيمن من المخ.

وعلى الرغم من هذا، فإن كلا النصفين (الأيسر والأيمن من المخ)، يتعاونان معًا بصورة تكاملية في إطار بيان مضمون الرسالة التواصلية، فلا نستغني بأحدهم عن الآخر. فلكل منهما دور منوط به. ويتحدد دور كل نصف منهما حسب المهمة الأساسية الموكلة إليه، وتتغير مهمة كل منهما نتيجة استئصال أحدهما. فكل نصف له مهمة صوتية مختلفة، حسب اللغة المنتمي إليها، لهذا فاللغات كلها تقسم صوتيًّا إلى:

أ) **اللغات النغمية :**

إنها اللغات التي تستخدم تنغيم القطعة (الفونيمات فوق التركيبية: النبر والمفصل والتنغيم) كعنصر أساسي في بناء كلماتها والتمييز بين معانيها، كالصينية والتايلندية). في هذه الحالة يسيطر النصف الأيسر من المخ على التنغيم الخاص بهذه اللغة لماذا ؟ لأن النظم النغمية في هذه اللغات تخدم وظائف لغوية في التمييز بين الكلمات ذات الأصوات المتماثلة.

هنا يصبح التنغيم العنصر الأساسي في التمييز بين كلماتها ومعانيها. فيسطو النصف الأيسر من المخعلى عملية التفسير الحرفيِّ للغة، لتصبح له السيطرة التامة على

(١) اللغة والدماغ: ١٠٦

هذا القسم من اللغات، وذلك بوصفه المنوط به عملية التمييز بين الكلمات في معناها الحرفي. لهذا يقول أوبلر: "يرى بعض الباحثين أن النغمة في اللغات النغمية يمكن أن تعالج بصفة رئيسة في النصف الأيمن من المخ.

لكن الدراسة الدايكوتية (السمعية) ... أثبتت خطأ هذا الاعتقاد بالنسبة إلى الأناس الأسوياء. فبما أن النظم النغمية تخدم وظائف لغوية على ما يبدو في التمييز بين الكلمات ذات الأصوات المتماثلة، فقد تم إثبات سيطرة النصف الأيسر من المخ لدى الناطقين بالتايلندية. وقد قدمت دراسات حديثة أجريت على بعض المصابين بالحبسة من الناطقين بالتايلندية والصينية دليًلا على مسؤولية النصف الأيسر من المخ عن النغمة، على اعتبار أن إصدار النغمات وإدراكها تعرض للتلف عند المصابين بالحبسة الناجمة عن تأذي النصف الأيسر من المخ" (١).

ب) اللغات غير النغمية :

"في اللغات غير النغمية كالإنجليزية، نرى أن للنبر والنغمة دورًا في قواعد اللغة. وقد بين عدد من الباحثين ... أن العناصر القياسية من النغمات اللغوية التي تؤدي وظيفة تركيبية ... خاضعة فيما يبدو للنصف الأيمن من المخ. وبالمثل، فإن إدراك الجوانب النغمية العاطفية غير النحوية وإصدارها ... أمر أساسي بالتأكيد في الاشتراك في الأحاديث اليومية. ففي الاختبارات الدايكوتية - السمعية هناك ميزة للأذن اليسري توحي بسيطرة النصف الأيمن من المخ بالنسبة للمادة المنغمة المعبرة عن الانفعالات. ومن الملاحظ أن أحكام المشتركين في الاختبار تزداد دقة حول تماثل أو اختلاف جملتين منغمتين عند عرضهما على الأذن اليسري، وأن تسمية الانفعال الذي يعبر عنه الحافز تزداد سرعة ودقة"(٢).

ج) إدراك القدماء للتداولية الصوتية :

تجاهل علماء الغرب وجهل كثير من أبناء العربية إدراك القدماء قدرة الصوت التداولية، لهذا نعرض جهودهم لبيان مدى إدراكهم للجانب التداولي في الصوت ومنهم:

---

(١) اللغة والدماغ: ١٠٦

(٢) اللغة والدماغ: ١٠٧

أولًا: الجاحظ :

١- تمييز الجاحظ أصوات اللغات :

تحدث الجاحظ عنقدرة الصوت في التمييز بين اللغات؛ فهي عنده قدرة تسكن في أدمغة البشر تمكنهم من التمييز بين لغاتهم، مما يبين إدراكه للقيمة التداولية للصوت.

يقول: "ولكل لغة حروف تدور في أكثر كلامها كنحو استعمال الروم السين، واستعمال الجرامقة للعين، وقال الأصمعي: ليس للروم ضاد، ولا للفرس ثاء ولا للسرياني دال"(١)، أدرك الرجل أن لكل لغة أصواتًاتميزها، تتكرر بكلامها كصفة خاصة بها.

٢- سطوة اللغة الأم :

أشار إلى سطوة الصوت المميز للغة (لكنة اللغة) على أبنائها من خلال وصفه لحالة المغلاق وهو من جُلب من أمة لا تتكلم العربية وعاش بين أبناء العربية، فإنه وإن طال به العيش بين أبناء العربية تظل تسيطر عليه خصائص أصوات لغته الأم. يقول: "وقد يتكلم المغلاق الذي نشأ في سواد الكوفة بالعربية المعروفة، ويكون لفظه مغيرًا فاخرًا، ومعناه شريفًا كريمًا.

ويَعلم مع ذلك السامعُ لكلامه ومخارج حروفه أنه نبطي، وكذلك إذا تكلم الخرساني على هذه الصفة، فإنك تعلم مع إعرابه وتخير ألفاظه في مخرج كلامه أنه خرساني، وكذلك إن كان من كتاب الأهواز"(٢).

وهو بهذا القول يشير إلى أشياء هي:

- سطوة اللغة الأم على أبنائها وإن طال بهم العمر بعيدًا عنها مع لغة أخرى.
- اكتساب لغة من الطفولة إلى المرحلة الحرجة تظل مسيطرة على أصواته للأبد.
- استعمال مناطق من الجهاز النطقي في الطفولة، تدون بالدماغ ولا يمكن تركها.

إن الخصائص الصوتية الخاصة بكل لغة تظهر على لسان أبنائها؛ ولو حاولوا محوها، والنطق بأصوات لغة البلاد التي يعيشون فيهم. لذا سموا العربية: لغة الضاد لغلبتها عليها.

---

(١) البيان والتبيين: لأبى عمرو الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ١٩٤٨م، ص١/ ٦٥

(٢) البيان والتبيين: ١/ ٦٩

٣- الجاحظ والحاكية :

أشار الجاحظ إلى قدرة أخرى للصوت، يتمتع بها الإنسان وهي القدرة على محاكاة الأصوات الأخرى مبينًا هذ القدرة من خلال شخصية الحاكية، وهو الرجل الذي يستطيع محاكاة أصوات الأشياء والأشخاص واللغات، وفسَّرَ أسبابها الصوتية بصورة صحيحة. يقول: "إنا نجد الحاكية من الناس يحكي ألفاظ سكان اليمن مع مخارج كلامهم لا يغادر من ذلك شيئًا، وكذلك تكون حكايته للخرسانيِّ والأهوازيِّ والزنجيِّ والسنديِّ والأجناس، وغير ذلك نعم حتى تجده كأنه أطبع منهم، فإذا ما حكي كلام الفأفأة فكأنما قد جُمعتْ كل طرفة في كل فأفأة في الأرض في لسان واحد"(١).

ويذكر تفسير هذا صوتيًّا قائلًا: "إنما تهيأ وأمكن الحاكية لجميع مخارج الأمم لما أعطى الله الإنسان من الاستطاعة والتمكن، وحين فضله على جميع الحيوان بالمنطق والعقل والاستطاعة فبطول استعمال التكلف ذلت جوارحه لذلك، ومتى ترك شمائله على حالها ولسانه على سجيته كان مقصورًا بعادة المنشأ على الشكل الذي لم يزل فيه، وهذه القضية مقصورة على هذه الجملة من مخارج الألفاظ وصور الحركات والسكون، فأما حروف الكلام فإن حكمها إذا تمكنت في الألسنة خلاف هذا الحكم"(٢).

إنها قدرة وهبها الله سبحانه وتعالى للبشر على التحكم في مجرى الصوت؛ حتى ينطق الحاكية أو يحاول أن نطق أصوات الآخرين، وقد تحدث عن هذه القدرة تشومسكي بعده بأكثر من ألف عام، وقد عدّها من القدرات اللغوية في قوله: "يبدو أن القدرة علي التحكم بالمجرى الصوتي من أجل التكلم خاصة بالبشر، فلا يمكن أن تكون تلك الحقيقة المهمة جدا بسبب استقلال إنتاج اللغة البشرية عن الوسط الذي تتحقق من خلاله"(٣).

إن ملاحظة قدرة الإنسان علي التحكم في مجرى الصوت تدل علي دقة تشومسكي في إدراكه لقدرات الإنسان اللغوية دقيقة تكاد تكون مخفية علي الجميع؛

---

(١) البيان والتبيين: ١/ ٦٩/ ٧٠

(٢) البيان والتبيين: ١/ ٦٩/ ٧٠

(٣) أي نوع من المخلوقات نحن؟: نعوم تشومسكي تر/ حمزة المزيني، دار كنوز المعرفة الأردن ، ٢٠١٧، ص٦٣

وهذه القدرة هي التي تمكن الإنسان من إنتاج أصواته حسبما تفرض عليه قواعد لغته، وتمكنه أيضا من تقليد أصوات الآخرين؛ بالتحكم في مجري أصواته ليوافق صوته صوتهم، ولا يوجد مخلوق يستطيع تقليد صوت مخلوق آخر غير الإنسان.

ويشير تشومسكي إلي استقلال عملية إنتاج الصوت عن أعضاء النطق؛ فهي لا تتحكم في مجرى الصوت، بل إرادة المتكلم عندما يريد أن ينطق بصوت ما، أو أن يقلد صوتًاما؛ فهذا ما يجعله ينتج الصوت بهذا الشكل؛ فيُعدِّل من وضعية أعضاء نطقه التي تستجيب له؛ فينطق الصوت الذي يريده.

ثانيًا: الجواليقي :

رفض علماء العربية نتيجة هذا الاختلاف بين أصوات اللغات؛ اجتماع بعض الأصوات معًا في العربية في كلمة واحدة. فهم يرفضون عربية الكلمة إذا اجتمع فيها صوت كذا مع صوت كذا. وقد أفاض في شرح هذه المسألة عالم العربية الجواليقي في كتابه (المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم)، يقول: "باب ما يعرف من المعرب بائتلاف الحروف، لم تجتمع:

١- الجيم والقاف في كلمة عربية. فمتى جاءتا في كلمة فاعلم أنها معربة، من ذلك جلوق وجرندق والجوق ...

٢- ولا تجتمع الصاد في كلمة عربية مع الجيم. من ذلك الجص والصنجة والصولجان ...

٣- وليس في أصول أبنية العرب اسم فيه نون بعدها راء، فإذا مر بك ذلك فاعلم أن ذلك الاسم معرب. نحو نرجس ونرس ونورج ونرسيان ونرجة ..

٤- وليس في كلامهم زاي بعد دال إلا دخيل من ذلك: الهنداز والمهندز، وأبدلوا الزاي سينا، فقالوا المهندس.

٥- ولم يحك أحد من الثقات كلمة عربية مبنية من باء وسين فإذا جاء ذلك في كلمة فهى دخيل"(١).

هذا القول يشير إلى الدور التداولي والتواصلي للصوت، فسماع صوت أو نغمة تعود إلى لغة ما هو رسالة مرسلة للسامع بأن يعرف أن هذا الصوت الذي يتداوله

(١) المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم: لأبي منصور الجواليقي، تحقيق أحمد شاكر، دار الكيب والوثائق القومية،٢٠١٢م ، ص١١،١٠

الآن أو تلك الكلمة التي يسمعها تعود إلى اللغة الإنجلزية أو الفرنسية أو غيرها، وأن الصوت الذي يسمعه في المذياع يعود لفلان الشاعر الكاتب الفنان كما سمعه من قبل.مما يظهر الجانب التداولي للصوت.

د) تداولية الصوت في الدرس العربي المعاصر :

وهناك دراسات صوتية معاصرة لكثير من البلدان المصرية وغير المصرية، قام بها العلماء اللغويون، مثل دراسة أ. د. حسام البهنساوي للهجة بلدته المنصورة، ودراسة أد. سعد مصلوح للهجة بلدته أيضًا، وغيرهما، وهي دراسة الغرض منها بيان تميز كل جماعة لغوية، وإن صغرت، على تمييز لغتها بخصائص غير موجودة عند غيرهم كما نرى في أهل جرجة (بلدة بصعيد مصر) تميزت بقلب الجيم دالًا، جمل> دمل، جاموسة> داموسة، أنجال> أندال. هذه الدراسات يجب أن ندخلها ضمن الدراسات التداولية اللغوية، وذلك لأنها قامت بتحليل لهجة منبثقة عن لغة، ولكن في إطار استخدامها في التواصل داخل مجتمعها. إذن، هي دراسة تداولية لأصوات اللهجة في حالة تواصلها مع أبنائها بما يميزها عن خصائص اللغة التي تنتمي إليها بشكل عام، وهنا تظهر حقيقة الصوت التداولية في التمييز بين أبناء اللغة الواحدة.

ثانيًا: المستوى المعجمي التداولي :

١. مقدمة (المفردات وتداوليتها) :

هذا المستوى يشمل مستويين من مستويات اللغة هما: (الصرفي والدلالي). ولكن ما حقيقة المستوى المعجمي التداولي ؟ إنه مفهوم أكبر وأوسع من مفهوم المعجم الذي تحدثنا عنه كثيرًا على مدى أجيال سابقة. إنه يمثل الخروج من مصلح المعجم الضيق الذي يُعنى بمجموعة كلمات يجمعها بين دفتيه كبر أم صغر عددُها. إننا ننظر إلى الكلمة في إطار جديد هو ما تحققه من تواصل بين الناس، وهذا الأمر هو حقيقة الكلمة. فالكلمة قادرة على صنع هالة كبرى من الدلالات التي لا حد لها، فالكلمة مكبوسة بالمعاني، وهذه القدرة وهذا الكم من المعاني هو ما يحقق لها تواصلًا منقطع النظير مع عالمنا المحيط بنا، بل تواصلًا مع أنفسنا من خلال الكلام الداخلي.

كل هذا يعيدنا إلى القضية الكبرى. ما الحقيقة الواقعية للمصلح الجديد (المعجم التداولي) ؟ ماذاتحقق التداولية للمعجم الذي بين أيدينا ليصبح معجمًا تداوليًّا ؟ هذا الأمر يحتاج إلى فهم جيدلمفهوم التداولية، ومفهوم المعجم، هذه المفاهيم هي:

١- التداولية: فن التواصل، فإذا تواصلتُ معك بصورة جيدة فأنا ناجح تداوليًّا.

٢- المعجم: يجمع بين دفتيه كلمات اللغة ومعانيها، هذا هو المعجم كما عرفناه.

٣- كلمة المعجم: مادته المدونة به، وهيميتة،كيف تعود للحياة ؟ بأن نتكلم بها.

٤- النص: التداول بعينه، يصنع في الكلمة معاني لم نرها فيها قط، يخلقها بتداوله بيننا.

٥- المعجم التداولي: إعادة الحياة إلى الكلمة المعجمية، باستخدامها في أمور الحياة.

هنا تظهر الحياة الفعلية للكلمات وقيمتها وقدرتها على التعبير عن أغراضنا الحياتية من هذه التعريفات ننطلق إلى مصطلح جديد أنشأناه الآن هو المعجم التداولي. ليست الغاية من حديثنا مناقشة الكلمة ومعناها، فقد فرغنا من هذه القضايا، وقتلناها بحثًا. إن ما نريده هو النظر إلى الكلمة في إطار قدرتها على تحقيق التواصل التداولي بين الناس. هذا الأمر يجنح بنا إلى قضية أخرى، هي الجانب الإبداعي في الكلمة، لندخل بعمق في قضية الإبداع فيجب أننسأل: ما مصدر الإبداع في الكلمة ؟ إنه المخ وعملياته العقلية التي تتم داخل مركز التفكير، لتبدع وتخلق من الكلمة الكلمات والمعاني التى لم نسمع بها قط.مما يعني أن مركز التفكير في المخ هومصنع الكلمات الجديدة ومعانيها، فيبدع وتخلق كلمات جديدة تسد ثغرات اللغة (معاني بلا كلمات) لتحقق التواصل بيننا. لكن حقيقة الأمر غير ذلك، فما ذكرناه آنفًا فيه نظر، إن خلق المعاني الجديدة في الكلمات آت من شيء آخر، هو الحاجة التداولية التي تدفعنا إلى إبداع كلمات جديدة، نسد بها ثغرات في اللغة شاغرة، تحتاج إلى كلمات نعبر بها عنها ثغرات ناتجة عن نمو المجتمع وتطوره وزيادة احتياج الناس لكلمات جديدة، تواكب التطور كأوعية للمعاني والمفاهيم المستحدثة. لهذا يمكننا تصور إبداع الكلمات في المعجم التداولي أنه ينمو وفق المراحل الآتية:

مراحل إبداع الكلمات :

أ) ظهور ثغرة لغوية :

تبدأ عملية خلق الكلمة من الحاجة إلى سد ثغرة لغوية ظهرت في المجتمع نتيجة تطوره، وكما قالوا: الحاجة أم الاختراع، فعندما تظهر الحاجة لدينا لتسمية آلة ظهرت حديثًا في مجتمعنا، نسرع فياختراع كلمة لها، هذه حقيقة التداول المجتمعي، نخترع ونبدع ونطور، فتظهر الحاجة مع التطور إلى أسماء جديدة نسد ثغرة لغوية كاسم للآلة الجديدة.

ب) إبداع كلمات تسد الثغرة :

يقوم المخ بجمع ما في خلاياه العصبية من معارف حول الشيء المراد تسميته، ووضع تصور له، ويختار لها اسمًا يجمع كل صفات هذا الشيء ويعرفه تعريفًا جامعًا مانعًا، هذه مرحلة الإبداع والخلق للكلمة الجديدة، أتت بعد الحاجة لاسم جديد للآلة

هذه المقدمة تمهيد لبيان العلاقة بين المخ والكلمات، لندرك معنى ومفهوم المعجم التداولي. وكيف يُصْنع هذا المعجم ؟ فنجد أن عملية الخلق والإبداع أتت من الحاجة لاسم جديد للشيء، وقد ظهرت لنا هذه الحاجة نتيجة تداولنا مع مجتمعنا وتفاعلنا معه مما يبين لنا هذه الثغرة اللغوية، وهو وجود معنى بلا كلمة تعبر عنه. ومن هنا يمكننا القول: إن اختراعنا للكلمات وإبداعها أتى من الحاجة التداولية التواصلية بيننا وبين مجتمعنا، مما دفعتنا إلى خلق وإبداع هذه الكلمات. وإليك أمثلة توضح هذه الفكرة:

مثال :

نتيجة تطور مجتمعنا بل عصرنا، ظهرت آلة جديدة اسمها موبيل، عبارة عن هاتف، وهذا هو حقيقة هذه الآلة إنها هاتف جديد اخترعناه، كيف نخترع ونبدع اسمًا له ؟

١- الحاجة: ظهرت آلة في عالمنا، تم استخدامها كهاتف، ورفض اسمها (موبيل).

٢- الثغرة: أظهرتالآلة حاجتنا لاسم لها، فتبين وجود ثغرة لغوية فكيف نسدها ؟

٣- الإبداع: يبدأ المخ بجمع ما في شبكته العصبية من معارف عنها، ليبدع اسمًا لها.

لكن القدرة الإبداعية للأدمغة تختلف، فكل دماغ تجمع ما لديها من معارف حول الآلة، وتضع تصورًا لها داخله، حسب ما يعرفه عنها، فيظهر هذا الاسم حاملًا كل صفات الآلة، ولكن من خلال تصور هذا المخ دون غيره. فيأتي الاسم قريبًا من اللغة المشهورة في مجتمعها، لهذا يجب دراسة الاسم المقترح لأنه يعبر عن فهم وإدراك صفات هذه الآلة. وإليك النتيجة، فكل مجتمع عربي أطلق اسمًا عربيًّا لها؛ يصور فهمه لطبيعة الآلة، وصفاتها التي أدركها هو وحده ، فأصبح للموبيل أسماء مختلفة، فهو في:

١- مصر: آلة تُحمل في اليد (محمولة)، سماه أهل مصر المحمول لهذا السبب.

٢- السعودية: رأتْ فيها السعودية شيئًا ملازمًا لنا يتجول معنا فسمته الجوال.

٣- الشام: رأته بلاد الشامية شيئًا يذهب معنا إلى الأماكن الخالية فسمته الخلوي.

٤- فلسطين: رأتهبلاد فلسطين شيئًا يتنقل معنا في كل مكان فسمته النقال.

لو نظرنا إلى هذه الأسماء على أنها لشيء واحد قد أتتْ منعقل واحد (العقل العربي)؛ لرأينا كيف يستطيع العقل أن يبدع أسماء متعددة لشيء واحد بلغة واحدة. قد مر ظهورها بهذه المراحل وهي:

أ- التطور: أظهر التطور العلمي المعاصرفي المجتمع آلة جديدة (موبيل/ هاتف).

ب- التداولية: تداولهاالمجتمع، وعرفهاكآلة جديدة فوجودتثغرة لغوية: ما اسمها؟

ج- الإبداع: بدأت عملية التفكير الإبداعي لخلق كلمة تسد هذه الثغرة اللغوية.

د- الدماغ: اختلف الأدمغة لاختلاف ميولها مكوناتها، فنتجتْ أسماءٌ عدة للآلة.

ج) المعجم التداولي وإبداع الكلمات :

تكلمنا عن المعجم التداولي وبيّنا أنه المعجم الذي يحقق للكلمات قدرة عالية على التواصل والتداول بين الناس من خلال مفرداته وهنا نشير إلى القدرة الإبداعية المعجمية لدى عقول البشر في بيان ما في الكلمات من معان مكبوسة، يستطيع الفرد المبدع أن ينتجها في اللحظة الآنية، فيربط بين الأشياء ويخلق ويوازن ويوازي بينها، فنراه يطلق النكات اللحظية على الشيء أو الشخص في سرعة كبيرة، لا نقول هنا إنه إنسان لبق ولكنه مبدع حاضر الذهن مبتكر. لكل هذا نقوله عنه (ولا خلاف فكونه متعلمًا أو أميًّا)، إنه مبدع قادر على الوصف وجمع المعنى المجازي وخلق ألفاظ يعبر ويصف بها الشخص أو الشيء، إنه صحيح في النصف الأيمن من المخ، وكيف عرفنا ذلك؟ عرفنا من حالات مرضية لدى بعض الأشخاص الذين لا يدركون الفكاهة ولا المزاح ولا المعنى المجازي والاستعارات وغيرها. إذا كنَّا قد ناقشنا هذه الأشياء في الحالات المرضية التي تصيب النصف الأيمن من المخ وسميناها الأمراض التداولية، فيجب علينا مناقشة المستوى الثالث في القضية وهو حالات القدرة الخارقة لدى البعض على الإبداع في جانب الكلمات، فعندنا المستوى المرضي، ثم مستوى الشخص العادي القادرة على التواصل والفهم العام للأشياء، ثم المستوى الثالث وهو مستوى الإبداع الذي يحتله قليل من البشر ممن لديهم قدرة على الخلق والإبداع وكما قلت آنفًا، ليس شرطًا فيهم أن يكونوا على قدر كبير من التعلم، لأنهم مبدعون في

اللغة بخلق كلمات جديدة فهم المستخدمون الماهرون للغة فقط. ونتحدث عن الإبداع اللغوي في جانب المفردات لخلق معجم تداولي، لهذا يقوم هؤلاء المبدعون بمعايشة مجتمعهم والتفاعل معه ومع لغته وأفراده ككل أبناء هذا المجتمع، إذن من أين يأتيهم الإبداع وكيف يصنعونه؟ وكيف يخلقون الكلمات الجديدة في مخهم ؟.

ح) التفسير العصبي لإبداع الكلمات :

كيف يصنع المجددون والمبدعون في اللغة الكلمات الجديدة ؟ أرى أنهؤلاء المبدعين يجلسون وسط قومهميلاحظون ويراقبون ما يحدث أمامهم من أحداث، وما يسمعون من كلمات وحوارات، فيرون حدثًا ما يثير انتباههم أو قول يلفت أنظارهم، فتعمل خلاياهم العصبية في سرعة البرق، فتبدع له اسمًا، فيصبح اسمًا له، إنهم ذوى قدرة خلَّاقة مبدعة لا تتوفر للكثير منا، تمكنهم من فعل هذا لوجود نشاط كبير لدى خلاياهم العصبية، أو كما يُقال: لديهم حضور ذهني. لكن كيف يتم هذا؟وما تفسيره عصبيًّا ؟ نقول، عند رؤية الشيء المثير تهيج قرائحهم، وتُثار خلاياهم العصبية وتشابكاتهما، وكما يقول غير المتخصصين: ينقدح زناد فكرهم؛ فتقابل خلاياهم العصبية بين الحدث الآني وما في تشابكاتها من أشياء تشبه ما يحدث الآن، فتهبط تلك الصورة المشابهة في شكل لفظة ينطق بها، أو فكرة تفسر وتحلل هذا الحدث، فيكون بذلك قد أبدع لنا كلمة جديدة، وفكرة كانت غائبة عنا جميعًا.

هذا التصور لنمو اللغة وتطورها وإبداع كلمات جديدة فيها اقترحه من قبل ابن جني ليفسر به نشأة اللغة الإنسانية، حيث يرى أنه لإبداع وإنشاء كلمة جديدة في اللغة، يجلس حكيمان فيرون إنسانًا قادمًا فيقولون: هذا إنسان، فيصبح اسمًا له. وهذا ما يحدث اليوم في المجامع اللغوية.

لكن واقع اللغة وتطورها يختلف تمامًا عن هذا التصور، لأن ما نتحدث عنه هنا هو أثر تداولنا اللغة المنطوقة أو المحكية، وبيان أثر ذلك على اللغة المنتجة في التو واللحظة بصورة فورية. من خلال مراقبة تطورها على ألسن مبدعيها والمطورين الحقيقيين للغة المستخدمة والمتداولة بين الناس. ثم إدخالها إلى معجمنا التداولي، فنقوم بتداولها بيننا في كلامنا بهذا المجتمع وفي هذه اللغة.

إن المعجم التداولي له مفهومه الخاص، إنه يدرس الكلمة والعبارة وتطورها على أيدي العامة والخاصة وعلى ألسنتهم وبتوجيه من قرائحهم، لقد فهمت هذا التصور

حول نشأة الألفاظ وتطورها في اللغة لجنة صياغة وتطور قاموس إكس فورد الإنجليزي، فشكلت لجان منها، تمشي بين الناس في كل المجتمعات الإنجليزية، تكون مهمتها جمع كل كلمة أو عبارة جديدة يتم إبداعها في أي مكان أو في أي مجال في المجتمع.

ويتم رصد كل جديد وكل إبداع يحدث في اللغة في حينه، ومن مصدره مباشرة، أي التقاط الكلمة والعبارة من مكان تداولها ولحظة إبداعها لتظل محفوظة في قاموسهم فإذا تطورت اللغة مرة أخرى، وتم استبعاد هذه الكلمة أو العبارة بإحلال كلمة أخرى أو عبارة جديدة مكانها يمكننا الرجوع لها في هذا القاموس، إنها عملية رصد لتطور اللغة وتأريخ لكل جديد يتم إبداعه فيها.

خ) مراحل إبداع الكلمات في الدماغ :

هذا عرض أوسع وأدق لحالات إبداع الكلمة في دماغ المبدع بتفصيل أكبر:

١- المبدع أو قل من لديه قدرة على إبداع الكلمات من أصحاب الخلايا العصبية النشطة الذين يصفهم العامة بهذه العبارة: (فلان ده دماغه شغالة) أي لديه خلايا عصبية نشطة حاضرة منتبهة لكل ما يحدث حولها. عندما يرى شخصًا يثير انتباهه بملبسه أو شكله أو كلامه أو فعله الذي يختلف فيه عن مجتمعه، وربما حركته التلقائية الغريبة، أو غيرها مما يثير الانتباه، هنا تظهر في الفضاء الذهني للمبدع صورةٌ مشابهة لما يراه في هذا الشخص فأثار انتباهه، فينطلق لسانه باسم لما رآه الآن في فضائه الذهني.

مثال (١) :

لو رأيتَ رجلًا طويلًا بل زائدًا في طوله عن المألوف، فتقول: أنت نخلة، إنك عندما نظرت إليه وجهتَ انتباهك إلى أبرز شيء فيه وهو طولُه الزائد، فرأيته كأنه النخلة.

حدث هذا نتيجة قدرة مخية سريعة على الربط بين الأشياء بالتقاط شبيه بينها من فضائك الذهني؛ فانطلق لسانك باسم يشبهه، فقلت: أنت نخلة، لأن شبكتك العصبية قدمت لخلاياك العصبية ما يشبه هذا الشخص، فأبدعتَ له اسما يبرز أهم صفاته المميزة فاسميته نخلة، فصار لقبًا له، لهذا قالوا: سمى الجاحظ جاحظا لجحوظ عينيه.

مثال (٢) :

يحدث هذا النوع من الإبداع عندما نرى شيئًا جديدًا أو غريبًا عن عالمنا، مثل: (بيت/ شارع/ سيارة) فنخلق له اسمًا يكون بديلًا عن اسمه الأصلي وهو من إبداع هذا المبدع، لماذا نفعل هذا ؟ لأننا نملك آلة (المخ) طبيعتها الإبداع والخلق وكره تكرار الشيء، فالمخ ملول بطبعة أي منطبيعةتكوينه أنه ملول. ففور رؤيته الشيء يفكر في اسم له يكون بديلًا عن اسمه الأصلي. إننا نرى هذا الأمر يحدث كثيرًا في مجتمعنا كما في السيارات، فكلما أنتجت شركة سيارات عالمية مثل شركة (مرسيدس) نوعًا جديدًا من السيارات، نرى مبدعًا ينطلق بإبداع اسم جديد لها ينوب عن اسمها الأصلي، مثل: خنزيرة/ أم عيون جريئة/ الشمامة ...) وغيرها من أسماء تم إبداعها لكل موديل جديد من سيارات هذه الشركة. وكذا شركة هونداي التي أنتجت سيارة جديدة، فاخترعوا لها اسمًا جديدًا هو (الجمل)، إنها أشياء تحدث في مجتمعنا في كل لحظة مما يبين قدرة المخ البشري على الإبداع بخلق مفردات جديدة كل يوم، ويكف عن الإبداع أبدًا.

إنه الإبداع المعجمي التداولي الذي يظهر جانبًا في الأشياء لم نره أو ندركه من قبل، لكن رآه المبدع بسبب ما لديه من مقدرة إبداعية على ملاحظة الأشياء المتشابهة، وخلق روابط بين المتنافرات، فيرى بين الشيء وشبيهه علاقة ما رأيناها فيه من قبل. رغم أننا نراه دائمًا، ثم يأتي المبدع له باسم، نقول عنه: نعم إنه يشبهه فعلًا وهو وصف دقيق له.

مثال (٣) :

كيفية الإبداع الأدبي: هكذا يفعل الأدباء والشعراء والمبدعون عندما يرون شيئًا يبحثون له عن شبيه في فضائهم الذهني،كي يأخذوه ويصنعوا منه صورة أدبية. يفهمها المستمعون. أما المرضى التداوليون فإنهم لا يفهمون هذه المعاني المجازية كما يفهما الأسوياء، لكن المبدع، فإنه صحيح يعمل النصف الأيمن من مخه بصورة جيدة، بل إنها تفوق المستوى العادي، إنه المستوى الإبداعي. فنجد هذا المبدع يجمع بين المتنافرين في صورة شعرية بلاغية مجازية إبداعية، كما نرى لدى هذا الشاعر المبدع الذي يقول: والطير يرقص مذبوحًا من الألم، فيجمع بين المتنافرين (الرقص والذبح)

ليصف حالة الطير عند ذبحه. هذا الشاعر مبدع بحق، فلديه قدرة على خلق صورة بلاغية من المتنافرين، فيصف في صورة مجازية أشياء غير حقيقية، لكنها صورت الحدث بدقة بالغة. فمن الذي صنعه هذا الشاعر ؟ لقد قام ما لديه من نشاط كبير في خلاياه العصبية وتشابكاتها ببناء صورة في فضائه الذهني، صورة جديدة لشيء نراه بأعيننا كل يوم (كثير منا رأى الطير وهو يذبح) لكننا لم نفكر قط في أن نجمع بين هذين الشيئين المتنافرين لنخلق ونبدع صورة جديدة من المتنافرين كما فعل هذا الشاعر المبدع، لهذا يمكننا **وصف الإبداع: إنه قدرة فائقة لدى خلايا المخ على خلق واقع جديد نراه كل يوم ولكن ليس بهذه الصورة**، سنعرضهذا الأمر في دراسة مستقلة بإذن الله باسم: (**الإبداع الأدبي في الدماغ**).

هذا الإبداع يخلق لنا كلمات ناتجة عن تداولنا مع المجتمع والواقع الذي تعايشنا معه؛ مما يخلق كلمات وعبارات وصور ربما لم نتخيلها من قبل. وإليك هذه الصورة الإبداعية التي أتت في هذه العبارة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، عندما قال: حمي الوطيس، فعندما رأى المعركة تشتد ويتصارع فيها الجنود، فإن تشابكاته العصبية تُلقي عليه صورة (الموقد، وقد اشتدت ناره وحان الحين لوضع الخبز داخله) فجمع بين صورتين من ميدانين مختلفين متنافرين: موقد الخبر وميدان المعركة. إنها عملية عصبية إبداعية تداولية، جمعت حدثين مختلفين لخلق وإبداع عبارة تجمعهما معًا، وهي: (حمي الوطيس).

٣- المستوى المعجمي التداولي عند أوبلر :

أشار أوبلر إلى سيطرة النصف الأيسر من المخ على اللغة ومفرداتها وكتبه للنصف الأيمن. لكنه يعود ليشير إلى عمل النصف الأيمن في هذا الأمر أيضًا قائلًا: "من المعروف عامة أن المفردات التي تحتويها معاجمنا الداخلية (**المعجم الذهني**) تمثل بصفة رئيسة في النصف الأيسر من المخ. لكن التجارب التي أجريت على الذين استؤصلت أنصاف أدمغتهم توحي بوجود بعض المعرفة المعجمية في النصف الأيمن من المخ عند هؤلاء المرضى أيضًا. فلو أن كلمة مكتوبة وجهت إلى النصف الأيمن من المخ لأحد هؤلاء المرضى من خلال عرضها على الحقل البصري الأيسر، ومُنع المريض من تحريك رأسه بحيث يمكن رؤيتها في الحقل البصري الأيمن، لما تمكن المريض من قراءة الكلمة

جهرًا، لكن مثل هؤلاء المرضى يستطيعون الإشارة ... إلى صورة ما تمثله الكلمة لاسيما إذا كانت الكلمة شيئًا جامدًا ذا صورة محددة، حتى ولو قالوا فعلًا إنهم لا يعرفون شيئًا عنها"[١].

هذه التجربة تشير إلى سيطرة الجانب الأيسر على المفردات، ومعرفة النصف الأيمن من المخ ببعضها على الرغم من أنه غير مختص بالمفردات المعجمية. لهذا يقول أوبلر: "يوجد قدر من الإسهام للنصف الأيمن من المخ في عملية الوصول إلى المفردات المعجمية بالنسبة إلى المعنى لا إلى الشكل. وبينت دراسة أجراها بلوم وزملاؤه أن المصابين بآفات في النصف الأيمن من المخ يعانون من صعوبة في اختيار المفردات في سياق سرد القصص، فقد كانت كلماتهم أقل عاطفية من كلمات المصابين بآفات في النصف الأيسر من المخ ومن زملائهم الضابطة الأسوياء. وبصورة عامة كان هؤلاء المرضى أقل نجاحًا في استعمال الكلمات المعبرة عن العاطفة"[٢].

هذا الأمر يحدث بسبب وجود الجانب العاطفي الانفعالي في النصف الأيمن من المخ. وهذا يعني أن إصابة هذا النصف ستؤدي إلى خلل في جانب اختيار الكلمات العاطفية التي تعبر عن انفعال الفرد بصورة دقيقة، لأن العضو المختص بهذا العمل (النصف الأيمن من المخ) مصاب ولا يعمل، ولن يقوم بالعمل المختص به، وهو التعبير عن العاطفة بالألفاظ الخاصة بها، وكذلك عملية اختيار هذه الألفاظ أو فهمها أو فهم العبارات الدالة عليها مثل: نظر إليَّ شذرًا، قطب وجهه، ظهرت الأحزان في عينيه.

من هذا يتبين أن المرض التداولي الذي يصيب النصف الأيمن من المخ يؤثر على جانب اختيار الألفاظ الدالة على الانفعال والعاطفة، فلايحسن المصاب اختيارها. لكنلا يخطئ في الجانب المعجمي، لأنه متصل بالنصف الأيسر من المخ الذي فيه المعجم الذهني للفرد. ولا يمنع هذا من اشتراك ومساهمة النصف الأيمن في الجانب المعجمي، نظرًا لأن الله سبحانه وتعالى أعطاه أيضًا قدرة لغوية مثل النصف الأيسر، لكن الأخير يكبت الجانب اللغوي فيه، فإذا استؤصل النصف الأيسر من المخ استطاع النصف الأيمن القيام بعمله ولكن بكفاءة أقل.

---

(١) اللغة والدماغ: ١٠٨

(٢) اللغة والدماغ: ١٠٨

والدليل القاطع على صحة قولي، وجود أشخاص يستخدمون أيديهم اليسرى في الكتابة، يمثلون ١٠% من المتكلمين في العالم. مما يدل على قدرة النصف الأيمن على القيام بالمهام اللغوية التي يسيطر عليها النصف الأيسر.

٤- المستوي المعجمي التداولي عند برنارد ج.بارز :

أ) الإبداع واختيار الكلمات :

يقول برنارد: "إننا نميل لأن نكون واعين بنقاط الاختيار هذه في حالة الكتابة الإبداعية، وعندما ندرك الاختيار بين كلمتين توجد بين معانيهما فروق طفيفة تمامًا، وتخلق المفردات والشروح نقاط اختيار عند إنتاج اللغة، في حين يخلق الغموض عند مختلف مستويات التحليل نقاط للمدخل اللغوي"(١).

هذا الاختيار يخلق الغموض اللغوي؛ خصوصًا في عملية الإبداع اللغوي، لأن المبدع يخلق من المتناقضات والمتنافرات التي تطرحها اللغة عند كل مستوياتها صورًا لغوية جديدة، فيجهل المتلقي في أي سبيل سيسير المبدع في إبداعه وأي عناصر اللغة يختار.

ثم يوضح معاناة المبدع عند إبداعه في اختياره بين المعلومات وبين عناصر اللغة الأفضل في التعبير عنها من بين المعاني التي في رأسه أثناء عملية الإبداع، وكيف تتدفق عليه المعاني والألفاظ المختلفة؛ فيصبح في حيرة عند الاختيار من بينها؛ يقول: "تتطلب نقاط الاختيار أثناء تدفق المعالجة اتخاذ قرارات، ويحدث هذا عادة عند مختلف مستويات التحليل. وتنتقل المعلومات من مستوى لغوي لآخر في شكل تدفق بسيط، ويبدو الأمر كما لو كانت هناك متاهة بها عدد من المسارات المحتملة، وتنتهي نقاط الاختيار تلك بما يشبه حدوث انفجار اندماجي، وفي مثل هذه الحالة إذا كانت المعالجة اللغوية تنطوي على عينة من نقاط الاختيار الثنائية، فإن عدد المسارات المحتملة خلال هذه المتاهة يتضاعف أضعافًا مضاعفة. ويتزايد هذا العدد بسرعة شديدة، ويتأكد هذا من كون إنتاج الكلام، وتفسير اللغة استنادًا إلى المحاكاة الحاسوبية ثبتت صعوبته الشديدة"(٢).

(١) المعرفة والمخ والوعي: مقدمة لعلم الأعصاب المعرفي: ٦٧١

(٢) المعرفة والمخ والوعي: مقدمة لعلم الأعصاب المعرفي: ٦٧٢

إن عملية الاختيار جزء أساسي فيالإبداع اللغوي الذي يقوم على التداول، بمعنى أن المتكلم أو الأديب يختاران من بين كلمات اللغة ما يعبر عن موضوع العمل الأدبي أو غير الأدبي الذي يتحدث عنه، إذن الإبداع في الاختيار، والاختيار يقوم على عنصر غير منطوق، لكنه أساس الاختيار. إنه التداول الذي يحدد لنا ما نختار من الوسيلة التواصلية (اللغة)، إنه يصف مسارات اختيار الكلمات متعددة المعاني؛ أنه متاهة يسير فيها المبدع والمتكلم كييختار من بين الكلمات ما هو مناسب لموضوعه من كلمات اللغة ذات المعاني المتعددة. وهنا تعمل الدماغ كخلية نحل يتدفق منها عدد لانهائي من المعاني، والكلمات متعددة المعاني. وعلى المتكلم والمبدع اختيار العبارة المناسب له من بينها.

ب) الغموض المعجمي التداولي عند برنارد ج. بارز :

ينطلق برنارد من خلال حديثه عن الغموض اللغوي إلى الحديث عن الغموض المعجمي، وذلك بإشارته إلى وجود تفسيرين أو أكثر للكلمة الواحدة، فالكلمة الشائعة يفضل أن يكون لها أكثر من معنى، وتتضمن أكثر من احتمال عندما تصل إلى أذن السامع؛ مما يدفعه إلى البحث عن المعنى المقصود من بين معانيها، لكن إذا كان الأمر كذلك، كيف نتكلم في ظل هذه التعددية الدلالية للكلمة الواحدة ؟ إن الأمر يلجئنا إلى الاستعانة بالنظرية التداولية لحل هذه الإشكالية والبعد عن اللبس. فالتداولية تفرض على المتكلم اختيار كلمة ما من بين كلمات اللغة؛ لأنها الأدق في التعبير عن المعنى الذي يقصده المتكلم، بل إنه عندما لا يحسن اختيار الكلمة المناسبة لمقام القول ويدرك هذا الخطأ، فإنه يسرع بتصحيحه قائلًا: عفوًا خانني التعبير، كنت أقصد كلمة كذا أو معنى كذا، هذا التصحيح السريع للخطأ يعني وجود آلة في الدماغ تتولى تصحيح عملية الاختيار لينجح تدوله وتواصله معنا. يقول برنارد: "أشار تقدير حديث حول مستوى الغموض المعجمي إلى وجود تفسيرين في المتوسط أعلى تكرارية لكل كلمة. وتميل الكلمات الشائعة لأن يكون لها أكثر من معنى، ولهذا فإن كلمة (set) على سبيل المثال، لها أكثر من عشرين معنى وفقًا لقاموس أوكسفورد في اللغة الإنجليزية. وتوجد نقاط الاختيار أيضًا عند مستوى إنتاج الكلام واللغة"(١).

(١) المعرفة والمخ والوعي :مقدمة لعلم الأعصاب المعرفي: ٦٧١

قمت بدراسة معجمية دلالية حول كلمة **نفس** في القرآن الكريم في إطار معجمي دلالي، أثبتُ أن كلمة نفس في اللغة لها أكثر من ثلاثين معنى، نتيجة شيوعها في اللغة، ونتيجة قدمها، فهي كلمة حياتية تتصل بحياة الإنسان منذُ وجوده على الأرض، لهذا وجدناها شائعة ومستعملة في كل اللغات السامية بلفظها ومعناها (كما ذكر برنارد).

ثالثا: المستوى النحوي/ التركيبي التداولي :

قبل أن نخوض في المستوى النحوي التداولي (التصور الجديد الذي نطرحه للنحو) لابد أن نشير إلى جهود نحاة العربية في هذا الشأن؛ وذلك من خلال بيان إدراكهم للمستوى النحوي التداولي باستعمالهم مصطلح (مقتصى الحال)، وهو (في أبسط معانيه أو قل: مفهومه ببساطة) مراعاة المتكلم لمقتضى حال القول (الزمان والمكان والأشخاص) عند صياغة الجملة، فعلى المتكلم مراعاة ما يقتضيه حال القول ومقامه؛ وذلك بإلزامه المتكلم بقول معين ومحدد عند صنعه جمله تفرضه عليه مناسبةُ الحال، ومقام القول؛ مما يجيز له إظهار بعض أركان الجملة وحذف بعضها؛ لأسباب تداولية تفرضها عليه طبيعة الحوار أو الاستلزام الحواري بما يقتضيه حال القول؛ هذه الأمور في حقيقتها هي التداولية بعينها، فلابد أن يراعي المتكلم كل هذه الجوانب عند صياغته لكلامه/ خطابه.

هذا الأمر يجعل الجملة في العربية - وغيرها من لغات البشر - تدخل في بنائها عناصر غير لغوية، يضعها المتكلم في حسبانه عند صياغة جمله وتراكيبه اللغوية، بل إنها تجعله يحذف بعض أركان الجملة؛ وإن كانت عمدة في الكلام، مثل: الخبر وغيره من أصول الجملة، وكذلك الفضلة من حال وتمييز.... وغيرها؛ بناءً على مراعاة مقتضى الحال أو أن مقام القول يُغْنِي عن ذكر المحذوف.

وقد حفل نحاة العربية بهذا الأمر بدءًا من سيبوية وابن جني؛ لهذا رأيتُ ضرورة ذكر هذا الأمر هنا لنرى أن النحاة استعانوا بالعناصر التداولية التي تحيط بالمتكلم عند صياغة جمله، واستغنوا بها عن بعض أعمدتها ومكملاتها، وهذه هو أساس التداولية، فالتداولية هي كيف تفهم ما لم يُقَال دون أن يُقَال ؟ يمكن هذا إذا استعنَّا بعناصر أخرى في الجملة غير منطوقة كنعصر المكان أو الزمان أو العناصر التنغيمية التي تفهم من القول كمطل الحرف وملامح الوجه كتقطيب الوجه وغيره، بل إن التداولية

تبحث عن قصدية المتكلم من خلال الافتراض المسبق والاستلزام الحواري لتصل إلى مقصد المتكلم؛ لذا سنعرض لعالمين كبيرين من نحاة العربية هما سيبويه وابن جني:

١– لدى سيبويه :

ذكر سيبويه هذا الأمر قائلًا: "وإنما أضمروا ما كان يقع مُظهرًا استخفافًا؛ ولأن المخاطب يعلم ما يعنى، فجرى بمترلة المثل، كما قالوا: لا عليك وقد عَرَفَ المخاطب ما تعنى، أنه لا بأسَ عليك، ولا ضرَّ عليك، ولكنه حُذف لكثرة هذا في كلامهم، ... وقد تقول: إذا كان غدًا فأتنى، كأنه ذكر أمرًا إمَّا خُصومة وإمَّا صُلحًا، فقال: إذا كان غدًا فأتنى. فهذا جائزٌ في كل فعل"[١]، ويمكننا الخروج من هذا النص ببعض النقاط الآتية:

– الحذف/ الإضمار لبعض القول يكون نتيجة كثرة الاستعمال استخفافًا.

– يكون الحذف نتيجة علم المخاطب بقصدية المتكلم.

– المثال (لا عليك) حُذف اسم لا النافية (وهو عمدة)؛ لأنه مفهوم من الكلام؛ ولكثرته في التداول والاستعمال.

– ملاحظة النحاة لعنصر تداولي هو (مقتضى حال القول) بفهم ما لم يُذكرْ به.

– الاستعانة بالتأويل لفهم النص مثل: (كأنَّه ذكر أمرًا ...) وهو عنصر تداولي.

ويلخص سيبويه هذا بقوله: "لأنك إنما أضمرت بعد ما ذكرت مظهًرا، والأول محذوف منه لفظ المظهر، وأضمروا استخفافًا"[٢] أننا نضمر/ نحذف استنادًا إلى ما ذكرناه/ أظهرناه آنفًا، وهو جائز لكثرة استعمالنا له، وفعلنا إياه، فثبت في خلايانا العصبية وشبكتها فأصبح من السهل استحضاره من الذاكرة، وهو أمر عصبي تداولي.

٢– لدى ابن جني :

يزيد الأمر وضوحًا عند ابن جني بتفسيره قول سيبويه السابق، وإضافة عناصر تداولية أخرى لما قاله من خلال باب الحذف، حيث قال في باب: (حذف الاسم على أضراب) عن حذف الصفة: "وقد حُذِفتْ الصفة ودلتْ الحالُ عليها، وذلك فيما حكاه صاحب الكتاب من قولهم: سِيَر عليه ليل، وهم يريدون ليل طويل، وكأن هذا

(١) الكتاب: كتاب سيبويه، تحقيق/ عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٩٨٨، ج١، ص ٢٢٤.

(٢) الكتاب: كتاب سيبويه ج١، ص٢٢٤

إنما حذفت فيه الصفة لما دلَّ عليه الحال في موضعها؛ وذلك أنك تحس في كلام القائل لذلك من التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله: طويل أو نحو ذلك، وأنت تحّس هذا بنفسك إذا تأملته.

وذلك أن تكون في مدح إنسان والثناء عليه، فتقول: كان والله رجلًا! فتزيد في قوة اللفظ بـــ (الله) هذه الكلمة، ولتمكن في تمطيط اللام، وإطالة الصوت بها وعليه، أي: رجلًا فاضلًا أو شجاعًا أو كريمًا أو نحو ذلك، وكذلك نقول: سألناه فوجدناه إنسانًا ! وتُمكن الصوتَ بإنسان وتُفخمه فتستغني بذلك عن وصفه بقولك: إنسانًا سمحًا أو جوادًا، أو نحو ذلك. وكذلك إن ذممته ووصفته بالضيق قلت: سألناه وكان إنسانًا! وتزوى وجهك وتقطبه، فيغنى ذلك عن قولك: إنسانًا لئيمًا أو لحزًا أو بخيلًا أو نحو ذلك.

"فعلى هذا وما يجرى مجراه تحذف الصفة، **أمَّا إن عريت من الدلالة عليها من اللفظ أو من الحال** فإن حذفها لا يجوز؛ ألا تراك لو قلتَ: وردنا البصرة فاجتزنا بالأُبُلَّة على رجل، أو رأينا بستانًا وسكت ولم (تفد بذلك) شيئًا؛ لأن هذا ونحوه مما لا يعري منه ذلك المكان، وإنما المتوقع أن تصف من ذكرت أو ما ذكرت، فإن لم تفعل كلَّفت علم ما (لم تدلل) عليه ؛ وهذا لغو من الحديث وجور في التكلف. ومن ذلك ما يروى في الحديث؛ (لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد)، أي لا صلاة كاملة أو فاضلة، ونحو ذلك"(١).

لقد تكلم ابن جني عن قضايا تداولية نحوية تجعلنا نعيد النظر إلى النحو العربي في إطار إدخال الجانب التداولي في فهم مسائل النحو؛ فأشار إلى ثلاث حالات، هي:

أولًا: حالة المدح :

هذه الحالة من القول تُحمِّل القول مضامين تداولية تجعله يعطى معنى المدح وهي:

جدية في القول بلا ملامح وجهية + التنغيم أو النبر على الكلمة = معنى المدح.

ثانيًا: حالة الذم :

هذه الحالة من القول تُحمِّل القول مضامين تداولية تجعله يعطى معنى الذم، وهي:

ملامح وجهية (تقطيب/ انزواء) + التنغيم أو النبر على الكلمة = تعنى الذم.

(١) الخصائص : لابن جني، تحقيق محمد علي النجار، الهيئة المصرية للكتاب ،١٩٨٨م ،٣٧٢/٢ ــ٣٧٣

ثالثًا: الكلام العادي :

دون جدية في القول + دون ملامح الوجه + دون تنغيم أو نبر= كلام عادي.

هذه المعاني فهمناها من كلام ابن جني، إنه يعرض مفاهيم التداولية ويغزوها في عقر دارها، وقد بدأ كلامه بجواز حذف الصفة لوجود دليل على المحذف هو الحال وتنغيم المتكلم، ولاحظ قيمة تنغيم المتكلم في إعطاء الكلام المعنى غير المنطوق، وقد سمَّى هذا بمطل الحروف في قوله (التطويل والتطريح ونحوها) وفرق بين حالات القول؛ ففي حالة:

أ) المدح: يستعين المتكلم بوسائل تصنع معنى المدح هي: التنغيم؛ فيزيد المتكلم في قوة اللفظ (الله) وتمطيط اللام وتطويل الصوت بها عليه، أي: بالتنغيم والنبر على اللام؛ وهي من الفونيمات فوق التركيبية/ التطريزية، هذا ما يقصده بـــ (تمكن الصوت بكلمة إنسان)، أي: بالنبر عليها وتفخيمها، فيصبح المعنى الناتج عن تنغيم كلمة (رجل) أنه رجل فاضل شجاع كريم سمح جواد، بلا ملامح أوإيماءة وجهية دليل على الجدية والحزم.

ب) الذم: أما في حالة الذم فقد أضاف إليها عنصرًا تداوليًّا، وهو ملامح الوجه في قوله (تَزْوِى وجهَك وتقطبه)؛ فتعطى معنى لئيم وبخيل، إذن ملامح الوجه عند ابن جني تعطى العبارة معنى تداوليًّا غير منطوق؛ رغم أن المتكلم لم يذكر هذا في كلامه، فالعناصر التداولية التي في العبارة نقلت معنى غير منطوق من المتكلم إلى السامع.

ج) الحديث العادي: عندما يخلو كلام المرء من العناصر التداولية كالتنغيم وملامح الوجه فإن هذا يلقي على عاتق المتلقي مهمة تأويل الكلام ومحاولة فهمه وحده، وهذا يعد عند ابن جني عبءً يلقيه المتكلم على المتلقي وهو جور في التكليف أي تكليف المتلقي بالقيام بهذا؛ أي مهمة تأويل الكلام دون هاديات فيه تمكنه من فهمه؛ بل عدَّ هذا من لغو الحديث.

أما المثال الذي ذكره على النوع (ج) في قوله: (لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد) فهو حكم يصدره الرسول صلى الله عليه وسلم، ومعنى حكم أنه خلا من المعاني التداولية الانفعالية، لهذا جاز أن نؤوله كما فعل ابن جني عندم أوله قائلًا: (أي لا صلاة كاملة أو فاضلة) أي في إطار لفظه المنطوق بلا أي ملامح، فهو مجرد منها.

د) إدراك الرجل لدور الفهم الخاص بالمتلقي: فمن عظمة كلام ابن جني قوله: (وأنت تحس هذا بنفسك إذا تأملته)، أي: أن معنى القول يصل إليك عبر الوسائل التداولية السابقة، وعليك أن تقوم بواسطة إدراكك الداخلي لهذا القول؛ فتفهم ما لم ينطقه وتأوله، بما يعني أننا نقوم بعملية تأمل للقول الذي نسمعه وما ذكرته العبارة من المعاني التي تشير إليها، وما ينتج منها بعد التفكير فيها وتأملها، هذا الأمر أساس التأويل الذي يقوم على التفكير فيما يقال؛ مما يؤدي إلى استنتاج واستبطان وتأويل وفهم ما فيها من المعاني المنطوقة وغير المنطوقة، وهذه كلها من عناصر التداولية لا محالة.

لهذا أرجو من دارسي النحو العربي إعادة النظر إلى نحو القدماء وبحثه في إطار مناهج المعاصرين ونظرياتهم لإدراك ما قدمه النحاة لنا؛ كي نفهم اللغة ونحوها بصورة أكبر، لهذا أقول لهم: هلموا علماء التداولية العرب بإعادة النظر إلى كلام عالمكم العربي الكبير (ابن جني)، وهو يشير إلى عناصر تداولية لم نكن نتصور أن نجدها عنده مثل هذه العبارة التي تشير إلى مدى إدراك الرجل لملامح الوجه ومعانيها، وتأثيرها على فهم المعنى وتوجيهه وتأويله عندما يقول: (تزوى وجهك وتقطبه)، أليست هذه العبارة من إنجازاتكم وإبداعاتكم يا أهل التداولية !! ألا يستحق هذا القول وقفة تأمل وفهم لها ؟!!

أمثلة من العربية المعاصرة (أمثلة عامية حياتية) :

نذكر بعض الأمثلة التي تمر بنا جميعا في حياتنا اليومية مما يُقْنع القارئ بالفكرة؛ وهي تداولية النحو استنادًا إلى قول ابن جني: "وذلك أنك تحس في كلام القائل لذلك من التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله: طويل أو نحو ذلك، وأنت تحّس هذا بنفسك إذا تأملته" (١).

إنك تحس هذه المعاني غير المنطوقة من تنغيم وتلميح المتكلم؛ لهذا يجب أن تدرك وتتأمل كلامه، مثل: التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم ومط بعض حروف الكلمة والتنغيم والنبر علي بعض حروفها وملامح وجهه كالإنزواء والتقطيب، فعليك أن يفهم هذا كله بنفسك، وكلمة (نفسك) أعطت معنى تداوليًّا، وهو احترام الرأى

(١) الخصائص : لابن جني، تحقيق محمد علي النجار، الهيئة المصرية للكتاب ،١٩٨٨م ،٣٧٢/٢ ــ٣٧٣

الآخر الخاص بهذا الشخص وتأمله وتأويله لكلام المتكلم، فربما يختلف عن تقديري أنا وفهمي أنا، لهذا الكلام وتلميحاته، فهو تفسير وتأويل واستنتاج واستبطان خاص بكل شخص، كل هذه المصطلحات هي مفاهيم تداولية، نادت بها على ألسن علمائها، كما ذكرنا آنفًا.

مثال (١) :

جاءني أحد مَن أرأسهم في عملي، وطلب مني قضاء أمر له في إطار عملنا؛ فقلت له: لن أنجز لك هذا الأمر، فضحكَ وذهب، وفعلتُ أنا عكس ذلك، وأنجزتُ هذا الأمر، وعندما تقابلنا سألته: لماذا ضحكت عندما قلت لك: لن أنجز لك هذا الأمر، فقال لي: لأنني فهمت من ملامح وجهك وابتسمتك أثناء كلامك لي، أنك ستنجزه.

تعقيب على القصة :

لقد فهم الزميل عكس ما ورد في العبارة؛ على الرغم من معناها الذي يظهر من بنائها النحوي أي رفض إنجاز الأمر، وذلك من ملامح وجهي الذي فهم منه عكس قولي، وهذه الحالة تخالف ما ذكره ابن جني في كلامه، لاختلاف الملمح من تقطيب إلى ابتسامة، فكلاهما ملامح وجهية ومعناهما متضاد، مما أعطى ضد المعنى، فتقطيب الوجه والإنزواء معناه قديمًا وحديثًا عدم الرضى، فجاء معنى ابتسامتي مخالفًا لمعنى ابن جني نتيجة ملامح الوجه المختلفة في الحالتين، من ابتسامة إلى تقطيب وإنزواء.

بل إننا نجد رسولنا الكريم يجعل لنا أجرًا من الله على قيامنا فقط بملمح وجهي، لم ننطق فيه بأي كلمة، وهو قوله صلى الله عليه وسلم (وتبسمك في وجه أخيك صدقة) أي أن ملامح البشاشة في وجه الآخر لنا بها صدقة، مما يبين قيمة ملامح الوجه ودلالتها غير المنطوقة التي تحدث عنها ابن جني آنفا، فلها قيمة دلالية تداولية، بل لها أجر عظيم من الله سبحانه وتعالى؛ لما يحمله هذا الملمح من تقدير واحترام للآخر دون كلمة واحدة، فانظر إلى كرم ربنا سبحانه وتعالى!!

مثال (٢) :

هذه قصة أخرى تبين مدى إدراك الطفل للعناصر التداولية التي تصاحب الحديث معه أكثر من إدراك البالغين؛ ذلك لأن القيم التداولية تسبق لديه القيم اللغوية، بل نكاد نجزم أنه يدرك الاثنين معًا؛ فالتواصل معه يتم عبر هذين المحورين معًا:

عناصر لغوية + عناصر تداولية = إدراك دقيق للمعنى المقصود من القول.

كما أن ما لديه منهما قليل محدود يجعله يتوصل معنا في إطارهما بسهولة بلا تفكير.

(**القصة**) :

لديّ حفيد اسمه عبد الرحمن، عمره ثلاثة أعوام، يزورني كل أسبوع مرة في بيتي، فإذا حضر، أُقْبلتُ عليه، وفتحتُ زراعيي لأحتضنه قائلًا له: (أنا سأضربك)، فإذا سمعتْ أمُه هذا؛ قالت: لماذا ستضربه؟ ماذا فعل؟ أما الطفل فيقبل عليَّ سعيدًا فرحًا ضاحكًا، غير مستمع لقول أمه، ولا يلقي لها بالًا، بل يلقي نفسه في أحضاني؛ ما تفسير هذا تداوليًّا ؟.

تعقيب على القصة :

أولًا: أدرك الحفيد معنى قولي (أنني أداعبه) من العناصر التداولية غير اللغوية التي ترافق قولي: من ابتسامتي له، وفتح زراعيي لاحتضانه، وعناصر عصبية: وهي ما سُجّل بشبكته العصبية من مواقف متكررة لهذا الموقف، حدثت له معي كثيرًا، فهو يفهم مضمونها غير المنطوق، والمقصود منها، ومعناها التداوليِّ أكثر من معناه اللغوي الحرفيّ.

ثانيًا: اكتفت الأم بالمعنى الحرفيِّ للعبارة و لم تنظر إلى معناها التداوليّ، فخافت على ابنها من الضرب؛ فسألت عمَّا فعل ؟ فانظر كيف غيرت التداولية فهمنا لحدث واحد!

قيمة النحو التداولي :

بعدما عرضنا كلام سيبويه وابن جني وجب علينا إعادة النظر إلى النحو العربي في إطار هذا المفهوم التداولي الجديد، فنحاول توظيف هذا المفهوم في دراسة النحو؛ مما يوسع من إدراكنا لمفهوم النحو من علم عقيم ميت إلى علم حيٍّ، يحيا في عقولنا، ونلمسه في حياتنا سواءً كان هذا في النحو القديم أو النحو المعاصر؛ وذلك بإدراج القضايا التداولية فيه كما فعل القدماء، فمن هذه الأبواب (كنماذج تؤكد ما نقول) :

باب النداء :

يحتاج النداء إلى تحديد مكان المنادي (قريبًا دون أداة، بعيدًا قليلًا [الهمزة] بعيدًا جدًا [ياء النداء]، هذا الأمر هو تفاعل بين النحو بقواعده وأدواته مع تداولية الحدث؛

بعيدًا عن النحو بقواعده، بل إن النحو يأتي بقواعده بعد إدراك العناصر التداولية الخاصة بالحدث، فأنا أحدد مكاني ممن أنادي عليه أولًا قبل النداء، ثم يأتي النحو ليحدد لي الأداة التي استعملها في النداء، هذه حقيقة باب النداء التداولية، وبيان سبب تعدد أداة النداء، فهي تقوم على عناصر تداولية، هي تحديد مكان المنادى أولًا، ثم الأداة ثانيًا.

باب الندبة :

يبين المدُّ الذي في أداة الندبة مدى الحزن والخيبة التي أصابت من يندب، ويمكن إدراك هذا من هذه الآيات التي وردت في قوله تعالى: **﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧)﴾** [القلم] وقوله: **﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧)﴾** [الواقعة]، إذا نظرنا إلى هذه الكلمات في ضوء النظرية التداولية لأصبح لها مفهوم نحوي تداولي جديد، فانظر إلى نهايتها؛ ستجد أنها جميعًا جاءت من المقطع الرابع: ص ح ح ص، الذي يعطى القارئ فرصة للتعبير عن شدة الحزن وعن الخيبة التي لحقت قائلها؛ وذلك بإشباع المد الذي في وسط المقطع؛ مما يظهر شدة حزن هؤلاء القوم في مواقف مختلفة: (محرومون/ لمغرمون/ محرومون) فجميع الكلمات تنتهى بالمقطع {مون} (ص ح ح ص) وهذا المقطع يخلق لدينا الإحساس بالحصرة والندامة على ما سلف، وهذه العبارة الأخيرة قالها منذ قليل ابن جني: {وذلك أنك تحّس في كلام القائل لذلك من التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله: طويل أو نحو ذلك، وأنت تحّس هذا بنفسك إذا تأملته.} إذن يمكن أن نفهم (قياسًا على ما قاله ابن جني) أن تطويل المقطع (ص ح ح ص) والتطويح والتطريح والتنغيم والنبر والتفخيم الذي يصاحب المقطح (مون) فيعطي معنى الجزن والخيبة والندم على ما فات، إنها تدخل ضمن معاني الندبة، مما يؤكد صحة قول التداولية من ضرورة ملاحظة التنغيم الذي تتضمنه الكلمة؛ لأن له دلالة تداولية تواصلية، بما بنقله لنا من مضامين ومفاهيم لا يمكن أن ندركها أو نفهما إذا نظرنا إلى العبارة نفسها مكتوبة دون تداولها ملفوظة .

انظر إلى مدى ما يمكن أن نجنيه عند إعادة النظر إلى النحو في ضوء هذين البابين فقط، فماذا لو قمنا – قياسًا على ما سبق – بإعادة النظر إلى أبواب النحو العربي كلها ؟!!.

في حالات المرضية :

ويمكننا ملاحظة هذا الجانب وأثره على تواصلنا معًا من خلال ملاحظته لدى المرضى عند بنائهم لجملهم، يقول أوبلر عن سلوكهم في هذا الجانب التركيبي: "يبدو أن المرضى المصابين بآفات في النصف الأيمن من المخ أقل مرونة من الأسوياء في إعطاء الجمل خصائص بنيوية ... فإذا أردنا فهم معنى جملة مثل: سمعه يصرخ من الغرفة، على سبيل المثال، كان من الضروري الإحاطة بكلا الاحتمالين: أما الأول فيفيد (أن من سمع الصراخ كان في الغرفة)، وأما الاحتمال الثاني فيفيد أن (من يصرخ كان في الغرفة) لكن المرضى الذين فحصهم شنايدرمن وسادي لم يتمكنوا من تحديد هذين الاحتمالين"[(١)].

هذا اللبس في العبارة هنا ليس بسبب الجانب التركيبي، بل هو – فيما أرى – بسبب شيء آخر هو ضعف القدرة التداولية لدى هذا الفرد نتيجة إصابة النصف الأيمن من مخه فهو لا يستطيع فهم :

١ – قصد المتكلم من العبارة: لعدم قدرته على تصور احتمالات متعددة لمعناها.

٢ – الافتراض المسبق: عدم معرفته بالأحداث السابقة للعبارة لا يفهمه معناها.

٣ – الإشاريات: عدم معرفة لمرجعيات إشاراتها يوقعه بمتاهة تعدد احتمالات المعنى.

٤ –الاستلزام الحواري: عدم إدراكه أدبيات الحوار جعله يخلط في مستوى الخاطبين.

٥ – الأفعال الكلام: تعني إدراك معنى الكلام وتأثيره على متلقيه، فإذا ضاع دمَّرَ معناه.

لو فقد مريض التداولية هذه الأشياء، أو القدرات، فإن هذا يؤثر على فهمه لأي جملة تقال أمامه، بل يجعله يتيه في بحر تعدد احتمالات معنى الجملة الواحدة. أما ما قاله أوبلر(أنه أقل مرونة في إعطاء الخصائص البنيوية)، أي الخصائص التركيبية للجملة، فيقصد أنه يعطي لمعنى الجملة احتمالًا واحدًا، لأنه لا يملك مرونة تمكنه من افتراض احتمالات أخرى لمعنى الجملة، أي يجمد عند معنى واحد بلا مرونة، كما قال أوبلر.

ولكن على الرغم من هذا فإن الأمر يحدث لدى الأسوياء أيضًا. لأن منطوق الجملة يُعْطي الاحتمالين معًا، وقد مثَّل لها تشومسكي بهذه الجملة: (كان عقابُ عليٍّ

(١) اللغة والدماغ: ١٠٩

رادعا) فلا ندري، هل عليٌّ قام بعقاب شخص ما ؟ أم أن عليًّا هو الذي عُوقِب. لهذا لجأ إلى مصطلحي: (البنية العميقة) و(البنية السطحية)؛ ليفسر هذا اللبس. فرأى أن البناء الصحيح للجملة وما يريده المتكلم كامنٌ بالبنية العميقة لعقل المتكلم، وأن ما يظهر في البنية السطحية هو كلامه المنطوق فقط، مما يفرض علينا احتمالين للمعنى.

رابعًا: المستوى التداولي التداولي :

- **تعريف المستوى التداوليّ :**

المستوى التداولي هو المستوى التواصلي،أي: أنه المستوى الذي يحقق التواصل بشكل عام، فهو قدرة مخية في النصف الأيمن تحقق عملية الإدراك الأعلى الذى يتجاوز المعنى الحرفي للعبارات، بل يتجاوز أيضًا الإدراكيات الظاهرة أمامنا. فإن تركنا اللغة جانبًا ونظرنا لما هو أكبر (المدركات بشكل عام: المسموعة والمنظورة) مما نراهبالعين ويفهمه العقل، وإن لم ينطقه لساننا، فإننا ندركه ونفهمه بعملية مخية، تتم في نصف المخ الأيمن.

أمثلة:

١- الضيف الذي يسأل صاحب الدار: هل هذا الكأس به ماء ؟ فأدرك صاحب الدار أن ضيفه يريد الشرب، فيأتي له بالماء. لقد فسرت التداولية الحدث، بالرجوع إلى مبدأ تداولي لليتش هو (م خ) وسماه التأدب. لكننا في إطار البنية العصبية نراه شيئًا آخر، هو استعمال العقل للتواصل مع الآخر، بتوظيف اللغة للوصول للغرض المراد دون النطق به. وهي قدرة مخية على خلق عبارات تعطي معنى مقصودًا غير المعنى المنطوق.

٢- وقولي: رأيتُ أسدًا في الحمام.أكون قد وظفت اللغة في خلق عبارةتحمل دلالة غير منطوقة، إنني أريد القول: إن رجلًا قويًّا كالأسد بالحمام. لقد وظفت اللغة في التعبير عن معنى لم أنطق به، أن رجلًا قويًا في الحمام. إنه خلق معنى مجازي في العبارة.

٣- من يشير بإصبعه لأعلى وهو يتكلم عن رجل عظيم. إنها إشارة إلى المكانة العظيمة للرجل. إنها التداولية بحق تقول: هذا الرجل عظيم. وإن لم تنطق بهذه الكلمة.

فإذا أصيب المتلقيلهذهالأشياء (المنطوقةأوالمنظورة) بآفة بالنصف الأيمن من مخه فإنه لن يفهم شيئًا، إنه لن يتواصل معنا، لأنه مريض تداوليًّا أي: تواصليًّا. فالجزء المختص

بتفسير هذه الأمور (النصف الأيمن من المخ) مصاب، لهذا سمِّيتُ هذا المستوى (**المستوى التداولي التداولي**)، فهو مستوى يتحقق تواصلنا بوسائل تداولية لغوية وغير لغوية. إنه أمر تداولي، يقوم على استخدام وسائل تداولية بغرض التواصل، ومنها اللغة.

أ) في حالة المرض :

يقول أوبلر عن هذه الظاهرة التداولية في حالة المرض: "تتعطل الظواهر البرجماتية بطرق قابلة للفصل عند المصابين بآفات في النصف الأيمن من الدماغ وعند مرضى العته. فالقدرة على إدراك العبارات المجازية (بما في ذلك الهزل، أو العبارات التي تنطوي على عمليات استنتاج) تتعطل، في حين لا تشكل العبارات بمعناها الحرفي أية مشكلة بالنسبة إلى هؤلاء. فقدرة الأسوياءعلى النقيض من هؤلاء المرضى على إدراك معنى الجمل التي تنطوي على لبس نحوي وإدراك الجناس اللفظي في الكلمات المنطوقة توحي بإمكانية الفصل بين المهارات اللغوية هذه"[1].

يرى أوبلر أن من الممكن الفصل بين الظواهر البراجماتية لدى المصابين بآفات في النصف الأيمن من المخ. وذلك بتحديد ما يقدر عليه هؤلاء المرضى، وما لايقدرن عليه من أشياء تحقق التواصل بينهم وبين مجتمعهم، فقدرتهم وعدم قدرتهم تكون في أنهم:

- يقدرون على فهم المعنى الحرفي للعبارات، فلا تشكل لهم أية مشكلة.
- لا يقدرون على إدراك العبارة المجازية ومعانيها المتعددة كالجناس اللفظي وغيره.

بماذا نفسر هذه الأشياء ؟:

إن المصاب في النصف الأيمن من المخ يفقد القدرة على فهم المعاني التي فوق المعنى الحرفي للعبارات، أي: فهم اللغة في مستواها الأعلى. لهذا فهو بعد أن يفهم المعنى الحرفي للعبارة يتوقف مخه عن العمل عند هذه المرحلة، فلا يكمل عملية إدراك سائرالمعاني المتضمنة في العبارة، فهي معاني تداولية، يختص بها النصف الأيمن المريض من المخ، فهي تحتاج إلى عمل هذا النصف المريض. فلا يدرك المعاني الأكثر عمقًا، مثل العبارة المجازية وغيرها مما يحقق له تواصلًا جيدًا مع الآخر، فهذا النصف من المخ

(١) اللغة والدماغ: ٢٠٣

مريض. وهذا ما يعنيه أوبلر بالمستوى التداولي ، فهو مستوى أعلى في التواصل باللغة وغيرها.

ب) في حالة الأسوياء :

الأسوياء لديهم قدرة على إدراك معنى العبارة يتجاوز المعنى الحرفي لها، ويبدعون من المعانيما تفوق معناها الحرفي،إن لديهم قدرة كامنة في أمخاخهم تجعلهم يدركون معنى العبارة وفهمها وتجاز معناها الحرفيّ،إنهم يدركون معناها ولو كان بها خطأ لغويي، نحو:

١- القدرة على تفسير اللبس النحوي :

أي الجمل النحوية التي تعطي أكثر من احتمال،بما يعني فهم الأسوياء الدقيق للعبارة، حتى لو أخطأ المتكلم في جملته نحويًّا،إنهم قادرون على تفسيرها وفهمها بسهولة، فعندما يتكلم مريض تداولي أمامنا فإننا نجمع جمله وعباراته غير المفهومة، ونخلق منها جملا أخرى جيدة، نعرضها عليه قائلين: هل أنت تقصد كذا ؟ فيقول: نعم.

مثال :

لنظر إلى هذه الجمل التي تحمل لبسًا نحويًّا؛ يؤثر علي فهمنا لمعناها، وهي:

أ) شربت ماء البحر.جملة لسيبويه مقبولة نحويًّا ومرفوضة دلاليًّا، فهي لا تمثل واقعًا.

ب) وفي العامية: أكلنا الهوى. عبارة تحمل أكثر من معنى بسبب كلمة (الهوى).

ج) كان عقاب عليٍ رادعًا. تمثِّل البنية العميقة والبنية السطحية عند تشومسكي.

كيف يفهم كل من الأسوياء ومرضى النصف الأيمن هذه الجمل متعددة المعنى ؟.

٢- فهم الأسوياء للعبارات :

لو وجهنا العبارات إلى الأسوياء، وسألناهم ماذا فهمتم منها ؟ قالوا عن كل عبارة: (**شربت ماء البحر**).

أ) مبالغة شديدة لا يفعلها أحد، وتعني قدرته على فعل المحال/ إنها مرفوضة واقعيًا (**أكلنا الهوى**).

ب) لم نحصل من الأمر على منفعة كأننا أكل الهواء/ وتعني: ضيعنا الحب (الهوى) (**كان عقاب عليٍّ رادعًا**).

ج) عليٌّ عاقب شخصًا بشدة، وقد يكون شخصٌ آخر عاقب عليًّا بشدة.

ماذا يفعل الأسوياء للفصل في هذا اللبس؟ إنهم يلتزمون بالسياق اللفظي أو الموقف.

٣- فهم المرضى للعبارات :

إذا انظرنا إلى مفهوم العبارات لدى مرضى التداولية فسنرى لهم رأيًّا مغايرًا، فيقولون:

أ) الجملة الأولى مرفوضة لديهم لاستحالة حدوثها، فينظرون لك بدهشة واستنكار.

ب) المعنى الحرفي للجملة يجعلها مرفوضة لديهم، فالهواء لا يؤكل كمعنى حرفي لها.

ج) ما فهموه أن عليًّا عاقب شخصًا عقابًا شديدًا، أما المعنى الثاني فلا يصلهم.

- **ثانيًا: إدراك الجناس اللفظي :**

تلك قدرة أخرى لدى الأسوياء، هي قدرتهم على الجمع بين المعاني المختلفة للكلمة الواحدة، أي: فهمهم لها سواءً كان الجناس تامًا أو ناقصًا، بما يعني أنهم يضعون في ذات السياق المعاني المختلفة المحتملة التي يصنعها السياق، إننا هنا تجاوزنا المعنى الحرفي للعبارة، فانطلق النصف الأيمن من المخ الصحيح ليصنع تصورات لم يذكرها النص صراحة. وهنا يتضح معني المستوى التداولي التداولي في الإشارة إلى قدرة النصف الأيمن من المخ علي خلق المعاني الكثيرة للعبارة الواحدة، وذلك من خلال عناصر غير منطوقة في العبارة؛ ربما واردة ضمنًا فيها أي فهمت من ألفاظ النص، فقد فهمت دون النطق بها؛ كهذه العبارة الإتباعية: **لا يملك حلوبة ولا ركوبة**، لقد حملت العبارة المنطوقة معنى غير منطوق،فقد فهم منها أن هذا الشخص فقير؛فهل ورد في العبارة هذا اللفظ (فقير) ؟!.

ويمكننا أننتبين وجود هذه القدرة لدى الأسوياء من خلال الحالات المرضية ــ كما قال سيرل ــ إن هذه القدرة التأويلية للنص المنطوق أو المكتوب التي لدى الأسوياء متوقفة لدى المرضى التداوليين.

مثال :

قال تعالى:﴿**وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ**﴾ [سورة الروم: ٥٥] هنا يصل المعنى الحرفي: لكلمتي ساعة في الآية الكريمة إلى هؤلاء المرضى

على أنها تعني الوقت؛ فيسأل المريض: لماذا كرر الحق سبحانه وتعالى كلمة ساعة مرتين في الآية ؟ وكيف تنهضأو تقف الساعة ؟ ويصل إلى الأسوياء أن المعنى الحرفي: ساعة الوقت، والمعنى غير الحرفي: يوم القيامة.

الخلاصة :

ويلخص أوبلر القضية التداولية في هذه الكلمات: "إن فشل القدرات البراجماتية مرده إلى تأذي النصف الأيمن من المخ وليس الأيسر. ويشمل هذه القدرات استيعاب الفكاهة، والتهكم، والتضمين، ومناسبة الخطاب للمقام، والمعرفة بالمحادثة، وما شابه ذلك"[(١)].

(١) اللغة والدماغ: ١١٩

المراجع والمصادر

١ ــ أي نوع من المخلوقات نحن؟: نعوم تشومسكي تر/ حمزة المزيني، دار كنوز المعرفة الأردن، ٢٠١٧م.

٢ــ آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: د محمود نحلة، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١، ٢٠١١م.

٢ ــ البراجماتية: وليم جيمس، تر/ محمد على العريان، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٨م.

٣ــ البيان والتبيين: لأبي عمرو الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، ١٩٤٨.

٣ــ التداولية: جورج يول، تر/ د. قصي العتابي، دار الأمان، الرباط، ط١، ٢٠١٠م.

٤ــ التداولية اليوم علم جديد في التواصل: آن روبول وجاك موشلار، تر/ سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، المنظمة العربية للترجمة، ط١/٢٠٠٣م.

٥ــ التداولية من أوستن إلى غوفمان: فيليب بلانشيه، تر/ صابر الحباشة، دار الحوار سوريا، ــ ٢٠٠٧م

٦ــ الخصائص: لابن جني.تحقيق محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠م

٧ ــ دليل راوتليدج لعلم السيمياء واللغويات: بول كوبلي. تر/ هبة شندب، المنظمة العربية للترجمة، بيروت ٢٠١٦م

٨ ــ العقل واللغة والمجتمع الفلسفة في العالم الواقعي: جون سيرل، تر/ صلاح إسماعيل، المركز القومي للترجمة، ط١، ٢٠١١م

٩ــ علم اللغة الإدراكي نظريات ونماذج ومناهج: جيرت ريكهايت وآخرون، تر/ سعيد حسن بحيري، دار زهراء الشرق، القاهرة، ط١، ٢٠١٧م

١٠ــ علم اللغة البراجماتي الأسس. التطبيقات. المشكلات: بيتر ارنست، تر/ سعيد البحيري، زهراء الشرق، ٢٠١٤م

١١ــ في التداولية المعاصرة والتواصل: أ.مولز وآخرون. تر/ محمد نظيف، دار أفريقيا الشرق. المغرب، ط١، ٢٠١٤م

١٢ ــ قاموس العلوم المعرفية: غي تبرغيان وآخرون، تر/ جمال شحيد، بيروت، ط١، ٢٠١٣م.

١٣ــ اللغة والدماغ: لورين أوبلر وكريس جيرلو، تر/ محمد زياد يحيى كبة، دار جامعة الملك سعود، ط١، ٢٠٠٨م

١٤ ــ مبادئ التداولية: جيوفري ليتش، تر/عبد القادر قنيني، دار أفريقيا الشرق ، المغرب، ٢٠١٣م

١٥ــ مدخل إلى علم اللغة الإدراكي: مونيكا شفارتس، تر/ سعيد بحيري، ط١، مكتبة زهراء الشرق،٢٠١٥م
١٦ــ المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم: لأبي منصور الجواليقي، تحقيق أحمد شاكر، دار الكتب والوثائق القومية،٢٠١٢م
١٧ــ المعرفة والمخ والوعي: مقدمة لعلم الأعصاب المعرفي: برنارد ج.بارز؛ نيكول م. جيج، تر/ هشام حنفي العسلي، دار جامعة الملك سعود للنشر،ط١، ٢٠١٨م

المراجع الأجنبية

1- John R.Searle, Searle, John R ;in Samuel Guttenplan (ed), A Companion to the Philosophy of mind, Oxford: Blckwell 1998 p544
2- John R.Searle, Intentionality: An Essay in the Philosophy of Mind, Cambirdge: Cambridge University Press, 1958, p.vii.

فهرس الموضوعات